الإمام الحسين عليه السلام

شمس لن تغيب

طبعة منقحة ومزيدة

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الإمامُ الحُسَيْنُ عليه السلام
شمسٌ لن تَغيب

بقلم
الشيخ جميل الربيعي


بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم:

تدول الدول، وتفنى الحضارات أو تدوم، وثورة أبي الأحرار أحقّ بالبقاء، وأجدر بالخلود من كلّ كائن حي على هذا الكوكب الذي نعيش عليه وهي ليست ملكاً للمسلمين، وإنّما هي ملك لجميع الناس على اختلاف قومياتهم ولغاتهم كالشمس التي هي للناس جميعاً.

إنَّ ثورةَ الإمام الحسين عليه السلام بفصولها الخالدة في دنيا الأحزان قد استهدفتْ تحريرَ الإنسان فكراً، وسلوكاً، وإرادةً، وتنمية قدراته وملكاته بالإشراف والوعي؛ ليكون خليةً صالحةً لمجتمعٍ سليمٍ ناهضٍ عاملٍ بالحق، مطبقٍ للعدل حسب ما يريده الله تعالى لابن آدم أن لا يتلوث بمآثم الحياة وموبقاتها.

إنَّ ثورةَ أبي الأحرار ستبقى حيةً خالدةً حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها؛ لأنَّها من مقومات الفكر الإسلامي القائم على العدل الخالص، والحقّ المحض، ومهما حاول الجناةُ ولصوصُ المجتمع النيلَ منها، وإطفاءَ نورِها فإنَّ سعيَهم سرابٌ، وجهودَهم هباءٌ، وهي لا تزال النورَ المشرقَ في هذا الشرق العربي تضيء للناس طريقَ الكرامةِ والحريةِ، وتنادي بفجرٍ جديدٍ للإنسانية جمعاء.

لقد هام الأحرارُ في نهضة أبي الشهداء، واتخذوها قاعدةً للإصلاح

الاجتماعي، وقد ألفوا فيها مئات الكتب وآلاف المقالات، وهي التي لا تزال حافلةً بكنوزٍ من مقوّمات الحياة، وأرصدتها الفكرية والاجتماعية، وممن أَلَّفَ وأجادَ وأحسنَ وأبدعَ فضيلةُ العالم الجليل المجاهد الشيخ جميل مال الله الربيعي، فقد تناول في كتابه «**الإمام الحسين عليه السلام شمس لن تغيب**» الكثيرَ من بنودها، وحلّل بعض فصولِها، وإنَّا نبارك له هذا الجهدَ الخلاق، ونصافحه مع الدعاء، متمنين له أن يتحف القراء بالكثير من بحوثه الممتعة، والتوفيق بيده تعالى يهبه للصالحين من عباده.

الشيخ باقر شريف القرشي
مكتبة الإمام الحسن العامة
في النجف الأشرف
١٣/ج١/١٤٢٦هـ

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

من الحقائق التي يجب أن نعيها بدقّةٍ، وعمقٍ، وشمولٍ أنَّ ثورةَ الحسين عليه السلام جسّدت الإسلام بكل أبعادِه الروحيةِ، والفكريةِ، والأخلاقيةِ، والسياسيةِ؛ ولهذا نقول: لا يمكن لمن لم يفهم الإسلامَ بكلّ أبعادِه أنَّه حركةٌ إلهيةٌ لتغييرِ الواقعِ الفاسدِ إلى واقعٍ سليمٍ لا يمكن أن يفهم هذه الثورة بكلّ أبعادِها فهي ثورةُ إيمانٍ، وجهادٍ، ومحنةٍ، وبلاءٍ، وصبرٍ، وثباتٍ، وتوجهٍ خالصٍ إلى الله، وتضحيةٍ، وشهادةٍ، أوجدت تياراً رسالياً ثورياً تحرّرياً رافضاً لكلّ أشكالِ الطاغوت، ومتفجّراً على طول خطّ الرسالة إلى يوم القيامة... ومن هنا واجهت هذه الثورةُ مقاومةً شديدةً بعد استشهادِ مُفَجِّرِها كما واجه هو سلام الله عليه تلك المقاومة الرهيبة.

لقد أرعبت هذه الثورةُ الطواغيتَ في العصر الأموي والعباسي وما بعدهما إلى اليوم؛ ولهذا لا تزال تواجه الحرب الإعلامية، والتصفيات الجسدية لروّادِها ودعاتِها، ومقيمي شعائرِها؛ لأنَّ الحسينَ عليه السلام ثورةٌ في قبره.

ولهذا رأينا كيف استهدف طواغيتُ العصور السالفة، بل وإلى اليوم قبر الحسين عليه السلام بالهدمِ والمنعِ من زيارتِه عليه السلام، والضربِ للزائرين، وتخويفهم

بالسجن، والقتل، وقطع الأيدي، ومصادرةِ الأموال، بل وإزهاقِ النفوس...

والسرُّ في ذلك أنَّ الحسينَ عليه السلام ملهمُ الثوارِ، ومعلمُ الأجيالِ، وسفينةُ النجاة، فهو ثورةٌ تتحدى الظلم والظالمين أين ما كانوا لا تتوقف عند حدودٍ زمانيةٍ، أو مكانيةٍ؛ ولذلك وقعت ثورةُ الحسين عليه السلام بين محاولتين: محاولة المحو والتطميس والإلغاء؛ للقضاء عليها ومحوها من ذاكرة التأريخ كما حاول بنو أمية وبنو العباس والوهابية وقوى الكفر العالمي بمختلف وسائلهم.

والمحاولة الأخطر: هي محاولة التشويه، والتزييف، والتحريف لحقيقة هذه الثورة، وحرفها عن مسارها الذي أراده الله لها لا سيما في إقامة مجالس العزاء الحسينية؛ لجعلها عاداتٍ وتقاليد وأعرافاً (**فلكلوريةً**) تقام بمناسبة عاشوراء بعيدةً عن أهدافِها ونتائجِها؛ ولهذا رأينا كيف حاولت بعضُ الأحزابِ العلمانيةِ في العراق أن تدسَّ رأسَها فيها وتتبنى إقامتَها؛ لتخدعَ الجمهورَ الحسيني، وتبعدَه عن أهدافِ الثورةِ التي ضحّى من أجلِها سيدُ الشهداء عليه السلام.

وأخطر محاولة لتزييف ثورة الحسين عليه السلام ما قامت به الاستخباراتُ العالمية بوضع مخططاتٍ ضخمةٍ في مؤتمرها الذي عُقِدَ في سنة ١٩٨٣م، لدراسة كيفية مقاومة المدّ الإسلامي، وقد حضرَ وفدٌ كبيرٌ من جهاز المخابرات البريطانية (MIX) في المؤتمر، وذلك لخبرة بريطانيا الكبيرة في المنطقة، وموقفها من الشيعة، ومواقف الشيعة منها لمدة من الزمن.

وتوصلوا في مؤتمرهم إلى ما يأتي:

«إنَّ النظريةَ الإسلامية في الحكم أصبحت حقيقةً واقعيةً، وهي الأساس للساسة الإسلاميين، وإنَّ الشيعةَ بالذات يقتدون بسبط الرسول محمد، الإمام

الحسين، في مكافحة الظلم، والذي ثار قبل ألف وأربعمائة عام، وحتى اليوم تقام المواكب والمآتم بمناسبة استشهادِه وبطولاتِه في كربلاء لإحيائِها بقوةٍ من جديد».

ثم تابع تقريرُ المؤتمر قائلاً: «وعليه وجدْنا أنَّ المواجهةَ المباشرة للشيعة فاشلةٌ؛ لأنَّها تقوي شوكتَهم، وتضاعفُ من مواجهتِهم، وعليه أيضاً يجب اتّباعُ السياسة البريطانية "**فرق تسد**"، وإشاعةُ التفرقة بين الشيعةِ أنفسِهم، وكذلك بينهم وبين السنة».

أما فيما يخص مواكبُ العزاء الحسيني والشعائرُ الحسينية لدى الشيعة فيؤكد الدكتور **مايكل برانت** المساعد السابق لرئيس (CIA) أنَّ: «حضور هذا الرقم الهائل من الشيعة في تلك المجالس والمواكب، وتعاطفهم المنقطع النظير مع فاجعة كربلاء هو الذي يزوِّدُهم بالاستعدادِ الدائمِ للوقوفِ ضدّ كل ما يرونه باطلاً، وإن كلَّفَهم حياتَهم. وعليه وجدْنا أنَّ صرفَ ملايين من الدولارات لا لتغيير الخطباء الحسينيين، بل لتغيير عواطف ومواقف جماهيرهم الشيعية لهو خطوة كبيرة يجب إعطاؤها الأولوية.

وفي هذا المجال فإنَّ أساسَ هذه الخطط يتضمن إيجاد شيعة ضعيفي الاعتقاد، يطمحون بالحصول على الماديات وخاصة أولئك الذين لديهم شهرة ولو بسيطة لاستخدامِهم في مراسم العزاء، وتمرير ما نصبوا إليه عن طريقِهم إلى الجمهور، وكذلك تشجيع ودعم الخطباء (قليلي المعرفة)، ومن غير المتحمسين بقوة إلى المبادئ الحسينية، وخاصة الثورة الجهادية منها... وإيجاد صنف من الشيعة مهمته إلقاء تبعة إضعاف الشيعة والتناحر والخلاف -فيما لو فهما ذلك -

على مراجعِهم وشخصياتِهم القيادية، ثم الاعتماد على صنف آخر يخترقُ مجالسَ القرّاء مهمته إضعاف مراسم العزاء، وتصويرها على أنَّها ممارساتٍ يقوم بها الجهلةُ والأوباشُ (ومثل هذه الممارسة موجودة في بعض مواقع الانترنت)، وكذلك تهويل وإعطاء حجم كبير لما يتكلم به بعض الخطباء بأشياء غير معقولة لإحداث البلابل والفوضى داخل الوسط الشيعي»[١].

ونحن إذا تأمّلنا جيّداً في هذا التقرير الذي صدر من مؤتمر رُصِدَ لتنفيذ خططِه على المدى الطويل تسعمائة مليون دولار، ندرك مدى خطورة هذا التخطيط الذي طُبِخَ في أخطر كواليس الاستخبارات العالمية، وما يجب علينا من أخذ الحيطة والحذر والدقة في المواجهة لا سيما في هذا الوقت الذي تكالبَتْ فيه قوى الكفر العالمي جميعاً لإيقاف التيار الإسلامي الذي امتدَّ إلى كل أنحاءِ العالم ، وأصبحَ قوةً مرعبةً للاستكبار العالمي.

وهذه الأبحاثُ المطروحةُ في هذا الكتاب، والتي شملت مختلفَ الجوانب الحسينية تأريخاً، وتحليلاً، وبياناً لأهدافِها، وأساليبِها، وأخلاقياتِها، ونتائجِها هي مجموعةُ محاضراتٍ أعِدَّتْ لمجالس عاشوراء، جمعتُها ونَسَّقْتُها لعلَّها تنفعُ المؤمنين، وتبقى لي ذخراً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢]؛ ولهذا قد يرى القارئ الكريم تكرارَ بعض الأحاديث والنصوص في أكثر من موضوع.

وقد أوضحْتُ فيها أهميةَ الثورة الحسينية، وما تنطوي عليه من دروسٍ وعبرٍ، ومفاهيم، كما بيّنتُ أهميةَ مجالس العزاء الحسيني، ودورها في مختلف

(١) نقلاً عن صحيفة لواء الصدر.

(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩.

الجوانب الاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، وما لها من دورٍ عظيمٍ في طرح الفكر الإسلامي في مختلف الأوساط الاجتماعية، وما واجهته من محاولات لتزييفها وتحريفها.

إنَّ المنبرَ الحسيني مدرسةٌ إلهيّةٌ سيّارةٌ حباها اللهُ تعالى من القدسيةِ، والحبِّ في نفوس الناس ما لم يمتلكْهُ منبرٌ إعلامي آخر في العالم، فهو يجذب الناسَ إليه تلقائياً، وبمختلف طبقاتِهم الاجتماعية، والعلمية، والسياسية... ولهذا ينبغي لمن يتصدّى لإقامة هذا الشعيرة الشريفة سواء كان خطيباً، أو مقيماً لها، أو باذلاً فيها، أو في أيّ صورة من صور المشاركة أن يتخلّقَ بأخلاقِ صاحِبِها، ويرتشفَ من بحرِه الطافح بالقيم والمثل الإنسانية السامية؛ ليعكسَ الوجهَ الناصعَ لثورةِ الحسين عليه السلام ويجعلها منبرَ دعوةٍ للهدى، والتقوى، والرشادِ، ويبذل ما في وسعِه لإقامتِها بصورةٍ تطابقُ أخلاقَ وأهدافَ صاحِبِها صلوات الله عليه وعلى جده وأبيه وأمّه وأخيه والتسعة المعصومين من بنيه.

وأخيراً لا بدّ أن نشير أنَّ هذه الأبحاثَ قد نشرت في بيروت بعنوان «**كربلاء ثورة لا تنتهي**»[1]، ولم أكن قد وضعت هذا العنوان، وإنما غَيَّرَتْهُ دارُ النشر اجتهاداً من عند صاحِبِها، وأما العنوان الأصلي فهو «**الإمام الحسين** عليه السلام **ثورة دائمة**»، أو «**الإمام الحسين** عليه السلام **شمس لن تغيب**»، وفي هذه الطبعة أَعَدْتُ النظرَ فيها من جديدٍ، وأضفتُ لها فصلاً كاملاً تحت عنوان «**مفاهيم من وحي الحسين** عليه السلام».

(١) نشرت باسم (عبد الرحمن الربيعي)، وهو الاسم المستعار الذي كنَّا نكتب به أيام الهجرة خارج العراق خشية من غدر الغادرين.

نسأل الله أن ينفعَ بها المؤمنين.

المؤلف

النجف الأشرف

١٥/صفر/١٤٢٦هـ

الفصل الأول

مَواقِف وَمَواقِع في ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

نحاول في هذا البحث أن نرافق الحسين عليه السلام في حركته من مدينة جدّه صلى الله عليه وآله قاصداً مثواه الأخير الذي وعده الله إيّاه، وأعدّه له، ولنقرأ ما فيه من مواقف رساليةٍ جسّدت الإسلامَ بكلّ أبعادِه العقائدية، والفكرية، والروحية، والأخلاقية، والسياسية؛ لنستوحي منها الدروسَ والعبرَ، ولنتعلمَ منها كيف نواجه واقعَنا المليء بالمحن، والابتلاءاتِ، والتحدياتِ، ولا سيما محنة حرب الإسلام بالإسلام سواء كان مقصوداً ومخططاً له في دوائر الاستكبار العالمي، أو ناتجاً عن فهمٍ مشوهٍ لحقيقةِ الدين من قبل المتحجرين...

إنَّ النهجَ الحسيني العظيمَ هو خيرُ نهجٍ لمواجهةِ التحدياتِ الصعبةِ لا سيما في عصرنا الذي طغى فيه منطقُ الظفر والناب على منطق العقل والدين... وتغليب المصالح الذاتية على المبادئ الرسالية، فلنرافق الحسينَ عليه السلام من مدينة جدّه صلى الله عليه وآله إلى مثواه الأخير.

ولأجل معرفة الظروف التي صاحبت حركة الحسين عليه السلام لا بدَّ من تمهيد مختصر بمقدار ما يتسع الموضوع.

فبعد أن هلك معاويةُ الذي مثّل أخطرَ مراحل التحدي لإيقاف حركة

الرسالة، والقضاء على الإسلام، كما صرّح هو نفسه[١]، وكانت ولايتُه أعظمَ فتنة واجهتْها الأمةُ الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما أكَّدَ ذلك الإمامُ الحسين عليه السلام في كتابه لمعاوية بقوله: «وإنّي لا أعلم فتنةً أعظم على هذه الأمة من ولايتِك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني، ولأمةِ محمد صلى الله عليه وآله علينا أفضل من أن أجاهدَك، فإن فعلْتُ فإنَّه قربةٌ إلى الله، وإن تركتُه فإنّي أستغفرُ الله لذنبي، وأسألُه توفيقَه لإرشادِ أمري»[٢].

ولهذا منذ اعتلى يزيدُ عرشَ الخلافةِ الأمويةِ راحَ ينفّذ المخطط الذي وضعه معاويةُ في حياته له؛ للقضاء على الحسين عليه السلام الذي عجز عن قتله كما قتل الحسن عليه السلام، فهو يعلم أنَّ الحسينَ عليه السلام لا يمكن أن يبايع يزيد، ولا بدّ أن يخرج عليه؛ ولذلك ادّخر له وصية مهمة عند مشاوره سَرْجون؛ ليقضي على التحركِ الحسيني، يقول ابنُ الأثير: «فلما اجتمعتْ الكتبُ عند يزيد دعا سَرْجون مولى معاوية، فأقرأه الكتب، واستشاره فيمن يوليه الكوفة، وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد، فقال له سَرْجون: أرأيت لو نُشر لك معاويةُ كنتَ تأخذ برأيه؟

(١) قال المطرّفُ بن المغيرة بن شعبة: «دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدَّثُ معه، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية وعقلَه، ويعجبُ بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً، فانتظرته ساعة، وظننت أنَّه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بُنَيَّ، جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثِهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلتُ له وقد خلوتُ به: إنَّك قد بلغت سناً يا أميرَ المؤمنين، فلو أظهرْتَ عدلاً، وبسطْتَ خيراً فإنَّك قد كبرت، ولو نظرْتَ إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلْتَ أرحامَهم فو الله ما عندهم اليومَ شيءٌ تخافه، وإنَّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أيُّ ذكر أرجو بقاءه! مَلَكَ أخو تَيْم فعدَل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذكرُه، إلا أن يقول قائلٌ: أبو بكر؛ ثم مَلَكَ أخو عديّ، فاجتهد وشمَّر عشر سنين؛ فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذكرُه، إلا أن يقول قائل: عمر، وإنَّ ابنَ أبي كبشة لَيُصاح به كلَّ يوم خمس مرات: «أشهد أنَّ محمداً رسولُ الله»، فأيُّ عملٍ يبقى؟ وأيُّ ذكرٍ يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفناً» شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٢٩/٥-١٣٠.

(٢) السيد الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٩٤/١٨.

قال: نعم، قال: فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة، فقال: هذا رأيُ معاوية، ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه، وجمعَ الكوفةَ والبصرةَ لعبيد الله، وكتب إليه بعهدِه، وسيَّره إليه مع مسلم بن عمرو الباهلي والد قُتَيبة، فأمره بطلب مسلم بن عقيل، وبقتلِه أو نفيه»[١].

وفي روايةٍ أخرى أنّ سَرْجون قال له: «هذا عهد معاوية إليه بخاتمه، وقد كان ولاه، فلم يمنعني أن أعلِمَك ذلك إلا معرفتي ببغضِك له»، فأنْفَذَه إليه[٢]، وعزل النعمان بن بشير[٣].

فمعاوية كان يخطّط في حياته لإخضاع الحرمين الشريفين ليزيد بعد وفاتِه؛ لأنَّه كان يعلم بأنَّها أقوى الجبهات المعارضة في مكة والمدينة والكوفة؛ ولهذا حاولَ بكلّ جهدِه وما أوتي من مكرٍ، ودهاء، وخديعةٍ؛ لأخذ البيعة ليزيد قبل وفاتِه من هذه الأمصار، (فرأى أن يسافر إلى يثرب؛ ليتولى بنفسِه إقناعَ المعارضين، فإن أبوا أجبرهم على ذلك، واتّجه معاويةُ إلى يثرب في موكبٍ رسمي تحوطه قوةٌ هائلةٌ من الجيش، ولما انتهى إليها استقبلَه أعضاءُ المعارضة فجفاهم وهدّدهم...)[٤].

ولما لم يفلح معاويةُ في أخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير غادرَها إلى مكّة، وهو يفكّر مليّاً بالمسرحية التي يريد إخراجَها، وفرضَها على الوجوه المعارضة له؛ وكان قبل ذلك قد صعدَ المنبرَ في المدينة وخطبَ، وأشار بفضل يزيد وعلمِه، وحلمِه، وشجاعتِه، وحنكتِه.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التأريخ: ٢٢/٤-٢٣.

(٢) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف: ٤٠٧/٥.

(٣) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ١٤٩.

(٤) الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢/ ٢١٨.

فقال: «ووالله لو علمْتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعْتُ له.

فقام الحسينُ عليه السلام فقال: والله لقد تركْتَ من هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً.

فقال معاويةُ: كأنَّك تريدُ نفسَك؟

فقال الحسينُ عليه السلام: نعم، أصلحك الله.

فقال معاويةُ: إذاً أخبرك، أما قولك: خير منه أماً، فلعمري: أمك خيرٌ من أمِّه، ولو لم تكن إلا أنَّها امرأةٌ من قريش لكان لنساء قريش فضلهنّ، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ثم فاطمة في دِينها وسابقتِها، فأمّك لعمر الله خيرٌ من أمِّه، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله، فقضى لأبيه على أبيك.

فقال الحسينُ عليه السلام: حسبك جهلك، آثرْتَ العاجلَ على الآجل.

فقال معاوية: أما ما ذكرت من أنّك خيرٌ من يزيد نفساً، فيزيد والله خيرٌ لأمة محمّد منك.

فقال الحسينُ عليه السلام: هذا هو الإفكُ والزورُ، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللهو خير مني؟!

فقال معاويةُ: مهلاً عن شتمِ ابن عمِّك»[1].

ولما لم يفلح بأخذ البيعة لوقوف الحسين عليه السلام له، وفضح كلّ مخطّطاتِه لجأ إلى أسلوبِ التهديدِ، والوعيدِ، والتصميمِ على الجريمة الكبرى في قتل وجوه المعارضة ضمن مخططٍ يُظْهِرُ للناس أنَّ المعارضين له قد بايعوا، فقد أَمَرَ حَرَسَهُ وشرطَته (أن يُحْضِرُوا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة وهم: الحسين بن علي عليه السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأوصاهم معاوية، فقال: إنّي خارجٌ العشيةَ إلى أهل الشام، فأُخبرهم

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: ٢١١/١.

أنَّ هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا، فإن تكلمَ أحدٌ منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه، فلا ينقضي كلامُه حتى يطير رأسُه، فحذر القوم ذلك، فلما كان العشي، خرج معاويةُ، وخرج معه هؤلاء النفر، وهو يضاحكهم، ويحدثهم، وقد ألبسهم الحلل، فألبس ابنَ عمر حلةً حمراء، وألبس الحسينَ حلةً صفراء، وألبس عبد الله بن عباس حلةً خضراء، وألبس ابن الزبير حلةً يمانية، ثم خرج بينهم، وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم، أي القوم، وأنّهم بايعوا، فقال: يا أهلَ الشام، إنَّ هؤلاء النفر دعاهم أميرُ المؤمنين، فوجدهم واصلين مطيعين، وقد بايعوا وسلّموا، قال ذلك والقوم سكوت، ولم يتكملوا شيئا حذر القتل، فوثب أناس من أهل الشام، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إن كان رابك منهم ريبٌ، فخلّ بيننا وبينهم، حتى نضرب أعناقَهم، فقال معاوية: سبحان الله! ما أحلَّ دماء قريش عندكم يا أهلَ الشام، لا أسمع لهم ذاكراً بسوء، فإنّهم قد بايعوا وسلموا، وارتضوني فرضيت عنهم، رضي الله عنهم)[1].

ورغم هذا المكر والكيدِ المفضوح فقد وضع مخطّطاً لما يجري بعده للقضاء على البقية الباقية من حملة الرسالة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، فأوصى خليفتَه يزيد قائلاً: «إنَّ لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوها فارمِهم بمسلم بن عقبة فإنَّه رجلٌ قد عرفتُ نصيحَتَه»[2]، (وكان مسلمُ بن عقبة جزّاراً جلاداً لا يعرف الرحمةَ والرأفةَ، وقد استعملَه يزيدُ بعهدٍ من أبيه في واقعة الحرة، فاقترف كلّ موبقةٍ وإثمٍ)[3].

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢١٢/١-٢١٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٩٥/٥.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٣٧/٢-٢٣٨.

ماذا فَعَلَ الحُسَيْنُ عليه السلام في مُواجَهَةِ مُخَطَّطاتِ مُعاوِيَة؟

لقد كان الإمامُ الحسين عليه السلام يرقب كلَّ تحرّكات معاوية، ويتابع مخططاتِه الإجرامية، ومكائدَه الخبيثة، ويعمل على توضيح خطورتِها للأمّة، ويفضحها على رؤوس الأشهادِ، ويطرح البديلَ المناسب.

(لقد فعل الحسينُ عليه السلام ما بوسعه، أيام معاوية؛ لكي يلفت نظرَ الأمة من جديد إلى قيم الإسلام الكبيرة العليا، ويعيدها من جديد إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانت حلقةُ العلمِ التي يديرها بمسجد الرسول صلى الله عليه وآله، وسَيْرُه إلى مكة ماشياً، واجتماعُه مع صحابة الرسول صلى الله عليه وآله ، وتذكيرُه إياهم بمنزلة أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام من الرسول صلى الله عليه وآله والإسلام، وسلوكُه الشخصي، وشخوصُه كأحد رموز الإسلام، كمثال حيّ له، ومعارضتُه بيعة يزيد، وتصدّيه للعديد من أحكام معاوية وأعمالِه، تمثل بعض جوانب الأعمال التي قام بها للكشف عن الإسلام الحقيقي، وحفظه من الاندثار والتحريف، والكشف عن الوجه الأموي، الذي أراد سلب كل مكاسب المسلمين، وجعلها غنيمة باردة بيد يزيد)[1].

كما عقد الحسينُ عليه السلام مؤتمراً سياسياً قبل هلاك معاوية بسنة في مكّة المكرمة جمع فيه صلحاءَ الأمة، ووجهاءها، وأوضح الخطرَ الذي يواجه الإسلامَ، وألزم حضّار المؤتمر بنشر ذلك بين المسلمين وإيصالِه إلى كل من يمكنهم إيصاله.

قال سليم بن قيس: «فلما كان قبل موت معاوية بسنة حجَّ الحسينُ بن علي صلوات الله عليه، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن جعفر [معه]، فجمع الحسينُ

(١) محمد نعمة السماوي، موسوعة الثورة الحسينية: ١٩/٤.

عليه السلام بني هاشم، رجالهم، ونساءهم، ومواليهم، وشيعتهم من حجَّ منهم، ومن الأنصار ممن يعرفه الحسينُ عليه السلام وأهل بيته.

ثم أرسل رسلاً [قائلاً لهم]: «لا تَدَعوا أحداً ممّن حجَّ العام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، المعروفين بالصلاح والنُسك إلا اجمعوهم لي»، فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل، وهم في سُرادقِه، عامتهم من التابعين، و[نحو من مائتي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله] و[غيرهم].

فقام فيهم الحسينُ عليه السلام خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنَّ هذا الطاغية - يعني معاوية - قد فعل بنا وبشيعتِنا ما قد رأيتُم، وعلمتُم، وشهدتُم، وإنّي أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقْتُ فصدّقوني، وإن كذبْتُ فكذّبوني، أسألكم بحقِّ الله عليكم وحقِّ رسول الله وحقِّ قرابتي من نبيِّكم، لمّا سيّرتم مقامي هذا، ووصفْتُم مقالتي، ودعوتم أجمعين في أنصاركم من قبائلكم من آمنتم من الناس، ووثقتم به، فادعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أتخوف أن يدرس هذا الأمر، ويذهب الحق ويغلب، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

وما ترك شيئاً مما أنزل الله فيهم من القرآن إلا تلاه، وفسّره، ولا شيئاً مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في أبيه وأخيه وأمه، وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه.

وكل ذلك يقول الصحابة: «اللهُمَّ نعم، قد سمعنا وشهدنا»، ويقول التابعي: «اللهم قد حدّثني به من أصدقه وأئتمنه من الصحابة»، فقال عليه السلام: أنشدكم الله إلا حدّثتم به من تثقون به وبدينه»[1].

وهذا المؤتمرُ أصدقُ دلالة على إحساس الحسين عليه السلام بخطورة الأمر، وما يحيق بالإسلام من مؤامرات؛ ولذا فإنَّ قيامَ الحسين عليه السلام بجمع هذا العدد الكبير

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢/٧٨٨-٧٩٠.

من صلحاء الأمة، وتحميلهم المسؤولية بعد بيان المخططات التآمرية على الإسلام؛ لنشر ما تحدث به عليه السلام في جميع آفاق الإسلام، وهذا العملُ يمثل خطوةً متقدمةً لإفشالِ ما قام به معاويةُ طيلةَ حياتِه من أعمال إجرامية لدفن معالم الإسلام، وتشويه حقيقته.

كما كتب معاويةُ كتاباً يهدد به الحسينَ عليه السلام قائلاً: «فإنّي متى أنكرْك تنكرني، ومتى تَكِدْني أكِدْك، فاتقِّ شقَّ عصا هذه الأمة، وأن يرجعوا على يدك إلى الفتنة»[1].

فأجابه الحسينُ عليه السلام بكتابٍ مفصلٍ كشف فيه جميعَ جرائمِهم، وأحابيلِهم، وبذلك مَزَّقَ كلَّ الأقنعةِ التي ضربها على تلك الجرائم... نذكر مقاطعاً من ردّه صلوات الله عليه وسلامه، فقال عليه السلام: «فأما ما نمي إليك، فإنما رقّاه المَلاقون المَشّاؤون بالنمائم، المفرّقون بين الجميع، وما أريدُ حرباً لك، ولا خلافاً عليك، وأيم الله لقد تركتُ ذلك وأنا أخاف الله في تركه، وما أظنُّ اللهَ راضياً عني بترك محاكمتك إليه، ولا عاذري دون الإعذار إليه فيك، وفي أوليائك القاسطين الملحدين، حزب الظالمين، وأولياء الشياطين».

وفي هذا المقطع أوضح أنَّ الملتفين حول معاوية هم العناصرُ الفاسدةُ المفسدةُ، والضالّةُ المضلّةُ... كما أكَّد وجوبَ مقاومتِه، فهو يخشى اللهَ في ترك حربه وجهادِه.

ثم أوضحَ بعد ذلك الجرائمَ التي أقدم عليها معاويةُ في سفكِ دماءِ المؤمنين من حَمَلَةِ رسالةِ اللهِ تعالى كحِجر بن عديّ الكندي، وعَمْرو بن الحمقِ

(١) جمل من أنساب الأشراف: ١٢٨/٥.

الخزاعي، والحضرمي، ثم ادعاءه لزياد ابن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف، ثم يقول له بعبارةٍ صريحةٍ واضحةٍ: «**إنَّ أعظمَ فتنةٍ لأمةِ محمَّد هي ولايةُ معاوية**»، فيقول عليه السلام: «فلا أعلمُ فتنةً على الأمة أعظم من ولايتِك عليها، ولا أعلمُ نظراً لنفسي وديني أفضل من جهادك، فإن أفعله فهو قربة إلى ربي، وإن أتركه فذنب أستغفر الله منه في كثير من تقصيري، وأسأل الله توفيقي لأرشد أموري».

ثم يواجه تحدّي معاوية له بتحدٍّ أقوى حيث قال له معاوية: «وإنَّك متى تكدني أكدك»، فيقول عليه السلام: «وأما كيدك إياي فليس يكون على أحدٍ أضرَّ منه عليك، كفعلك بهؤلاء النفر الذين قتلتهم، ومثّلت بهم بعد الصُلح، من غير أن يكونوا قاتلوك، ولا نقضوا عهدك، إلا مخافة أمرٍ لو لم تقتلهم مُتَّ قبل أن يفعلوه، أو ماتوا قبل أن يدركوه».

ثم يوجه له ولمكائدِه صفعةً بقيَتْ ترنّ في أذن الزمن إلى اليوم ، بل إلى يومِ القيامة قائلاً: «فأبشرْ يا معاوية بالقصاص، وأيقنْ بالحساب، واعلم أن لله كتاباً لا يغادرُ صغيرةً، ولا كبيرةً إلا أحصاها، وليس الله بناسٍ لك أخذك بالظنّة، وقتلك أولياءه على الشبهة والتهمة، وأخذك الناس بالبيعة لابنك، غلام سفيه يشرب الشراب، ويلعبُ بالكلاب، ولا أعلمك إلا خسرْتَ نفسَك ، وأوبقت دينَك، وأكلت أمانتك، وغششْتَ رعيَّتَك، وتبوأت مقعدك من النار، فـ﴿**بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾[1]»[2].

---

(١) هود: ٤٤.

(٢) هذه النصوص منقولة من كتاب «جمل من أنساب الأشراف» للبلاذري: ١٢٨/٥-١٣٠.

فبهذه اللغة الواضحة الصريحة، وبهذا الكشف التام لجميع ما اقترفه معاويةُ من جرائم على كل المستويات تحدَّثَ الحسينُ عليه السلام، وبذلك أبطل بدعَ بني أمية، وحَفَظَ رسالةَ الله تعالى من التحريفِ والتزييف، والأمةَ من الإضلال.

كما أقدمَ الحسينُ عليه السلام على الاستيلاء على أموالِ الدولةِ التي أُرْسِلَتْ إلى معاوية من اليمن، ووَزَّعَها على المحتاجين من بني هاشم، وكَتَبَ بذلك إلى معاوية يعلمُه صراحةً بلا خوفٍ ولا ترددٍ...

هذه بعضُ الخطوات التي نجّزها الحسينُ عليه السلام لمواجهةِ وإبطالِ خطط معاوية، وقد كان لها دورٌ فاعلٌ في حفظ الإسلام من التحريف، والأمة من الانحراف.

بعد كلّ هذا العناء الذي لاقاه الحسينُ عليه السلام من معاوية، وبعد كلّ هذا الجهدِ الذي بَذَلَه؛ لإنقاذِ أمة جدِّه، ودينها من مصائدِه، هَلَكَ معاويةُ، وجاء دورُ المحنةِ الكبرى، والفتنة الحاسمة التي تجلَّى فيها موقفُ الحسين عليه السلام من معاوية ليؤدي الدورَ الذي ادّخره الله تعالى إليه؛ ليكونَ حقّاً وارثاً للأنبياء...

كتب يزيدُ إلى واليه الوليدِ بن عتبة قائلاً: «من يزيدَ أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد؛ فإنَّ معاويةَ كان عبداً من عبادِ الله، أكرمَه اللهُ، واستخلَفَه، وخوّله، ومكّن له، فعاشَ بقَدَر، ومات بأَجَل، فرحمه اللهُ، فقد عاشَ محموداً، ومات برّاً تقياً، والسلام».

وكتب إليه في صحيفة كأنَّها أذْنُ فأرة: «أما بعد؛ فَخُذْ حُسَيناً، وعبدَ الله بن عمر، وعبدَ الله بن الزبير بالبيْعةِ أخذاً شديداً، ليست فيه رخصةٌ حتى يبايعوا؛ والسلام»[1].

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٨/٥.

موقفُ الوليد:

بادرَ الوليدُ مباشرةً بعد نعي معاوية لطلبِ الحسين عليه السلام، وعبدِ الله بن الزبير، وعبدِ الله بن عمر، وبَعَثَ رسولَه عبدَ الله بن عمرو بن عثمان إليهم بعد أن استشار مروان قائلاً له: «كيف ترى أن نصنع؟»، وكان جوابُ مروان جوابَ لئيمٍ حاقدٍ لا يرى للدمِ حرمةً، ولا للإسلامِ صيانةً، فقالَ له: «فإنّي أرى أن تبعث الساعةَ إلى هؤلاء النفر، فتدعوهم إلى البيعةِ، والدخولِ في الطاعة، فإن فعلوا قبلْتَ منهم، وكففْتَ عنهم، وإن أبوا قدّمْتَهم، فضربْتَ أعناقَهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنَّهم إن علموا بموت معاوية، وَثَبَ كلُّ امرئ منهم في جانب، وأظهر الخلافَ والمنابذةَ، ودعا إلى نفسِه...»[1].

موقفُ الحُسين عليه السلام:

ما أن وصلَ رسولُ أمير المدينةِ إلى الحسين عليه السلام ومن معه قائلاً: «أجيبا، الأميرُ يدعوكما»، ولم يكنْ وقتُ وصولِه إليهم وقتَ جلوس الأمير عادةً؛ لذلك أثار هذا الطلبُ التساؤلَ، فأقبلَ عبد الله بن الزبير على الحسين عليه السلام مُتسائلاً عن سرِّ الإرسالِ في هذه الساعةِ التي لم يكن يجلس فيها! فقال الحسينُ عليه السلام: «قد ظننْتُ، أرى طاغيتَهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذَنا بالبيعةِ قبل أن يَفْشُوَ في الناس الخبرُ، فقال: وأنا ما أظنُّ غيره، قال: فما تريد أن تصنع؟ قال: أجمعُ فتياني الساعة، ثم أمشي إليه، فإذا بلغتُ البابَ احتبسْتُهم عليه، ثم دخلتُ عليه، قال: فإنّي أخافه عليك إذا دخلْتَ، قال: لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادرٌ.

فقام عليه السلام، فجمع مواليه وأهلَ بيتِه، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٩/٥.

الوليد، وقال لأصحابه: إنّي داخلٌ، فإن دعوتُكم، أو سمعتُم صوتَه قد علا، فاقتحموا عليَّ بأجمعِكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم»[١].

وفعلاً بادر سيدُ الشهداء عليه السلام إلى جمع فتيانه، ووضع خطة أعَدَّ فيها العدّةَ؛ لمواجهةِ تخطيط مروان...

ولما عرض عليه الوليدُ نبأ هلاكِ معاويةَ، وعرضَ عليه البيعةَ أرادَ سلام الله عليه أن يكسِبَ الوقتَ للخروج، فقال: «أما ما سألْتَني من البيعة، فإنَّ مثلي لا يُعطي بيعتَه سراً، ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن نُظْهِرَها على رؤوس الناس علانية، قال: أجل، قال: فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتَهم إلى البيعة دعوتَنا مع الناس، فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد -وكان يحب العافية-: فانصرفْ على اسم الله حتى تأتيَنا مع جماعة الناس، فقال له مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يبايعْ لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبسْ الرجلَ، ولا يخرجُ من عندك حتى يبايعَ، أو تضربَ عنقَه، فوثب عند ذلك الحسينُ عليه السلام، فقال: يا ابن الزرقاء، أنت تقتلني أم هو؟! كذبتَ والله وأثمتَ»[٢].

وأقبل عليه السلام على الوليد؛ ليعلِنَ له تصميمَه على عدمِ البيعةِ، فقال: «أيها الأمير، إنَّا أهلُ بيت النبوة، ومعدنُ الرسالة، ومختلفُ الملائكة، وبنا فتحَ اللهُ، وبنا ختمَ اللهُ، ويزيد رجلٌ فاسقٌ، شاربٌ الخمرَ، قاتلٌ النفسَ المحرمة، معلنٌ بالفسقِ، ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٩/٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٩/٥-٣٤٠.

(٣) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٨.

ومن هنا انطلق أبو الأحرار عليه السلام مصمّماً على الخروج، والتحدّي لبني أمية مهما كان الثمنُ غالياً، وتحدّى أزلامَ النظامِ الأموي كمروان وأمثاله، والحوار الآتي يوضح لنا صورة التحدّي العظيم الذي أقدم عليه الحسينُ عليه السلام، فقد التقاه مروان، وقال:

«- إنّي لك ناصحٌ، فأطعني ترشد وتسدد.

- وما ذلك؟ قل حتى أسمع.

- أقول إنّي آمرُك ببيعة أمير المؤمنين يزيد، فإنَّه خَوَلُك في دِينك ودنياك.

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلامِ السلامُ إذ قد بليتْ الأمةُ براعٍ مثل يزيد، ويحك! أتأمرني ببيعة يزيد، وهو رجلٌ فاسقٌ! لقد قلتَ شططاً من القول، يا عظيم الزلل، لا ألومك على قولِك؛ لأنَّك اللعينُ الذي لعنك رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص... إليك عني يا عدوَ الله، فإنَّا أهلُ بيتِ رسول الله صلى الله عليه وآله، والحقُّ فينا، وبالحقِّ تنطقُ ألسنتُنا، وقد سمعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «الخلافةُ محرّمةٌ على آل أبي سفيان، وعلى الطلقاء أبناء الطلقاء، فإذا رأيْتُم معاويةَ على منبري فابقروا بطنَه»، فوالله لقد رآه أهلُ المدينة على منبر جدي فلم يفعلوا ما أُمِروا به!

- والله لا تفارقني أو تبايع ليزيدَ بن معاوية صاغراً، فإنَّكم آلُ أبي تراب قد ملئتم كلاماً، وأشربتم بغضَ آل بني سفيان، وحقٌّ عليكم أن تبغضوهم، وحقٌّ عليهم أن يبغضوكم.

- ويلك يا مروان، إليك عني فإنَّك رجسٌ، وإنّا أهل بيت الطهارة الذين أنزل اللهُ عز وجل فيهم على نبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

﴿ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١]، أبشر يا ابنَ الزرقاء بكلّ ما تكره من الرسول صلى الله عليه وآله يوم تقدم على ربِّك، فيسألُك جدي عن حقّي وحقِّ يزيد»[٢].

هذا الحوارُ كَشَفَ عن درجةِ الرفض الحسيني، والتصميمِ على الثورةِ والتحدّي لدولةِ الطغيان مهما كلَّفه الثمنُ غالياً، وقف عليه السلام بين حياتِه المؤقتة، وحياةِ الإسلام الدائمة، فاختارَ حياةَ الإسلامِ على حياتِه؛ لأنَّه يعلمُ علماً يقيناً أنَّه إذا ما بايعَ يزيدَ فسوف يعطي الشرعيةَ لدولةِ بني أمية، وستصبح كلُّ بدعِهم وأضاليلِهم ديناً؛ لأنَّهم يحكمون باسم الإسلام، وقد كان كلامُ الحسين عليه السلام لمروان دقيقاً وواضحاً، حين قال: «**وعلى الإسلامِ السلامُ إذ قد بُلِيَتْ الأمةُ براعٍ مثل يزيد**»، وهو خيرُ دلالةٍ على فظاعةِ الأمر، وخطورتِه على الإسلامِ.

وحين رأى الوليدُ تصميمَ الإمام الحسين عليه السلام على رفض البيعة، اتَّصلَ بالبلاطِ الأموي، وأحاطه علماً بموقفه عليه السلام، فكان ردُّ يزيد: «أما بعد، فإذا وَرَدَ عليك كتابي هذا، فخُذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيدٍ منك عليهم، وذَرْ عبد الله بن الزبير فإنه لن يفوتَنا، ولن ينجو منا أبداً ما دام حياً، وليكن مع جوابِك إليَّ رأسُ الحسين بن علي، فإن فعلْتَ ذلك فقد جعلْتُ لك أعنّةَ الخيل، ولك عندي الجائزةُ، والحظُ الأوفر، والنعمةُ واحدة، والسلام»[٣].

إلا أنَّ الوليد لم يستجبْ لأمر يزيد، وقال: «لا والله لا يراني اللهُ قاتلَ الحسين بن علي، وأنا [لا] أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو أعطاني يزيدُ الدنيا

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح: ١٧/٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٨/٥.

بحذافيرها»[١].

وحين عَزَمَ الحسينُ عليه السلام على الخروج إلى مكة المكرمة ذهب إلى قبر جدِّه رسولِ الله صلى الله عليه وآله ليودعه وداعَه الأخير؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه لا يعود إليه ثانية، وليبثّ إليه شكواه، ويستمدّ من روحانيتِه العونَ على مواجهة المحنة الكبرى؛ ولذا وقف إلى جنب القبر الشريف مناجياً ربه: «اللهم إنَّ هذا قبرُ نبيّك محمد، وأنا ابنُ بنت محمد، وقد حضرني من الأمر ما قد علمْتَ، اللهم وإنّي أحبُّ المعروفَ وأكره المنكرَ، وأنا أسألُك يا ذا الجلالِ والإكرامِ، بحقِّ هذا القبر ومن فيه ما اخترْتَ من أمري هذا ما هو لك رضى»[٢].

ثم توجّه إلى قبر أمِّه الزكية الطاهرة، وأفاض على قبرها أشواقَه وأحزانَه، وودَّعها الوداعَ الأخير، وهكذا فعل مع قبر أخيه الزكي المجتبى عليه السلام، وبعد حوار مع أخيه محمّد بن الحنفية الذي نصحه بأن يبتعدَ عن الأمصار؛ لينجو من غدر بني أمية... استمع الإمامُ عليه السلام لنصائح أخيه بدقةٍ، ثم قال: «يا أخي، والله لو لم يكنْ في الدنيا ملجأ، ولا مأوى لما بايعْتُ والله يزيدَ بن معاوية أبداً»[٣].

ثم كتب وصيّته له جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية، أنَّ الحسين يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عند الحقّ، وأنَّ الجنةَ والنارَ حقٌّ، وأنَّ الساعةَ آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور ، وأنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً،

(١) كتاب الفتوح: ١٨/٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٩/٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢١/٥.

وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي، وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني، وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين...»[١].

وقد أوضح عليه السلام في هذه الوصية جميع أهداف ثورته بدقّةٍ متناهية، فمهما كتب الكتّاب، ونظّر المفكرون لثورة الحسين عليه السلام، وأخضعوها لقلم التحليل لن يستطيع المنصفون فضلاً عن المخالفين له أن يخرجوا عن هذه الأهداف المحدّدة في هذه الوصية المباركة، فهو يريد أن يعيد القيم الإسلامية إلى مواقعها من النفوس البشرية، ويُحَكّمها في المجتمع؛ ليقوده إلى ساحل النجاة...

في الطَّريقِ إلى مَكَّة:

عندما خرج الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة كان يتلو قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢]، ثم سلك الطريق العام الذي يسلكه الناسُ بصورة طبيعية، فأشار بعض أصحابه أن يسلك طريقاً آخر؛ لئلا يدركه طلب الأمويين، فقال عليه السلام: «لا والله يا ابن عمي، لا فارقت هذا الطريق أبداً، أو أنظر إلى أبيات مكة، أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى»[٣].

وإنّما سلك الطريق العام؛ ليعلن للملأ سخطه على بني أمية؛ لانحرافهم عن نهج الإسلام، وخطرهم على مستقبله، و(كان يريد بخروجه على تلك الصورة

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢٩/٤٤-٣٣٠.

(٢) القصص: ٢١.

(٣) كتاب الفتوح: ٢٢/٥.

الواضحة متنكّباً الطريق الأعظم الذي يمر منه آلاف الناس إشعار الأمة باستنكاره استلام يزيد مقاليد السلطة ورفضه المعلن لذلك)[١].

وكان في مسيره يُصَعِّد في نفوس المؤمنين روح الرفض والثورة، ويلهب في النفوس شعلة الحماس، فيردد هذه الأبيات[٢]: [من الطويل]

إذا المرء لم يحمِ بنيه وعرسه ... ونسوته كان اللئيم المسببا
وفي دون ما يبغي يزيد بنا غداً ... نخوض حياض الموت شرقاً ومغربا
ونضرب ضرباً كالحريق مقدماً ... إذا ما رآه ضيغم راح هاربا

مَعَ عَبْدِ اللّٰهِ بن مُطيع:

وكان أوّل من استقبله في الطريق عبد الله بن مطيع العدوي، فراح يحذره من الذهاب إلى الكوفة قائلاً: «إذا أتيت مكّة فاحذر أن يغرّك أهل الكوفة، فيها قُتل أبوك، وأخوك [طعنوه] بطعنة طعنوه كادت أن تأتي على نفسه، فالزم الحرم، فأنت سيد العرب في دهرك هذا، فوالله لئن هلكت ليهلكنّ أهل البيت بهلاكك»[٣].

وما أن وصل الحسين عليه السلام إلى مكّة حتى أخذ الناس يتوافدون إليه من مختلف الآفاق؛ لينهلوا من علمه وأخلاقه، فشهرته وفضائله أكبر من أن تخفيها دعايات بني أمية، فأخذ عليه السلام يثير في النفوس الرفض لبيعة يزيد، ويُصعّد الحماس الثوري؛ ولذلك ضاقت السلطة الأموية به ذرعاً، كما ضاق ابن الزبير من وجوده لعلمه بموقعه في نفوس الناس، وأنّه لا يُعدُّ شيئاً مع وجود الحسين عليه السلام،

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٥٨/٤.
(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٠٦/٢.
(٣) كتاب الفتوح: ٢٣/٥، وحياة الإمام الحسين عليه السلام: ٧/٢.

وحينئذٍ رفع حاكم مكة رسالة إلى يزيد يخبره بوصول الحسين عليه السلام إلى مكة في اليوم الثالث من شعبان سنة ٦٠ للهجرة واختلاف الناس إليه، وتزاحمهم عليه، وإجماعهم على تعظيمه، وأعلمه بالخطر المحدق بدولتهم منه... ولذا اضطرب يزيد، وكتب إلى ابن عباس، وراح يمنّيه بالأمان والعطاء الواسع قائلاً:

«فالقِه - الحسين -، فارده عن السعي في الفرقة، ورد هذه الأمة عن الفتنة، فإن قبل منك وأناب إليك، فله عندي الأمان، والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه، وإن طلب الزيادة فأضمن له ما أراك الله أنفذ ضمانك، وأقوم له بذلك، وله عليَّ الأيمان المغلَّظة، والمواثيق المؤكّدة بما تطمئن به نفسه، ويعتمد في كل الأمور عليه، عجّل بجواب كتابي، وبكلّ حاجة لك إليّ وقِبلي، والسلام»[1].

ولما لم تفلح جهود يزيد في إيقاف حركة الحسين عليه السلام دسَّ له مجموعة من المجرمين بقيادة عمرو بن سعيد الأشدق لاغتياله، كما سنوضح ذلك.

وكما واجه الحسين عليه السلام مكائد بني أمية واجه من جانب آخر تيّاراً ضاغطاً من المشفقين عليه، والخائفين على شخصه من الغدر الأموي، فراحوا يحذّرونه ويتوسّلون به؛ ليتراجع عن مسيرته إلى العراق، أو اللّجوء إلى بلد آخر يحمي فيه نفسه كمصر واليمن وغيرهما...

ونحن إذا تأملنا النصائح الموجّهة للحسين عليه السلام سواء كانت من المشفقين، أو من الخائفين المعادين نستطيع أن نجزم بعدم وعي أولئك لحركة الحسين عليه السلام، وهدفه الساعي من أجله؛ والأغرب في الأمر أن يصدر ذلك من أناس عاشوا مع الحسين عليه السلام، وعرفوا مكانته في زمن النبي صلى الله عليه وآله كابن عباس،

(١) سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص: ٢٣٨ .

وأم سلمة، وعبد الله بن جعفر، وعمر الأطرف... وسمعوا ما صرّح به رسول الله صلى الله عليه وآله من الأخبار مما سوف يحدث للحسين عليه السلام في مستقبل أيامه، وهم الذين رووا الأحاديث في شأنه!!

نَشاطاتُ الْحُسَيْنِ عليه السلام من مَكَّة:

لم يكتفِ الحسينُ عليه السلام بلقاء النّاس، وتوضيح أهداف حركته المباركة، وإنّما قام بنشاطات أخرى نذكر منها:

١- كتب إلى بني هاشم رسالة قال فيها: «أما بعد؛ فإنّه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف عنّي لم يبلغ الفتح»[١].

وهذه الرسالة تشتمل على أسرار لا تعيها إلا قلوب تبصّرت بالإسلام، ووعت رسالته، وخلاصة هذه الرسالة أن الفتح الإلهي[٢] في عصر إمامة الحسين عليه السلام لا يمكن أن يتم إلا بالشهادة، ولهذا ما سمعنا بقائد يتحرك لمواجهة أعدائه، ثم يعلن لأتباعه بأنّ الشهادة هي مصيرهم المحتوم، وهذا (أمر لا يمكن أن يُفهم إلا على ضوء العقلية الإسلامية الواضحة التي حملها الإمام عليه السلام، وإلا على ضوء الفهم الواعي للإسلام الذي لا يمكن أن يتاح لأولئك الذين يحملون التصورات الأرضية البحتة البعيدة عن الإسلام وروحه وواقعه)[٣].

وهذه الرسالة حَرِيَّة بالدراسة والتحليل لما تنطوي عليه من فهمٍ للفتح بعيدٍ جداً عن الذهنية التي لا تعيش الإسلام حركياً ورسالياً...

---

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ٣٩، والملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٩.

(٢) سيأتي بيان معنى الفتح الحسيني في فصل قادم إن شاء الله.

(٣) موسوعة الثورة الحسينية: ٨٣/٤.

٢- كتب إلى جماعة من رؤساء وأشراف أهل البصرة، وأرسلها بيد مولى له، اسمه سليمان، وكنيته أبو رزين، وكان خلاصة رسالته بعد أن أوضح مكانة أهل البيت عليهم السلام قائلاً: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنة قد أميتت، وإنّ البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدِكُمْ سبيل الرشاد»[١].

وكان ممن كتب إليهم: مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد الله بن معمر، ويزيد بن مسعود النهشلي.

ولكن مع الأسف الشديد أنّ هؤلاء لم يسجّل التأريخ لهم موقفاً مشرّفاً في جواب الإمام عليه السلام[٢]، إلا يزيد بن مسعود النهشلي فإنّه استعدّ، وأعدّ العدّة، ولبّى نداء الحسين عليه السلام، وأجابه برسالة أبدى كلّ استعداده للنصرة، إلا أنّ الوقت لم يسعه، فقد وصلت الرسالة إلى الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم فلما قرأ الرسالة قال: «ما لك، آمنك الله يوم الخوف، وأعزّك وأرواك يوم العطش الأكبر»[٣].

٣- خطب في مكة بعد أن صلّى ركعتين بين الركن والمقام، وكان هذا الخطاب الحماسي الملتهب بمثابة الوداع الأخير، والإنذار النهائي للمسلمين مُستنصِراً وداعياً إلى الله تعالى، فقال: «الحمدُ لله، وما شاء اللهُ، ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على رسوله، خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة،

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٧/٥.

(٢) راجع كتاب الإمام الحسين عليه السلام في مكة المكرمة للشيخ نجم الدين الطبسي: ٣٦١-٣٦٢.

(٣) السيد محسن الأمين، لواعج الأشجان: ٤٢.

وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطَّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجر الصابرين»[1].

لماذا لم يبقَ الحُسَينُ عليه السلام في مكّة؟

إنّ (خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية؛ لأنّها حركة من أندر حركات التاريخ، إن لم تكن أندرها، في باب الدعوة الدينية، أو الدعوة السياسية، حركة لا تتكرّر كلّ يوم، ولا يقوم بها كلّ رجل، ومن ثم فقد كان من أعظم ما صنع الحسين وأهله وصحبه يوم كربلاء، أنّهم جعلوا الحقّ قيمة ذاته، ومثوبة نفسه، فلم يعد الظفر مزية له، ولم تعد الهزيمة ازدراء به)[2].

إنَّ بقاء الإمام الحسين عليه السلام في مكّة لا يمثل عملاً إيجابياً؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل يُغيّر الواقع به، أو يحدث هزة عنيفة تحدث تخلخلاً في النظام الأموي على المدى الطويل.

وأما عمله في مكّة؛ فهو إعلان للثورة على بني أمية، ورفضٌ لبيعتهم لسلب القدسية منهم، وإسقاط القيمة الشرعية للدولة، ونَشر ذلك في جميع بقاع المسلمين، وهذا أقصى ما يمكن أن يقوم به، كما أنّ الحجاز لا يمكن أن تكون منطلقاً للثورة؛ وذلك لأنّ الأغلبية الساحقة في الحجاز كانت تحقد على أهل

(١) مثير الأحزان لابن نما: ٤١، والملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦، وكشف الغمة للأربلي: ٥٧٣/١ .

(٢) الدكتور محمد بيومي مهران، الإمام الحسين بن علي عليه السلام: ٢٠.

البيت عليهم السلام وكانت ميولها مع بني أمية، يقول أبو جعفر الإسكافي: «وأما أهل مكة فكلهم كانوا يبغضونه قاطبةً... وكان جمهور الخلق مع بني أمية عليه»[١].

وروى أبو عمر النهدي، قال: «سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: ما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا»[٢].

وعلى هذا الأساس كيف يمكن للإمام الحسين عليه السلام أن يبقى في الحجاز وينطلق منها ثائراً، ودون هذا السبب كل سبب آخر... وقد يكون بقاؤه في مكة على فرض سلامته من الغدر الأموي مجرد مقاومة سلبية قليلة الأهمية لا تؤثر أثرها في تغيير الواقع، ولو على المدى البعيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: إن بقاءه في مكة حتى لو كانت تحت سيطرته وحكمه عليه السلام فسوف يعرضها إلى هتك حرمتها من قبل الأمويين، وهي البلد الأمين، والحرم الإلهي المقدّس، والحسين عليه السلام كان موقناً بذلك، فلا يمكن أن يرضى بهتك الحرم الإلهي المقدّس عند بيت الله الحرام بسبب وجوده، وقد صرّح بهذا لكلّ الذين أشفقوا عليه من الخروج إلى العراق، ونصحوه بالبقاء كما قال لابن عباس: «لئن أقتل والله بمكان كذا أحب إليَّ من أن أُسْتَحَلَّ بمكة»[٣].

وقال لابن الزبير الذي قال له مجاملة لا حقيقة: «أما إنّك لو أقمت بالحجاز، ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا لما خالفنا عليك، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك»، فقال له الحسين عليه السلام: «إنّ أبي حدّثني أنَّ لها كبشاً به تُستحلّ حرمتها، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش»[٤].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠٣/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٤/٤.

(٣) المسعودي، مروج الذهب: ٦٧/٣.

(٤) الكامل في التاريخ: ٣٨/٤.

ثم قال عليه السلام لمن حوله بعد حواره مع ابن الزبير: «والله لئن أقتل خارجاً منها بشبر أحب إليَّ من أن أقتل فيها، ولئن أقتل خارجاً منها بشبرين أحب إليَّ من أقتل خارجاً منها بشبر، وأيم الله لو كنت في جحر هامّة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله لَيَعْتَدُنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت»[١].

فالحسين عليه السلام كان موقناً أن بني أمية لن يتركوه حيّاً على كل حال كما أكّد ذلك لابن عباس: «والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلَّط الله عليهم من يُذلّهم حتى يكونوا أذل من فَرْم المرأة»[٢].

فمن المتيقّن إذن أنّ بني أمية سوف يوجّهون للحسين عليه السلام من يغتاله بصورة منفردة ليطفئوا بذلك وهج الثورة، ولربما يبدون أسفهم، ويصفون القاتل بالإجرام، وقد يوجّهون له عقاباً مميتاً؛ ليموّهوا على الأمة جريمتهم الشنعاء، ولا يحدث في الأمة سوى الأسف الباهت، والأثر البارد، كما حدث في قتل الإمام الحسن عليه السلام بالسم، ويدفن بعيداً عن تحريك الضمائر الحيّة، ويُسكت صوتٌ كان مدوياً صارخاً بوجه الظالمين.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أنّ يزيد دسَّ ثلاثين رجلاً لاغتيال الحسين عليه السلام، وبلغه عليه السلام (أنَّ يزيد بن معاوية أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الفاتك الجبار في عسكر عظيم، وأمرّه على الحاج ، وولاه أمر الموسم، وأوصاه بقبض الحسين سراً، وإن لم يتمكن منه يقتله غيلة، وأمره أن يناجز الحسين القتال، إن هو ناجزه، ودسّ مع الحاج ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية،

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٥، والكامل في التأريخ: ٣٨/٤.

(٢) الكامل في التأريخ: ٣٩/٤.

وأمرهم باغتيال الحسين، ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة)[١].

وبناء على ذلك صمّم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج من مكة، (وبعد أن طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وأحلّ من إحرامه؛ وجعلها عمرة مفردة؛ لأنّه لم يتمكن من إتمام الحج مخافة أن يقبض عليه في مكة، فتستباح به حرمة البيت الحرام)[٢].

وقد قيل له: «ما أعجلك عن الحج؟» فقال: «لو لم أعجل لأُخِذْتُ»[٣].

إذن معنى بقائه في مكة هو هدر لدمه بدون أن يحدث له أيّ أثر وهتك لحرمة بيت الله الحرام، وإسقاط قدسيته في المسلمين، والحسين عليه السلام (كان يريد أن تظلّ لمكة حرمتها، وأن تظلّ للبيت العتيق مكانته، وألا يستحلا بسببه، إذ إنّهما إذا ما استحلا مرّة فسيكون ذلك سبباً لاستحلالهما إلى الأبد، وستفقدان بعض قداستهما بنظر المسلمين؛ لتكون الكعبة مجرد أحجار صماء وعيدان كما قال الحجاج الثقفي، وإن من يملك القوة على إعادة بناء الأحجار يستطيع تهديمها، فهي ليست سوى بناية عادية)[٤] كما قال مسلم بن عقبة للحصين بن نمير، وهو يأمره بغزو مكة: «فانصب عليهم المجانيق، فإن عاذوا بالبيت، فارمِهِ، فما أقدَرَكَ على بنائه»[٥].

فخروج الحسين عليه السلام من مكة في يوم التروية موقف له دلالته العظيمة؛ ففي الوقت الذي يفيض حجاج بيت الله الحرام إلى عرفات، يعلن الحسين عليه السلام

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٦٥/٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٨٦/٥.

(٤) موسوعة الثورة الحسينية: ٦٢/٤-٦٣.

(٥) جمل من أنساب الأشراف: ٣٥٨/٥.

سخطه على بني أمية، ويخرج إلى العراق بعد أن حلَّ إحرامه، وصلّى بين الركن والمقام، فكان هذا الخروج بمثابة رسالة ثائرة إلى كلّ بقاع المسلمين في العالم، وبذلك أوصل إعلان الثورة إلى المسلمين جميعاً، وحقّق بهذا الخروج أمرين مهمين:

الأول: إنّه أثبت الحجة على جميع المسلمين بوجوب الثورة على الأمويين.

الثاني: سَلَبَ الشرعية من حكومة بني أمية، وأثبت عملياً بأنّ حكومة الأمويين حكومة لا تقوم على أساس الإسلام، وإنّما على أساس الظلم والطغيان؛ ولهذا حاول حاكم مكّة آنذاك عمرو بن سعيد الأشدق أن يوقف هذه الحركة المباركة، يقول ابن الأثير: «ثم خرج الحسين يوم التروية، فاعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص، وهو أمير على الحجاز مع أخيه يحيى، يمنعونه، فأبى عليهم، ومضى، وتضاربوا بالسياط، وامتنع الحسين وأصحابه»[1].

وفي العقد الفريد: إنّ حاكم مكة عندما فوجئ بخروج الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق ، قال: «اطلبوه، اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض فاطلبوه»، فعجب الناس من قوله هذا[2].

هكذا كان خروج الحسين عليه السلام مرعباً لحكومة بني أمية، ونحن إذا تأملنا جيّداً في اختيار الحسين عليه السلام ليوم الخروج، وموقف الأمويين من خروجه عرفنا دقّة الموقف الحسيني، وحراجة موقف أزلام الحكومة بعد أن خرج الحسين من قبضتهم؛ ولهذا (لما بلغ ابنَ زياد مسيرُ الحسين عليه السلام من مكة بعث الحصين بن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٩/٤.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١١٩/٥.

نمير التميمي صاحب شرطته، فنزل القادسية، ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خَفّان، وما بين القادسية إلى القُطْقُطانة وإلى جبل لَعْلَعْ)[1].

وواضح من هذا النص أنّ الحكومة أعلنت الأحكام العرفية، واستنفرت كلَّ قواها، وهو أمر مهم بالنسبة لهم...

وروى الطبري: إنّ عمرو بن سعيد كتب إلى الحسين عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد؛ فإنّي أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنّك قد توجهت إلى العراق، وإنّي أعيذك بالله من الشقاق، فإنّي أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليَّ معهما، فإنّ لك عندي الأمان، والصلة، والبر، وحسن الجوار لك، الله عليَّ بذلك شهيدٌ، وكفيلٌ، ومُراعٍ، ووكيلٌ، والسلام عليك».

فكتب إليه الحسين عليه السلام: «أما بعد؛ فإنّه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل، وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين، وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفْه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صلتي وبرّي فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة، والسلام»[2].

فإن صحّت هذه الرواية فهي تنبئ عن تخوّف الأمويين من حركة الحسين عليه السلام، كما تنبئ عن عدم اطمئنانه لأمانهم المزعوم، وهذا ما نستشفه من قوله عليه السلام: «فإن كنتَ نويتَ بالكتاب...».

---

(١) الكامل في التأريخ: ٤/٤١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٣٨٨-٣٨٩.

المَناطِقُ الّتي مَرَّ بِها الحُسَيْنُ عليه السلام:

١- **في منطقة التنعيم**: وهي منطقة تقع (على فرسخين من مكة، وقيل: على أربعة، وسمّي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم، وآخر عن شماله يقال له ناعم، والوادي نعمان)[١]، وفي هذه المنطقة لقي قافلة تحمل أموالاً ليزيد أرسلت إليه من اليمن، فصادرها الحسين عليه السلام، وقال لأصحاب الإبل: «لا أكرهكم؛ من أحب أن يمضي معنا للعراق أوفيناه كراه، وأحسنّا صحبته، ومن أحبَّ أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكرى ما قطع من الأرض»، فمن فارقه منهم حوسب وأوفاه حقَّه، ومن مضى معه أعطاه كراه وكساه[٢].

ومصادرته للمال دليل على سلب الشرعية من الدولة وحاكمها، وإعلان بعدم شرعية يزيد وحكومته، وإيذان بمعركة كبرى قادم عليها.

وأنا أعجب من البعض ممن استنكر على الحسين عليه السلام ذلك، كما أن بعض العلماء استبعد أن يقدم الحسين عليه السلام على مثل هذه الخطوة؛ لأنّها لا تليق به... مع أنهم يعلمون أنّه عليه السلام هو الحاكم الشرعي المُنَصَّبُ من قبل الله تعالى، وله حقّ التصرف في الأموال والأنفس، وليس من فرق بين إقدام رسول الله صلى الله عليه وآله بالتعرض للقافلة التي قادها أبو سفيان مع أنّها تحمل أموال الناس، وبين مصادرة الحسين عليه السلام لأموال أرسلت إلى يزيد وهي ملك الدولة، بل ملك الأمة.

٢- **في منطقة الصفاح**: وفي هذه المنطقة التقى الشاعر المعروف الفرزدق، فبادره قائلاً: «بأبي وأمي يا ابن رسول الله، ما أعجلك من الحج؟» فقال

---

(١) الحموي، معجم البلدان: ٤٩/٢.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣١٧/١-٣١٨.

عليه السلام: «لو لم أعجل لأخِذتُ»[١]، ثم بادره الإمام عليه السلام قائلاً:

«- من أين أقبلت يا أبا فراس؟

- من الكوفة.

- بَيِّنْ لي خبر الناس.

- على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء... وربنا كلّ يوم هو في شأن»[٢].

فأجابه الإمام عليه السلام: «صدقت، لله الأمر من قبل ومن بعد، يفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحبُّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يتعدّ من كان الحقّ نيته، والتقوى سريرته»، ثم حرّك الحسين عليه السلام راحلته، وقال: «السلام عليكم»، ثم افترقا[٣].

وأنشأ عليه السلام[٤]: [من الطويل]

لئن كانت الدنيا تعدّ نفيسة ... فدار ثواب الله أعلى وأنبل

وإن كانت الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل

وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدّراً ... فقلة سعي المرء في الرزق أجمل

وإن كانت الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

ولا شكَّ أنَّ تشخيص الفرزدق لوضع الأمة النفسي كان دقيقاً ومعبّراً عن الهبوط الروحي، والفكري، والأخلاقي، وفقدان الإرادة، حتى وصلت إلى حد

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٦/٥.

(٢) القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٠/٣-٦١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٨٠/٨.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٦١/٣.

تخالف ظاهرها عن باطنها، والإنسان حين تختلف سريرته عن علانيته يكون قد سقط من القمة إلى القاع، وحتى الفرزدق نفسه (الذي كان يملك وعياً اجتماعياً ووعياً ثقافياً مع علمه بأنّ الإمام سيقتل لم يندفع إلى نصرته والالتحاق بموكبه؛ ليذبّ عنه، فإذا كان هذا حال الفرزدق، فكيف بغيره من سواد الناس وجهالهم)[١].

٣- **في ذات عرق:** التقى بشر بن غالب الأسدي قادماً من العراق، وأخبره بنفس ما أخبره الفرزدق قائلاً: «خلّفتُ القلوبَ معك، والسيوفَ مع بني أمية»، فقال عليه السلام: «صدق أخو بني أسد، إنّ الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»[٢].

وفي هذه المنطقة التقى الإمام عليه السلام رجلاً يقال له: «أبو هرة»، واستغرب أبو هرة خروجه، وقال: «يا ابن رسول الله، ما الذي أخرجك من حرم الله، وحرم جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله؟»، وتأثّر الإمام عليه السلام، فقال له: «ويحك يا أبا هرة، إنّ بني أمية أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عِرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنَّهم الله ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وليسلطنَّ عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة منهم فحكمت في أموالهم ودمائهم حتى أذلّتهم»[٣].

٤- **في منطقة الحاجر:** من بطن الرمة كتب عليه السلام كتاباً إلى أهل الكوفة كجواب على كتاب مسلم الذي دعاه للمجيء إلى الكوفة بعد أن أخذ البيعة منهم، وحمل الكتاب قيس بن مسهر الصيداوي الذي جدّ في السير حتى وصل

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٦١/٣.

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣١.

(٣) المصدر السابق: ١٣٢ ، وحياة الإمام الحسين عليه السلام: ٦٤/٣-٦٥.

القادسية، فوقع في يد شرطة ابن زياد، ولما عرف أنّه أصبح في قبضتهم أخرج الكتاب وخرّقه؛ لئلا يقع في يد ابن زياد، ولما حمل إليه حاول ابن زياد أن يعرف ما في الكتاب، وإلى من أرسل، وقال لقيس: «والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم، أو تصعد المنبر فتسب الحسين بن علي وأباه وأخاه، وإلا قطعتك إرباً إربا»، فقال له قيس: «أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم، وأما سبّ الحسين وأبيه وأخيه فأفعل»[1].

وفي رواية: أنه قال له: اصعد إلى أعلى القصر فسبّ...

(فصعد فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنّ هذا الحسين بن علي خير خلق الله، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر من بطن ذي الرمة، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي والحسين عليهما السلام، فأمر به ابن زياد، فألقي من رأس القصر، فتقطع، ويقال: بل تكسّرت عظامه، وبقي فيه بقية رمق، فقام إليه عبد الملك بن عمير البجلي، فذبحه، وقال: إنما أردت إراحته من الألم، وقيل: إنه رجل يشبه عبد الملك بن عمير وليس به، وفي رواية: إنّ الذي قدم بكتاب الحسين إنما هو عبد الله بن يقطر أخو الحسين من الرضاعة، فألقي من أعلى القصر، والله أعلم)[2].

وفي هذه الحادثة المروّعة صورة رائعة لمدى بطولة رجال الحسين عليه السلام، وبيان مدى إصرارهم على نصره على كل حال... كما صورت مدى الوحشية التي اتّسم بها ابن زياد وجلاوزته، ومن خلال هذه الحادثة يمكن للإنسان أن

(١) لواعج الأشجان: ٨٠.

(٢) البداية والنهاية: ٨/١٨١-١٨٢.

يحكم على أخلاقية كلّ من المعسكرين، وما اتصف به كل منهما من صفات.

٥- **في زَرود:** وفي هذه المنطقة التقى عليه السلام زهير بن القين، وفي هذا اللقاء تتجلى رحمة الله لذوي النفوس الصافية، والضمائر الحية، وكيف تدركهم الهداية الإلهية مهما ابتعدوا عن الصواب؛ فزهير قضى حياته كلها بعيداً عن نهج الحق والهدى، وخرج من مكّة فاراً؛ لئلا يلتقي الحسين عليه السلام، إلا أنّ رحمة الله أدركته على لسان زوجته كما سيتضح ذلك من استعراض قصته، وهي:

كان زهير رجلاً شريفاً في قومه، نازلاً فيهم بالكوفة، وكان شجاعاً، له مواقف مشهورة ومواطن مشهودة، وكان عثماني الهوى، فحجَّ سنة ستين للهجرة بأهله، فوافق الحسين عليه السلام في الطريق، فهداه الله إلى منهج الحقّ والعدل، ونال السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، فعن أبي مخنف عن بعض الفزاريين قال: «كنا مع زهير بن القين البجليّ حين أقبلنا من مكّة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدّم زهير، حتى نزلنا يومئذٍ في منزل لم نجد بُدّاً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين حتى سلم، ثم دخل، فقال: يا زهير بن القين، إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه، قال: فطرح كلّ إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير»[1].

ويبدو هنا أنّ الموقف كان حرجاً جداً؛ ولذا توقف القوم عن تناول الغداء، وسكتوا سكوتاً مطبقاً، لم يحر زهير جواباً، ومزقت الصمت زوجة زهير (دلهم بنت عمرو) التي استنكرت على زهير صمته، فقالت له:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٦/٥.

«أيبعث إليك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ثم لا تأتيه! سبحان الله! لو أتيته فسمعت من كلامه!» ثم انصرفت، قالت: «فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه»، قالت: «فأمر بفُسطاطه وثقله ومتاعه فقُدِّم، وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثم قال لامرأته: أنت طالق، الحقي بأهلك، فإنّي لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خير، ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنّه آخر العهد، إني سأحدثكم حديثاً، غزونا بلَنْجَر[1]، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان[2] الباهلي: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم! فقلنا: نعم، فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فإنّي أستودعكم الله، قال: ثم والله ما زال في أوّل القوم حتى قتل»[3].

وحين عاتبه بعض أفراد الضلال قائلاً: «يا زهير، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنّما كنت عثمانياً؟»، أجابه زهير: «أما والله ما كتبتُ إليه كتاباً قط، ولا أرسلتُ إليه رسولاً قطّ، ولا وعدته نُصرتي قطّ، ولكنّ الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرتُ به رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون

(١) هي مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قالوا: فتحها عبد الرحمن بن ربيعة، وقال البلاذري: سلمان بن ربيعة الباهلي، ينظر: معجم البلدان: ٤٨٩/١.

(٢) اختلف الرواة بسلمان من هو المقصود؟ فقيل: هو سلمان الفارسي، ذهب إلى ذلك المفيد في الإرشاد، والفتال في روضة الواعظين، والخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام، وابن نما في مثير الأحزان، والبكري في المعجم، بينما ذهب الطبري وغيره أنّه الباهلي، والأرجح أنّه سلمان الفارسي؛ لأن هذا العلم (علم البلايا والمنايا) لم يختص به غير حواري أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٩٦/٥-٣٩٧.

نفسه، حفظاً لما ضيّعتم من حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وآله»[١].

نَبأ استشهادِ مُسْلِم بن عَقيل رحمه الله:

وفي زرود - وقيل الثعلبية - وصل خبر استشهاد مسلم بن عقيل بواسطة رجل أسديّ قادم من الكوفة، التقاه رجلان أسديان التحقا بالحسين عليه السلام أخيراً وقالا له: «أخبرنا عن الناس وراءك؟»، قال: «نعم، لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، ورأيتهما يُجَرّان بأرجلهما في السوق».

قالا: «فأقبلنا حتى لحقنا بالحسين عليه السلام، فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسياً، فجئناه حين نزل، فسلّمنا عليه، فردّ علينا، فقلنا له: رحمك الله، إنّ عندنا خبراً، إن شئت حدّثناك علانية، وإن شئت سراً، فنظر إلينا وإلى أصحابه، ثم قال: ما دون هؤلاء سرٌّ، فقلنا له: رأيت الراكبَ الذي استقبلتَه عشيّ أمس؟ قال: نعم، وقد أردت مسألته، فقلنا: قد والله استبرأنا لك خبره، وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منّا ذو رأي وصدق وعقل، وإنّه حدثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتى قُتِلَ مسلم وهانئ، ورآهما يُجرّان في السوق بأرجلهما، فقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، رحمة الله عليهما، يكرِّر ذلك مراراً».

والتفت الإمام إلى أصحابه قائلاً: «ما ترون؟ فقد قتل مسلم»، فقالوا: «والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا، أو نذوق ما ذاق»، فقال الإمام عليه السلام: «لا خير في العيش بعد هؤلاء»[٢].

ويروى أنّه لما بلغ الحسين عليه السلام مقتله استعبر عليه السلام باكياً، ثم قال: «رحم الله

(١) تاريخ الطبري: ٤١٧/٥.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٧٤/٢-٧٥.

مسلماً، فلقد صار إلى رَوْح الله، وريحانه، وتحيّته، ورضوانه، أما أنّه قد قضى ما عليه وبقي ما علينا»[١].

٦- **في الثعلبية**: أتاه رجل يقال له «بشر بن غالب»، وسأله عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾[٢]، فقال عليه السلام: «إمام دعا إلى هُدى فأجابوه إليه، وإمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنّة، وهؤلاء في النّار، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[٣]»[٤].

وروى ثقة الإسلام الكليني عن الحكم بن عتيبة قال: «لقي رجلٌ الحسينَ بن علي عليهما السلام بالثعلبية، وهو يريد كربلاء، فدخل عليه، فسلم عليه، فقال له الحسين عليه السلام: من أيّ البلاد أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أما والله يا أخا أهل الكوفة، لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل عليه السلام من دارنا ونزوله بالوحي على جدي، يا أخا أهل الكوفة، أفمستقى النّاس العلم من عندنا، فعلموا وجهلنا؟! هذا ما لا يكون»[٥].

والإمام أراد بذلك أنّ أهل البيت عليهم السلام يجب أن يكونوا هم المرجع الذي يتلقّى الناس منهم دينهم؛ فإنّهم: «معادن العلوم والمعارف والشرائع والآداب والأخلاق، واحتياج الناس إليهم في الأخذ والتعليم والاسترشاد والاستفاضة»[٦].

ولذلك يحاول أن يرجع الناس إليهم، ولو بتثبيت تلك الحقيقة في ذهن

---

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٤.

(٢) الإسراء: ٧١.

(٣) الشورى: ٧.

(٤) الشيخ الصدوق، الأمالي: ١١٨-١١٩، وترتيب الأمالي للمحمودي: ١٩٦/٥ .

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٣٩٨/١-٣٩٩.

(٦) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي: ٣٩٨/٦ .

شخص واحد لعلّه يوصلها للناس، وتبقى ترنّ في أذن الزمن كما بقيت صرخاته مدوية إلى اليوم، ولن تتوقف إلى يوم القيامة...

٧- **في منطقة زبالة**: وفي هذه المنطقة تلقّى خبر مصرع أخيه من الرضاعة عبد الله بن يقطر الذي وقع في أيدي جلاوزة ابن زياد، ولما جيء به إلى ابن زياد، قال له ابن زياد: «اصعد فوق القصر فالعن الكذّاب ابن الكذّاب، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي»، قال: «فصعد، فلما أشرف على الناس، قال: أيها الناس، إنّي رسول الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة، وابن سمية الدعي، فأمر به عبيد الله، فألقي من فوق القصر إلى الأرض، فكُسرت عظامه، وبقي به رَمَق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عُمَير اللَّخميّ، فذبحه، فلما عيب ذلك عليه، قال: إنما أردت أن أريحه»[1].

ولما بلغ الحسين عليه السلام مقتله أخرج إلى الناس كتاباً، فقرأه عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فإنه قد أتانا خبر فظيع: قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرج، ليس عليه ذمام»[2].

قال ذلك كي يصفي أصحابه، ولا يبقى معه إلا من كان أهلاً لهذا الشرف العظيم، قال الطبري: «فتفرَّق الناس عنه تفرّقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة، وإنّما فعل ذلك؛ لأنه ظنَّ أنما اتبعه الأعراب، لأنّهم ظنّوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعةُ أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون عَلامَ يقدمون، وقد علم أنَّهم إذا بَيَّنَ لهم لم يصحبه إلا من

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٨/٥.

(٢) الإرشاد: ٧٥/٢.

يريد مواساته والموت معه»[١].

(فلما كان السحر أمر أصحابه فاستقوا ماء وأكثروا، ثم سار حتى مر ببطن العقبة (فنزل عليها)، فلقيه شيخ من بني عكرمة، يقال له عمرو بن لوذان، فسأله: أين تريد؟ فقال له الحسين عليه السلام: الكوفة، فقال الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلا على الأسنّة، وحدّ السيوف، وإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال، ووطّأوا لك الأشياء، فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكر فإنّي لا أرى لك أن تفعل، فقال له: يا عبد الله، ليس يخفى عليَّ الرأي، ولكن الله تعالى لا يُغْلَبُ على أمره)[٢].

ونحن لا نعرف قائداً في التاريخ البشري يعلن لأصحابه أنّه سوف يقتل، وأن من لم يلتحق لم يحقق الفتح، ومن التحق به سوف يستشهد، وأنّ هذه الشهادة هي الفتح المبين الذي سيبقى ينير الدرب إلى الله هادياً مرشداً، ومعلماً مربياً، وصدق من قال:

«ففوق كلّ مكان.. الحسين منارة هدى، وفوق كلّ يم.. الحسين طوق نجاة، وفي كلّ مظلمة.. الحسين قبس من نور وحق، وأمام كلّ طاغية.. الحسين ثورة لا تُبْقي ، ولا تَذَر»[٣].

وإنما أوضح ما يصير إليه؛ لأنّه أراد أن لا يتبعه في حركته المباركة إلا من كان موطناً نفسه على لقاء الله تعالى كما جاء في خطابه الوداعي في مكة، وقد اتبعه خلقٌ كثيرٌ إلا أنّهم لم يكونوا واعين لمهمته، وما سوف يقدم عليه، وما

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٨/٥-٣٩٩.

(٢) الإرشاد: ٧٦/٢.

(٣) د.أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي: ١٨٧.

تصير إليه مصائرهم من مخاطر، (فكان يشرح لهم طبيعة الموقف، ويدعوهم للتخلي عنه إن شاءوا؛ لأن هؤلاء لا يشكلون قوة عقائدية يمكن أن تصمد أمام جيش العدو إذا ما احتدم القتال، وقد ينضمّون إلى ذلك الجيش، ويشكلون خطراً عليه وعلى أصحابه، وربما غدروا بهم وشجعوا غيرهم على الاجتراء عليه وعلى أصحابه)[١].

ونتيجة تلك التصفية الدقيقة لم يحدثنا التأريخ أنّ فرداً واحداً من أصحاب الحسين عليه السلام التحق بجيش العدو، بل على العكس فقد التحق أفراد من جيش آل زياد إلى صفوف الحسين عليه السلام.

٨ - **شراف (ذو حسم)**: وفي هذه المنطقة التقى الحرّ الرياحي قائداً لجيشٍ قوامه ألف فارس - وهنا تتجلى رحمة الله لعباده، وكيف تخرج عباده من الظلمات إلى النور، وتزحزحهم من النار إلى الجنة - فقد جاء الحر حاملاً أوامر الظالمين؛ ليحاصر الإمام أو يأسره، أو يقوده إلى حيث يريد الطغاة، وما يتخيلونه من تصورات وهمية، وكان الجوّ شديد الحرارة، وفي وقت الظهيرة، (وربما كان الحُرُّ لا يتصور أنّه سيلاقي الحسين عليه السلام في ذلك المكان، فلم يأخذ أهبته، ويتزود بالماء؛ لأنّه ربما حسب أنه سيعود إلى مكان آخر يجد فيه الماء)[٢]... لقد أخذ العطش مأخذاً شديداً في جيش الحُرّ، فما وقع نظر الحسين عليه السلام عليهم - وهم يستبقون إلى جبل صخري يقال له ذو حسم كل يريد أن يلجأ إليه؛ ليجعله في ظهره، ليستقبل القوم من وجه واحد، فسبقهم الحسين عليه السلام إليه، وضرب إطنابه - (وجاء القوم، وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميميّ اليربوعيّ حتى

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ١٠٠/٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٣/٥.

وقف هو وخيله مقابل الحسين عليه السلام في حَرّ الظهيرة)[١].

وكان بإمكان الحسين عليه السلام أن يقف منهم موقفاً سلبياً، فلا يسقيهم إلا أنّ موقف الحسين عليه السلام فاق كلّ تصورات طلاب الدنيا، (فمع علمه بمهمّتهم، ودون أن يقوم بمساءلتهم واستغلال موقفه استغلالاً عاطفياً لصالحه)[٢] إلا أنّه قال لفتيانه: «اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً»، فقام فتيانه، فرشّفوا الخيل ترشيفاً[٣].

والأعجب من ذلك أن يقوم الحسين عليه السلام بمراقبة ذلك، ومساعدة المذهولين من اللطف الإلهي، يقول علي بن الطّعان المحاربي: «كنت مع الحُرّ بن يزيد، فجئتُ في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش، قال: أنخ الراوية - والراوية عندي السقاء - ثم قال: يا ابن أخي، أنخ الجمل، فأنختُه، فقال: اشربْ، فجعلت كلما شربتُ سال الماء من السقاء، فقال الحسين عليه السلام: اخنث السقاء - أي اعطفه - قال: فجعلتُ لا أدري كيف أفعل! قال: فقام الحسينُ، فخنثه، فشربتُ، وسقيتُ فرسي»[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٠/٥.

(٢) موسوعة الثورة الحسينية: ١٠٤/٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٠١/٥.

(٤) المصدر نفسه.

الفصل الثاني

دَوافِعُ

ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

«...وإنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي، وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحقّ، فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين»[1].

منطق الثورة يقتضي أن يتوفر في الثائر أربع خصال أساسية:

١- الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى.

٢- الإدراك والوعي الكاملان للواقع الذي يعيشه، ويعمل على إحداث تغيير وانقلاب فيه.

٣- تحديد دوافع وأهداف الثورة.

٤- رسم الخطط والوسائل الشرعية المناسبة التي يتوصّل بها إلى تحقيق أهدافه، وتنفيذ خطواته.

وما لم تتوفر في الثائر هذه الأمور الأربعة لا يمكن أن يسمّى ثائراً؛ لأنّه سيبقى متخبّطاً تخبّطاً عشوائياً، وثورة الحسين عليه السلام توفّرت فيها هذه الأمور

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٢٩/٤٤-٣٣٠، والفتوح لابن أعثم: ٢١/٥، ومقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ٢٧٣/١.

بشكل جيّد ودقيق.

أما شعور الحسين عليه السلام بالمسؤولية أمام الله تعالى، فلا يحدّ بحدود الزمان والمكان؛ لأنّه هو الممثل الوحيد الذي يمثّل الرسالة بدقة، وعمق، وأصالة، وشمول، فهو إمامُ هذه الأمة، ومرجعها الروحي، والفكري، والأخلاقي، والسياسي.

ولذلك رأينا الحسين عليه السلام لم يقر له قرار، ولم يهدأ له بال سواء كان في عصر معاوية، أو في عهد يزيد فتراه يُحَذّرُ، ويُصحّح، وينقد، ويفنّد كلّ ما يطرح من أفكار انحرافية من قبل الحكام الظالمين، ويكشف الخطط الرامية إلى هدم الكيان الرسالي، ويبطل تلك الخطط، ويوضح زيفها وخطرها على الإسلام على رؤوس الأشهاد، ويكشف جرائم بني أمية وأعمالهم الفظيعة بصريح القول، فيكتب لمعاوية قائلاً:

«ألستَ القاتل حجراً أخا كندة، والمصلّين العابدين الّذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثمَّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة...

أو لستَ القاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه، وصفرت لونه، بعد ما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جرأة على ربك، واستخفافاً بذلك العهد.

أو لست المدَّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنَّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فتركت سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله تعمّداً، وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثم سلّطتَه على

العراقين: يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم، ويسمل أعينهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لستَ من هذه الأمة، وليسوا منك.

أَوَلستَ صاحب الحضرميّين الذين كتب فيهم ابن سمية أنهم كانوا على دين علي صلوات الله عليه، فكتبت إليه: أن اقتل كل من كان على دين علي عليه السلام! فقتلهم، ومثّل بهم بأمرك، ودين علي عليه السلام والله الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي جلست، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف أبيك الرِّحلتين...

فأبشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أنَّ لله تعالى كتاباً ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[1]، وليس الله بناسٍ لأخذك بالظنّة، وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام حدث: يشرب الخمر، ويلعب بالكلاب لا أعلمك إلا وقد خسرت نفسك، وبترت دينك، وغششت رعيتك، وأخزيت أمانتك، وسمعت مقالة السفيه الجاهل، وأخفت الورع التقي لأجلهم والسلام»[2].

وهذا الكتاب أصدق مصاديق المنهج الحسيني في الدفاع عن المظلومين، وكشف أساليب الظالمين، وتزييفها، وفضحها؛ ليحمي الأمة من الوقوع في شباك الطغاة، ويحصن دينها من التحريف والتزييف... وفي الوقت نفسه يحمل روح التحدّي والرفض لأولئك الحكام الجائرين، وبهذا مزَّق كلَّ البراقع التي تستَّر خلفها معاوية وأعوانه باسم الدين، وكشف للناس خروجه عن أحكام الله تعالى، وتستره بها... وبذلك حمى رسالة الله من التزييف والتحريف، كل ذلك انطلاقاً

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤/٢١٢-٢١٤.

من شعوره بالمسؤولية أمام الله تعالى في حماية الرسالة من تحريف الضالّين، والأمة من الانحراف عن جادّة الحقّ والصواب؛ ثم ليرسم منهج التغيير والإصلاح في حركة الإنسان إلى الله تعالى، وبذلك أدّى مسؤوليته أمام الله، (وعلى ضوء هذه المسؤولية الكبرى ناهض الإمام جور الأمويين، وناجز مخططاتهم الهادفة إلى استعباد الأمة، وإذلالها، ونهب ثرواتها، وقد أدلى عليه السلام بما يُحَتّمه الإسلام عليه من الجهاد لحكم الطاغية يزيد)[1].

وأما وعي الواقع، وإدراك خطورته، فقد أدرك الحسين عليه السلام ثلاثة أمور مترابطة:

١- وعي المخطط الأموي الرهيب الهادف للقضاء على الإسلام، فقد سُخّرت كلّ أجهزة الدولة للإفساد الفكري، والأخلاقي، والسياسي، والاجتماعي... حتى كادت أن تقع ردّة عقائدية رهيبة في الأمة التي بناها رسول الله صلى الله عليه وآله، والسبب في ذلك أنّ رؤوس الكفر والنفاق من الذين وقفوا بوجه رسول الله صلى الله عليه وآله ليل نهار، وحاربوه في كلّ حدب وصوب، أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، وظلّوا يكيدون للإسلام بالخفاء ويخطّطون في الظلام، فما أن رحل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الدنيا حتى عادت تلك الفئة التي لم يتغيّر من واقعها شيء، فأخذت موقع الصدارة من الدولة، وسيطرت على المواقع السياسية، ومراكز المال والاقتصاد، وحينئذٍ أخذت تنفّذ خططها التي رسمتها بالخفاء منذ حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فعملت على قلب الموازين الشرعية، وتحريف العقائد الحقّة، وتغيير الأحكام والمفاهيم والعقائد التي أنزلها الله، وحاولوا إرجاع الناس

(١) القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢/٢٧٠.

إلى عهد الجاهلية، وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها:

روى ابن عبد البر في الاستيعاب: «إنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تَيْم وعَدِيّ، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة، ولا نار، فصاح به عثمان: قم عني فعل الله بك وفعل»[١].

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن يحيى بن عباد، عن عبد الله بن الزبير، قال: «لما كان يوم اليرموك خلَّفني أبي، فأخذتُ فرساً، وخرجتُ، فرأيتُ جماعةً من الخلفاء[٢] فيهم أبو سفيان بن حرب، فوقفتُ معهم، فكانت الرومُ إذا هَزَمت المسلمين، قال أبو سفيان: إيهٍ بني الأصفر، فإذا كشفهم المسلمون، قال أبو سفيان: [من الخفيف]

وبَنُو الأصفر الكرامُ ملوك الـ ـرّومِ لم يبق منهمُ مَذْكورُ

فلما فتح الله على المسلمين حدّثتُ أبي، فقال: قاتله الله! يأبى إلا نفاقاً...»[٣].

وعن عمرو بن ثابت عن الحسن قال: «دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كُفّ بصره، فقال: هل علينا من عين؟ فقال له عثمان: لا، فقال: يا عثمان، إنَّ الأمرَ أمرُ عالميّة، والملكَ ملكُ جاهليّة، فاجعل أوتاد الأرض بني أميّة»[٤].

هذا أبو سفيان، وأما ولده معاوية الذي أُعِدَّ إعداداً خاصاً لتلك المهمة

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب: ١٦٧٩/٤.

(٢) المقصود بالخلفاء: هم المتخلّفون عن المعركة الذين يقفون متفرجين.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٣٧٠/٦.

(٤) الأغاني: ٣٧٠/٦.

الخطيرة، وقام بدور رهيب فلم يخفِ كفره، بل أظهره في وسط بعض جلسائه، ونقله لنا التاريخ بصراحة دقيقة نذكر منها:

قال ابن أبي الحديد: «روى أحمد بن أبي طاهر في كتاب "**أخبار الملوك**" أنَّ معاوية سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فقالها ثلاثاً، فقال: أشهد أنّ محمداً رسول الله! فقال: لله أبوك يا ابن عبد الله! لقد كنتَ عالي الهمة؛ ما رضيتَ لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم ربِّ العالمين!»[1].

وقال ابن أبي الحديد أيضاً: «وروى الزبير بن بكار في "**الموفقيات**" – وهو غير متَّهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي عليه السلام، والانحراف عنه –:

قال المطرّفُ بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدَّثُ معه، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية وعقلَه، ويعجبُ بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً، فانتظرته ساعة، وظننت أنَّه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بُنَيَّ، جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثِهم، قلت: وما ذاك؟

قال: قلتُ له وقد خلوتُ به: إنَّك قد بلغت سناً يا أميرَ المؤمنين، فلو أظهرْتَ عدلاً، وبسطْتَ خيراً فإنَّك قد كبرت، ولو نظرْتَ إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلْتَ أرحامَهم فو الله ما عندهم اليومَ شيءٌ تخافه، وإنَّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات هيهات! أيُّ ذكر أرجو بقاءه! مَلَكَ أخو تَيْم فعدَل، وفعل ما

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠١/١٠.

فعل، فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذكرُه، إلا أن يقول قائلٌ: أبو بكر؛ ثم مَلَكَ أخو عديّ، فاجتهد وشمَّر عشر سنين؛ فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذكرُه، إلا أن يقول قائل: عمر، وإنَّ ابنَ أبي كبشة ليُصاح به كلَّ يوم خمس مرات: «أشهد أنَّ محمداً رسولُ الله»، فأيُّ عملٍ يبقى؟ وأيُّ ذكرٍ يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفناً»[1].

إنَّ وقفة تأمّل قصيرة عند هذا النص تكشف مقدار الحقد، والحسد، والكيد الذي يحمله معاوية لرسول الله صلى الله عليه وآله ولرسالته، ومقدار التصميم المؤكّد، والمخطّط لمحو أثره من الوجود، وهو خير دلالة على إلحاده وكفره، وقد حاول أن يربّي جيلاً واسعاً من الأمة عليه، وقد سَخَّر أموال المسلمين لذلك، واستنفد كلّ طاقات الدولة لتحقيق أهدافه لكن ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

هذا إلحاد معاوية، وأما يزيد فلم يكن متستّراً، وإنما كان مستهتراً متظاهراً بإلحاده قولاً، وفعلاً، ناشراً له بعد أن خُدِّرَت الأمة، وصارت ترقد على الضيم.

ويكفي أن نذكر من أفعال يزيد: أنّه في السنة الأولى من حكمه قتل آل رسول الله صلى الله عليه وآله، ومَثَّلَ بهم، وسبى ذريته من بلد إلى بلد، وفي السنة الثانية أرسل مسلم بن عقبة وأباح المدينة ثلاثة أيام، وكان من وصيته لمسلم بن عقبة: «فإذا أظْهِرتَ عليهم، فأبِحْها ثلاثاً، فما فيها من مالٍ أو رِقَةٍ[3] أو سلاح، أو طعام فهو

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢٩/٥-١٣٠.

(٢) التوبة: ٣٢.

(٣) الرقة: الدراهم.

للجند»[١].

ومسلم بن عقبة هذا السفّاح إنما اختاره يزيد بوصية من معاوية[٢] كما سيأتي بيانه إن شاء الله؛ ولهذا أباح المدينة، وهتك حرمتها، وسفك دماء أهلها، ثم أدركه الموت بعد أن أمر نائبه الحصين بن نمير بأن يسير إلى مكة ويحاصرها؛ لأنّها كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير، فجاءها وحاصرها أربع وستين يوماً، وأقاموا يقاتلون ابن الزبير بقية محرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق وأحرقوه بالنار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطَّارةٌ مِثلُ الفنيق المزبدِ نَرْمِي بها أعْوادَ هذا المسجدِ

قال محمد بن عمر: «احترقت الكعبة يوم السبت لثلاث ليالٍ خلوْنَ من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، قبل أن يأتي نعيُ يزيدَ بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً»[٣].

هذه بعض أعمال يزيد التي عملها بوضح النهار وعلى رؤوس الأشهاد...

هذا إضافة إلى المجون والفجور الذي كان ملوك بني أمية يُرَوّجونه ليل نهار... والأخطر من ذلك كلّه الشروع بتحريف العقائد والأحكام الإلهية، وسَخَّروا لأجل ذلك الأموال والرجال، وكلّ قدرات الدولة؛ لقلب المفاهيم والتصورات الإسلامية كما وصف الإمام الحسين عليه السلام تلك المرحلة بأدقّ وصف حيث قال في خطابه في منطقة البيضة: «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة

(١) تاريخ الطبري: ٤٨٤/٥، في حوادث سنة ٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩٥/٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٨/٥.

الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله...»[١].

وإظهار الفساد شمل كلّ نواحي الحياة السياسية، والفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية... ولم يكن الفساد ليخفى على الناس، إلا أنَّ الأخطر من ذلك أنّ نشره وترويجه أعطوه صفة دينية شرعية، حيث أضفوا عليه طابع القدسية في نسبة ما يريدون تركيزه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهنا يكمن الخطر حيث إنَّ الحلال يحرّم، والحرام يحلّل، ولكن بصيغة شرعية من خلال إسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا شكَّ أنّ هذا الأسلوب من أخطر الأساليب في محو الدين والقضاء عليه، أي: محاربة الإسلام باسم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأجل ذلك وُضِعَت آلاف الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وآله كذباً وزوراً أحصاها صاحب الغدير بأربعمائة وثمانية آلاف وستمائة وأربعة وثمانين حديثاً[٢].

هذا هو الواقع الذي عاشه الحسين عليه السلام، وأدرك خطورته على الإسلام وأيقن أنّه إن لم ينهض، ويزلزل عروش الظالمين فلن يبقى للإسلام عين، ولا أثر؛ وذلك لأنّ المخطط الأموي كان يهدف لاجتثاث الرسالة من أصولها، وقد نفّذ هذا المخطط بصيغة رسمية هادئة تجري ضمن برنامج مدروس، فقد ذَرّوا الرماد في عيون الناس بعد أن أسكتوا كل صوت حر، ومزّقوا الأمة بالنعرات القومية، والعشائرية، والطائفية... وهكذا استمروا ينفذون هذا المخطط إلا أن عين الحسين عليه السلام كانت لا تذوق النوم حارسة لدين الله حتى أنقذه بتلك النهضة المدوية المعطاءة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٣/٥.

(٢) الشيخ الأميني، موسوعة الغدير: ٤٦٧/٥.

٢- والنقطة الثانية التي أدركها الحسين عليه السلام هي أنّ الأمة وصلت إلى حالة من الخدر في الحس، وعدم الشعور بالمسؤولية حدّاً جعلها لا تفكر في واقعها، ولا تعي الخطر المحدق بها بعد أن استخف بها الحكام، واستحوذوا عليها بأسلوبي: الإفساد، والإرهاب، وهذان الأسلوبان من أخطر الأساليب التي تتعرض لها الأمم.

ومن خصائص هذين السلاحين أنّهما يسلبان الأمة الإرادة والقدرة على التحرك والوعي والإدراك، (ولقد واجه الحسين عليه السلام واقعاً اجتماعياً وسياسياً سيئاً، من مثل هذا الواقع، تمكن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة، وسلب قيمها، وضميرها، وقدراتها، ووعيها، وإرادتها، وأسوأ ما كان في هذه الانتكاسة أنّ القدرة والقوة التي أكسبهم الإسلام تحوّلت إلى قدرة عسكرية وسياسية في الاتجاه المعاكس للإسلام، وتحوّل السيف الذي سلّحهم به رسول الله صلى الله عليه وآله لقتال أعداء الإسلام إلى أداة لمحاربة أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وأوليائهم دون أعدائهم.

وكان هذا هو جوهر الانتكاسة الكبيرة التي تمّت على يد بني أمية في تاريخ هذه الأمة، وإلى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد: سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم)[1].

٣- والنقطة الثالثة التي أدركها الحسين عليه السلام أنّ الأمة لا تؤثر فيها المواعظ والخطب لفقدان الإرادة، فأصبحت تحتاج إلى هزّة عنيفة توقظها من سباتها،

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في رحاب عاشوراء: ٢٦٨/١-٢٦٩.

وتنفض عنها تراب الذل والهوان، وهذه الهزّة لا تحصل بالإرشاد، والوعظ، والتذكير القوي، وإنما لا بدّ لها من دم زكي يراق على ساحتها؛ ليُرجع إليها رشدها، ويحرر إرادتها؛ ولذلك منذ أن انطلق الإمام الحسين عليه السلام أخذ يذكّر بالموت، وينبئ بالشهادة، وكان الموت على طريق الحقّ شعاراً يرفعه.

«خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»[1].

«لا أرى الموت إلا [شهادة] سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرَماً[2]»[3].

إنّ الحُسَيْنَ عليه السلام إنّما رفع هذه الشعارات الحمراء الصارخة؛ ليبطل الخطط الرهيبة التي خدّر بها الأمويون حسَّ الأمة، وجعلوها ترضى بالذل، وتنام على الهوان، وتنصاع للظالم، وتسكت على تحريف دين الله بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف حدث هذا في أمة كانت تقول لحاكمها: لو حِدْتَ عن الشريعة لقوَّمناك بسيوفنا؟!

والجواب: إنّ المخطط الأموي سلك منهجاً فكرياً حَرَّفَ فيه مفاهيم الإسلام وعقائده الحقّة، فانبثقت في الأمة نظرية تقول: بحرمة الخروج على الحاكم الجائر، بل وجوب طاعته وملازمته والسكوت عنه؛ فإنّ الخروج عليه خروج على الإسلام، ومخالفة للشريعة، ولتركيز ذلك في نفوس أبناء الأمة وُضِعَتْ أحاديث كثيرة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله[4]، ونشرت وسط الناس حتى أصبحت ديناً يدان به، وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك في بحث قادم.

هذا هو الواقع الذي واجهه الحسين عليه السلام: مفاهيم محرّفة، وأحكام الله

---

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦ .

(٢) البَرَم -بالتحريك -: الضجر، والملالة، والسآمة.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٢١٨/١٤.

(٤) راجع صحيح البخاري باب قول النبي صلى الله عليه وآله: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»: ٨٧/٨-٨٨ .

معطلّة، وعباد الله مقهورون، والناس جميعاً - إلا من رحم الله - مستغفلون، والسلطة قائمة على الخداع، والفساد، والإرهاب... فهل تنفع في مثل هذه الحالات موعظة، أو إرشاد، أو تذكير؟ لا شكّ أنَّ كلّ ذلك غير مجدٍ، فما هو الحلُّ إذن؟

مَوقِفُ الحُسَين عليه السلام:

ورغم هذا الواقع المأساوي الرهيب طُلِبَ من الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد، وفي بيعته ما لا يخفى من الخطر على الإسلام؛ لأنّ البيعة من قبله اعتراف بشرعية الحكومة العاملة لمحو الرسالة؛ ولذلك رفض عليه السلام البيعة بقوة، وحديّة منقطعة النظير قائلاً لأمير المدينة عندما دعاه إلى بيعة يزيد:

«أيها الأمير؛ إنَّا أهل بيت النبوَّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتحَ الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل نفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة»[1].

إذن وقف الحسين عليه السلام بين ثلاثة خيارات:

الأول: أن يبايع يزيد؛ ليسلم دمه كما كان يتصوّر المشفقون على الحسين عليه السلام.

الثاني: أن يعتزل الساحة، ويلجأ إلى بعض الأماكن البعيدة عن السلطة ويتحصن بها.

الثالث: أن يخوض المواجهة المسلحة.

---

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٦٧/١.

وقد عرض بعض المفكرين ثلاثة عوامل أساسية لخروج الحسين عليه السلام على حكومة يزيد:

أ - عامل سلبي تمثل في رفض البيعة.

ب - عامل إيجابي وهو الاستجابة لدعوة أهل الكوفة.

ج - عامل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكلّ من هذه العوامل أثرٌ ودورٌ في النهضة الحسينية، ففي رفض البيعة: سلبٌ لشرعية حكومة بني أمية، وتجريدها عن إطارها الديني المتسربلة به؛ وذلك لأنّ الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو سيد شباب أهل الجنة، وهو مرجع المسلمين الروحي والفكري كما قال عليه السلام في الحديث المتقدم للوليد: «إنَّا أهل بيت النبوَّة، ومعدن الرسالة...»، فكأنّه يقول له: الحقّ لنا، ونحن أهل الدين، ولستم من الدين في شيء.

وفي رفضه هذا لبيعة يزيد أوجد خطّين متعاكسين في الحركة، والاتجاه، والهدف خط الشريعة المتمثل بأهل البيت عليهم السلام... وخط الملوك الأمويين المتمثل بيزيد ودولته وبذلك جرّد الدولة من ثوبها الديني، ومزّق الستار الذي تَخَفّى خلفه الحكّام باسم الإسلام، فعادت الدولة مملكة يحكمها رجال خارجون عن الإسلام مجانبون له، فلم يعد خطرهم يهدد الإسلام بدرجة عالية، وبذلك فوّت الفرصة عليهم، وحفظ دين الله من التحريف والتزييف.

وأما استجابته لدعوة أهل الكوفة فلم تكن السبب الرئيسي (في تكوّن النهضة، بل إنَّ نهضة الإمام هي التي أوجدت، أو سبّبت أن يُقَدِّم أهل الكوفة دعوتهم للإمام، فلم تأتِ حركة الإمام من بعد وصول دعوة أهل الكوفة إليه، بل إنّ الواقع يقول بأنَّه وبعدما شرع الإمام في تحركه، وأظهر معارضته، سمع أهل

الكوفة بقيام الإمام وتحركه، ولمّا كانت الظروف عندهم مُهيأة نسبياً، تداعى أهل البلد للاجتماع، وقرروا الكتابة للإمام ودعوته)[١].

إذن حركة الإمام عليه السلام التي ابتدأت من المدينة، حيث أعلن الخروج على حكومة الأمويين وبشكل صريح هو الذي دعا أهل الكوفة لدعوة الإمام عليه السلام، وبعبارة أخرى: إنّ حركة الإمام عليه السلام هي التي دفعت أهل الكوفة لدعوة الإمام عليه السلام، وليس العكس.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: إنّ الإمام عليه السلام عرف بأنّه لو لم يخرج من مكّة فإنّ بني أمية سيغتالونه فيها؛ لأنّ الأوامر صدرت من يزيد بعد أن أرسل ثلاثين من جلاوزته، وأمرهم بقتل الحسين عليه السلام، ولو كان معلّقاً بأستار الكعبة! وإذا تحقق ذلك فإنّه هتك لحرمة بيت الله الحرام أولاً، وثانياً سيذهب دمه عليه السلام هدراً حيث سيقوم الإعلام الأموي بالإعلان: بأن أحد الغادرين فتك بالإمام غيلة، وألقي القبض عليه، وعوقب على جريمته النكراء، وبذلك يطفئون الحماس الثوري الذي سيصنعه استشهاد الإمام عليه السلام في ساحات الجهاد ضدهم بملحمة يصنعها بنفسه أمام أعين الناس وعلى رؤوس الأشهاد.

وقد كان عليه السلام متيقناً بأن حكومة بني أمية لن تدعه حتى تسفك دمه، وتنتهك حرمته، وقد صرّح عليه السلام بذلك قائلاً: «والله لا يَدَعوني حتى يستخرجوا هذه العَلَقَة - وأشار إلى قلبه الشريف - مِنْ جَوْفي، فإذا فعلوا سلَّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلَّ من فَرَم[٢] الأَمَة»[٣].

---

(١) الشهيد مطهري، الملحمة الحسينية: ٣٠/٢.

(٢) فرم الأَمَة: خرقة الحيض.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٩٤/٥، وتاريخ مدينة دمشق: ٢١٦/١٤.

وقال عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية: «والله يا أخي، لو كنت في جُحر هامّة من هوامِّ الأرض، لاستخرجوني منه حتى يقتلوني»[١].

وقال عليه السلام: «والله ليعتدُنَّ عليَّ كما اعتدت بنو إسرائيل في السبت»[٢].

يقول المحدّث المجلسي: «بل الظاهر أنّه صلوات الله عليه لو كان يسالمهم ويبايعهم لا يتركونه؛ لشدّة عداوتهم، وكثرة وقاحتهم، بل كانوا يغتالونه بكلّ حيلة، ويدفعونه بكلّ وسيلة، وإنَّما كانوا يعرضون البيعة عليه أوّلاً؛ لعلمهم بأنه لا يوافقهم في ذلك، ألا ترى إلى مروان لعنه الله كيف كان يشير على والي المدينة بقتله قبل عرض البيعة عليه، وكان عبيد الله بن زياد عليه لعائن الله إلى يوم التناد يقول: اعرضوا عليه فلينزل على أمرنا ثمَّ نرى فيه رأينا، ألا ترى كيف أمّنوا مسلماً ثمَّ قتلوه»[٣].

كما أنّه يمكن القول: إنّ الإمام عليه السلام في استجابته لأهل الكوفة أثبت الحجة عليهم؛ لأنّهم هم الذين دعوه، وأخذوا على أنفسهم نصرته، كما أثبت الحجة على جميع المسلمين بصفته الرسالية، وارتباطه المباشر برسول الله صلى الله عليه وآله ودعوته الصريحة للناس بالثورة على الناس: «أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يُدخله مُدخَله»، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله،

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٩/٤٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٢١٦/١٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ٣٨/٤.

(٣) بحار الأنوار: ٩٩/٤٥-١٠٠.

وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر...»[١].

وأمّا عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهو العامل الأساسي في نهضته المباركة كما صرح عليه السلام بذلك حيث قال عليه السلام: «أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي، وأبي»[٢]، وسيأتي بيان هذه الفريضة وأهميتها، ودور ثورة الحسين عليه السلام في رفع قيمتها في المجتمع الإسلامي.

ولأجل ذلك ضحّى الحسين عليه السلام بكل غالٍ ونفيس بنفسه الزكية، ودماء أهله وأصحابه، وكل شيء في الدنيا؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ولكن الثمن كان باهضاً جداً، فقد لاقى آل الرسول من المصائب ما تتصدع الجبال له، وتتفطر السماوات منه، يقول السيد ابن طاووس رحمه الله: «وتسابق القوم [بعد مقتل الحسين عليه السلام] على نهب بيوت آل الرسول، وقرّة عين الزهراء البتول، حتى جعلوا ينتزعون ملحفة المرأة عن ظهرها، وخرج بنات رسول الله صلى الله عليه وآله، وحريمه يتساعدن على البكاء، ويندبن لفراق الحماة والأحباء...

قال [الراوي]: فوالله لا أنسى زينب بنت علي عليها السلام وهي تندب الحسين عليه السلام، وتنادي بصوت حزين، وقلب كئيب: وا محمداه، صلّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، وا ثكلاه، وبناتك سبايا، إلى الله المشتكى، وإلى محمد المصطفى، وإلى علي المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء، وإلى حمزة سيد الشهداء.

وا محمداه، وهذا حسين بالعراء، تسفي عليه ريح الصباء، قتيل أولاد البغايا.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٣/٥.

(٢) كتاب الفتوح: ٢١/٥.

واحزناه، واكرباه عليك يا أبا عبد الله، اليوم مات جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله.

يا أصحاب محمداه، هؤلاء ذرية المصطفى يُساقون سوق السبايا»[١].

[من الكامل]

وثواكلٌ في النوح تُسعد مثلها ... أرأيتَ ذا ثكلٍ يكون سعيدا

حنَّت فلم ترَ مثلهن نوائحا ... إذ ليس مثل فقيدهنّ فقيدا

لا العيس تحكيها إذا حنّت ولا الـ ... ورقاء تحسن عندها الترديدا

إن تنعَ أعطت كلَّ قلب حسرةً ... أو تَدْعُ صدَّعت الجبال الميدا

عبراتها تحيي الثرى لو لم تكن ... زفراتها تدع الرياض هُمودا

وغدت أسيرة خدرها ابنة فاطم ... لم تلفِ غير أسيرها مصفودا

تدعو بلهفة ثاكل لعب الأسى ... بفؤاده حتى انطوى مفؤودا

تخفي الشجا جلداً فإن غلب الأسى ... ضعفت فأبدت شجوها المكمودا

نادت فقطَّعت القلوب بشجوها ... لكنما انتظم البيان فريدا:

إنسان عيني يا حسين أُخَيَّ يا ... أملي وعقد جماني المنضودا[٢]

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٨٠-١٨١.

(٢) ديوان الكعبي: ٦٥.

المَوْقِفُ مِنَ

الْحاكِمِ الظّالِمِ

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1].

الركون إلى الذين ظلموا: هو الميل إليهم، والتعاون معهم ومحاباتهم في شيء من أمور الدين، ومداهنتهم، والرضا بفعلهم، وموالاتهم، وحبّ بقائهم، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ قال: «هو الرجل يأتي السّلطان، فيحبّ بقاءه إلى أن يدخل يده إلى كيسه، فيعطيه»[2].

وبالجملة الركون هو الاعتماد عليهم، والدخول معهم في ظلمهم إلا لمصلحة للدين أو الدنيا التي لا تتعارض مع أحكام الشريعة، مع الحذر والدقّة في التعامل، وتقديم الخدمات للمؤمنين، كلّ ذلك نهى عنه الإسلام، وحرّمه على المؤمنين، وأوضح عاقبته الوخيمة في الدنيا والآخرة؛ لما يترتب عليه من مفاسد خطيرة، وعواقب سيئة على الإنسان فرداً ومجتمعاً، ونفهم من ذلك:

إنّ الركون إلى الظالمين يخرج الإنسان من ولاية الله ورحمته كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾، وأيُّ خطرٍ أعظمُ من طرد

(١) هود: ١١٣.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٣٣/١٢، باب (تحريم صحبة الظالمين ومحبّة بقائهم): ح/١.

الإنسان من ولاية الله تعالى حيث يصبح مجرداً من كل حصانة ووقاية تحميه من مزالق الهوى والشيطان، وعلى هذا تظهر النتيجة الثانية وهي الخذلان، وعدم النصر: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، وكأنّ الآية الكريمة تريد أن تقول: إن كنتم تريدون النصر فأظهروا النفور والاشمئزاز من الظالمين، بل أظهروا النقمة، والبراءة منهم، وإلا فستخذلون، وإذا خذل الله إنساناً فستكون عاقبته النار والعذاب الأليم.

والسرُّ في تحريم الركون إلى الظالمين - وإن كان يحقق بعض المصالح الذاتية الآنية - أنّه مخالف لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله؛ فإنّ الله إنّما أرسل الرسل، وشرّع الشرائع؛ ليقيم العدل والقسط؛ ليسعد الجنس البشري من خلال هدايتهم وإرشادهم إلى صراطه المستقيم... والركون إلى الظالمين مخالف لسنة العدل والقسط؛ فإنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان، والظالمين يأمرون بالجور، والظلم، والعدوان على خلق الله، ويهتكون حرماته تعالى، ثم إنّ الركون إليهم يؤدي إلى تقوية شوكتهم، واتّساع رقعتهم، وبذلك يفسدون المجتمع البشري بأبشع صور الفساد.

والمقصود بالظالمين كما يظهر من جملة من المفسرين: هم الذين يقومون بإدارة شؤون المجتمع في حياته الدينية والدنيوية على غير شريعة الله تعالى، أو إنّ العامة تقلدهم أمورهم فيحجبون عنها الحقائق الإلهية؛ لاستعبادهم، وسلب حقوقهم الإنسانية، وأكل أموالهم بالباطل، ولا سيما الولاة الظلمة الذين يخرجون الناس عن جادة الصواب من السلاطين، أو وعاظهم الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم، فأصبحوا خدّاماً للظالمين يبرّرون لهم ظلمهم، ويشرّعون لهم؛ ليكون ظلمُهم مغلّفاً بثوب الشرعية المقدسة.

وقد حَرَّمَتْ الشريعة الإسلامية التعاون مع هؤلاء، والرضا بأفعالهم والسكوت عنها حتى لو كانت تنفع العامة، روي: «قسّم الحجاج مالاً فأعطى منه مالك بن دينار، فقبل وأراد أن يدفع إلى آخر فأبى أن يقبل، ثم مرَّ ذاك الرجل بمالك، وإذا هو يقسم ذلك المال، فقال له مالك: لهذا قبلناه، فقال له الرجل: دعني مما هناك أسألك بالله، الحجاج اليوم أحبّ إليك أم قبل اليوم؟ فقال: بل اليوم. فقال الرجل: فلا خير في شيء حبّب إليك الحجاج»[١].

وقد حرّم الإسلام العمل مع الظالمين، والتعاون معهم، والرضا بأفعالهم، وأوعد عليه أشدّ العذاب، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة القطعية، والعقل، والإجماع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢]، ولا شكّ أنّ الإثم والعدوان هو الظلم بعينه[٣].

وأما الأحاديث الواردة في تحريم صحبة الظالمين ومعونتهم فمستفيضة ومتواترة فعن أبي حمزة، عن علي بن الحسين عليهما السلام في حديثٍ قال: «إيّاكم وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين»[٤].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم»[٥].

وعن أبي بصير قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم، فقال لي: يا أبا محمّد، لا ولا مَدَّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلاّ أصابوا من دينه

(١) الشيخ التستري، كتاب البدائع: ٢٧٥.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) راجع كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري، باب معونة الظالمين.

(٤) وسائل الشيعة: ١٢٨/١٢، باب (معونة الظالمين ولو بمدّة قلم وطلب ما في أيديهم من الظلم): ح/١.

(٥) المصدر نفسه: ح/٢.

مثله، أو حتّى يصيبوا من دينه مثله»[١].

وعن ابن أبي يعفور قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أصحابنا، فقال له: جعلت فداك، إنَّه ربما أصاب الرّجل منّا الضّيق أو الشّدة، فيدعى إلى البناء يبنيه، أو النهر يكريه، أو المسنّاة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أحبّ أنّي عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، وإن لي ما بين لابتيها، لا ولا مَدَّة بقلم، إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد»[٢].

بل شدّد أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام على المنع من التعاون مع الظالمين حتى ولو كان في أداء الواجبات الشرعية، أو المستحبات، أو ما إلى ذلك؛ فعن صفوان بن مهران الجمال قال: «دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام، فقال لي: يا صفوان، كلُّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

قلت: جعلت فداك، أيُّ شيء؟

قال عليه السلام: إكراؤك جمالك من هذا الرّجل، يعني هارون.

قال: [فقلت:] والله ما أكريته أشراً، ولا بطراً، ولا للصّيد، ولا للهو، ولكنّي أكريته لهذا الطريق، يعني طريق مكّة، ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

فقال عليه السلام لي: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم جعلت فداك.

قال: فقال عليه السلام لي: أتحب بقاءهم حتّى يخرج كراؤك؟

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢٩/١٢، ح/٥.

(٢) المصدر نفسه: ح/٦.

قلت: نعم.

قال عليه السلام: من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وروده النار.

قال صفوان: فذهبتُ، فبعتُ جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني، فقال لي: يا صفوان، بلغني أنَّك بعت جمالك، قلت: نعم، قال: ولِمَ؟

قلت: أنا شيخ كبير، وإنَّ الغلمان لا يفون بالأعمال.

فقال: هيهات هيهات، إنّي لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر.

قلت: ما لي ولموسى بن جعفر؟

فقال: دع هذا عنك فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك»[1].

وبرغم هذا التشديد من قبل أئمة الهدى والحق عليهم السلام، فقد راجت نظرية الركون إلى الظالم في عصر بني أمية، بأحاديث وروايات وضعها لهم وعّاظ السلاطين، وطلاب الدنيا بالدين، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام صاعقة، فنسفت كلما بنوه، وتركته قاعاً صفصفاً.

كَيفَ راجَتْ نَظرِيّةُ الرّكونِ إلى الظّالِم؟

انبثقت في المجتمع الإسلامي نظريتان في الموقف من السلطان:

النظرية الأولى: تقول إنّ السلطان أو الخليفة إذا بويع وجبت طاعته حتى لو كان فاسقاً ومتمرّداً على طاعة الله تعالى، ولا يجوز الخروج والثورة عليه؛ لأنّ الله تعالى قد نَصَّبه وفرضه بوعد منه... ونَظّروا لذلك بأحاديث وضعوها، والدليل على وضعها أنّها تنافي روح الإسلام في رفض الظلم، ووجوب مقاومته، ومن

(١) وسائل الشيعة: ١٣١/١٢-١٣٢، ح/١٧.

تلك الأحاديث ما رواه البخاري عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنّه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»[١].

ولهذا راح وعّاظ السلاطين يصدّرون الأحكام على ضوء ما روّجوا له من مبرّرات، ووضعوا لها أحاديث على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «قال ابن بطال: في الحديث حجّة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السّلطان المتغلّب والجهاد معه، وأنَّ طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدّهماء، وحجّتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك...»[٢].

وعلى هذه النظرية تترتّب آثارٌ خطيرةٌ على الإسلام وعلى المسلمين؛ أمّا على الإسلام:

١- تحريف مفاهيمه حسب مشتهيات الحاكم، وما يروم تحقيقه من أهداف ذاتية باسم الشرع الشريف منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا أعظم خطر تتعرض له رسالة الله تعالى حيث يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وأما على المسلمين فإن ذلك يوقعهم في الضلال وهم يحسبون أنّهم على الهدى.

٢- إنَّ الحاكم المتسلط الظالم سيجعل من نفسه مشرّعاً باسم الدين، وبذلك يتسلط على الإسلام اسماً ورسماً، فكلّ ما يقع منه يكون باسم الإسلام، والإسلام منه براء، ثم يجري ظلمه على رقاب الناس باسم الدين، وبذلك يخرج

(١) صحيح البخاري: ٨٧/٨، باب قول النبي صلى الله عليه وآله: «سترون بعدي أموراً تنكرونها».

(٢) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٩/١٣.

الناس من الدين بتقبيح صورته لهم، ولعلّ هذا أخطر ما تعرض له الإسلام، ولا زال يتعرض له.

٣- تحويل الإنسان إلى قِنّ مستعبد لا يملك من أمره شيئاً، وعلى هذه النظرية استعبد يزيد أهل المدينة بعد واقعة الحرة حيث إنّ مسلم بن عقبة بعدما احتل المدينة المنورة وأباحها ثلاثة أيام انتهك فيها الأعراض، والأموال، والدماء حسب تخطيط معاوية، ووصيته ليزيد حيث قال له: «إنَّ لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمِهم بمسلم بن عقبة، فإنَّه رجل قد عرفتُ نصيحته»[١].

وبناءً على ذلك؛ فإنّ مسلم بن عقبة دعا (الناس إلى البيعة ليزيد على أنّهم خَوَلٌ له يحكم في دمائهم وأموالهم، وأهليهم من [ما] شاء، فمن امتنع من ذلك قتله)[٢].

يقول السيوطي: «وفي سنة أربع وسبعين سار الحَجّاجُ إلى المدينة، وأخذ يتعنّت على أهلها، ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وختم في أعناقهم وأيديهم، يُذِلّهم بذلك، كأنس، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد الساعدي، فإنا لله وإنا إليه راجعون!»[٣].

النظرية الثانية: إنَّ الحاكم أمينٌ على مقدرات الأمة، ومسؤولٌ عن تطبيق أحكام الله تعالى عليها، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الداين بدين بالحق، الحابس نفسه في ذات الله»[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٢/٤، وتاريخ الطبري: ٤٩٥/٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ١١٨/٤، وتاريخ الطبري: ٤٩٥/٥.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٢٤١.

(٤) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ٢٦-٢٧.

إذن الحكم أمانة ثقيلة ومسؤولية عظيمة، وعلى أساس هذا المبدأ سار رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وهذا المبدأ يعزز مبدأ متابعة أهل البيت عليهم السلام وموالاتهم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، وتترتب على هذه النظرية النتائج الآتية:

١- حفظ كرامة الإنسان، وأنَّه حر مختار يجب أن يخضع للحق والشرع الإلهي، وعليه أن يرفض الظلم والجور، ويثور على الظالمين، ويرفع عقيرته في وجوه الحكام إذا حادوا عن الطريق المستقيم، يقول الإمام الحسين عليه السلام:

«أيها الناس، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قول كان حقّاً على الله أن يُدْخله مُدخَله»[١].

إذن هذه النظرية تعطي الأمة حقّ الثورة على الحاكم الجائر، بل توجبها عليه، فإن لم تثر عرّضت نفسها للعقاب الإلهي الأليم؛ ولذلك رفض الأحرار الثائرون أن يهادنوا الظالمين ولو صبّوا عليهم المال صباً.

روى أبو الفرج الأصفهاني، قال: «كان جعفر الأحمر، وصباح الزعفراني ممن يقوم بأمر عيسى بن زيد، فلما بذل المهدي لعيسى بن زيد من جهة يعقوب بن داود ما بذل له من المال والصلة نودي بذلك في الأمصار ليبلغ عيسى بن زيد فيأمن، فقال عيسى لجعفر الأحمر وصباح: قد بذل لي من المال ما بذل، ووالله ما أردت حين أتيت الكوفة الخروج عليه، ولئن أبيت خائفاً ليلة واحدة أحبّ إليَّ من جميع ما بذل لي، ومن الدنيا بأسرها»[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ: ٤٨/٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين: ٣٤٧.

وروى أيضاً قائلاً: «أخبرني عبد الله بن زيدان، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سعيد بن عمر بن جنادة البجلي، قال: حَجَّ عيسى بن زيد، والحسن [بن صالح]، فسمعنا منادياً ينادي: ليبلغ الشاهد الغائب أنَّ عيسى بن زيد آمن في ظهوره وتواريه، فرأى عيسى بن زيد الحسن بن صالح قد ظهر فيه سرور بذلك، فقال: كأنّك قد سررت بما سمعت؟ فقال: نعم، فقال له عيسى: والله لإخافتي إيّاهم ساعة أحب إليَّ من كذا وكذا»[1].

٢- وهذه النظرية تعطي الأمة دورها الفعّال في البناء الاجتماعي والسياسي والفكري، فهي تبني الحياة الإنسانية على أساس الحرية في ظلّ طاعة الله تعالى؛ فللأمة دور في تحديد سلطة الحاكم من خلال المراقبة والمحاسبة للحاكم إذا حاد عن الطريق المستقيم، فالسلطة وفق هذه النظرية أداة لحفظ الأمة من الانحراف، والرسالة من التحريف، ووسيلة لتطبيق أحكام الله تعالى بإقامة العدل والقسط والدعوة إلى الله في جميع أنحاء الأرض.

٣- كما ثَبَّتَتْ هذه النظرية حقَّ الثورة على الحاكم الظالم الذي اتّخذ عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وعلى هذه النظرية كان المسلمون في صدر الإسلام؛ ولذا نراهم يقولون لعمر وهو الخليفة القوي: إذا حِدْتَ عن شرعة الله نقومك بسيوفنا، وثارت الأمّة على عثمان، وقتلته عندما بدأ خطُّ الانحراف يدبُّ في جسد الأمة نتيجة السياسة الغاشمة التي سلكها الولاة.

وعندما أدرك معاوية خطورة هذه النظرية على عرشه أخذ يعمل جاهداً؛ ليجعل من سياسته شرعية، فاستأجر الكذّابين والوضّاعين، وبذل أموال المسلمين

(١) مقاتل الطالبيين: ٣٤٧-٣٤٨.

الطائلة لوضع الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وآله منها: «إنّ الله ائتمن على وحيه جبريل، وأنا، ومعاوية، وكاد أنْ يُبعث معاوية نبياً من كثرة حِلمه وائتمانه على كلام ربّي، فغفر لمعاويةَ ذنوبه، ووفّاه حسابه، وعلَّمه كتابه، وجعله هادياً مهديّاً، وهدى به»[١].

وفي رواية أخرى وضعت على لسان ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأُمَناء عند الله سبعة. قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: القلم، واللَّوْح، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، وأنا، ومعاوية بن أبي سفيان...»[٢] إلى آخر الرواية بما فيها من أعاجيب!!

وهكذا راجت آلاف من أمثال هذه الأحاديث التي ابتلت الأمّةُ منها ببلاء عظيم لا تزال تعاني منه.

فالإمام الحسين عليه السلام كان يعيش هذا الواقع المرير بدقّة، ويلاحظ كيف يدبُّ الانحراف وسط الأمة بشكل منظم مدروس، وبذلك أدرك الخطر المحدق بالرسالة، فأراد أن يكشف هذا الواقع، ويقلعه من جذوره، ويرجع الأمّة إلى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وينسف كلّ ما بناه الظالمون طيلة خمسين عاماً، ولكنَّ الثمن كان غالياً جداً، فنهض نهضته المباركة، وقد استفرغ كلَّ ما آتاه الله من قوة في القلب والبدن، وبذل كلّ غالٍ ونفيس صارخاً بالأمة: «ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غَيَّر... وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ٦/٢٥.

(٢) المصدر نفسه.

أهلكم، فلكم فيَّ أُسوة»[١].

وهكذا فجَّر سيد الشهداء عليه السلام بدمه الطاهر، وبدماء أولاده، وإخوانه، وأصحابه روح الثورة في الأمة، وأبطل مفعول تيار الانحراف، وأرجع الأمة إلى مسار الرسالة الأصيل؛ ولهذا ترتَّبت على ثورة الحسين عليه السلام آثار مهمة يمكن أن نوجزها بنقاط:

١- ثَبَتَتْ ثورة الحسين عليه السلام خطّاً، وأسست منهجاً ثورياً، وأرست في الأمة سياسة تمثلت بالثورة على الحاكم الظالم، ووجوب قتاله، وإذا بويع الظالم تنقض بيعته؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بل أكثر من هذا، فقد عدَّت بعض النصوص الواردة عنهم عليهم السلام أنّ طاعة السلطان الظالم خروج ومروق من الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أرضى سلطاناً بما أسخط الله خرج من دين الإسلام»[٢].

٢- إنّ الفاسق لا يبايع، وإذا بويع غفلة، أو خداعاً، ثم ظهر فسقه وانحرافه، وأصبح خطراً يهدّد الإسلام، فيجب نقض بيعته وإسقاطه، بل قال بعض الفقهاء: يعزل قهراً، وإن لم تكن الأمة قادرة على عزله حيث تصبح حكومته غير شرعية.

٣- الأثر التربوي: وهو أنَّ ثورة الحسين عليه السلام ربّت الأمة على روح الرفض للظالم أينما كان، وفي أيّ زمان كان؛ ولهذا أصبح منهج أهل البيت عليهم السلام منهج الرفض لكلّ ما خالف كتاب الله وسنة رسوله؛ وبذلك جسّدت الثورة منهجاً، ورسمت واقعاً، وكتبت تأريخاً.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٤٨/٤.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٨٠/٧٥.

٤- من آثار ثورة الحسين عليه السلام انفجار ثورات كثيرة على أثرها، بل كل الثورات التي حدثت بعد يوم الطف كانت امتداداً لتلك الثورة الجبارة كثورة التوابين، وثورة صاحب فخ، وثورة زيد بن علي... وإلى يومنا هذا، ورحم الله الإمام الخميني الذي فجّر أعظم ثورة في القرن العشرين والذي قال: «إنَّ كلَّ ما لدينا [هو] من محرم وعاشوراء»[١].

[من البسيط]

بقتله فاح للإسلام طيب هدى ... فكلما ذكرته المسلمون ذكا

وصان ستر الهدى عن كل خائنة ... ستر الفواطم يوم الطف إذ هتكا[٢]

(١) الإمام الخميني، نهضة عاشوراء: ٤.

(٢) السيد جعفر الحلي، سحر بابل وسجع البلابل: ٣٨٣.

ثَوْرَةُ الأَمْرِ بِالْمَعْروفِ

وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[1].

لا نبالغ إذا قلنا بأنّ العامل الأساسي في ثورة الحسين عليه السلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلك هي الحقيقة بعينها كما صرَّح بذلك الحسين عليه السلام في عدّة بيانات كشف فيها أهداف ثورته المباركة، منها قوله عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: «...أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر»[2]، ومنها قوله عليه السلام في كتابه إلى أهل الكوفة: «فقد علمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام أو تاركاً لعهد الله، ومخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، فعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يغير بقول، ولا فعل، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[3].

ومن كلام له عليه السلام في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يروي عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «اعتبروا أيها الناس، بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار إذ يقول: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ﴾[4]،

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٢١/٥.

(٣) المصدر نفسه: ٨١/٥.

(٤) المائدة: ٦٣.

وقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[1].

وإنما عاب الله ذلك عليهم؛ لأنّهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم، ورهبة مما يحذرون، والله يقول: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[3].

فبدأ الله بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فريضة منه؛ لعلمه بأنها إذا أدِّيت، وأقيمت استقامت الفرائض كلها هيّنها وصعبها؛ وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام، مع ردّ المظالم ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها، ووضعها في حقها»[4].

هكذا كان الحسين عليه السلام يُصرّح في أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستنداً في ذلك إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

إذن من أجل إقامة تلك هذه الفريضة أقدم الحسين عليه السلام على خوض تلك المعركة الرهيبة التي قَدَّم فيها كلّ غالٍ ونفيس، دمه، ماله، أهله، أصحابه... وبذلك أعطى الحسين عليه السلام لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيمتها الحقيقية التي أرادها الله لها.

---

(١) المائدة: ٧٨-٧٩.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) التوبة: ٧١.

(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٦٨.

(وعلى هذا الأساس فإنّ قيمة قيام الإمام عليه السلام، استناداً إلى هذا العامل، تتضاعف كثيراً، ويأخذ الدرس الحسيني انطلاقاً من هذا الحساب، شكلاً آخر، ووضعية مختلفة.

والسبب الأساسي، والعامل الرئيسي الذي يُعطي لهذه النهضة جدارتها وأهليتها؛ لتبقى دائماً مُشعّة ومشرقة على جبهة التاريخ، وخالدة أبداً، ودرساً أزلياً، وثورة لا نظير لها في العالم، هو هذا السبب... إنّ هذا العامل يرفع كثيراً من أهمية وقيمة النهضة الحسينية)[1].

أقول: ما أرفع هذا الفريضة، وما أعظم قدرها عند الله تعالى، وعند أوليائه... حتى تقوم شخصية بتلك الجلالة والعظمة؛ لتقدّم نفسها فداء لها، وإعادتها على ساحة الأمة بتلك التضحيّة الجبارة التي يراق فيها دم رسول الله صلى الله عليه وآله، وتسبى ذريته.

فلنقف عند هذه الفريضة؛ ولنستوحي دورها في حياتنا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

أما القران الكريم فقد أكّد عليها كثيراً في آيات عديدة منها قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وأما الأحاديث الشريفة فقد تواترت عند المسلمين جميعاً، وسنأتي على ذكر بعضها تباعاً إن شاء الله.

---

(١) الشهيد مطهري، الملحمة الحسينية: ٥٥/٢.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

مَعْنى المَعْروفِ وَالْمُنْكَرِ:

المعروف: «اسم جامع لكلّ ما عُرف من طاعة الله، والتقرّب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرعُ، ونهى عنه من المُحَسَّنات والمُقَبَّحات، وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس إذا رأوْه لا ينكرونه»[١]، وإن شئتَ قلت: «المعروفُ اسم لكلّ فعل يُعرف حسنه بالشرع والعقل من غير أن ينازع فيه الشرع»[٢]، والمنكر ضد ذلك جميعاً.

وفي لسان الفقهاء: «هو كلّ فعل اختص بوصف زائد على حسنه إذا عرف فاعله ذلك، أو دلَّ عليه، والمنكر كل فعل قبيح عرف فاعله قبحه، أو دلَّ عليه»[٣].

وخلاصة الكلام: إنَّ المعروفَ هو كلُّ فعل جميل أقرّته الفطرة البشرية، وتعارف عليه الناس، ولم ينكره الذوق السليم، والعقل الراجح، وأمضاه الشرع المقدس.

أَهَمِّيَةُ الأمْرِ بِالْمَعْروفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنْكَرِ:

لا نستطيع أن نحدد أهمّية هذه الفريضة إلا من خلال ما ورد فيها على لسان المعصومين عليهم السلام من بيان لآثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن تلك البيانات ما ورد عنهم عليهم السلام: «إنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بهما تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتمنع المظالم، وتعمّر

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٢٤٠/٩.

(٢) الطريحي، مجمع البحرين: ٩٣/٥.

(٣) الشيخ محمد حسن النجفي، جواهر الكلام: ٣٥٦/٢١.

الأرض، وينتصف للمظلوم من الظالم، ولا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء...».

وفي نصوص أخرى: «هما قوام الدين وغايته، وهما أفضل أعمال الخلق، وبهما يضاعف الثواب ويعظم الأجر»[1]، إلى غير ذلك من النصوص الواردة في المجامع الحديثية.

لماذا كُلُّ هَذا؟

إنَّ الله تعالى عندما خلق الإنسانَ ميَّزه على غيره من الحيوانات والملائكة بمزيّة الاختيار، وهذه المزيّة اختصَّ الإنسان بها؛ لأنّ نفس الإنسان ذات أبعاد متعددة على عكس بقية المخلوقات ذات البعد الواحد.

ففي نفس الإنسان أهواء وشهوات مختلفة إلى جانب القوة العقلية، وهذه القوى تتنازع فيها بصورة دائمة، ولأنّها أمارة بالسوء؛ فهي تنزع دائماً إلى الإشباع، ولا إشباع لها؛ فإنّها في جشعها لا تقف عند حدّ من الحدود، بل تبقى تلهث وراء غرائزها، ومن خلالها يخرج الإنسان عن الحدّ الطبيعي الذي يحفظ له توازنه؛ ولهذا وَضَعَ الله للإنسان هذه النظم؛ ليستقيم في مسيرته، ويسعد في دنياه وآخرته من خلال التوازن بين القوى المودّعة في نفسه.

ومن هنا حَمَّل النظام الإلهي الإنسان مسؤوليات متعدّدة أوجبها عليه: كمسؤوليته عن نفسه في تقويمها وتزكيتها، وحاول أن يوجد في نفس الإنسان

(١) هذه العبارات اقتبست من الأحاديث الشريفة.

الرقيب الداخلي ليحصنه من الانخراط وراء شهواته، وكما أوجب مسؤوليته عن نفسه أوجب عليه مسؤوليته عن مجتمعه، بل عن جميع بني جنسه: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته».

فليس للإنسان حقٌّ في أن يتنازل عن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتنصّل عن أدائها؛ فهي واجبة وجوب بقية العبادات، بل أكثر منها؛ لأنَّ الفرائض الأخرى متوقفة عليها، ولعلّ هذا هو معنى الحديث الشريف: «إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتُرَدّ المظالم، وتعمّر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر»[1].

فما لم يقم كلّ فرد بمسؤولية في الإرشاد والتوجيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يمكن أن تستقيم حياة الأمة، وترتقي إلى معارج الكمال بدون وجود رقابة اجتماعية فيما بين أفراد المجتمع الواحد.

وهذه الرقابة التي تتضمّن الأمر، والنهي، والنصيحة، والإرشاد، وهذا ما نصطلح عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما لم تقم الأمة بدورها في هذه الفريضة فإنها تُعَرِّضُ نفسها للهلاك والدمار؛ لأنَّ غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بين صفوف الأمة يؤدّي بالنتيجة إلى انتشار الفساد بكل أشكاله، وتعمّ الفوضى، والانحرافات عن جادة الصواب، ويتسلط الظالمين والجائرين على مقدّرات الأمة، فيعيثون بها إفساداً وإرهاباً.

وهذا ما أشار إليه حديث السفينة المعروف، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٣٩٥/١١.

«مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله، والمُداهن فيها، كمَثَل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وأصاب بعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلِها إذا استقوا من الماء مرَّوا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعهم يصعدون فيؤذونا، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم، وما أرادوا هَلَكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

إذن إذا تركت الأمّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعرّضت جميعاً للبوار والدمار صالحها وطالحها كما جاء في حديث جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال عليّ عليه السلام: أوحى الله تعالى جلّت قدرته إلى شعيا [شعيب] عليه السلام إنّي مهلكٌ من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارِهم، وستّين ألفاً من خيارهم، فقال عليه السلام: هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال: داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي»[2].

وفي حديث آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد أوحى الله فيما مضى قبلكم إلى جبرئيل، فأمره أن يخسف ببلد يشتمل على الكفّار والفجّار، فقال جبرئيل: يا ربّ، أخسف بهم إلا بفلان الزاهد؟ فيعرف ماذا يأمره الله به؟ فقال الله تعالى: بل اخسف بهم وبفلان قبلهم، فسأل ربّه، فقال: ربّ عرِّفني لِمَ ذلك وهو زاهد عابد؟ قال: مكّنت له وأقدرته فهو لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، وكان يتوفّر على حبهم، وفي غضبي لهم»، فقالوا: «يا رسول الله، فكيف بنا ونحن لا نقدر على إنكار ما نشاهده من منكر؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتأمرنَّ بالمعروف،

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ٦٩/٣-٧٠، ح/ ٥٥٣٣.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨١/١٠٠.

ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليعمّكم الله بعذاب»، ثمَّ قال: «من رأى منكراً فلينكره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله من قلبه أنَّه لذلك كاره»[١].

آثارُ تَرْكِ الأَمْرِ بِالْمَعْروفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ:

إنَّ لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آثاراً خطيرة أشارت إليها النصوص الحديثيّة نذكر منها:

١- **عدم استجابة دعاء الصالحين**: لقد أكّدت الأحاديث الشريفة أنّ أبواب السماء لا تفتح للداعين الذين يعيشون في مجتمع تعمّ فيه المفاسد، ولا تنكر فيه؛ فعن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيولّي الله أموركم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[٢].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنَّه قال: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهُنَّ عن المنكر، أو ليستعملنَّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّه قال: «أيها الناس، إنَّ اللهَ تعالى يقول: مُروا بالمعروفِ، وانهوا عن المنكر قبلَ أن تدعوني فلا أُجيبَكم، وتسألوني فلا أُعطيَكم، وتستغفروني فلا أغفرَ لكم»[٤].

وفي حديث آخر: «أيها الناس، إنّ الله تعالى يقول: مُروا بالمعروف، وانهوا

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٨٥.

(٢) الشيخ الطوسي، كتاب الأمالي: ٧٧٠.

(٣) وسائل الشيعة: ٣٩٤/١١.

(٤) كنز العمال: ٧٣/٣، ح/ ٥٥٥٤.

عن المنكر من قبل أن تدعوني فلا أجيبَ لكم، وتسألوني فلا أُعطيَكم، وتستغفروني فلا أنصركم»[١].

٢- انتشار المفاسد الأخلاقية، وانقلاب الموازين الشرعية: إنَّ مما لا شك فيه أنّ المفاسد الأخلاقية وغيرها سوف تنتشر في المجتمع إذا سكت الناس عنها، فلم يقفوا بوجه مفسد فينهونه، ولم يأمروا بالمعروف، وحينئذٍ يألف الناس ذلك، وتعمّ الفواحش، وتنقلب الموازين، فيصير الحق باطلاً، والباطل حقاً، وإلى هذا أشارت الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، يقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم، ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟» فقيل له: «ويكون ذلك يا رسول الله؟» فقال صلى الله عليه وآله: «نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف؟» فقيل له: «يا رسول الله، ويكون ذلك؟» قال: «نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟»[٢].

٣- سلب القدسيّة من الأمّة: إنما تُقدّسُ الأمم، وتُحترم بمقدار سيادة الحقّ والعدل، والإنصاف فيها، فإذا انتشر فيها الباطل، سيطر أهله، واحتُرم الفاسق، وأهين العادل، فحينئذٍ تنقلب الموازين، ومثل هذا المجتمع تنعدم قدسيته؛ لأنَّ الأمة التي لا تأمر بالمعروف، ولا تنهى عن المنكر سوف يُؤكل حقّ الضعيف فيها، وتُهتك الكرامات، وبذلك تُسلب قدسية تلك الأمّة، وتصبح أمّة ذليلة، مهانة، ضعيفة مستضعفة، يأكل فيها القويُّ الضعيفَ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّي سَمِعْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وآله يَقُولُ في غَيْر مَوْطِنٍ: لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ

(١) كنز العمال: ٧٣/٣، ح/ ٥٥٥٥.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٩٦/١١-٣٩٧.

لِلضَّعيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إنَّ اللهَ لا يُقَدِّسُ أُمَّةً لا يَأخذُ الضعيفُ حقَّه مِن الْقَوِيِّ، وَهُو غير مُتعتع».

«إنَّ اللهَ لا يُقَدِّسُ أُمَّةً لا يَأخذُ الضعيفُ فِيهَا حقَّه غيرُ متعتع».

«كيفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يأخذُ ضعيفها حقّه من قويّها، وهو غير متعتع»

«لا يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يؤخَذُ مِنْ شَديدِهم لِضَعِيفِهم».

«إنَّه لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يأخذُ الضعيف فيها حقه غير متعتع»[٢].

٤- **تسلّط الظالمين**: غياب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في أيّة أمّة من الأمم يؤدّي إلى اختلال الموازين، وإذا اختلّت الموازين فسوف يتصدّر القويُّ الظالمُ، ويأخذ بزمام المبادرة؛ لأنّه من البديهي إذا غاب المصلح ظهر المفسد، فعن مُحمد بن عرفة قال: «سَمِعْتُ أبا الحسن عليه السلام يَقُولُ: لَتأمرنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتنهنَّ عن الْمُنكرِ أو ليستعملنَّ عَليكُم شراركم، فَيَدعو خِيارُكم ولا يُستجاب لَهم»[٣].

وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «لتأمرُنَّ بالمعروفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ اللهُ عليكم سلطاناً ظالماً لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم...»[٤].

٥- **ارتفاع التديّن عن تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: في

---

(١) نهج البلاغة: ٤٦٠، كتاب: ٥٣.

(٢) كنز العمال: ٧٢/٣، ح/٥٥٤٤-٥٥٤٥-٥٥٤٧-٥٥٤٨-٥٥٤٩.

(٣) الشيخ علي الطبرسي، مشكاة الأنوار: ١١٠/١، ح/٢٣٧.

(٤) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان: ٨٠٧/٢.

كثير من الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام: إنَّ التاركَ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا دين له، وهي كلمة موحية بسلب الإيمان بالله تعالى ورسوله واليوم الآخر، ففي الحديث الشريف: «لا دين لمن لا يدين الله بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[١].

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

وفي بعض الروايات تعبير بضعف الدين، بل نفيه عن التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له»، فقيل: «وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟» قال: «الذي لا ينهى عن المنكر»[٣]، ولا أعرف قارعة تحلُّ بإنسان أفظع من نفي الإيمان عنه.

٦- **حلول العذاب الإلهي**: وهي النتيجة النهائية، حيث إنّ المجتمع الذي تعمّ فيه المفاسد، وتسلب منه القدسية، ويتعالى فيه الظلم، ويتسلّط فيه الظالم فحينئذٍ مثل هذا المجتمع لا يستحق الحياة، فينزل عليه العذاب: تأديباً، وتمحيصاً، أو محقاً، وتدميراً، وهذا ما أكّدته الروايات الواردة في هذا الشأن:

عن محمد بن عرفة قال: «سمعت الرضا عليه السلام يقول: إذا ترك امرؤ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذن بوقاع من الله جل اسمه»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٨٦/١٠٠.

(٢) مشكاة الأنوار: ١٠٥/١، ح/٢٢٦.

(٣) وسائل الشيعة: ٣٩٧/١١.

(٤) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٢٥٥-٢٥٦.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «ما أقرَّ قومٌ بالمنكر بين أظهرهم لا يغيّرونه إلا أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إلا لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي!»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالم فَلَمْ يأخذوا عَلَى يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقابٍ منه»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولَتنهنَّ عن المنكر، أو ليعمنّكم عذاب الله»[٤].

خِصالُ الآمِرِ بِالْمَعْروفِ وَالنّاهي عَنِ الْمُنْكَرِ:

كما عدَّ الإسلام الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من أسمى الفرائض؛ لأنّه بهما تقام الفرائض، ووجوبهما من ضروريات الدين، وأنَّ منكرهما مع الالتفات كافر، وسُمّي تاركهما بيده ولسانه وقلبه ميّت الأحياء، وهما أوفر أعمال البرّ ثواباً للعامل المخلص، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَمَا أَعْمَالُ الْبِرّ كُلّها والجِهادُ في سَبيل اللهِ عِندَ الأمْرِ بالمَعْروفِ، والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ إلا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيّ»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة: ٤٠٨/١١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٢٨، خطبة: ١٩٢.

(٣) كنز العمال: ٧٧/٣، ح/٥٥٧٥.

(٤) وسائل الشيعة: ٤٠٧/١١.

(٥) نهج البلاغة: ٥٤٩، قصار الكلم: ٣٦٤.

فترى أنّه عليه السلام (شبّه أعمال البرّ كلّها بالنسبة إليهما بالنفثة في البحر اللجيّ، ووجه الشبه أنَّ كلّ خصلة من أعمال البرّ جزئيّ بالنسبة إليهما كالنفثة بالنسبة إلى البحر، وعموم الخير منهما)[1].

ولما كان لهذا الفريضة كل هذا السمو فقد أراد الإسلام للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون بمستوى أداء هذه الفريضة من خلال توفّره على صفات أساسية؛ ليكون صالحاً لأدائها؛ ولهذا ليس كلُّ إنسان صالحاً للقيام بهذه المهمة، والسرّ في ذلك أنّ الإنسان قد يندفع بدافع الحرص على الدين مع توفّر الإخلاص والصدق، ولكن قد لا يُحسن الأداء.

وحينئذٍ تأتي النتيجة عكسية فيُضلّ المأمور، أو يزيده إصراراً، وعناداً، وعتوّاً في الوقت الذي يقصد منه الإصلاح؛ ولهذا نجد روايات السنة الشريفة وصفت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنّهما خلقان من خلق الله، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما أعزّه الله، ومن خذلهما خذله الله»[2]، وهنا إشارة إلى قدسيّتهما، فعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتخلق بخلق الله من العلم، والمعرفة، والحكمة، والرحمة، والتجرّد عن المصالح الذاتية ليكون عمله مؤثراً وفاعلاً؛ ولهذا فإنَّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن يتحلى بثلاث خصال؛ ليكون أهلاً لذلك:

١- **العلم والمعرفة**: ما لم يكن الإنسان عارفاً بما يأمر به، وبما ينهى عنه، وعارفاً بالأساليب الحكيمة للأمر والنهي لا يصلح لأداء هذه المهمة العظيمة،

(١) ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤٣٠/٥.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٩٨/١١.

وبعبارة أخرى: إنّ الإنسان لكي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يجب أن يعرف المنكر والمعروف، وأن ما ترك معروفاً، وما فعل منكراً، وأن هذا الفاعل أو التارك مصرٌّ على فعله محتملة استجابته؛ ولذلك عدَّ بعض الفقهاء: «العلم شرط الوجوب كالاستطاعة بالنسبة للحج»[١]، كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسقطان عن غير العالم العارف بهما كما في رواية مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول وسُئِلَ عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، أواجب هو على الأمّة جميعاً؟ فقال: لا، فقيل له: ولِمَ؟ قال: إنما هو على القويّ المطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أيّ من أيّ يقول من الحق إلى الباطل...»[٢].

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تأمر بالمعروف ولا تنهَ عن المنكر حتى تكون عالماً وتعلم ما تأمر به»[٣].

إذن المعرفة بالمعروف، وبالمنكر، وبأحكامهما شرط أساسي في أداء هذه الفريضة؛ ولهذا أفتى الفقهاء بذلك، يقول الإمام الخميني رحمه الله في ذلك: «أن يعرف الآمر أو الناهي أن ما تركه المكلف، أو ارتكبه معروف أو منكر، فلا يجب على الجاهل بالمعروف والمنكر، والعلم شرط الوجوب كالاستطاعة في الحج»[٤].

٢- **الحكمة**: ونقصد بها أن يكون الآمر الناهي مجيداً لأساليب الأمر

---

(١) الإمام الخميني، تحرير الوسيلة: ٤٦٥/١.

(٢) وسائل الشيعة: ٤٠٠/١١.

(٣) كنز العمال: ٧٤/٣، ح/٥٥٦٠.

(٤) تحرير الوسيلة: ٤٦٥/١.

وأساليب النهي بحيث يضع الأمور مواضعها، فيتبع الأسلوب المناسب لكلّ شخص، ويجيد أسلوب الخطاب، فيخاطب القلوب؛ ليحرِّك بها العقول، ومثاله كمثل الطبيب الذي يعطي العلاج المناسب للمريض؛ فإنَّ الطبيب لو أعطى دواءً لمريض لا يلائم مرضه؛ فإنّه سيزيده ألماً ومرضاً؛ لهذا جاء في حديث روح الله المسيح عليه السلام: «وليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعاً لدوائه وإلا أمسك»[1].

وقد لخَّص الإمام الخميني رحمه الله ذلك مستفيداً من أنوار الأحاديث الشريفة قائلاً: «ينبغي أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في أمره ونهيه ومراتب إنكاره كالطبيب المعالج المشفق، والأب الشفيق المراعي مصلحة المرتكب، وأن يكون إنكاره لطفاً، ورحمة عليه خاصة، وعلى الأمة عامة، وأن يجرّد قصده لله تعالى ولمرضاته ويخلص عمله ذلك عن شوائب أهوية نفسانية، وإظهار العلو... فربما كان للمرتكب ولو للكبائر صفات نفسانية مرضية لله تعالى أحبه تعالى، وإن أبغض عمله، وربما كان الآمر والناهي بعكس ذلك، وإن خفي على نفسه»[2].

ولا شك أنّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إذا لم يكن حكيماً في أدائه فإنه سيضر ولا ينفع، والعكس صحيح.

ومن أمثلة الحكمة في ذلك قصة الحسن والحسين عليهما السلام مع ذلك الشيخ الذي كان يتوضأ خطأً؛ فقد روى المجلسي عن عيون المحاسن عن الرُّوياني: «أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرّا على شيخ يتوضأ، ولا يحسن، فأخذا في التنازع،

(١) وسائل الشيعة: ٤٠١/١١.

(٢) تحرير الوسيلة: ٤٨١/١.

يقول كل واحد منهما: أنت لا تحسن الوضوء، فقالا: أيها الشيخ، كن حَكماً بيننا يتوضأ كل واحد منا، فتوضئا، ثم قالا: أيّنا يحسن؟ قال: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكنّ هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن، وقد تعلّم الآن منكما، وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمّة جدّكما»[1].

نعم هذا هو الأسلوب الحكيم الذي يجعل الإنسان يحسّ بخطئه من دون مسّ لكرامته، بل بحفظ ماء وجهه، ويرجعه إلى سبيل الرشاد... أمّا لو لم يستعمل أسلوب الحكمة، فينقلب الأمر على عكس مراد الآمر.

ينقل الشهيد مطهري عن أحد الخطباء: «إنَّه كان لديه صديق في (مشهد المقدسة) ممن لا يعرفون الصلاة، أو الصوم أبداً، بل إنَّه لم يكن يعتقد بأي شيء في الدنيا، ويمكن القول باختصار إنّه كان رجلاً مناهضاً للدّين من أساسه.

يقول الخطيب: ولكن بعد فترة لا بأس بها من الحديث، والحوار مع هذا الرجل، وتبيان معالم الدين له، تغيّرت شخصيته بالفعل، وصار شيئاً فشيئاً يتوجه نحو التمسّك بأداء الفرائض، حتى صار رجلاً مؤمناً، وملتزماً حقّاً، وتغيّر كليةً عن واقع حياته السابق، ولم يَعُد يكتفي بأداء الفروض اليومية، وهو الرجل صاحب المنصب الإداري الحسّاس في الدولة آنذاك، بل صار مُقيّداً في مغادرة دائرته الحكومية للحضور إلى صلاة الجماعة في المسجد، ويُصلّي خلف إمام المسجد آنذاك - المرحوم النهاوندي- بل ويلبس العباءة الخاصة بالصلاة، ويشترك في الجلسات الدينية التي كانت تُعقد في المسجد.

ولكن فجأة يقول الخطيب: انقطعت أخبار الرجل، ولم نَعُد نشاهده في

(١) بحار الأنوار: ٣١٩/٤٣.

المسجد...

يقول الخطيب: اكتشفنا أنَّه، وبعد مضي فترة بسيطة على تردد الرّجل المذكور إلى المسجد، ليُصلي الجماعة، وفي الصفوف الخلفية تقريباً، وإذا به يوماً يأتيه أحد المشايخ المُقدّسين، من أصحاب اللحى الطويلة، وأهل المسواك والسبحة، وغير ذلك من الالتزامات الجانبية، التي يركّز عليها مثل هؤلاء «المؤمنين» جداً، والذين يريدون التمنّن حتى على الله سبحانه وتعالى في صلواتهم وعباداتهم.

نعم يأتي إليه مثل هذا الرجل وسط الصلاتين، وفي غمرة اجتماع المصلّين، تاركاً الصف الأول الذي يصلي به، متوجّهاً إلى الصفوف الخلفية؛ ليواجه أخانا مورد الحديث، فيجلس أمامه، ويقول له:

أريد أن أسألك سؤالاً.

فيقول له الرجل: تفضل.

فيسأله الشيخ قائلاً: هل أنت رجل مسلم؟!

فيُدهش صاحبنا المسكين، ولا يدري كيف يرّد عليه، ولكن يقول له: ما معنى هذا السؤال الذي توجهه إليَّ؟

فيُصرّ الشيخ على سؤاله، ويطلب إليه ويرجوه التفضّل بالإجابة، هل هو مسلم حقاً أم لا؟

فينزعج كثيراً صاحبنا المسكين، ويُجيبه قائلاً: أنا مسلم يا مولانا، ولو كنتُ غير مسلم فما بالي والصلاة جماعةً في مسجد (گوهرشاد) هنا؟

فيردُّ عليه الشيخ: إذا كنت مسلماً حقاً، فلماذا إذاً هكذا وضع لحيتك؟

فما كان من صاحبنا، يقول الخطيب إلا أن جمع سجّادة صلاته، وغادر المسجد على الفور، وهو يقول للشيخ: تركتُ لك صلاة الجماعة هذه، وهذا الدين، والمذهب أيضاً، والسلام، ولم يَعُد منذ ذلك اليوم يتردد على المسجد أبداً.

[ثم يعلق الشهيد مطهري قائلاً:] نعم، فهذا أسلوب آخر من أساليب النهي عن المنكر! لكنّه ينبغي نعته بأسلوب إخراج الناس من الدين، وتنفيرهم منه، لأنَّه ليس فوق هذا العمل عمل باستطاعته خلق المعارضين والأعداء للدين»[١].

ومن أمثلة الحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما نقله لي أحد المؤمنين يقول: زرت مع مجموعة من المؤمنين سماحة آية الله العظمى السيد محسن الحكيم رحمه الله، فنظر السيد إلى أحدنا، وكان في إصبعه خاتم من الذهب، فقال السيد لذلك الشخص: أعطني هذا الخاتم، فخلعه من يده، ودفعه إليه، فأخذه السيد، وقام، ودخل غرفة، ثم رجع وبيده خاتم من الفضة، فقال للرجل: البس هذا الخاتم الفضي فإن فيه ثواباً، ودفع له خاتمه الذهبي، وقال: أهدِه إلى زوجتك، فاستُرّ الرجل، وفهم أنّ الذهب حرام.

٣- **الالتزام**: ونقصد بذلك أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ملتزماً بما يأمر به تاركاً لما ينهى عنه، أي أن يطابق قولُه فعلَه؛ لأنَّ من المستحيل أن يستجيب الناس لمن يخالف فعلُه قولَه، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ، إِلا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا»[٢].

---

(١) الشهيد مطهري، الملحمة الحسينية: ٢/٨٥-٨٧، وهناك قصص أخرى يذكرها الشهيد مطهري.

(٢) نهج البلاغة: ٢٨٢، خطبة: ١٧٥.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنما يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عالم بما يأمر به، تارك لما ينهى عنه، عادل فيما يأمر، عادل فيما ينهى، رفيق فيما يأمر، رفيق فيما ينهى»[١]؛ لأنّه ليس من العدل أن يخالف الإنسان ما يأمر به، ويرتكب ما ينهى عنه، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[٢]، ويستحقّ مقت الله تعالى.

وبلا شك أنَّ مصيبةَ المسلمين الآن أنَّ الكثيرين ممن يتزينون بزيّ أهل العلم والدين يخالفون بين أقوالهم وأفعالهم، ولو أنّهم راعوا هذا الأمر لصَلُحَتْ الأمة إلا من أضلَّه الله على علم منه، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

ولقد رأينا العلماء العاملين بصدق وإخلاص ممن طابقوا بين القول والعمل كان أثرُهم على الناس كبيراً، وهنا تبرز عظمة العالم العامل.

يقول الإمام الخميني رحمه الله: «من أعظم أفراد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأشرفها، وألطفها، وأشدّها تأثيراً، وأوقعها في النفوس سيما إذا كان الآمر، أو الناهي من علماء الدين، ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم هو الصادر عمّن يكون لابساً رداء المعروف واجبه ومندوبه، ومتجنّباً عن المنكر، بل المكروه، وأن يتخلق بأخلاق الأنبياء والروحانيين، ويتنزّه عن أخلاق السفهاء، وأهل الدنيا، حتى يكون بفعله وزيِّه وأخلاقه آمراً وناهياً، ويقتدي به الناس»[٣].

وهذا ما أراده أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأكّدوا عليه من خلال وصاياهم لشيعتهم، فعن ابن أبي يعفور قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: كونوا دعاة للناس بغير

(١) وسائل الشيعة: ٤٠٣/١١.

(٢) الصف: ٢.

(٣) تحرير الوسيلة: ٤٨٢/١ .

ألسنتكم؛ ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير؛ فإنّ ذلك داعية»[١].

وفي وصيّة الإمام العسكري عليه السلام لشيعته: «اتّقوا الله، وكونوا زيناً، ولا تكونوا شيناً، جرّوا إلينا كلّ مودّة، وادفعوا عنا كل قبيح»[٢].

مَراتِبُ الأَمْرِ بِالْمَعْروفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى منكراً فلينكره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله من قلبه إنَّه لذلك كاره»[٣].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ، وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً، وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَذلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فَذلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ، وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ، إِلا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ...»[٤].

إذن لا يمكن لمؤمن أن يتهاون، أو يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بأيّ حالٍ من الأحوال.

وللأمر والنهي مراتب حسب الظرف المناسب، وحسب قدرة المكلف؛

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٨/٢، باب الورع، ح/١٤.

(٢) تحف العقول: ٣٦٧.

(٣) بحار الأنوار: ٨٥/١٠٠.

(٤) نهج البلاغة: ٥٤٨-٥٤٩، الكلمات القصار: ٣٦٤.

ولهذا جعل الشارع تقدير الأهمّ والمهمّ للمكلف، كما أنّ الناس يختلفون في التأثّر بما يواجَهُونَ به؛ فبعضهم يؤثر فيه الصدود والإعراض عنه، ويلفت نظره، ويزجره، وبذلك يرجع عن موقفه غير المرضيّ عند الآخرين، وبعضهم يحتاج النصيحة والموعظة اللّيّنة، أو إلى الكلام الخشن الرادع، فلا بدّ من اختيار الكلام المناسب لطبيعة الشخص، وموقفه، ومزاجه بما يؤثر فيه ويرجعه إلى جادة الصواب.

والقسم الثالث لا ينفع معه لا هذا، ولا ذاك، وإنّما يحتاج إلى قوّةٍ رادعةٍ توقفه عند حدّه، فالمكلّف إذن عليه أن يدرس الحالة بدقة؛ ليُشَخّصَ من خلالها ما يناسب المأمور، أو المنهي؛ كي يؤثر فيه، وتأتي النتيجة إيجابية.

ولهذا أفتى بعض الفقهاء بعدم جواز الانتقال من المرتبة الأولى إلى الثانية، إذا كانت المرتبة الأولى كافية، يقول السيد الإمام الخميني رحمه الله: «يجب الاقتصار على المرتبة المذكورة (القلبية) مع احتمال التأثير، ورفع المنكر بها، وكذا يجب الاقتصار فيها على الدرجة الدانية فالدانية، والأيسر فالأيسر، سيما إذا كان الطرف في مورد يهتك بمثل فعله، فلا يجوز التعدي عن المقدار اللازم، فإن احتمل حصول المطلوب بغمض العين المفهم للطلب لا يجوز التعدي إلى مرتبة فوقه»[1].

وهكذا بقية المراتب؛ فالمكلّف يتصرّف ضمن المرتبة القادر على خوضها شريطة أن تكون مناسبة لحال المأمور، أو المنهي، ومؤثرة فيه، وإلا فلا، وقد قسّم الفقهاء المراتب على ثلاث:

---

(١) تحرير الوسيلة: ٤٧٦/١.

الأولى: إظهار الانزعاج والاستنكار القلبي كالعبوس، والإعراض والصدود، وترك الكلام معه، وغيرها.

الثانية: مرتبة الأقوال: وتشمل كل أنواع القول حسب ما يناسب الشخص كالموعظة بإرشاد، وتذكير، وتخويف من الله، وترغيب بثوابه، وإذا لم ينفع يستعمل الخشونة، والغلظة، والتهديد، والردع، وعلى كل حال يتدرج من الأيسر إلى الأشدّ حسب درجات التأثير.

(والقاعدة العامة في ذلك هي التدرج من الأيسر إلى الأشد، والاقتصار على محتمل التأثير، وعدم تجاوزه، والمدار في ذلك على تقدير المكلف واطمئنانه بما يلائم الشخص، أو الأشخاص، أو الحالة، ولا بدّ له أن ينظر من الجهات المتعدّدة، ويوازن في الأمر، أو يستعين بمن له معرفة وخبرة فيما يحتاج إلى استعانة)[1].

المرتبة الثالثة: استعمال القوة، وهي كذلك على درجات، (والقاعدة العامة في ذلك الموازنة بين الأهم والمهم بنظر الشرع الشريف، وتغليب الأهم على المهم، فهناك أمور ذات أهمية مطلقة، وأمور ذات أهمية نسبية)[2].

وهذه المرتبة هي العلاج الأخير بعد أن تستنفد المرتبتين السابقتين، ولها أحكام تراجع في مضانها.

ولهذا رأينا أنّ الحسين عليه السلام بعد أن نصح، ووعظ، وأرشد، وذَكَّرَ بالمسؤولية الشرعية أمام الله تعالى، وكشف الحقائق، ورغّب، ورهّب... ولما لم يجد لذلك أثراً في نفوس القوم، رأى أنّ آخر الدواء الكيّ، وتقدم عليه السلام نحو

(١) علي الكوراني، أسمى الفرائض وأشرفها: ٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٠.

القوم (مصلتاً سيفه، آيساً من الحياة، ودعا الناس إلى البراز، فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل جمعاً كثيراً، ثم حمل على الميمنة، وهو يقول:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

وحمل على المسيرة وهو يقول:

أنا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني

أحمي عيالات أبي أمضى على دين النبي

قال عبد الله بن عمار بن يغوث: «ما رأيت مكثوراً[1] قطّ قد قتل ولده وأهل بيته وصحبه أربط جأشاً منه، ولا أمضى جناناً، ولا أجرأ مقدماً، ولقد كانت الرجال تنكشف بين يديه إذا شدَّ فيها ولم يثبت له أحد».

فصاح عمر بن سعد بالجمع: «هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، احملوا عليه من كلّ جانب»، فأتته أربعة آلاف نبلة، وحال الرجال بينه وبين رحله، فصاح بهم: «يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عُرُباً كما تزعمون».

فناداه شمر: «ما تقول يا ابن فاطمة؟» قال: «أنا الذي أقاتلكم، والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً».

قال اقصدوني بنفسي واتركوا حرمي قد حان حيني وقد لاحت لوائحه

فقال الشمر: «لك ذلك».

وقصده القوم، واشتدّ القتال، وقد اشتدّ به العطش، فحمل من نحو

(١) رجل مكثور عليه إذا كثر عليه من يطلب منه المعروف، وقيل: إذا نفد ما عنده وكثرت عليه الحقوق، والمكثور هنا المغلوب، وهو الذي تكاثر عليه الناس فقهروه، ومعنى الكلام أي ما رأينا مقهوراً أجرأ إقداماً منه.

الفرات... وأقحم الفرس في الماء... و لما مدَّ الحسين عليه السلام يده؛ ليشرب ناداه رجل: «أتلتذّ بالماء، وقد هتكت حرمك؟» فرمى الماء، ولم يشرب وقصد الخيمة)[1].

[من الكامل]

ومضى لهيفاً لم يجد غير القنا ... ظلاً ولا غير النجيع شرابا
ظمآن ذاب فؤاده من غلة ... لو مسّت الصخر الأصم لذابا
لهفي لجسمك في الصعيد مجرداً ... عريان تكسوه الدماء ثيابا[2]

(١) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) ديوان السيد رضا الهندي وأبنائه: ٧٠.

الفصل الثالث

رَسولُ الحُسَيْنِ عليه السلام

كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة كتاباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من حسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين؛ أما بعد، فإنَّ هانئاً وسعيداً قَدِمَا عليَّ بكتبكم، وكانا آخر مَن قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جُلّكم: إنَّه ليس علينا إمام، فأقبِل لعلّ الله أن يجمَعَنا بك على الهدى والحقِّ.

وقد بعثتُ إليكم أخي، وابن عمي، وثقتي من أهل بيتي [مسلم بن عقيل]، وأمرتُه أن يكتب إليَّ بحالكم، وأمركم، ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنَّه قد أجمع رأي مَلئكم، وذوي الفضل، والحِجَى منكم، على مثل ما قدمتْ عليَّ به رُسُلكم، وقرأتُ في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله؛ فلَعَمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله. والسلام»[1].

إذا تأمّلنا جيّداً في هذا الكتاب يتبين لنا أنّ الحسين عليه السلام لم يستجب لأهل الكوفة إلا بعد طلباتهم الملحة والمتواصلة مع تأكيدهم على النصرة، والطاعة والتضحية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٣/٥.

كلّ ذلك تجلّى لنا من خلال العدد الهائل من الكتب التي وصلت إليه منهم... علماً أنَّه عليه السلام لم يكن غير عارف بوضع أهل الكوفة النفسي، والسياسي، والتركيبة الاجتماعية لها، بل استجاب وهو يعرف أمر أهل الكوفة جملة وتفصيلاً، ولم يستجب للغوغاء منهم، إنما استجاب لأهل الرأي، وأهل الشرف والدين...

وقد تبيّن لنا في بحث سابق أنَّ عامل دعوة أهل الكوفة لم يكن هو العامل الأصلي في حركة الحسين عليه السلام، وإنّما العامل الأساسي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما صرّح صلوات الله عليه وسلامه، وأنَّ الحسين عليه السلام لم يتحرّك بناء على طلب أهل الكوفة، وإنما كتبوا إليه بعدما تحرك عليه السلام من المدينة إلى مكة، وتسلّم أكثر رسائلهم في مكة، فهم لم يحرّكوه، وإنما هو الذي حرّكهم.

وإرسال مسلم إلى الكوفة كان لغرض دراسة الأمر بدقّة متناهية، وعن قرب، وأخذ البيعة، وتهيئة الأرضية اللازمة... ويبدو من وصية الحسين عليه السلام لمسلم حينما ودعه أنَّه لم يكن واثقاً من وفاء أهل الكوفة، وإنّما الأمر بيد الله يحكم فيه ما يشاء، يقول عليه السلام في وصيته لمسلم حينما دفع إليه الكتاب:

«إني موجِّهك إلى - أهل الكوفة -، وسيقضي الله من أمرك ما يُحِبُّ ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنتَ في درجة الشهداء، فامض ببركة الله وعونه حتى تدخل الكوفة، فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها، وادعُ الناس إلى طاعتي، فإن رأيتهم مجتمعين على بيعتي، فعجِّلْ عليَّ بالخبر حتى أعمل على حسب ذلك إن شاء الله تعالى»، ثم عانقه الحسين عليه السلام، وودّعه، وبكيا جميعاً[1].

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٨٤/١.

فنحن إذا تأملنا في هذه الوصية وخصوصاً قوله عليه السلام: «وسيقضي الله من أمرك ما يُحِبُّ ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنتَ في درجة الشهداء».

نستوحي من ذلك أنَّ الإمام عليه السلام وكأنه يقرأ المستقبل، ويخبر أن مسلماً سيخذل ويستشهد، يقول المحقق السيد عبد الرزاق المقرم قدس سره:

«لم يخفَ على الإمام الشهيد عليه السلام نيات القوم، ولا ما يقع منهم من التخاذل، والتباعد عن نصرة الحق حينما تستعر الحرب، ويتجمع الدهر للوثوب على فئة المجد، وعصبة الخطر من الهاشميين، والصفوة من أصحابهم، وكيف يخفى عليه غدرهم، وعدم وفائهم بالوعد، وهو يشاهد كل ذلك بواسع علم الإمامة، والتجارب الصحيحة بما جرى منهم مع الوصي، وأخيه المجتبى صلوات الله عليهم، والأخبار النبوية والعلوية بما يقع من الملحمة الكبرى التي أتت على النفوس الطاهرة، وأعقبت الفتح المبين بنهضة رجالات الدين في وجه المنكر والضلال حتى دمّرت مُلك الأمويين، واستأصلت شأفتهم من جديد الأرض، فأصبحوا عبرة لمن يتجبّر في هذه الدنيا الزائلة»[1].

كما أنّ هذا الكتاب يحدد صفات القائد الحقّ الذي يستحقّ أن يتسنّم عرش القيادة؛ ويحدد مهامّه الرسالية، ليرتفع بالبشرية من مستنقع الجهل والضلال إلى نور العلم، والهداية، والرشاد، تلك الصفات هي:

١- العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، أي: تطبيق أحكام الله تعالى على المجتمع البشري.

٢- إقامة القسط والعدل بين الناس، بحيث يكون ميزاناً فيما بينه، وبين غيره فلا يظلم أحداً؛ لأجل ميل، أو هوى، أو طمع، أو رغبة عابرة.

---

(١) السيد المقرم، الشهيد مسلم بن عقيل: ٦٨.

٣- ظهور صفة التديّن في فكره وسلوكه بشكل واضح بدون أدنى مخالفة فلا يأمر إلا بما يأتمر، ولا ينهى إلا بما ينتهي عنه؛ ليكون أنموذجاً مقدّساً يقتدى به كما وصف الإمام علي عليه السلام: «إنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بضَعَفَةِ النَّاس، كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[١]، أي لكي يراه الفقراء فيقتدوا به، ويزدادوا صبراً وتحملاً؛ (فإنَّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيأة، وبذلك المطعم، كان أدعى لهم إلى سُلْوان لذّات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس)[٢].

٤- أن يكون رضا الله غايته من كلّ قول وعمل، وقد عبَّر الإمام عليه السلام عن ذلك بأجمل تعبير وأخصره وهو: «الحابس نفسه على ذات الله»، أي أوقف نفسه لله فلا يغلبه ميل، أو هوى؛ فيجور عن جادّة الشرع المقدس...

هذه هي صفات الإمام في الإسلام، ويزيد وبنو أمية جميعاً لا يتوفر فيهم شيءٌ من ذلك، فلا يصلحوا أن يكونوا أئمة حق، هكذا أوضح الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة تلك الحقائق بأوجز قول.

المَعالِمُ القِيادِيّة في شَخْصِيّة مُسْلِم رحمه الله:

إنَّ في اختيار الحسين عليه السلام لمسلم بن عقيل لهذه المهمة الخطيرة دليلاً على جدارته وأهلّيته بما يتمتع به من مؤهلات قيادية، وسمات رسالية جعلته ثقة الإمام عليه السلام، ومن تلك المؤهلات:

١- **التفوق العلمي**: ولا غرابة من ذلك؛ فإنَّ مسلماً تربّى في أحضان مدينة العلم بين أعلم علماء الدنيا والآخرة الإمام أمير المؤمنين والحسن والحسين

(١) نهج البلاغة: ٣٥٣، خطبة: ٢٠٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٤/١١.

عليه السلام، ومثل هذا (لجدير أن يُخَرِّج أستاذاً ماهراً، وعلامة بكل الفنون فهو يستمدّ من أهل العصمة والإمامة العلوم الإلهية، والمعارف الربانية التي نزل بها سفير الوحي جبرئيل عليه السلام)[1].

والحسين عليه السلام يعلم ما في الكوفة من تفوّق فكري، وصراع حضاري؛ فهي مجمع الأمم، ومختلف العلماء، فلا يمكن أن يبعث لها رجلاً إلا إذا كان متفوقاً على الجميع بقدراته العلمية؛ ليكون داعية حقّ لرسالة الله تعالى؛ ليبرز الوجه الناصع لدين الله تعالى بعد أن حاول الأمويون تشويه صورته وطمس معالمه.

٢- **الأمانة الرسالية**: بكلّ أبعادها؛ فإنّ المهمة المناطة به لم تكن مهمة عسكرية، أو سياسية صرفة، وإنّما هي مهمة إلهية هدفها إحياء دين الله، وإعادة الحقّ إلى نصابه، ولا يصلح لذلك إلا من انصهر في بوتقة الإسلام قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً، وحقّاً كان مسلم رحمه الله المصداق الحقيقي لذلك؛ فبرزت على سلوكه كلّ معالم الرسالة العلمية، والأخلاقية، والسياسية، والاقتصادية، فكان مثالاً في العدالة، والحكمة، والعفة، والشجاعة، والصدق، والإخلاص، والتفاني في الدفاع عن رسالة الله تعالى.

٣- **الحنكة السياسية**: وهي غير الدهاء المتسّم بالكيد، والغدر، والاحتيال، والخداع، واللف، والدوران؛ لأجل السيطرة والتغلب على الآخرين، بل يعني القدرة على توجيه المسيرة، وإدارة المهمة بجدارة، ووضع كلّ شيء في موضعه المناسب دون أن يُستغفل، أو يُخدع من قبل أعدائه، ويقع في شباكهم، ولو أراد

(١) عبد الواحد المظفر، سفير الحسين مسلم بن عقيل: ١٣.

مسلم ذلك لغدر بابن زياد بأيسر الطرق، ولكنه أبى أن يكون غادراً حتى لو أدّى به الغدر إلى الظفر بعدوه.

٤- **التقوى والورع**: ومسلم رحمه الله كان قد ارتشف دروس التقوى والورع من عمّه وأبنائه بشكل عملي، فانصهر في ذلك القالب، وانطبعت شخصيته به بحيث بلغ حدّاً لا يمكنه المخالفة له، والدليل على ذلك أنّ الأموال كانت بين يديه، ورفض أن يأكل منها شيئاً، (فضرب لهم أروع أمثلة الإباء والشمم، موضّحاً أيضاً غاية مجيئه، والهدف الأهمّ من وجوده، والسرّ المقدّس لحضوره، فليس هو قادماً للسيطرة على مقدرات الناس وابتزازهم...

وكان المبعوث ينفق من عنده أيضاً حتى بلغ به السخاء من ماله الخاص حدّ الإفلاس، ثم الاقتراض للحركة على حسابه الخاص، فقد ظهر أنَّه يؤثر تحمل الأعباء الماليّة بنفسه، وهو دليل السمو القيادي)[1].

٥- **الوعي التام**: للمهمة المناطة به، بحيث إنَّه لم يخرج عن الدور المحدد له قيد أنملة أبداً، وتلك صفات الأمين الرسالي، والداعية المخلص.

كلّ تلك الخصال وغيرها من الخصال القيادية توفّرت في مسلم بن عقيل رحمه الله ... فلننظر كيف نفّذ مهمته بجدارة، وحنكة، وإخلاص؟

فبمجرّد وصوله إلى الكوفة باشر تنفيذ مهمته، بدأ بالاجتماع بسراة القوم، وقرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام، ثم بدأ بالتخطيط للخطوات اللاحقة من خلال البحث والمشاورة معهم حيث كان يسمع ما يقولون، وما يقترحون، وكان أول متكلم هو عابس الشاكري، حيث قال له بعد أن سمع رسالة الحسين عليه السلام:

---

(١) محمد علي عابدين، مبعوث الحسين عليه السلام: ١٢٣-١٢٤.

«أما بعد؛ فإني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرُّك منهم، والله لأحدثنَّك عما أنا موطّن نفسي عليه، والله لأجيبنّكم إذا دعوتم، ولأقاتلنَّ معكم عدوّكم، ولأضربنَّ بسيفي دونَكم، حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله».

ثم انبرى حبيب بن مظاهر مخاطباً لعابس: «رحمك الله، قد قضيتَ ما في نفسك بواجز من قولك»، ثم قال: «وأنا والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه».

وأيّده سعيد الحنفي[١]...

وهكذا اطلع مسلم على مضمرات نفوس قادة الكوفة، فشرع يأخذ البيعة منهم في: (الدعوة إلى كتاب الله، وسنة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسمة الفيء بين المسلمين بالسوية، وردّ المظالم إلى أهلها، ونصرة أهل البيت عليهم السلام على من نَصَبَ لهم العداوة والبغضاء، وجهل حقَّهم، والمسالمة لمن سالموا، والحرب لمن حاربوا، من دون ردّ لقولهم، ولا تخطئة لفعلهم، ولا تفنيد لرأيهم)[٢].

بتلك الصيغة الرسالية القاطعة، والتي أوضح فيها سياسة الثورة، وسلوك الثوار أخذ البيعة من الناس، وهي بيعة كبيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله، وتلك الصيغة تعبّر عن عمق الوعي الرسالي عند مسلم بن عقيل، فقد شملت الجانب العقائدي والسياسي والاقتصادي، ثم انثال الناس يبايعون مسلماً بكلّ لهفة وشوق؛ ولهذا (انتخب المبعوث الحسيني عدداً من الصفوة الكوفية المؤمنة؛

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٥/٥.

(٢) الشهيد مسلم بن عقيل: ١٠٤.

لأخذ البيعة من الناس كإجراء لا بدَّ منه تستدعيه جملة أسباب أمنية، وغير أمنيّة، إذ أنَّ من يأخذ البيعة من الناس الكثيرين يحتاج إلى بذل الجهود، والتعرف على بعضهم، والتفرغ لهم وسعة الوقت لهذا العمل الكبير... كما أنّ المرحلة السرية اللاحقة اقتضت أن لا يُعرف مكان وجود المبعوث، ومقرّ اجتماعات المجاهدين، فلا بُدّ لمن يريدون تقديم البيعة أن يبايعوا أحد نوّاب المبعوث الذين حدّدهم، ومنحهم صلاحية شرعية، وإذناً خاصاً في ذلك، وهم المجاهدون الأجلاء التالية أسماؤهم: حبيب بن مظاهر الأسدي، ومسلم بن عوسجة الأسدي، وعبد الله بن عمرو الكندي الكوفي، وعباس بن جعدة الجدلي، وعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري الخرزجي)[١].

أما الخطوة الثانية بعد أخذ البيعة: هي جمع الأموال لسدّ نفقات التحرّك، وقد أوكل هذه المهمة إلى بعض المخلصين كأبي ثمامة الصائدي، الذي كان يقبض أموالهم، وما يعين به بعضهم بعضاً[٢]، كما ورد أنَّ هاني بن عروة كان يجمع المال أيضاً... وعلى كلّ حال فإنَّ قائد التحرك قد نظّم الموارد المالية، ووجّهها بحيث أن تصرف في أيدٍ أمينة.

وأما الخطورة فهي شراء الأسلحة، وقد أناط المبعوث الحسيني هذه المهمة إلى الخبراء الحاذقين في معرفة الأسلحة المشهورة آنذاك كالسيوف، والرماح، والسهام، والأقواس، والخوذ، وكان أبو ثمامة الصائدي أبرز هؤلاء، وكان ذا خبرة واسعة في ذلك.

يقول المؤرخون: إنّه كان يشتري لهم السلاح، وكان بصيراً به، وكان من

---

(١) مبعوث الحسين عليه السلام: ١٢٢.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٤٦/٢.

وجوه الشيعة، وفرسان العرب، وكان هاني بن عروة يساهم في ذلك، ولم تكن هذه المهمة سهلة المنال؛ لتوتر الأجواء، وانتشار جواسيس السلطة الذين يُعرفون بالعرفاء، كما أن الكميات الكبيرة التي يشترونها توجب إيجاد مخازن أمينة لها؛ لئلا تقع تحت أيدي السلطة.

هذه بعض نشاطات سفير الحسين عليه السلام ولم تكن جميعها إذا وضعنا في الحسبان المهام الأخرى التي تفرض نفسها على الواقع، ولا سيما في بلد مثل الكوفة ذات التيارات الفكرية المتعددة، والمذاهب المتصارعة مع وجود فقيه عالم متمرس في العلوم الإسلامية يحمل معالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلا أنّه من المؤسف لم يصلنا شيء من ذلك.

وبناء على تلك النشاطات المكثّفة، والتجاوب الواسع الذي لقاه من أهل الكوفة وارتفاع نسبة المبايعين الذي وصل إلى عدد كبير، وقد اختلف المؤرخون في عدد من بايعه، وهذه بعض الأقوال:

١- أربعون ألفاً .

٢- ثلاثون ألفاً، ومن بينهم حاكم الكوفة النعمان بن بشير؛ فقد نقل أحد المؤرخين أنَّه قال: «إنَّ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أحبّ إلينا من ابن بنت بجدل - يعني يزيد بن معاوية -»[١].

٣- ثمانية وعشرون ألفاً.

٤- ثمانية عشر ألفاً حسب ما جاء في رسالة مسلم إلى الحسين عليه السلام حيث يقول فيها: «وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فعَجِّلْ الإقبالَ»[٢].

(١) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ١٤٧/٣ .

(٢) تاريخ الطبري: ٣٧٥/٥ .

٥- وقيل: اثنا عشر ألفاً[١].

أقول بناء على ذلك كتب مسلم بن عقيل رحمه الله إلى الحسين عليه السلام قائلاً:

«أما بعد؛ فإنّ الرائد لا يَكْذِب أهلَه، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإنَّ الناسَ كلَّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى؛ والسلام»[٢].

يقول العلامة القرشي: «لقد كتب مسلم هذه الرسالة؛ لأنه لم يرَ أيّة مقاومة لدعوته، وإنّما رأى إجماعاً شاملاً على بيعة الإمام، وتلهّفاً حاراً لرؤيته، وحمل الكتاب جماعة من أهل الكوفة، وعليهم البطل العظيم عابس الشاكري، وقدم الوفد مكة المكرمة، وسلَّم الرسالة إلى الإمام، وقد استحثّوه على القدوم إلى الكوفة، وذكروا إجماع أهلها على بيعته، وما لاقاه مسلم من الحفاوة البالغة منهم، وعند ذلك تهيّأ الإمام إلى السفر للكوفة»[٣].

لِماذا فَشلَتْ مُهِمَّةُ مُسْلِم رحمه الله ؟

سؤال يلحّ على الذهن: وهو إذا كان قد بايع مسلماً هذا العدد الضخم من الشيعة مع ما فيهم من العناصر القيادية الواعية؛ فلماذا وقعت تلك المأساة الرهيبة؟!

فأين تكمن الأسباب؟

هل في شخصية مسلم حاشاه من ذلك؟

---

(١) ينظر: القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٤٧/٢-٣٤٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٧٥/٥.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٤٨/٢.

هل الخطأ في التخطيط؟

هل الضعف في أهل الكوفة؟

هل هناك سرٌّ كامن وراء الأسباب الظاهرية؟

وقد اختلفت الأجوبة وتعدّدت، وكلّ يجيب من وجهة نظره مع إغفال للسرّ العميق الذي تضمّنه التخطيط الإلهي لواقعة الطف ذات البعد الرسالي في حركة الرسالة إلى يوم القيامة.

لقد أغفل أغلب الكتّاب والمؤرخون البعد الغيبي في ملحمة الطف الذي لم تكن الأذهان قادرة على استيعابه آنذاك، ولا سيّما أنّ الحسين عليه السلام أشار إليه إشارة مبهمة: «شاء الله أن يراني قتيلاً»، ومع شديد الأسف أنّ هذا البعد لحدّ الآن لم يكشف النقاب عنه.

هذا هو السرُّ الكامن الذي لا نستطيع الخوض فيه؛ لأنّنا محجوبون بذنوبنا، وسوء أخلاقنا عن رؤية الحقائق كما هي، ولسنا من فرسان هذا الميدان، والأمر يحتاج إلى تأمّل دقيق، وحسّ مرهف، والأخبار والروايات، والأحداث، والأشخاص، والنتائج، والآثار التي تركتها ملحمة الطف شاهدةٌ على ذلك، وعلى كلّ حال فلنرجع إلى الأسباب الظاهرية الحسيّة فليس لنا قدرة إلى غيرها.

إذا أردنا أن نقف على ذلك فلا بد أنَّ ندرس التركيب المعقّد لوضع الكوفة من الناحية الدينية، والسياسية (الخلفية التأريخية للولاة)، والقومية، والقبلية، والطبقية.

أما من الناحية الدينية؛ فقد ضمّت التركيبة السكانية للكوفة أغلب الأديان السماوية وغيرها، إضافة إلى التعدد المذهبي، وأهمّ الأديان المتواجدة فيها هي:

١- **اليهود**: خصوصاً يهود المدينة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من المدينة، واستوطنوا بالكوفة سنة ٢٠ للهجرة، وكان لهم معابد يؤدون فيها شعائرهم، ويذكر الرحالة (بنيامين) أنَّ بالكوفة سبعة آلاف يهودي، ومعلوم مدى الحقد الذي يحمله اليهود على الإسلام، وعمق مؤامراتهم، وخفاء تخطيطهم، (وقد قاموا بدور فَعّال -فيما يقول بعض المحققين- في مجزرة كربلاء تشفّياً من النبي صلى الله عليه وآله)[1].

٢- **النصارى**: وكان لهم تواجد فعّال لا سيما تفاعل الولاة الأمويين معهم وفسح المجال أمامهم؛ لنشر المفاسد الأخلاقية، فقد كان والي عثمان الوليد بن عقبة، والذي سمّاه القرآن الكريم بالفاسق، يشرب الخمر، ويسقيها للنصارى، ويوفّر لهم لحم الخنزير، والأنكى من ذلك تسليطهم على رقاب المؤمنين، فقد اتخذ الوليد أحد النصارى مديراً لشؤون مسجد الكوفة، ونصرانياً آخر مديراً للسجن، واتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانياً كذلك...

وكانوا مسيطرين على الحياة الاقتصادية، يقول الشيخ القرشي: «وقد شغل المسيحيون في الكوفة أعمال الصيرفة، وكوَّنوا أسواقاً لها، وكانت الحركة المصرفية بأيديهم، كما كانوا يقومون بعقد القروض؛ لتسهيل التجارة، وكانت تجارة التبادل والصيرفة بأيديهم، وقد مهروا في الصيرفة، ونظَّموها على شكل يشبه البنوك في هذا العصر.

وكانت هذه البنوك الأهلية تستقرض منها الحكومة المحلية الأموال إذا حدثت ثورة في القطر، فكانت الأموال تُوَزَّع على أعضاء الثورة لإخمادها، وقد

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٤٥/٢.

استقرض منها ابن زياد الأموال، فوزَّعها على وجوه الكوفة، وأشرافها للقضاء على ثورة مسلم»[١].

٣- **الصابئة**: وقد سكنوا الكوفة، وكان لهم وجود فيها.

٤- **المجوس**: وبعض الديانات السابقة مع أسرى الحرب كالزرادشتية، والمانوية، والمزدكية...

ومما لا ريب فيه أنَّ وجود هذه الديانات لها دورٌ فعّالٌ في أفكار المجتمع وسلوكه، ولا سيما إذا كان الحكّام (بأنفسهم يشجّعون وجودهم، ويطلقون لهم عنان الأعمال المتعددة)[٢]، والنشاطات الفكرية والعقائدية المناهضة للإسلام.

وأما التعدّد المذهبي؛ فلقد أوجدت السياسة الأموية مذاهب متباينة ومتصارعة فيما بينها، وكلّ منها يدّعي أنّه هو الإسلام دون غيره، وقد نشَّطَ الأمويون المذاهب المعادية لأهل البيت عليهم السلام كالنواصب، وهم الذين ينصبون العداء لأهل البيت عليهم السلام، ويعدّون هذا العداء ديناً يدينون الله به، وقد وجدوا أرضية خصبة في السياسة الأموية المبنية على عداء أهل البيت عليهم السلام.

والمذهب البارز هو مذهب الخوارج الذين اتّخذوا من الكوفة مقرّاً لهم، وتنامى عددهم بعد معركة النهروان، وكانوا يضمّون ذوي القدسية الحمقاء من ذوي الجباه السود، والمتنسّكين، ومعلوم مدى خطر هذا النمط في خداع الناس، وكان جلُّ نشاطهم منصبّاً على تكفير الإمام علي عليه السلام وشيعته، وقد وجدوا في بداية حركتهم مناخاً جيداً في سياسة بني أمية.

وهؤلاء من خلال انحرافهم عن الصراط السوي، كانوا مهيئين للتعاون مع

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٤٤/٢.

(٢) مبعوث الحسين عليه السلام: ٤٨.

أيّ اتجاه يعادي أهل البيت عليهم السلام.

كما يوجد من الغلاة الذين غلوا بالإمام علي عليه السلام، وقد حاول قطع دابرهم إلا أنّهم بقيت منهم بقية نمت فيما بعد ذلك، وهؤلاء يعكسون صورة مشوهة عن أهل البيت عليهم السلام، لأنّهم يرتفعون بالإمام علي عليه السلام إلى مستوى الربوبية، وهناك اتجاهات مذهبية محدودة لها تأثير ملحوظ كالجبرية، والقدرية، والمرجئة، والمفوّضة...

وأمّا الشيعة: فقد كانوا في بداية وجودهم أقليّة في الكوفة، ثم نما عددهم، واتسع بعد أن نقل الإمام علي عليه السلام عاصمة الدولة الإسلامية إلى الكوفة، ولهذا أصبحت المدينة ذات طابع شيعي، وقد حاول معاوية أن يمحو طابع التشيع من خلال الحملات الغاشمة التي شنَّها على الشيعة من قتل، وتشريد، وسجن، وتهجير؛ فقد هَجَّرَ منهم إلى خراسان أكثر من خمسين ألف كما يقول (بروكلمان)[1]، ونتيجة هذه السياسة الغاشمة لم يكن الوجود الشيعي وجوداً واعياً قادراً على تحمل مسؤوليته؛ لأنَّ أكثر قادته ومفكريه كانوا بين مشرّد، ومقتول، ومسجون، أو خائف على نفسه متحفّظ من رقابة السلطة.

يقول الشيخ القرشي: «يروي البلاذري أنّهم كانوا في كربلاء، وهم ينظرون إلى ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تناهبت جسمه الشريف السيوف والرماح فكانوا يبكون، ويدعون الله قائلين: «اللهم أنزل نصرك على ابن بنت نبيك»، فانبرى إليهم أحدهم، فأنكر عليهم ذلك الدعاء، وقال لهم: «هلا تهبّون إلى نصرته بدل هذا الدعاء»... والحقّ أنَّ الشيعة بالمعنى الصحيح لم تكن إلا فئة

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: ١٢٣.

نادرة في ذلك العصر، وقد التحق بعضهم بالإمام الحسين عليه السلام واستشهدوا معه، كما زُجَّ الكثيرون منهم في ظلمات السجون»[١].

هذا هو الوضع الديني القائم آنذاك في الكوفة، وما فيه من تداخل، وتعقيد شديد، واضطراب في العقائد، ولا شك أنَّ هذا الوضع له دور فعّال في اجتماع الناس حول مسلم عاطفياً، ثم تفرقهم عنه حينما انتشرت الإشاعات بمجيء جيش الشام، حيث تفشت في ذلك الوسط روح الانهزام، والتهافت، والتبرير، والتناقض في السلوك، وفقدان الإرادة، ولهذا كانت قلوبهم مع الحسين عليه السلام، وسيوفهم مع أعدائه، هذا هو نتيجة عدم الاستقرار العقائدي وتذبذبه...

التَّنَوُّعُ الْقَبَلِيّ وَالتَّعَدُّدُ الْقَوْمي:

لم تكن الكوفة ذات عنصر واحد، أو قومية واحدة، وإنّما تعددت فيها القوميات، وامتزجت فيها العناصر، واختلفت لغاتها، وعاداتها، وتقاليدها، وأديانها، فهي حقّاً مدينة أممية بكلّ ما للكلمة من معنى باعتبار أنها مركز رئيس للمعسكر الإسلامي؛ فمنها تتدّفق الجيوش، وإليها تردّ الأسرى، وأما أهمّ العناصر فيها فهي:

١- **العرب**: عندما أسّسها سعد بن أبي وقاص توجّهت إليها أنظار العرب من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، وهاجرت إليها القبائل اليمنية حتى بلغ عدد المهاجرين إليها اثني عشر ألف مهاجر من أحد عشر قبيلة، وكان لهم قوة سيطرة شديدة.

وأما القبائل العدنانية، فقد بلغت ثمانية آلاف شخص... وهناك قبائل

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٤٢/٢.

أخرى كقبائل بني بكر التي ضمّت بني أسد، وغطفان، ومحارب، ونمير... إضافة إلى مجموعات أخرى من القبائل، وكانت بعض تلك القبائل شديدة البداوة، ولم تتأثر تأثّراً ملحوظاً في الإسلام؛ فبقيت تحمل العادات، والتقاليد الجاهلية، بل هي محكومة لأعرافها القبلية، فكان لكلّ قبيلة مسجدها الخاص بها، ومقبرتها، وشوارعها، وسككها...

(لقد كانت الروح القبلية هي العنصر البارز في حياة المجتمع الكوفي، وقد استغلَّ ابن سمية هذه الظاهرة في إلقاء القبض على حجر، وإخماد ثورته، فضرب بعض الأسر ببعض، وكذلك استغلّ هذه الظاهرة ابنه للقضاء على حركة مسلم وهاني، وعبد الله بن عفيف الأزدي)[1].

٢- **الفرس**: وهم نسبة عالية من سكان الكوفة، جاءوا إليها في مجموعات ضخمة من (بقايا فلول الجيوش الساسانية التي انضمّت إلى الجيش العربي، وأخذت تقاتل معه، وقد عُرفتْ في التاريخ باسم (حمراء ديلم)، فكان عددهم - فيما يقول المؤرخون - أربعة آلاف جندي يرأسهم رجل يسمى (ديلم)، قاتلوا معه تحت قيادة رستم في القادسية، فلما انهزمت الفرس، وقُتل رستم عقدوا أماناً مع سعد بن أبي وقاص... وقد حالفوا زهرة بن حوبة التميمي أحد قادة الفتح، وفرض لهم سعد في ألف ألف، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه، كما شهدوا فتح جلولاء، ثم تحولّوا، فنزلوا الكوفة... وقد أخذ عددهم بازدياد حتى تضاءلت نسبة العرب في الكوفة، وتغلّبوا في عصر المأمون، حتى كانت اللغة الفارسية تحتلّ الصدارة في ذلك العصر)[2].

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٣٦/٢ .

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٧/٢.

وبناء على السياسة الأموية الغاشمة لم يتغيّر هؤلاء بالإسلام تغيّراً فكرياً، وعقائدياً معمّقاً، فبقوا يحملون تراثهم الديني، والأخلاقي، والقومي؛ ولهذا كان أثرهم في الحياة الاجتماعية والفكرية...

٣- **الأنباط**: وهم قوم من العرب لهم لغة خاصة تسمى الدارمية، وقد أثّروا تأثيراً اجتماعياً ملحوظاً.

٤- **السريانيون**: كانوا منتشرين في العراق قبل الفتح الإسلامي، وكان الكثير منهم يسكن في حوض دجلة، وكانوا قد نزحوا من نصيبين وجند سابور، وحرّان قبل الفتح، ثم تجمّعوا بعد ذلك في الكوفة.

هذا إضافة إلى وجود أقليات أخرى كالأكراد، والترك، والروم.

ومما لا شك فيه أن التعدد القومي له أثر كبير في الحياة الاجتماعية سيما مع وجود السياسة الغاشمة التي تعمق الاختلافات العرقية، وتشعل نار الفتن فيما بينها، وهذه السياسة هي التي بنى عليها معاوية أساس تحرّكه ضد الإمام علي عليه السلام، واستفاد منها كثيراً في تمزيق شمل الأمّة الإسلامية... هذا إذا عرفنا بأنّ العناصر المؤمنة المُغَيِّرة التي تحمل الإسلام رسالةً وعقيدةً كانت محاربة ومضطهدة بأبشع أنواع الاضطهاد، فكيف يكون حال هذا الخليط غير المتجانس؟

لقد توزَّع المجتمع على طبقات متفاوتة اجتماعياً واقتصادياً؛ فتجد طبقة الوجهاء والأعيان من رؤساء القبائل، أو الشخصيات القومية يتقرّبون إلى الحكام، ويتواطؤون معهم... والحكام بالمقابل يفيضون عليهم بالأموال الطائلة، ويُملون عليهم ما يريدون، فترى المجتمع ألعوبة بأيديهم كما وصف بعض من التقى الإمام الحسين عليه السلام في أثناء الطريق بقوله:

«أما أشراف الناس فقد أُعْظِمَت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يُستمال ودُّهم، ويستخلص به نصيحتهم»[١].

وإلى جانب طبقة الوجهاء والأعيان طبقة الموظفين المرتبطين بالقصر بصورة مباشرة، وغير مباشرة كالشرطة، والنقباء، والمناكب، والعرفاء، وأخطرهم العرفاء وهؤلاء هم يمثلون أمن الدولة، ويحصون على الناس أنفاسهم، ولهم مهمات أخرى وهي:

أ- يقومون بتنظيم أمور القبائل، ويوزّعون عليهم العطاء.

ب- ينظمون السجلات العامة للرجال والنساء والأطفال، ويسجلون من يولد ليفرض له العطاء، ويحذفون اسم من يموت؛ ليقطع عنه العطاء.

ج- يندبون الناس أيام الحرب، ويخبرون السلطة بأسماء المتخلفين عن الخروج.

د- والوظيفة الأهمّ هي التجسّس على الناس، وإيصال أخبار أيّ تحرك، ونشاط فكري وسياسي.

وكان لهؤلاء الدور الفعال في تفريق جيش مسلم حيث نشطوا بشكل كبير في نشر الإشاعات والأراجيف، وقد استخدمهم عبيد الله بن زياد، وحوَّلهم إلى دمى في يده حينما هدّدهم قائلاً: «وسوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبقِ امرؤ على نفسه، الصدق يُنبي عنك لا الوعيد»، ثم نزل، فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً، فقال: «اكتبوا إلى العرفاء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية، وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشّقاق،

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٥.

فمن يجئ بهم لنا فبريء، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغٍ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحلال لنا دمه وماله، وأيُّما عريفٍ وجد في عرافته من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه إلينا، صُلِبَ على باب داره، وألغيت تلك العرافةُ من العطاء»[١].

بهذا الطريقة استخفَّ عقولهم، وسخّرهم، وحوّلهم إلى أدوات بطش غادرة يغدر بعضهم بالبعض الآخر...

وهناك طبقات أخرى كطبقة ذوي الأعمال الحرّة والكسبة الذين يعملون في السوق، وهم خليط غير متجانس، وحالتهم محكومة للموظفين من أدوات السلطة، ومن الطبقات المسحوقة الذين يعيشون الذلّ والاحتقار وفق شريعة بني أمية هم العبيد والموالي، وإلى جانبها طبقة المرتزقة المسخرين للغزو، وضرب المعارضين (طبق أوامر الولاة والحكام بلا معارضة، أو نقاش حتى لو أمروهم بقتال المسلمين، واستباحة المحرمات، أو قتال الرسول في ولده، تحت طائلة التجويع والإعدام مع استباحة عائلة المرتزق)[٢].

وأسوأ هذه الطبقات طبقة رجال الدين من العلماء الذين اتّخذهم السلطان ذريعة يفتون لهم ما يريدون يحلّون الحرام، ويحرّمون الحلال، وأبرز هؤلاء شريح القاضي.

خَلْفِيّاتُ الْحُكّامِ فِي الكوفَةِ:

توالى على الكوفة ولاة طغاة ظالمون عرفوا ببطشهم وفسقهم، فتركوا

(١) الإرشاد: ٤٤/٢-٤٥.

(٢) مبعوث الحسين عليه السلام: ٦٣.

أسوأ الآثار في مجتمعها، ومن هؤلاء:

١- **الوليد بن عقبة بن أبي معيط**: ولاه عثمان على الكوفة، وكان من المعادين لأهل البيت عليهم السلام من أوّل أمره، قال ابن عباس: « قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام: أنا أحدّ منك سناناً، وأبسطُ منك لساناً، وأملأ للكتيبة طِعاناً، فقال له علي عليه السلام: أسكت؛ فإنما أنت فاسق، فنزل القرآن: ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ** ﴾[١]».

قال: «يعني بالمؤمن علياً، وبالفاسق الوليد بن عقبة»[٢].

وقال حضين بن المنذر: «صلّى الوليد بن عقبة بالناس الفجر أربعاً، وهو سكران، ثم انفتل فالتفت إليهم، فقال: أزيدكم؟ فرفع ذلك إلى عثمان»[٣].

وقال أبو عبيدة، وهشام بن الكلبي، والأصمعيّ: «كان الوليد بن عقبة زانياً شِرِّيب خمر، فشرب الخمر بالكوفة، وقام ليصلّي بهم الصبح في المسجد الجامع، فصلّى بهم أربع ركعات، ثم التفت إليهم، فقال: أزيدكم؟ وتقيأ في المحراب، وقرأ بهم وهو رافع صوته في الصلاة: [من مجزوء الرمل]

عَلِقَ القلْبُ الرَّبابا ... بعدما شابَتْ وشابا»

ثم رفع خبره إلى عثمان، فعفى عنه، ثم أقام الحد عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام[٤].

---

(١) السجدة: ١٨ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ١٥٣/٥، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٢٣٥/٦٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٣٨/١٧ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٢٤١/٦٣ .

(٤) راجع قصته في كتاب الأغاني: ١٣٩/٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٣٠/١٧ .

وقد بقي في إمارة الكوفة خمس سنوات يفسد فيها بكلّ أنواع الفساد الفكري، والأخلاقي، والاقتصادي علماً أنّه هو الذي نزل في حقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾[1].

قال ابن عساكر: «وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عقبة إلى الحارث؛ ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِق [خاف]، فرجع، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، إنَّ الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث، وفصل من المدينة إذ لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم، قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟ قالوا: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فرجع إليه، فزعم أنَّك منعته الزكاة، وأردت قتله، فقال: لا، والذي بعث محمداً بالحقّ ما رأيته ولا أتاني.

فلمّا أن دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وآله، قال له: منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟ قال: لا، والذي بعثك بالحقّ ما رأيته، ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسولُك، خشيتُ أن تكون كانت سخطة من الله ومن رسوله، فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾»[2].

أقول: هذا يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيٌّ يرزق يراقب مسيرة الرسالة، ويتابع الأحداث، ويسنده الوحي الإلهي، ويعلم أنَّ الله سيخصمه، فكيف يتصرف مع الآخرين، وهو حاكم متسلط يتحكم في رقاب الناس؟

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٢٢٩/٦٣.

بلا شكّ سيكون لأعماله آثار فاحشة في المجتمع الذي يحكمه، وفعلاً ترك أسوأ الآثار، وخَلَّفَ أرتالاً من جنوده الذين تلطَّخت أيديهم بدماء المؤمنين.

هذا أنموذج من الحكّام الذين حكموا الكوفة، وأفسدوا فيها أيّما إفساد.

٢- **أبو موسى الأشعري**: عبد الله بن قيس سكن الكوفة بعد أن عزله عثمان عن ولاية البصرة، قال ابن أبي الحديد: «فلما كره أهلُ الكوفة سعيد بن العاص، ودفعوه عنها، ولَّوْا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه، فأقرّه على الكوفة، فلما قتل عثمان عزله علي عليه السلام عنها، فلم يزل واجداً لذلك على علي عليه السلام حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه، فقد روى حذيفة فيه كلاماً كرهت ذكره، والله يغفر له.

قلت: الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ، ولم يذكره قوله فيه، وقد ذكر عنده بالدّين، أمّا أنتم فتقولون ذلك، وأمّا أنا فأشهد أنَّه عدو لله، ولرسوله، وحرب لهما في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار. وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين أسرّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم، وأعلمه أسماءهم.

وروي أنَّ عماراً سُئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: صاحب البُرْنس الأسود، ثم كَلَح كُلُوحاً، علمت منه أنَّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط»[1].

ثم يقول ابن أبي الحديد في شأن أبي موسى الأشعري: «فأما ما تعتقده

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣/٣١٤-٣١٥.

المعتزلة فيه، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متويه في كتاب **الكفاية** قال رحمه الله:

أما أبو موسى فإنّه عظم جُرْمه بما فعله، وأدّى ذلك إلى الضّرر الذي لم يخفَ حاله، وكان عليٌّ عليه السلام يقنت عليه وعلى غيره، فيقول: اللهمّ العنْ معاوية أولاً، وعَمْراً ثانياً، وأبا الأعور السُّلميّ ثالثاً، وأبا موسى الأشعريّ رابعاً.

روي عنه عليه السلام أنَّه كان يقول في أبي موسى: «صَبغ بالعلم صَبغاً، وسلخ منه سلخاً».

قال: وأبو موسى هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «كان في بني إسرائيل حَكمان ضالان، وسيكون في أمتي حَكمان ضالان، ضالّ من اتبعهما» وأنَّه قيل له: ألا يجوز أن تكون أحدهما؟ فقال: لا ...

[إلى أن يقول:] ولم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره... وذكرته لك لتعلم أنّه عند المعتزلة من أرباب الكبائر، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة، ومات عليها»[1].

هذا هو أنموذج من النماذج التي حكمت الكوفة، و تركت فيها آثاراً سيئة على جميع الناس، وعلى حركة الإسلام، حيث الناس على دين ملوكهم، وخصوصاً إذا كانوا مطلقي اليد فيما يقولون وفيما يفعلون...

وأبو موسى الأشعري هذا وقف في وجه أمير المؤمنين عليه السلام يخالف أوامره، ويُثَبِّط الناس عن نصرته، فعندما أرسل إليه عدّة رسل؛ ليستنفر الناس إلى حرب الجمل، كان يثبّط الناس ويقول: «إنّما هي فتنة»[2].

وكان قد قدم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفةَ؛ لاستنفار

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/٣١٥-٣١٦.

(٢) المسعودي، مروج الذهب: ٢/٣٧٦.

الناس، فدخل قوم منهم على أبي موسى ليلاً، فقالوا له: «أشر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى علي»، فقال لهم: «أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهما»، فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج[١].

ويروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعث إليه هاشم بن عتبة؛ ولما أبى أبو موسى اتباع ما كتب إليه بعث إلى هشام يتوعده ويخوفه، ونتيجة لهذا كتب هاشم بن عتبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أمير المؤمنين، فإنّي قدمتُ بكتابك على امرئ مشاقّ، بعيد الود، ظاهر الغل والشنآن، فتهدّدني بالسجن، وخوّفني بالقتل»[٢].

ثم بعد ذلك بعث أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس، ومحمّد بن أبي بكر إليه، وكتب معهما إليه: «أما بعد؛ يا ابن الحائك... فوالله إنّي كنت لأرى أنّ بُعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً، ولا جعل لك فيه نصيباً، سيمنعك من ردّ أمري، والانتزاء[٣] عليَّ، وقد بعثتُ إليك ابن عباس، وابن أبي بكر، فخلّهما والمصر وأهله، واعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن فعلت، وإلا فإنّي قد أمرتُهما على أن ينابذاك على سواء، إنّ الله لا يهدي كيد الخائنين، فإذا ظهرا عليك قطّعاك إرباً إرباً، والسلام على من شكر النعمة، ووفّى بالبيعة، وعمل برجاء العاقبة»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩/١٤، ونهج الصباغة في شرح نهج البلاغة للتستري: ٣٦٧/٦-٣٦٨.

(٢) المصدران السابقان أنفسهما.

(٣) الانتزاء: الوثوب، وفي نهج الصباغة: الابتزاز.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٠/١٤، ونهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: ٣٦٨/٦.

ورُوي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام بعث الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر، وكلَّماه بكلام فيه نوع لين، ولم يجدا منه تجاوباً، وحدثت بينه وبين عمار مناوشات كلامية[1].

وروى الطبري: أنَّ الأشتر استأذن علياً عليه السلام في إتيان الكوفة بعد الحسن عليه السلام وعمار، فأذن له، (فأقبل الأشتر حتى دخل الكوفة، وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرُّ بقبيلة يرى فيها جماعةً في مجلس، أو مسجد إلا دعاهم، ويقول: اتبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر، فدخله وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس ويثبِّطهم... [قال] أبو مريم الثقفي: والله إنّي لفي المسجد يومئذٍ، وعمار يخاطب أبا موسى، ويقول له ذلك القول، إذ خرج علينا غلمان لأبي موسى يشتدّون ينادون: يا أبا موسى، هذا الأشتر دخل القصر، فضربنا وأخرجنا؛ فنزل أبو موسى، فدخل القصر، فصاح به الأشتر: اخرج من قصرنا لا أم لك! أخرج الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين قديماً)[2].

هذه بعض أعمال أبي موسى وصفاته، وحكم هذا الكوفة مدة حكم عثمان تقريباً، وترك فيها أسوأ الآثار، ولم تكن هذه الآثار لتزول بسهولة، بل بقيت إلى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ولا سيما أنَّ أبا موسى كان يستشهد بروايات وُضِعَت على رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتمظهر بالتديّن ليخدع الناس، ويحاول أن يغيّر أفكارهم وآراءهم، بل دينهم فهو ضالٌّ مضلٌّ، فكيف سيكون مجتمع الكوفة بعد ذلك؟

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٤/٤٨٢-٤٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٤/٤٨٦-٤٨٧، ونهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: ٦/٣٧٢-٣٧٣.

٣- زياد بن عبيد: المعروف بزياد ابن أبيه وهو مسخ من مسوخ البشر يعيش عقدة الشعور بالنقص، والإحساس بالحقارة بأعنف صورها، فانعكست على سلوكه كيداً، ومكراً، وغدراً، وانتقاماً من كل حرّ شريف...

وعقدة الحقارة هذه نشأت في نفسه من معرفته بخسّة نسبه، وقد كانت العرب تعدّ إحدى مميزات السمو والرفعة هو النسب الطاهر، وزياد هذا يعلم يقيناً أنَّه ابن سمية المعروفة بالبغاء، وهي أَمَةٌ كانت لدهقانِ زَيْدَوُرد بكَسْكَر، وصادف أن مرض الدهقان، فاستدعي له الحارث بن كَلَدَة الثقفي ليعالجه، وفعلاً برأ بعلاجه، فوهب له الدهقانُ أمته سميّة، وبعد أن ولدت له أبا بكرة، ونافعاً، زوَّجها الحارث إلى غلام رومي يقال له عُبيد، فولدت زياداً على فراشه، وكان أبو سفيان صار إلى الطائف، فنزل على خمَّار يقال له أبو مريم السّلولي، وكانت لأبي مريم بعدُ صحبةٌ، فقال أبو سفيان لأبي مريم بعد أن شرب عنده: قد اشتدت بي العزوبة، فالتمس لي بغيّاً، فقال: هل لك في جارية الحارث بن كَلَدَة سُمَيَّة امرأة عُبَيْد؟ قال: هاتها على طول ثدييها، وذَفَر إبطيها، فجاء بها إليه، فوقع بها، فولدت زياداً، فادّعاه معاوية، فقال يزيد بن مفرغ لزياد: [من الوافر]

تذكَّر هل بيثرب زَيْدَوُرد ... قِرى آبائكَ النَّبطِ القحاح[1]

وبقيت هذه العقدة تستعر في نفسه الخبيثة الطموحة، وكان معاوية يعرف بذلك، فحاول أن يستهويه، لما كلَّفه أمير المؤمنين عليه السلام بولاية فارس، فضبطها، وحمى قلاعها، وأباد الأعداء بناحيتها، وحُمِد أثره فيها، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك، وكتب إلى زياد:

---

(١) ينظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ١٧٣/١٩، مع تصرف بالألفاظ.

«أما بعد؛ فإنَّ العُشَّ الذي رُبيتَ فيه معلوم عندنا، فلا تدع أن تأوي كما تأوي الطير في أوكارها، ولولا والله أعلم به لقلت ما قاله العبد الصالح: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1]»...

فلما ورد الكتاب على زياد قام في الناس، فقال: «العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد، ورأس النفاق، يخوفني بقصده إياي، وبيني وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله في المهاجرين والأنصار، أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أجمَّ مَجسّاً ضرباً بالسيف».

واتّصل الخبر بعلي عليه السلام فكتب إلى زياد: «أما بعد؛ وليتك الذي وليتك، وأنا أراك له أهلاً، وإنَّه قد كانت من [ابن] أبي سفيان فلتة من أماني الباطل، وكذب النفس لا توجب له ميراثاً، ولا يحلّ له نسباً، وإنَّ معاوية يأتي الإنسان من بين يديه، ومن خلفه، ومن عن يمينه، ومن عن شماله فاحذر، ثم احذر، والسّلام»[2].

ولكن زياد بن عبيد نتيجة العُقَد المتأصلة في نفسه لم ينفع معه التحذير، فبقيت الأماني الباطلة تراوده، ووسوسة معاوية ترنُّ في خفايا نفسه إلى أن استشهد أمير المؤمنين عليه السلام، وكان زياد قد تحصن في قلعة سُمِّيَتْ فيما بعد باسمه، (فأرسل زياد مَنْ صالح معاوية على ألفي ألف درهم، وأقبل زياد من القلعة، فلقيَهُ مَصْقَلة بن هُبَيرة وافداً إلى معاوية، فقال له زياد: متى عهدك بأمير المؤمنين؟ فقال: عام أول. قال: كم أعطاك؟ قال: عشرين ألفاً. قال: فهل لك أن أعطيك مثلها وتبلّغه كلاماً؟ قال: نعم. قال: قل له إذا أتيته: أتاك زياد، وقد أكل برَّ

(١) النمل: ٣٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ١٩/١٧٥-١٧٦.

العراق، وبحره، فخدعك، فصالحك على ألفي ألف درهم، والله ما أرى الذي يقال إلا حقّاً، فإذا قال لك: ما يقال؟ فقل: يقال: إنَّه ابن أبي سفيان.

فأبلغ مَصْقَلة معاوية الكلام، فلما قال: إنَّه يقال: إنَّه ابن أبي سفيان، قال: أبى قائلها إلا إثماً، قال: فادَّعاه معاوية، فما أعطى زياد مَصْقَلة العشرين ألف درهم إلا بعد أن ادّعاه)[١].

وبعد أن ادّعاه معاوية كان يحاول أن يثبت ذلك بتحصيل شهادات من بعض الشخصيات المعروفة بصورة غير مباشرة، قال مفضَّل بن مهلهل: «كتب زياد إلى عائشة: من زياد بن أبي سفيان -وهو يريد أن تكتب إليه: ابن أبي سفيان، فيحتجّ إليه -فكتبت إليه من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد»[٢].

وعن محمد بن الحارث، وهو رجل من قريش: «أنَّ مُرَّة صاحب نهر مُرَّة أتى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان مولاهم، يسأله أن يكتب له إلى زياد في حاجة له، فكتب: من عبد الرحمن إلى زياد، ونسبه إلى غير أبي سفيان، فقال: لا أذهب بكتابك هذا فيضربني، قال: فأتى عائشة، فكتبت له: من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، [قال:] فلما جاء بالكتاب قال له: إذا كان غداً فجئني بكتابك، قال: وجمع الناس، فقال: يا غلام اقرأه، قال: فقرأه، من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان. قال: فقضى له حاجته»[٣].

هذه معالم شخصية زياد بن أبيه بما تحمل من عقد نفسية، وشعور بالحقارة دفعها إلى الاستعلاء والتجبر؛ لتسدَّ بعض الشعور بالذلّ والحقارة، ولكن

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق: ٧٦/٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ١٧٧/١٩.

(٣) المصدر نفسه.

هذا لم يعالجه مرضه، بل دفعه إلى البطش وسفك الدماء، وكان يتبجّح به من على منبر الكوفة بكل صلافة، فتراه في أول يوم يصل الكوفة حاكماً من قبل معاوية، يصعد المنبر فلا يصلي فيها على النبي صلى الله عليه وآله، ويقول:

«وأيم الله إنَّ لي لكم صَرْعى، فليحذر كلّ رجل منكم أن يكون من صَرعاي، فوالله لآخذنَّ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر، حتى تلين لي قناتكم، وحتى يقول القائل: انجُ سعد، فقد قتل سعيد»[1].

ولما اعترض على خطابه أبو بلال مرداس بن أُدَيَّة فقال: «أيها الرجل، قد سمعت قولك: والله لآخذنَّ البريءَ بالسقيم، والمطيعَ بالعاصي، والمقبلَ بالمدبر، ولعمري لقد خالفتَ ما حكم الله في كتابه أن يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]»، فقال: «إيهاً عني، فوالله ما أجد السبيل إلى ما تريد أنت وأصحابك حتى أخوض الباطل خوضاً»، ثم نزل، فقام مرداس بن أُدَيَّة وهو يقول[3]: [من البسيط]

يا طالبَ الخير، نهر الجور معترض ... طول التهجّد أو فتك بجبّار

لا كنت إن لم أصم عن كلّ عاتبة ... حتى يكون بريق الجور إفطاري

وجرائمه التي ارتكبها في الكوفة مع شيعة علي أكثر من أن تحصى من قتل، وسجن، وتشريد، ونحن ننقل بعض أقوال المؤرخين فيه:

يقول ابن أعثم (٣١٤ هـ) في كتاب الفتوح: «وجعل زياد يتتبع شيعة علي بن أبي طالب، فيقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم، وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٨٠/١٩ .

(٢) فاطر: ١٨ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ١٨٠/١٩-١٨١ .

منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل منهم حجر بن عدي الكندي وأصحابه...»[١].

وروى أبو الحسن المدائنيّ في كتاب الأحداث - كما ينقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة - قال: «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته؛ فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كلّ منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدَّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة، وهو بهم عارف؛ لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام؛ فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم، وشرَّدهم عن العراق؛ فلم يبقَ بها معروف منهم»[٢].

ومن جرائمه الفظيعة أنه ولّى على البصرة حين شخص إلى الكوفة المجرم السفّاح الكاذب على رسول الله صلى الله عليه وآله سمرة بن جندب، يقول الطبري:

«ولّى زياد حين شخص من البصرة إلى الكوفة سَمرة بن جندب، فحدثني عمر قال: حدثني إسحاق بن إدريس، قال: حدثني محمد بن سليم، قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة، وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قتلتَ أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلتُ إليهم مثلهم ما خشيتُ... وعن أبي سوّار العدوي قال: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جَمَع القرآن»[٣].

---

(١) ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح: ٣١٦/٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٤/١١.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٣٦/٥-٢٣٧.

كَيْفَ هَلَكَ زِيادُ بن سُمَيَّة؟

قال ابن أبي الحديد: «وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولَعْنه، وأنْ يقتُلَ كل من امتنع من ذلك، ويخرِّب منزله؛ فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثة أيام، وذلك في خلافه معاوية»[١].

ونقل ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: «قال عبد الرحمن بن السائب: جمع زياد أهل الكوفة، فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر؛ ليعرضهم على البراءة من علي عليه السلام، قال عبد الرحمن: فإني لمع نفرٍ من الأنصار، والناس في أمر عظيم، قال: فهوَّمْتُ تهويمةً[٢]، فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق مثل عنق البعير، أهدب، أهدل[٣]، فقلت: ما أنت؟ قال: أنا النَّقَّاد ذو الرقبة، بُعْثْتُ إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظتُ فزعاً، فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: لا، فأخبرتهم، قال: ويخرج علينا خارج من القصر، فقال: إنَّ الأميرَ يقول لكم: انصرفوا عني، فإنّي عنكم مشغول؛ وإذا الطاعون قد ضربه، فأنشأ عبد الرحمن بن السائب يقول: [من البسيط]

ما كان منتهياً عما أرادَ بنا ... حتى تناوله النَّقَّادُ ذو الرقَبَة
فأثبتَ الشق منه ضَربة ثبَتَتْ ... كما تناولَ ظلماً صاحب الرحَبَة»[٤]

وقيل: ضربه الطاعون (على إصبع يمينه، فمات منها؛ فلما حَضرته الوفاة

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥٨/٤.

(٢) التهويم والتهوم: هزّ الرأس من النعاس.

(٣) الأهدل: الساقط الشفة.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ٢٠٣/١٩-٢٠٤.

دعا شريحاً القاضي، فقال له: قد حدث ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشرْ عليَّ، فقال له شريح: إنّي أخشى أن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله أجذمَ، وقد قطعتَ يدك كراهية لقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير فتعيش أجذم، وتُعيَّر ولدك، فقال: لا أبيتُ والطاعون في لحاف واحد، فخرج شريح من عنده، فسأله الناس، فأخبرهم، فلاموه، وقالوا: هلا أشرتَ بقطعها؟ فقال: المستشار مُؤتمن)[1].

ولا عجب ذلك من شريح؛ فهو أحد صنائع الظالمين، لقد نسي كلّ جرائم زياد وخاف عليه أن يلقى الله أجذم!!

قصَصٌ مِن جَرائِمِهِ:

ذكر المؤرخون قصصاً من جرائمه لها دلالة عميقة في وحشيّة هذا الرجل، وتدلّ على عمق عقدة الحقارة في نفسه، ومدى خطرها في مسيرة المجتمع الذي خذل مسلم بن عقيل.

القصة الأولى: روى ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق عن جعفر بن سليمان عن عبد ربه عن أبي كعب الجُرْمُوزي قال: (إنَّ زياداً لما قدم الكوفة، قال: أيّ أهل الكوفة أعبَد؟ قيل: فلان الحِمْيَري؛ فأرسل إليه فأتاه، فإذا سَمْتٌ[2] ونَحْوٌ، فقال زياد: لو مال هذا مال أهل الكوفة معه، فقال له: إنّي بعثت إليك لخير، قال: إنّي إلى الخير لفقير، قال: بعثت إليك لأنولك، وأعطيك على أن تلزم بيتك فلا تخرج؟ قال: سبحان الله! والله لصلاةٌ واحدةٌ في جماعة أحبُّ إليَّ من الدنيا كلها، [ولزيارةُ أخٍ في الله، وعيادة مريض أحبُّ إليَّ من الدنيا كلّها]، فليس إلى

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٩٤/٣.

(٢) السمت: هيأة أهل الخير، وحسن النحو، والرأي.

ذلك سبيل، قال: فاخرجْ وصلّ في جماعة، وزر إخوانك، وعُدْ المريض، والزم شأنك، قال: سبحان الله!! أرى معروفاً لا أقول فيه؟! أرى منكراً لا أنهى عنه؟! فوالله لمقام من ذلك واحدٌ أحبُّ إليَّ من الدنيا كلها، قال: يا أبا فلان، قال جعفر: أظن الرجل أبا المغيرة، فهو السيف، قال: السيف، فأمر به، فضربت عنقه، قال جعفر: فقيل لزياد، وهو في الموت: ابشر، قال: كيف وأبو المغيرة بالطريق؟!»[1].

إننا عندما نتأمل في هذه الواقعة نستنتج أنَّ زياداً الذي هو صنيعة من صنائع معاوية يريد أن يعزل الدين عن الحياة العامة، ويشتري ضمائر الناس؛ ليعطل فيها حركة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّ ذلك يتنافى مع السياسة الأموية، ويكشف أساليبها الإجرامية.

وقد صرّح بعض المؤرخين بذلك، قال سَلمة بن كُهَيل: «أول مَنْ وطئ على سماح الإسلام زياد»[2].

وعن سعيد بن المسيب قال: «أول قضية رُدَّتْ من قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله علانيةً قضاء فلانٍ في زياد»، ويقصد بفلان معاوية.

وقال ابن أبي نُجَيْح: «أول حكم رُدَّ من حكم رسول الله صلى الله عليه وآله الحكم في زياد»[3].

القصة الثانية: لما مات المغيرة، وولي زياد على الكوفة، صعد المنبر، وخطب الناس، فحُصب، وهو على المنبر، يقول الطبري: «فجلس حتى أمسكوا، ثم دعا قوماً من خاصّته، وأمرهم، فأخذوا أبواب المسجد، ثم قال: ليأخذْ كلّ

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٩/٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٩/١٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٩/١٧٩.

رجل منكم جليسه، ولا يقولنَّ: لا أدْرِي من جليسي؟ ثم أمر بكرسيّ، فوضع له على باب المسجد، فدعاهم أربعةً أربعة يحلفون بالله ما مِنّا مَنْ حَصَبَك، فمن حلف خلاه، ومن لم يحلف حبسه وعزله، حتى صار إلى ثلاثين، ويقال: بل كانوا ثمانين، فقطَّع أيديهم على المكان»[١].

هكذا كان يعاقب على الظنّة والتهمة، يقطع الأيدي والأرجل، ويسمل العيون.

القصة الثالثة: عن زياد بن النضر الحارثي قال: «كنتُ عند زياد، وقد أُتيَ برشيد الهجري - وكان من خواص أصحاب علي عليه السلام - فقال له زياد: ما قال خليلُك لك إنَّا فاعلون بك؟ قال: تَقْطَعُون يديّ ورِجْليّ، وتصلبونني، فقال زياد: أما والله لأُكذّبنَّ حديثه، خلّوا سبيله، فلما أراد أن يخرُجَ، قال: ردُّوه، لا نجد شيئاً أصلحَ مما قال لك صاحبُك؛ إنَّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت؛ اقطعوا يديْه ورجليْه؛ فقطعوا يديه ورجليه، وهو يتكلم، فقال: اصلبوه خنقاً في عُنُقِه، فقال رشيد: قد بقى لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانَه، فلما أخرجوا لسانه ليقطع قال: نَفّسُوا عني أتكلم كلمة واحدة، فنفّسوا عنه، فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين عليه السلام أخبرني بقطع لساني؛ فقطعوا لسانه وصلبوه»[٢].

القصة الرابعة: وهي قصته مع حجر بن عدي العبد الصالح، الحرّ، الصادق، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر... وخلاصة قصته معه: أنَّه ألقى القبض على حجر ومعه ثلاثة عشر من أصحابه، ثم أرسلهم إلى معاوية، (فأمر معاوية أن

(١) تاريخ الطبري: ٢٣٥/٥ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٩٤/٢ .

يحبسوا بمرج عذراء، وهي قرية بضواحي الشام، ولما عرف حجر أنَّه بهذه القرية، قال: والله إنّي لأول مسلم نبحته كلابها، وأول مسلم كبَّر بواديها، - يشير إلى أنّه كان أول مسلم جاهد وحارب على أرض هذه القرية - وأمر معاوية أن يعرض على حجر وأصحابه البراءة من علي ولعنه، وتولّي عثمان، فمن فعل منهم أمن، ومن أبى قتل، وشفع جماعة من أهل الشام عند معاوية في بعض هؤلاء الرهط، وقبل شفاعتهم، ولم يبقَ منهم إلا ثمانية، فعرضت عليهم البراءة، فأبوا إلا اثنان طلبا أن يحملا إلى معاوية... وحُمل الرجلان إلى معاوية، فأما أحدهما فأظهر البراءة على لسانه، وأما الآخر فأبى أن يتبرأ من علي، وأسمع معاوية في نفسه، وفي عثمان ما يكره، فردَّه معاوية إلى زياد، وأمره أن يقتله شر قتلة؛ فدفنه زياد حياً)[1].

القصة الخامسة: جيء بصيفي بن فسيل من أصحاب حجر (إلى زياد، فقال له: يا عدو الله، ما تقول في أبي تراب؟ قال صيفي: ما أعرف أبا تراب. قال زياد: ما أعرفك به. قال: ما أعرفه. قال زياد: أما تعرف علي بن أبي طالب؟ قال: بلى. قال زياد: فذاك أبو تراب. قال: كلا، ذاك أبو الحسن والحسين. قال زياد لجلاوزته: عليَّ بالعصا؛ فأُتِيَ بها، فالتفت إلى صيفي، وقال: ما قولك؟ قال: أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين، فقال زياد: اضربوه حتى يلصق بالأرض؛ فضربوه حتى لزم الأرض، وعندها قال له زياد: ما تقول في علي؟ قال: والله لو شرحتني بالموسى والمدى ما قلتُ إلا ما سمعتَ مني، قال زياد: لتلعننّه .. أو لأضربنَّ عنقك، قال: إذن والله لتضربها قبل ذلك)[2].

(١) محمّد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون: ٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٨.

هذا غيض من فيض من جرائم زياد بن سمية، وبقيّة ولاة بني أمية على الكوفة، وهذه السياسة الغاشمة سياسة الحديد، والنار، والسجن، والتشريد، والقتل، والإفساد الفكري والسياسي، والاقتصادي من سلب الأموال، وهدم البيوت، والأخذ على التهمة، والظنّة ترك أسوأ الآثار في الأمة، وخصوصاً على مجتمع الكوفة نذكر منها:

١- أفقدت الأمة إرادتها وحَوَّلتها إلى قطيع خائر لا يملك من إرادته شيئاً، فترى قلوبها مع الحسين عليه السلام، وسيوفها عليه، فهي بلا إرادة، ولا اختيار، ولا عزم، ولا تصميم، وإنما أصبحت كآلة مُسَيَّرة تُحَرِّكها أوامر الطغاة.

٢- إنَّ سياسةَ شراء الضمائر، وتخدير العقول بالأموال، وبالإغراء، والإفساد أوجدت طبقة من المجرمين الذين مُسخت إنسانيتهم، ففسدت قلوبهم، وقست وتحوّلوا إلى وحوش ضارية يلتذون بعذاب الآخرين.

٣- شيوع الفساد الأخلاقي في الأوساط المقدسة، فقد نشروا شرب الخمور، وأوجدوا دوراً للدعارة، والملاهي، والملاعب؛ لتخدير إرادة الأمة، وإشغالها عن مصائبها، ومصالحها.

٤- اصطنعوا المذاهب المنحرفة عن الإسلام كالقدّرية، والجبرية، والمفوّضة، ونظّروا لذلك بروايات وضعوها على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصبحت ديناً يدان به...

هذا هو الوضع السياسي في الكوفة على الخصوص؛ وبهذا حدثت تلك الانتكاسة في حياة الأمة، ولذلك انتكست حركة مسلم بن عقيل...

فنحن إذا تأملنا بمجمل الأوضاع الاجتماعية أو الفكرية أو السياسية نجد أنّها ساعدت على تفرّق الناس عن مسلم بسهولة عندما استعمل ابن زياد سلاح

الإشاعة التي مزَّقت جيش مسلم، وتركته وحيداً...

ونذكر مثالاً واحداً من أمثلة الغدر التي استعملها عبيد الله بن زياد في استغفال الأمة والاستخفاف بها، هذا المثال هو:

لما وقع المجاهد الكبير هاني بن عروة أسيراً في شباكهم، وفعل ما فعل به ابن زياد ألقاه في السجن تشخب جروحه، متضمِّخاً بدمه... وكان ابن زياد يعرف مسبقاً موقع قبيلة مذحج، فدبَّر لها مؤامرة استطاع بها امتصاص نقمتها على النحو الآتي:

اتفق مع أحد صنائعه، وهو عمرو بن الحجاج الزبيدي على أن يتظاهر بأنَّه من الثائرين ضد ابن زياد، ومن الناقمين عليه، لاعتقال هاني بن عروة، وجمع عشيرة مذحج وقادهم؛ ليطوِّق القصر متظاهراً بأنَّه يريد إخراج هاني من أيديهم، وفعلاً وصل بعشيرة مذحج وطوَّق القصر... هذا من جانب، ومن جانب آخر أوعز ابن زياد إلى شريح القاضي (بقوله): أدخل على صاحبهم فانظر إليه، ثم أخرج فأعلمهم أنَّه حي لم يقتل، وأنَّك رأيته، فقام القاضي المتواطئ بدوره، وخرج إليهم قائلاً:

دخلت على هاني ورأيته حياً، وأبدى ابن الحجاج ارتياحه، وأعلن بانتهاء المهمة إذا كان هاني حياً قائلاً: «أما إذ لم يقتل فالحمد لله» وانصرف، وصرف معه جميع العشيرة، وانسحبت راضية؛ لأنَّ لسانها الناطق وافق على ذلك[1].

تلك هي الأساليب الأموية في الغدر والكيد واستغفال الناس وخداعهم...

وهكذا تمّت المؤامرة وأحبطوا حركة مسلم، وظلّ وحده ليس معه غير

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٣٦٧/٥-٣٦٨.

سيفه، وقد أقبلوا عليه، فخرج إليهم كالأسد الهصور قائلاً[١]: [من الرجز]

أقســـمت لا أقتـــل إلا حُـــرّا وإن رأيـــت المـــوت شـــيئاً نُكـــرا
كـــلُّ امـــرئ يومـــاً مـــلاقٍ شـــراً ويُخلـــط البـــارد سُـــخْناً مُـــرّا
رُدّ شـــعاع الشـــمس فاســـتقرا أخـــاف أن أكـــذب أو أغَـــرّا

وبعد جولة حامية جندل فيها الكثير من المهاجمين أُثخن بالجراح حتى عجز عن القتال، فأسند ظهره إلى جنب جدار، فضربوه بالسهام والأحجار، فقال: «ويلكم، ما لكم ترموني بالحجارة كما ترمى الكفار؟ وأنا من أهل بيت النبي المختار! ويلكم، أما ترعون حقَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولا حقَّ قرباه؟»[٢].

قال السيد ابن طاووس في الملهوف: وعند ذلك ضربه رجل من خلفه، فخرّ إلى الأرض، فتكاثروا عليه، وأعطوه الأمان، فأمكنهم من نفسه، ثم أُخذ أسيراً إلى ابن زياد، فقتله، وقصته معروفة[٣].

[من المتقارب]

بكتـك دمـاً يـا ابـن عـمّ الحسـين مـــدامع شـــيعتك الســـافحة
ولا برحـــت هـــاطلات الـــدموع تحييـــك غاديـــة رائحـــة
لأنَّـــك لـــم تـــروَ مـــن شـــربة ثنايـــاك فيهـــا غـــدت طائحـــة
رمـــوك مـــن القصـــر إذ أوثقـــوك فهـــل ســـلمت فيـــك مـــن جارحـــة
وســـحباً تُجـــرّ بأســـواقهم ألســـتَ أميـــرهم البارحـــة؟[٤]

(١) تاريخ الطبري: ٣٧٤/٥.
(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٠١/١-٣٠٢.
(٣) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: ١١٨-١٢٣.
(٤) السيد جواد شبر، أدب الطف: ٢٢٣/٨.

السّياسَةُ العَلَوِيَّةُ

وَالسّياسَةُ الأَمَوِيَّةُ

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

لو استقرأنا سِيَرَ السياسيين قديماً وحديثاً لوجدنا منهجين متباينين في الغاية والوسيلة:

١- منهج مبنيّ على أساس فكري وعقائدي سليم يحدّد الإنسان من خلاله موقفه من الحياة والكون، وأصحاب هذا المنهج وسالكوه يحاولون الوصول إلى تحقيق أهدافهم بطرق مشروعة منتزعة من نفس المتبنيّات العقائدية والحكمية التي نذروا أنفسهم لأجلها، ولا يهمّهم الوصول إلى عرش الحكم، إنّما الذي يهمّهم هو ترسيخ المبادئ والأفكار في نفوس الناس، وخلق تيار فكري يقود المجتمع إلى حيث تريد عقيدته لا إلى ما تريد أهواؤهم ورغباتهم.

٢- منهج مبنيّ على أساس الأهواء النفسية، والنوازع الذاتية، والدوافع الشهوانيّة كدافع حبّ الظهور، والتسلّط، والانتقام ... وأصحاب هذا النهج يسلكون شتى السبل؛ لأجل الوصول إلى أهدافهم سواء كانت مشروعة، أو غير مشروعة، شريفة أو وضيعة، فيلبسون لكلّ غاية ثوبها، يُظهرون عكس ما يبطنون، ويبرزون خلاف ما يظهرون، تخالف علانيتهم سريرتهم، ديدنهم النفاق،

---

(١) القصص: ٨٣.

والخداع، والغدر، والانتقام، وشراء الضمائر؛ لأنَّ (السياسة [عندهم] لا تتفق مع الأخلاق في شيء. والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه.

[ولذلك يقولون:] لا بدّ لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء، فإنَّ الشمائل الإنسانية العظيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل في السياسة، وأنها تبلغ في زعزعة العرش أعظم مما يبلغه ألدّ الخصوم . هذه الصفات لا بدّ أن تكون هي خصال البلاد الأممية -غير اليهودية -ولكنّنا غير مضطرين إلى أن نقتدي بهم على الدوام)[1].

تلك هي القاعدة الأساسية التي يتبعها عشّاق الكراسي، وبعبارة أخرى: يسلكون كلّ ما يحقق لهم رغباتهم سواء خالف الحق أو وافقه، فهو مساغ على كلّ حال، حتى لو أهلك الحرث والنسل، وأفسد الماء والهواء، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث، فعلى سبيل المثال: جنگيز خان عندما تحرّك لاحتلال المنطقة الإسلامية كان يخرّب كلّ ما مرَّ به من عمران، ويقتل كلّ إنسان مرَّ به لأجل أن يخلق الرهبة والخوف في قلوب الناس.

وفي التأريخ الحديث كان هتلر يضع الأسرى في أفران؛ ليستخرج الزيوت من أبدانهم... وبالمقابل أمريكا تفجّر القنبلة الذَّريّة على رؤوس الناس في (هيروشيما) و(ناكازاكي) وتحوّلهما إلى بلقع محروق، وصدام يضرب حلبجة بالمواد الكيمياوية، ويقتل الآلاف؛ لينذر الجمهورية الإسلامية الإيرانية بخطر الأسلحة الكيمياوية.

---

(١) محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي: ١٠٦.

وفي حرب الخليج تدمّر أمريكا كلّ عمران العراق الاقتصادي والإنساني، وتحاصر الشعب العراقي سنوات طويلة، وتهلك ملايين الأطفال والنساء والشيوخ؛ لتحقيق أهدافها بحجة إبادة الأسلحة الجرثومية والكيماوية لحماية الشعب العراقي وجيرانه من بطش صدام.

ورغم كلّ هذه الادعاءات حين شعرت أنّ فرعون العراق سيسقط على يد الشعب العراقي في انتفاضة (١٥ من شعبان سنة ١٤١١هـ) أوعزت لصدام باستعمال الطائرات لقمع المدن التي حُرِّرَت بيد المجاهدين.

وهكذا آلاف الأمثلة على ذلك نقرأها في التاريخ، ونسمع حدوثها في كلّ يوم في مختلف أرجاء المعمورة، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[1].

بعد هذا المقدمة المقتضبة لننظر أيّ منهج نهجه آل محمد ﷺ وشيعتهم وأيّ نَهْجٍ نَهَجَ مخالفوهم؟

مما لا شكّ فيه أنّ أيّ منصف يدرس التاريخ درس محقق باحث عن الحقيقة يجد أنّ النهج العلوي كان يهدف إلى تحقيق أمرين أساسيين:

١- حفظ الرسالة من التحريف، والأمة من الانحراف، والعمل على تحكيم شريعة الله في الأرض.

٢- تبليغها للناس، وترويجها بالإيضاح، والشرح، والبيان؛ لخلق تيار رسالي متحرّك وسط الأمة؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويُعَبِّدَهم لله تعالى...

وهم من أجل التوصّل إلى تلك الأهداف السامية ليسوا على استعداد للتنازل والتراجع عن أيّ فكرة أو حكم أو مبدأ مهما كان صغيراً وفق قوله تعالى:

---

(١) عبس: ١٧.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[١].

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٢].

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[٣].

إذن في المدرسة الإلهية: «إنَّ الغايات لا تبرّر الوسائل»، وفي سيرة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أمثلة كثيرة من ذلك، منها: عندما طُلِبَ من أمير المؤمنين عليه السلام أن يتعهّد بالسير وفق سيرة الشيخين؛ لكي يتسنم عرش الخلافة، رفض ذلك بصراحة وقوة، ولم يبدِ أيّ استعداد، ولو بنطق كلمة واحدة تخالف مصلحة الإسلام حتى لو كانت تصعد به إلى رئاسة الدولة، وهو القائل: «وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِي اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ[٤] شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[٥].

ولذلك قال أصحاب المدرسة الثانية: «إنَّ علياً عليه السلام لا علم له بالسياسة»، وإنَّ معاوية أمهر منه في الإدارة السياسية... وعندما تولى عليه السلام الحكم بعد عثمان طلب إليه أن يتغاضى عن سالبي أموال المسلمين، ويداهنهم، ولو لمدة زمنية قصيرة، فردَّ بقوة وعنف، وصرَّح بأنَّ أيّ محاولة تخالف الحقّ والعدل لا يمكن أن يقوم بها، ولو كلَّفته كثيراً من المعاناة والدماء... ولذلك قال بصريح العبارة: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لا أَطُورُ بِهِ[٦] مَا سَمَرَ

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الشورى: ١٥.

(٣) يوسف: ١٠٨.

(٤) الجلب: قشر الشعيرة.

(٥) نهج البلاغة: ٣٧٤، خطبة: ٢٢٣.

(٦) لا أطُورُ به: من (طار يَطُور) إذا حام حول الشيء، أي: لا أمرّ به، ولا أقاربه. وما سمر سمير: أي مدى الدهر.

سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً»[١].

ويقول لمن حاول أن يخادعه بهدية قدَّمها إليه متعجّباً كيف يجرأ على ذلك:

«وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ[٢] طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لا ذَا وَلا ذَاكَ، وَلكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ[٣]! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي؛ لِتَخْدَعَنِي؟! أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ، وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ...»[٤].

وفي هذا المضمار ردّ اقتراح من اقترح عليه إبقاء معاوية على ولاية الشام حتى تستتبّ له السيطرة على الحكم؛ لأنَّ في إقراره مخالفة للشريعة، وخطراً على الدين.

إذن حامل الرسالة الإلهية لم يكن هدفه الوصول إلى السلطة بكل الأساليب أو تدعيمها لو وصل إليها بطرق لا شرعية ... هذه هي السمة الجوهرية في الرسالات السماوية .

وأما المدرسة الثانية التي يمكن أن نعبِّر عنها بـ«طلاب السلطة» فقد تمثلت في النهج الأموي منذ لحظة إعلان إسلامهم، وإن كان الصحيح استسلامهم، فقد

(١) نهج البلاغة: ٢١٤، خطبة: ١٢٦ .

(٢) أي أعجب من قصة عقيل التي تقدّمت في خطبته عليه السلام .

(٣) هبلتك: ثكلتك، والهَبول بفتح الهاء: المرأة التي لا يعيش لها ولد .

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٢٢٤.

أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأضمروا الكفر بقلوبهم، وبقي كامناً إلى أن حصل على متنفّس، فظهر على حقيقته، وهاك أمثلة من ذلك:

روى ابن عبد البر في الاستيعاب: «إنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تَيْم وعَدِيّ، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنّما هو الملك، ولا أدري ما جنّة، ولا نار، فصاح به عثمان: قم عني، فعل الله بك وفعل»[١].

ومرّ أبو سفيان يوماً بقبر حمزة، فضربه برجله، وقال: «يا أبا عمارة، إنَّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعّبون به!»، ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية علياً كما يتفاخر الأكفاء والنظراء[٢].

وعن أنس: «أنَّ أبا سفيان بن حرب دخل على عثمان بعد ما عمي، فقال: هاهنا أحد؟ قالوا: لا. قال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية»[٣].

ولا عجب من أبي سفيان ذلك؛ فإنّه ما أسلم إسلاماً حقيقياً، وإنّما استسلم مقهوراً بالسيف.

قال ابن أبي الحديد: «وكان ممن عانده [رسول الله]، وكذّبه، وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقّونه بالضرر والتثريب[٤]، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدّون من

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب: ١٦٧٩/٤ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٦/١٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٤٧١/٢٣ .

(٤) التثريب: العتاب واللوم.

قصده، وينالون بالتعذيب من اتّبعه، وكان أشدّهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أوّلهم في كلّ حرب ومناصبة ورأسهم في كل إجلاب وفتنة، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، أبا سفيان بن حرب صاحب أحد، والخندق، وغيرهما، وأشياعه من بني أمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطنَ عدّة، لسابق علم الله فيهم، وماضي حكمه في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم.

فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكايداً، ويجلب منابذاً حتى قهره السيف، وعلا أمر الله، وهم كارهون، فتعوَّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرَّ الكفر غير مقلعٍ عنه، فقبله وقبل ولدُه على علم منه بحاله وحالهم، ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾[1]، ولا خلاف بين أحد في أنّه تعالى وتبارك أراد بها بني أميّة»[2].

ويقول عباس محمود العقاد: «وظلّ أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمناً يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه، فنظر إلى النبي مرّة وهو في المسجد نظرة الحائر المتعجب، وهو يقول لنفسه: «ليت شعري بأيّ شيء غلبني!»، فلم يخفَ على النبي صلى الله عليه وآله معنى هذه النظرة، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه، وقال له: بالله غلبتك يا أبا سفيان!»[3].

ومعاوية لكي يدعم ملكه يسلك سبلاً هتلرية تخالف الإنسانية فضلاً عن

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٤/١٥-١٧٥.

(٣) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ١٧١/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

الدين؛ فتراه يأمر بوضع الأحاديث التي تخدم مصالحه السياسية كذباً على رسول الله صلى الله عليه وآله، وينفق الأموال على الكذّابين، ويلحق الدعيّ ابن مرجانة به؛ ليحصل على ولائه، ويغدر، ويفجر، فيدسّ السّم لكلّ مخالف له، ويقول: «إنَّ لله جنوداً من عسل»[١]، ويقتل على الشبهة والتهمة خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وآخرها يأخذ البيعة لولده يزيد الفاسق الفاجر ربيب النصارى، وملاعب الكلاب والقردة وشارب الخمر... بقوة السيف، كلّ ذلك؛ لإسناد خطّه السياسي، وبقاء دولته رغم حسده لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد روى أحمد بن أبي طاهر في كتاب **أخبار الملوك**: «إنَّ معاوية سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فقالها ثلاثاً، فقال: أشهد أنّ محمداً رسول الله، فقال: لله أبوك يا بن عبد الله! لقد كنتَ عالي الهمة، ما رضيتَ لنفسك إلا أن يقرَنَ اسمك باسم رب العالمين»[٢].

وخبر المغيرة بن شعبة[٣] عنه، دليل آخر على ما نقول، وقال ابن أبي الحديد: «ومعاوية عند أصحابنا مطعون في دينه، منسوب إلى الإلحاد، قد طعن فيه صلى الله عليه وآله»[٤].

وقال ابن أبي الحديد: «ومما ورد من ذلك في السنة، ورواه ثقات الأمة، قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه [أبي سفيان]، وقد رآه مقبلاً على حمار، ومعاوية يقوده

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٣٩١/٥٦، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦٠/٧، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٥/٤، ومعجم البلدان للحموي: ٤٥٤/١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠١/١٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٩/٥-١٣٠.

(٤) المصدر نفسه: ١٠١/١٠.

ويزيد يسوقه: لعن الله الراكب والقائد والسائق»[١].

فإذن النمط الأول: له أهداف مقدّسة، وسبل مشروعة تخدم الإنسانية بإقامة العدل، ومحاربة الظلم، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون هذه الحقيقة في أحاديثهم وأدعيتهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُن الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلا الْتِمَاسُ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الحُطَامِ، وَلكِن لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِن عِبادِكَ، وَتُقَامَ المُعَطَّلَةُ مِن حُدُودِكَ»[٢].

وأما النمط الثاني: فيختلف من حيث الجوهر والمضمون؛ فأهدافه تسلّطية وأساليبه شيطانية، ودوافعه أنانية لا تستند إلى عقل، ولا منطق، ولا إنسانية، ويعد الغدر والكذب والاحتيال دهاءً سياسياً كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف معاوية:

«وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَولا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاس، وَلكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

وفي معركة الطف برزت هاتان الأخلاقيتان بشكل صريح وواضح: أخلاقية طلاب السلطة والاستعلاء والفساد على حقيقتها واضحة لكلّ ذي عينين، كما برزت أخلاقية حملة رسالة الله واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار...

وخير أمثلة ذلك موقف مسلم بن عقيل رسول الحسين عليه السلام إلى أهل

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٥/١٥.

(٢) نهج البلاغة: ٢٢٠، خطبة: ١٣١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٦، خطبة: ٢٠٠.

الكوفة، فما أن وصلها حتى توافد الناس عليه يبايعونه على كتاب الله وسنة رسوله، ونصرة الحق والعدل، وقد بايعه على أقلّ الروايات اثنا عشر ألفاً، وكان بإمكانه أن يَنْقَضَّ على الوالي الأموي آنذاك النعمان بن بشير، ويستلم السلطة إلا أنَّ أخلاقية آل محمد لم تكن لتبادئ في حرب.

وأثار وجود مسلم في الكوفة شيعة يزيد، فكتبوا إليه: «إن كانت لك حاجة في الكوفة، فابعث إليها رجلاً قوياً يُنَفّذُ أمرك، ويعمل مثل عملك، فإنَّ النعمان بن بشير إما ضعيف، أو مُتضعِّف»[١].

وما أن وصل الكتاب إلى يزيد حتى استدعى مستشاره سرجون المسيحي، وعرض عليه الأمر، فقال له: «أكنت قابلاً من معاوية لو كان حياً؟

قال: نعم.

فقال: فاقبل مني، فإنه ليس للكوفة إلا عُبيد الله بن زيادٍ فوَلّه...»[٢].

فكتب يزيد برضاه عن عبيد الله، وضمّ إليه ولاية الكوفة إضافة إلى ولاية البصرة، وكتب إليه أن يطلب مسلم بن عقيل، فيقتله، وهنا برزت أخلاقية طلاب السلطة، فراح يحوك المؤامرات الغادرة بمنتهى الخبث والغدر؛ فدخل الكوفة متلثّماً متشبِّهاً بالحسين عليه السلام، فلا يمر على مجلس من مجالسهم فيسلم إلا قالوا: «وعليك السلام يا ابن بنت رسول الله»، وهم يظنون أنَّه الحسين بن علي حتى نزل القصر واجماً كئيباً لما رأى، ثم جمع الناس فخطبهم، وأعلمهم نيّة يزيد في الإحسان إلى سامعهم ومطيعهم، والشدّة على مريبهم وعاصيهم، ووعد، وأوعد،

(١) مسكويه الرازي، تجارب الأمم: ٤٢/٢.

(٢) المصدر نفسه .

وختم الخطبة بأن قال:

«ليُبقِ امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد».

ثم أخذ العرفاء أخذاً شديداً، ودعا الناس، فقال:

«اكتبوا إليَّ العرفاء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فهو بريء، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته: أن لا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا فيهم باغٍ، فمن لم يفعل ذلك، فبرئت منه الذمة، وحلال علينا دمه وماله، وأيما عريف وجد في عرافته من بُغيةِ أمير المؤمنين أحد لم يرفعْه إلينا، صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء»[(١)].

بهذا الأسلوب استطاع ابن زياد أن يبثَّ الرعب في نفوس بعض الناس، ويثير غريزة الطمع في نفوس آخرين؛ وهنا أدخل الوهن، والشك، والريب في صفوف الثوار الذين بايعوا مسلم بن عقيل رحمه الله.

ثم أخذ يبحث عن مسلم، فبعث أحد عبيده، وقال له: «اذهبْ، حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع أهل الكوفة، فأعمله: أنَّك رجل من أهل حمص جئت لهذا الأمر، وهذا مال تدفعه إليه، ليتقوَّى به»[(٢)].

واستطاع هذا العبد المُدَرَّب على المكر والخداع والتصنع أن يتوصل إلى مسلم بن عقيل، وينقل إلى ابن زياد الأخبار والوقائع يوماً بيوم، وهكذا نجحت المكيدة بالتجسس والإشاعات الكاذبة حتى تفرَّقَ أنصار مسلم، وانتهى إلى تلك النهاية الفظيعة، هذا هو أسلوب المدرسة الأموية...

---

(١) تجارب الأمم: ٤٢/٢-٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣/٢.

وأما المدرسة العلوية التي يمثّلها مسلم بن عقيل في الكوفة؛ فقد سنحت له الفرصة للفتك بهذا الباغي الفاجر... فقد مرض شريك بن الأعور وعاده ابن زياد، ورغم أنَّ مسلماً كمن في دار هاني بن عروة فقد امتنع عن قتله، ولما سئل عن سبب امتناعه أجاب: «خصلتان: أما إحداهما فكراهة هاني أن يقتل في داره رجل، وأما الأخرى: فحديث سمعته من علي عن النبي صلى الله عليه وآله: أنَّ الإيمان قَيَّدَ الفتك، فلا يفتك مؤمن»[1].

هذه هي أخلاقية مدرسة العقيدة تترفَّعُ عن الغدر والفتك ولو بعَدُوِّها ... وأعتقد - إن صحت الرواية - أنَّ هذا العامل هو العامل الأساسي الذي منع مسلم من قتل ابن زياد، وعامل آخر وهو علم مسلم أنَّه مكلَّف بأخذ البيعة وتهيئة الأمور دون التعدّي عن هذا التكليف، وأنَّ القضية لا تنتهي بنهاية ابن زياد، وإنّما القضية أكبر من ذلك بكثير، وهي قضية إحداث هزّة عنيفة في الأمة؛ لتوقظها من السبات العميق الذي غطّت فيه بعمق.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إنَّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحاول دائماً أن تربّي الناس على الأساليب الشريفة، وتترفع عن كل أسلوب وضيع فيه مسحة غدر أو مكر أو تدبير غير شريف، فلو أراد مسلم أن يقتل ابن زياد لكان ذلك يخالف هذا المنهج الذي تربّى عليه، ويكون بذلك مشابهاً للأساليب الأموية، ولهذا أبى أن يخالف منهجه الإلهي حتى لو كان في تصوّر بعضهم نصراً للقضية.

وقد أجاد الأستاذ العقاد في تصويره لهذا لخبر اغتيال ابن زياد حيث قال:

«وكان في وسعه [مسلم] أن يبطش به ويستوي على كرسيه، ويحرم يزيد

(١) تجارب الامم: ٤٥/٢، وتاريخ الطبري: ٣٦٣/٥.

بن معاوية نصيراً من أعنف أنصاره..

وقد فاته هذا؛ لأنَّ شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه، أو لأنَّه اعتقد أنَّ الحق بيِّن وأنَّ الباطل بيِّن.. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما إلى فتكة الغدر كما سمّاها، ولا محل عنده لإهدار الدماء، وهو ينعى على الدولة القائمة أنّها تهدر الدماء بالشبهات»[١].

وأسلوب آخر اتبعه ابن زياد عندما أعلنت ساعة الصفر من قبل مسلم تحت شعار «يا منصور أمت»، وتحرّكت ألوية الثوار تجاه القصر، وهو أسلوب بثّ الإشاعات حيث دسّ أتباعه وسط الجيش وهم ينادون: «أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجّلوا الشر، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنَّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى اللهَ الأميرُ عهداً: لئن أتممتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذرّيتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرّت أيديها»، وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا؛ فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرّقون، وأخذوا ينصرفون[٢].

وانتشرت الإشاعة انتشار النار في الهشيم، وراح الرعب يدبّ في قلوب الآباء والأمهات، فراحوا يحثون أبناءهم على الانسحاب من ميدان المعركة، قال أبو مخنف: «فحدثني المجالد بن سعيد أنَّ المرأة كانت تأتي ابنَها أو أخاها، فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه، أو أخيه، فيقول: غداً

(١) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٣٤/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٢) تاريخ الطبري: ٣٧٠/٥-٣٧١.

يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر! انصرف. فيذهب به؛ فما زالوا يتفرّقون ويتصدّعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفساً في المسجد حتى صُلّيَت المغرب، فما صلّى مع ابن عقيل إلا ثلاثون نفساً، فلما رأى أنَّه قد أمسى، وليس معه إلا أولئك النفر حتى خرج متوجّهاً نحو أبواب كندة، وبلغ الأبواب، ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب، وإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق...»[1].

ونجحت حرب الإشاعات في تفريق الناس عنه، وهكذا يكون هذا السلاح أخطر من القنابل المحرقة المدوّية، وبهذه الصورة المفجعة انتهت حركة مسلم، وأصبح وحيداً فريداً واقفاً على باب طوعة رحمها الله.

وما لبث أن أصبح محاصراً من قبل أتباع ابن زياد لكنه لم يستسلمْ بل برز إليهم كأسد هصور لم ترهبه كثرتهم، وهو يرتجز:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع ... فأنت بكأس الموت لا شكّ جارع
فصبراً لأمر الله جلَّ جلاله ... فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

ثم حمل عليهم حملة عنيفة ذكَّرَ الناس بحملات عمه علي عليه السلام، وهو يرتجز ويقول:

أقسمت أن لا أقتل إلا حرّا ... وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كلّ امرئ يوماً ملاقٍ شرّا ... أخاف أن أخدع أو أغرّا

ولما أُثخن بالجراح عجز عن القتال، فأسند ظهره إلى جدار، وخاطبهم: «ويلكم، ما لكم ترموني بالحجارة، كما ترمى الكفار؟ وأنا من أهل بيت النبي

(١) تاريخ الطبري: ٣٧١/٥.

المختار؟! ويلكم، أما ترعون حقَّ رسول الله ولا حقَّ قرباه؟»[١].

وقيل: حفروا له حفرة وغطوها بالحطب حتى سقط بها، فأخذوه أسيراً، وقلبه يلتهب من العطش، والدماء تسيل من كل جوانبه...

وأُدْخِلَ القصرَ، فرأى قُلّة، فقال: «اسقوني من هذا الماء»، فقال له مسلم بن عمرو [الباهلي]: «أتراها ما أبردها! لا والله، لا تذوق منها قطرة أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم»... قال له ابن عقيل: «لأمِّك الثكل! ما أجفاك وما أفظَّك، وأقسى قلبك وأغلظك! أنت يا ابن باهلة، أولى بالحميم والخلود في نار جهنّم منّي»، ثم جلس متساناً إلى حائط، فبعث عمر بن حريث غلامه، فجاء بقلّة ماء بارد؛ ليشرب مسلم، فأخذ كلما شرب امتلأ القدح دماً، فقال: «الحمد لله، لو كان لي من الرزق المقسوم شربته»[٢].

[من البسيط]

كأنما نفسك اختارت لها عطشا ... لما درت أن سيقضي السبط عطشانا

فلم تطق أن تسيغ الماء عن ظمأ ... من ضربة ساقها بكر بن حمرانا[٣]

ثم أصعدوه إلى أعلى القصر، ليضربوا عنقه، وطلب أن يصلّي ركعتين، وبعد ما صلى نادى: «السلام عليك يا ابن رسول الله»، وضربوا رأسه، وهو يسبح الله، ويكبّره، وألقوا بجسمه من أعلى القصر، وأخذوا يجرّونه بالحبال.

---

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ١/٣٠١-٣٠٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٣٧٦.

(٣) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ٣/١٤٨.

الفصل الرابع

مَن الْمُنْتَصِرُ

الحُسَيْنُ عليه السلام أم يَزيدُ ؟

سؤال طالما طُرِحَ، ولا يزال يُطرَح، وكثيراً ما يتوارد على الأذهان: هل نجح الحسين عليه السلام في ثورته أم فشل؟ وماذا حقَّقَ في ثورته تلك؟ واختلفت الأجوبة على هذا السؤال وتباينت.

إنّ الجواب على هذا السؤال يختلف باختلاف عقائد الناس، وتوجّهاتهم، وأهدافهم في الحياة، ووجهة نظرهم إليها؛ فإذا نظرنا إلى ثورة الحسين عليه السلام نظرة عسكرية، أو سياسية تحاول الوصول إلى الحكم، والاستيلاء على عرشه فإنّا سَنَعُدُّها ثورةً فاشلة لم يحصل منها الحسين عليه السلام على شيء، بل أهلك نفسه، وعرّض عياله وأهل بيته وأصحابه لمآسي مروّعة، بل وجرَّت على شيعته مآسي فظيعة على طول الزمن...

وأمّا إذا نظرنا إليها من وجهة نظر عقائدية وفكرية تنظر إلى مستقبل الإسلام، وأهميّته في حياة البشرية، وتستهدف الحفاظ على مبادئه وعقائده وأحكامه، وتحاول بعثه من جديد في نفوس أتباعه؛ لتعيد لهم الحياة والحركة والأصالة، فإنّا سنعدها ثورة منتصرة، لأنَّها قد حقّقت ما كانت تصبو إليه، ولو على المدى البعيد.

فإنَّ الثوار الذين يستهدفون نصرة العقيدة الحقّة لا يمكن أن يحقّقوا النصر الآني في وقت قصير، بل يخطّطون على المدى البعيد، وفي خلال ذلك يقدّمون

التضحيات الكثيرة، ويتفانون ويستميتون من أجلها، ويتحمّلون أقسى الصعوبات، ويواجهون العقبات العسيرة في طريقهم كالسجن، والتشريد، والتجويع، والتخويف، والقتل... ويتحمّلون كل ذلك؛ لأجل أن يحرّكوا الأمّة خطوة في مسيرة ألف ميل.

وقد يطول الزمان بهم، ولا يرون النصر بأعينهم، بل يأملون تحقّق أهدافهم على أيدي الأجيال التي تأتي من بعدهم؛ فكثير من النهضات السياسية والفكرية استمرّت عشرات السنين تقدّم التضحيات المتواصلة، وقد يستشهد قادتها ولا يرون النصر، وخير مثال على ذلك الثورة الإسلامية في إيران؛ فقد استمرَّ الإمام الخميني رحمه الله مدة أربعة عقود يواصل الدعوة والجهاد، وتحمّل من الآلام والمشاق ما قلَّ نظيرها، فقد سجن، وعُذّب وأبعد عن وطنه وشعبه، وقتل ابنه وكثير من أصحابه ومريديه، وقدّم الشعب الإيراني آلاف الشهداء من خيرة أبنائه حتى حقّق الله لهم النصر.

يقول الإمام الخميني رحمه الله: «ونحن لا نتوقع أن تؤتي تعليماتنا وجهودنا أكلها في زمن قصير؛ لأن ترسيخ الحكومة الإسلامية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مضنية، ونحن نرى كثيراً من العقلاء يضعون حجراً ليبني عليه الآخرون بناء ولو بعد مائتي عام... وإذا كان نشاطنا لا يؤتي ثماره إلا في جيل غير جيلنا فذلك لا ينبغي أن يثبط عزائمنا؛ لأن تقديم الخدمات للإنسان لا ينبغي أن يتم على أساس المصلحة الفردية، بل على أساس المصلحة العامة للمسلمين.

فسيد الشهداء عليه السلام الذي ضحّى بكلّ ما يملك لو كان منطلقاً من التفكير الفردي لوضع يده في أيديهم وانتهى الأمر، وكانت تلك النهاية من أغلى أماني

الأمويين. ولكن الحسين عليه السلام كان يفكر في الإسلام والمسلمين وأجياله القادمة على المدى الطويل، وكان نهوضه وتضحيته وجهاده من أجل أن ينتشر الإسلام، وتظهر أحكامه السياسية، ونظمه الاجتماعية في أوساط الناس»[١].

والدليل على أنَّ الحسين عليه السلام كان لا يفكّر بمصيره، وإنما كان يفكّر بمصير الإسلام: أنّنا إذا تتبعنا مسيرته من المدينة إلى كربلاء، وتأملنا في مواقفه وكلماته نعرف أنَّ الحسين عليه السلام يعلم علماً يقينياً بأنَّه لن يتوصل إلى الحكم، ولن يهدم عرش بني أميّة في وقت الثورة، بل كان يصرح بأنَّه سيقتل، وستسبى عياله.

وقد أشار إلى ذلك في عدّة مواقف وبيانات لم يفهم مجتمعه سرّها، بل حتى المقربين إليه، والعارفين بمنزلته كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية، وعمر الأطرف، وأم سلمة... وغيرهم، وهؤلاء جميعاً نظروا إلى الحسين عليه السلام نظرة إشفاق وتخوّف عليه؛ فهم ينظرون إلى مصير الحسين عليه السلام، وهو ينظر إلى مستقبل الإسلام.

ولذلك كان يجيبهم جواباً حاسماً، يخبرهم بأنَّه عالمٌ بمصيره، وأنَّه سائرٌ بأمر إلهي عظيم، بل بمشيئة الله تعالى، وعندما يسأل عن حمله لعياله يجيب جواباً مجملاً: «إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»، وعن مصيره يقول لابن عباس: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، أخرج، فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً»[٢].

وعندما قال له أخوه عمر الأطرف: «حدثني أبو محمد الحسن عليه السلام عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام: أنَّك مقتول، فلو بايعت لكان خيراً لك»، فقال الحسين

(١) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية: ١٦٠.

(٢) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨.

عليه السلام: «حدثني أبي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بقتله وقتلي، وأنَّ تربته تكون بالقرب من تربتي، أتظن أنَّك علمت ما لم أعلمه؟ وإنّي [والله] لا أعطي الدنية من نفسي أبداً»[١].

وعندما قالت له أم سلمة: «لا تحزنّي بخروجك إلى العراق، فإنّي سمعت جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها كربلا وعندي تربتك في قارورة دفعها إليَّ النبي صلى الله عليه وآله».

فقال الحسين عليه السلام: «يا أماه، وأنا أعلم أنّي مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين، وهم يستغيثون، فلا يجدون ناصراً».

قالت أم سلمة : «وا عجبا! فأنّى تذهب وأنت مقتول؟».

قال عليه السلام: «يا أماه، إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بدّ، وإنّي لأعرف اليوم الذي أقتل فيه، والساعة التي أقتل فيها، والحفرة التي أدفن فيها، كما أعرفك، وأنظر إليها كما أنظر إليك...»[٢].

والعجيب من هؤلاء أنَّهم يخبرون بقتله عن لسان رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ثم ينهونه عن الخروج، والأعجب أنّهم لم يخرجوا معه، وهم يعرفون من هو!!

وكان عليه السلام في أيّ مكان يحلّ فيه وأيّ جماعة يلاقيهم إلا وأخبرهم بمصيره المحتوم، ولنسمع خطابه في مكة الذي يتجلى فيه بشكل صريح أنّه عالم

(١) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه : ١٣٥-١٣٦.

بمصيره يقول عليه السلام:

«الحمد لله، ما شاء الله، ولا قوّة إلا بالله، وصلّى الله على رسوله وسلّم، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى اشتياق أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعُها ذئاب الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لُحْمَتُه، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تَقرُّ بهم عينُه، وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته، ومُوَطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

كلّ تلك النصوص وغيرها كثير تدلّ على علمه باستشهاده وجميع أصحابه وسبي أهل بيته؛ إذن لا بدّ أن يكون هناك هدف أكبر من ذلك، وأعزّ عليه من أهله ودمه، ألا وهو إنقاذ الإسلام من المحو والإبادة، وسقي شجرته بدمه الزكي كما يقول الشاعر[2]: [من البسيط]

فما رأى السبط للدين الحنيف شفا ... إلا إذا دمه في نصره سفكا

وما سمعنا عليلاً لا علاج له ... إلا بنفس مداويه إذا هلكا

وصان ستر الهدى عن كلّ خائنة ... ستر الفواطم يوم الطف إذ هتكا

هذا الهدف سعى إليه الحسينُ عليه السلام، وأصرّ على تحقيقه عندما رأى أنّ بني أمية بدأت تهدّم أركان الإسلام ركناً بعد ركن، وصار الدين يُحارَبُ من

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦-١٢٧.

(٢) السيد جعفر الحلي، سحر بابل وسجع البلابل: ٣٨٣.

على منبره وباسمه، وأصبح الخطرُ محدقاً برسالة الله تعالى من كلّ جوانبها.

وفي الوقت نفسه رأى حالات الرّكود، والخدر، والغفلة، والتغافل، واللامبالاة، وعدم الشعور بالمسؤولية من الأمّة بعد أن خدَّروا عقولها، وشلّوا إرادتها، وروّجوا الأباطيل، ووضعوا آلاف الأحاديث على لسان نبيّ الإسلام حرّفوا فيها أكثر مفاهيم الإسلام وأحكامه وأخذوا ينقضون عُرى الإسلام بأسلوب مخطّط محكم على المدى الطويل؛ يحرّفون، ويشوّهون، ويقلبون حقائق الدين، ويصوّرون الأباطيل بأنّها هي الدين؛ فيحرّمون ويحلّلون ما يحلو لهم، وما تشتهي أنفسهم، وما يخدم مصالحهم، ويُثَبِّت عروشهم، كلّ ذلك يجري باسم الدين، ومن على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، مثلاً عندما سيطر ابن الزبير على مكة ومنع أهل الشام من الحج، شرع الخليفة الأموي آنذاك بنقل الحج إلى بيت المقدس...

أضف إلى قتل الخُلَّص من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وشيعة أهل البيت، وطلاب مدرسة الإمام علي عليه السلام للقضاء على الإسلام الأصيل...

كلّ ذلك أدركه الحسين عليه السلام وعرف إن لم ينهض نهضته الاستشهادية فإنَّ الإسلام سيصبح في خبر كان؛ ولذا قال لمن نصحه بمبايعة يزيد لحفظ دمه: «**وعلى الإسلامِ السَّلام إذ قد بُلِيَتْ الأمّةُ براعٍ مثل يزيد**»[1].

ومن هذه العبارة الساخنة نستشف مدى الخطر المحدق بالإسلام، والذي أدركه الحسين عليه السلام بدقّة، حتى عاد الأمر لا يحتمل التأجيل والتأخير.

إذن وقف الحسين عليه السلام بين أمرين: بين أن يحفظ دمه بمبايعة يزيد،

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٩.

وإقرار بدع بني أمية... ومعنى ذلك أن يُوَقّعَ ويمضي القضاء على الإسلام... وحاشا للحسين عليه السلام أن يختار على نصرة الإسلام شيئاً، ولو ضحّى بكلّ غالٍ ونفيس، فالإسلام عند الحسين عليه السلام أغلى وأثمن وأقدس من دمه ودماء أهل بيته وأصحابه؛ ولذا اختار أصعب الأمرين وهو أن يقاتل في سبيل الله تعالى ويستشهد وتسبى عياله، وبذلك ينتصر الإسلام إلى الأبد، ويبقى علماً تقتفي الأجيال آثاره في كلّ مكان وزمان.

ونعود لنسأل هل انتصر الحسين عليه السلام أم انكسر في تلك المعركة الفاصلة؟ ولنترك الجواب لبعض الكتاب والمفكرين:

يقول سيد قطب: «والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة. إبراهيم عليه السلام وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شكّ في - منطق العقيدة - أنَّه كان في قمّة النصر، وهو يُلقى في النار. كما أنَّه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب! .. والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة، وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتزّ له الجوانح بالحبّ والعطف، وتهفو له القلوب، وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيّعون وغير المتشيّعين من

المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودّع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محرّكاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محرّكاً لخطى التأريخ كلّه مدى أجيال..»[١].

ويقول ماربين الألماني في كتابه "**السياسة الإسلامية**": «إنَّ حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمةُ قلبٍ كبير عزَّ عليه الإذعان، وعزَّ عليه النصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة»[٢].

وقال العقاد في كتابه "الحسين أبو الشهداء": «ولم تعمّر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين عليه السلام نيف وستون سنة! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى عليها، وأصبحت ثارات الحسين عليه السلام نداء كلّ دولة تفتح لها طريقاً إلى الأسماع والقلوب»[٣].

فالحسين عليه السلام صحيح أنَّه خسر حياته الجسدية إذ قتل مع أهل بيته وأصحابه المظلومين، ولكنه ربح القضية التي عاش لها جدّه وأبوه وأخوه وجميع من شايعه، وهذا المعنى الذي لم يفهمه كثير من الكتاب والمفكرين الذي

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن : ١٨٩/٧-١٩٠.

(٢) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٣٠/٢-٢٣١، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٣) المجموعة الكاملة للعقاد: ٢٣٠/٢ ، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

ينظرون إلى النصر العاجل، كما يقول العقاد:

«إنّ بعض المؤرخين والمستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة، ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كف الميزان.

وكان خليقاً بهؤلاء أن يذكروا أنَّ مسألة العقيدة الدينية في نفس الحسين عليه السلام لم تكن مسألة مزاج أو مساومة، وأنَّه كان رجلاً يؤمن أقوى الإيمان بأحكام الإسلام ويعتقد أشدَّ الاعتقاد أنَّ تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به، وبأهله، وبالأمة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها؛ لأنَّه مسلم؛ ولأنَّه سبط محمد صلى الله عليه وآله.. فمن كان إسلامه هداية نفس؛ فالإسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت..»[1].

ويقول المحقق السيد عبد الرزاق المقرم رحمه الله: «كان الحسين عليه السلام يعتقد في نهضته أنَّه فاتح منصور لما في شهادته إحياء دين رسول الله صلى الله عليه وآله وإماتة البدعة، وتفظيع أعمال المناوئين، وتفهيم الأمة أنّهم عليهم السلام أحقّ بالخلافة من غيرهم، وإليه يشير في كتابه إلى بني هاشم: من لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلف لم يبلغ الفتح.

فإنَّه لم يرد بالفتح إلا ما يترتب على نهضته وتضحيته من نقض دعائم الضلال، وكسح أشواك الباطل عن صراط الشريعة المطهرة، وإقامة أركان العدل والتوحيد، وأنّ الواجب على الأمة القيام في وجه المنكر.

وهذا معنى كلمة الإمام زين العابدين عليه السلام لإبراهيم بن طلحة بن عبيد الله لما قال له حين رجوعه إلى المدينة: من الغالب ؟ فقال السجاد عليه السلام: إذا دخل

(١) المصدر نفسه: ٢٢٨/٢ .

وقت الصلاة فأذّن وأقم تعرف الغالب»[١].

وهذا مفهوم للنصر لا يمكن أن يفهمه من ينظر إلى الأحداث بمقياس الربح والخسارة الماديتين، وأئمة الهدى عليهم السلام يفهمون النصر بأنَّه بقاء الإسلام حيّاً نابضاً في النفوس والعقول، وإن جرَّ عليهم ذلك الويلات والمصائب، وهذا هو مقياس العقيدة.

وهكذا إذا قسنا النصر بمقياس العقيدة فالحسين عليه السلام قد انتصر كلّ النصر، وأشرف النصر، وأعلاه، وإذا قسناه بمقياس أهل الدنيا فقد خسر الحسين عليه السلام كلّ شيء.

نقول هذا، ولكن لو تأملنا جيداً لوجدنا أنَّ الحسين عليه السلام انتصر في كلا المفهومين؛ فقد ملك الدنيا، وصارع الظالمين، وهو راقد في ضريحه فهو منارٌ للبشرية أجمع... وإلا أين الذين قتلوا الحسين عليه السلام؟ وكم عاشوا من بعده؟ وماذا ملكوا؟ وكم حكموا الدنيا من بعده؟ فلم يعش يزيد بعد الحسين عليه السلام أكثر من أربع سنين، بل لم يحكم إلا ثلاث سنين وستة أشهر.

ماذا حَقَّقَتْ ثَوْرَةُ الحُسَيْنِ عليه السلام؟

بهذه النهضة المباركة المعطاء حقّق الحسين عليه السلام نتائج ضخمة جبارة أعادت للإسلام حيويته، وأصالته، ونصاعته، ومن هذه النتائج:

١- **أيقظت الناس من غفلتهم**، وكشفت زيف الحياة الدينية التي كان الأمويون يتستّرون بها؛ لضرب الإسلام من على منبر الإسلام؛ لاستئصال جذور التوحيد؛ ومزّقت الإطار الديني المبطّن بالكفر، والشرك، والنفاق، ومن هنا

(١) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٦٥.

حدث فصلٌ بين السلطة السياسية الجائرة، وبين الإسلام الأصيل، وبذلك برز خطّان متخالفان في الجوهر والإطار، خطّ الدين الإسلامي السليم الذي يمثله البقية الباقية من مدرسة أهل البيت عليهم السلام وخطّ السلطة (الملكية) المتمثلة بالأمويين الذين يريدون أن يجعلوا الإسلام ستاراً لجرائمهم .

٢- **نبّهت الأمة على حقيقة الأمويين**، وأنّهم لا يزالون محكومين للروح الجاهلية، وأنَّ العادات والأعراف والأحكام الجاهلية لا زالت كامنة فيهم، ومسيّرة لهم، إلا أنَّها مغلّفة بثوب إسلامي؛ ولذا أخذوا يجدّون؛ لتحريف مفاهيم الإسلام وأحكامه من خلال وضع الأحاديث، ويلاحقون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ممن ليس على هواهم فيقتلونهم، قال الطبري: «ولَّى زياد حين شخص من البصرة إلى الكوفة سَمرة بن جندب، فحدثني عمر قال: حدثني إسحاق بن إدريس، قال: حدثني محمد بن سليم، قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة، وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قتلتَ أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلتُ إليهم مثلهم ما خشيتُ»[١].

وقال أيضاً: «حدثني عمر، قال: حدثني علي بن محمد عن جعفر الصّدَفِيّ عن عوف قال: أقبل سَمُرة من المدينة، فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من أزقّتهم، ففجأ أوائل الخيل، فحمل عليه رجل من القوم، فأوجره الحربة، قال: ثم مضت الخيل؛ فأتى عليه سَمُرة بن جندب وهو متشحِّط في دمه، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابته أوائل خيل الأمير، قال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتّقوا أسنّتنا»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٢٣٧.

إذن ثورة الحسين عليه السلام (هدّمت دعائم الضلال التي كانت مغلفة بأثواب الهدى، وأيقظت الضمائر السابتة، والنفوس المسترخية، والعقول المخدرة)، وأعادت للأمّة وعيها وإرادتها.

٣- **تصاعد الشعور بالإثم والندم في الأمة**، حيث تحوّل إلى مرجل يغلي يمزقّ القلوب، وصار المجتمع يفتّش عن مخرج ومخلص له، ونتيجة هذا حدثت انفجارات وثورات، وانبعثت في الأمة روح الجهاد، وتواصلت هنا وهناك ثورات وحركات كثيرة كثورة التوّابين، وثورة المدينة، وثورة المختار، وثورة ابن الأشعث، وثورة مطرف بن المغيرة ، وثورة زيد بن علي، وثورة أبي السرايا... وكلّ ثورة حدثت بعد ذلك كانت أثراً من آثار ثورة الحسين عليه السلام.

وهكذا (فقد هزّت تضحية الإمام الحسين عليه السلام ضمائر المسلمين، هزّة عنيفة، وأشعرتهم بفداحة الإثم، وضخامة الجريمة، وعمق الردّة، والانتكاسة في نفوسهم وحياتهم... فكانت هذه التضحية المأساوية مبدأ ومنطلقاً لحركات كثيرة في التاريخ الإسلامي، ومصدراً كبيراً للتحريك في التأريخ الإسلامي)[1].

نعم، انفجرت روح النضال في الأمة، واستيقظ الضمير الديني، ونفض عن نفسه ركام الذلّ والهوان، وبذلك أحبط المخطط الأموي القائم على الإرهاب والإفساد، وبهذين العاملين استخفّ عقول الناس؛ فثورة الحسين عليه السلام أعادت للأمة شخصيتها وهويتها.

(لقد أجّجت ثورة الحسين عليه السلام تلك الروح التي حاول الأمويون إخمادها، وبقيت مستترة تعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضد الحاكمين، مرّة هنا ومرّة هناك، وكانت الثورات تفشل دائماً، ولكنّها لم تخمد

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في رحاب عاشوراء: ٢٧٧/١.

أبداً؛ لأنَّ الروح النضالية كانت باقية، تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، إلى التمرّد، وإلى التعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إنّي هنا)[١].

٤- **كشفت حوادث السبي، وقطع الرؤوس**، والقسوة المتناهية عن وحشية الجيش الأموي مما أيقظ ضمير الناس، وكأنّه وغزة هزّت المشاعر، وكصعقة في حالة نوم عميق أعادت للإنسان إحساسه ووعيه... فإنَّ تلك الحوادث الموحشة والتعامل الوحشي مع النساء والأطفال، والسبي على أقتاب مجردة حرّكت ضمير الأمة، وأيقظتها من سبات عميق، هذه الهزّة ضعضعت العرش الأموي، وهدّمت أركانه، وخصوصاً بعد أن انكشفت هوية الثوّار خلال خطب بنات الهدى ...

يقول المؤرخون : «ولما أُدخلت بنات أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهم، فصاحت أم كلثوم: يا أهل الكوفة، أما تستحون من الله ورسوله أن تنظروا إلى حرم النبي صلى الله عليه وآله ؟

وأشرفت عليهن امرأة من الكوفيات، ورأتهن على تلك الحال التي تشجي العدو الألد، فقالت: من أيّ الأسارى أنتم؟ قلن: نحن أسارى آل محمّد صلى الله عليه وآله!!

وأخذ أهل الكوفة يناولون الأطفال التمر والجوز والخبز، فصاحت أم كلثوم وهي زينب الكبرى عليها السلام: إنَّ الصدقةَ علينا حرام، ثم رمت به إلى الأرض»[٢].

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين عليه السلام ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية: ٢٩٠.

(٢) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٢٥.

[من الطويل]

أبـا حسـن تغضـي وتلتـذ بـالكرى ... وبـالكفّ أمسـت تسـتر الوجـه زينـب
أبـا حسـن ترضـى صـفاياك فـي السـبا ... ونسـوة حـرب بالمقاصـير تحجـب
ويهنيـك عـيش والعقائـل حسَّـر ... إذا مـا بكـت بالأصـبحيّة تضـرب
فأصـواتها بحَّـت وذابـت قلوبهـا ... وأنفاسـها كـادت مـن الحـزن تـذهب
يزيـد الخنـا فـي دسـته متقلـب ... ويمسـي حسـين فـي الثـرى يتقلـب
ويحمـل منـه الـرأس فـي الـرمح جهـرة ... وفـي التـاج رأس ابـن الدعيـة يعصـب
ويبقـى ثلاثـاً عاريـاً ويزيـدها ... على جسمه يغدو الدمقس المـذهب[1]

(١) المصدر نفسه: ٣٢٥-٣٢٦.

الفصل الخامس

مَعالِمُ شَخْصِيَّةِ

أبي الفَضْلِ العَبّاسِ عليه السلام

زارَ الإمامُ الصادقُ عَمَّهُ العباس عليه السلام، فقال: «سَلامُ اللهِ، وَسَلامُ مَلائِكَتِهِ الْمُقَرَّبينَ، وَأَنْبيائِهِ الْمُرْسَلينَ، وَعِبادِهِ الصَّالِحينَ، وَجَميعِ الشُّهَداءِ وَالصِّدِّيقينَ، [وَ]الزَّاكِياتِ الطَّيِّبَاتِ فِيمَا تَغْتَدِي وَتَرُوحُ، عَلَيْكَ يَا ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنينَ، أَشْهَدُ لَكَ بِالتَّسْلِيمِ، وَالتَّصْدِيقِ، وَالْوَفَاءِ، وَالنَّصِيحَةِ لِخَلَفِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ...

السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الْمُطِيعُ لله، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَمِيرِ الْمُؤْمِنينَ، وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام، والسَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ عَلَى رُوحِكَ وَبَدَنِكَ .

أَشْهَدُ وأُشْهِدُ اللهَ أَنَّكَ مَضَيْتَ عَلَى مَا مَضَى بِهِ الْبَدْرِيُّونَ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، الْمُنَاصِحُونَ لَهُ فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ، الْمُبَالِغُونَ فِي نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ، الذَّابُّونَ عَنْ أَحِبَّائِهِ.

أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَالَغْتَ فِي النَّصِيحَةِ، وَأَعْطَيْتَ غَايَةَ الْمَجْهُودِ... وَأَنَّكَ مَضَيْتَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِكَ مُقْتَدِياً بِالصَّالِحِينَ، وَمُتَّبِعاً لِلنَّبِيِّينَ...»[1].

في هذا النص الشريف أثبت الإمام الصادق عليه السلام خمس شهادات واضحة

(١) ابن قولويه القمي، كامل الزيارات: ٤٤٠-٤٤٢، وبحار الأنوار: ١٠١/٢٧٧-٢٧٨ .

بيّنة أوضحت معالم شخصية أبي الفضل العباس عليه السلام، وما اتّسمت به من سمات رساليّة، وأبعاد واسعة المدى جعلت من العبّاس عليه السلام إسلاماً متجسّداً يمشي على الأرض، وهذا خير دلالة على عمق الرعاية التي تلقّاها أبو الفضل في تربيته وإعداده على يد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وأخويه الحسنين عليهما السلام، هذه الشهادات هي:

الشهادة الأولى: بيان لوعي أصول الإسلام كاملة في نفس وروح وقلب أبي الفضل، وتجسيد تلك الأصول وانعكاسها على سلوكه؛ فيكون العباس عليه السلام بذلك إسلاماً متجسّداً، وبكلمة أوضح: إنَّ هذا العبد الصالح مَثَّلَ الإسلام في سلوكه إيماناً، وعلماً، وعملاً... قال عليه السلام: «**أَشْهَدُ لَكَ بِالتَّسْلِيمِ**»، والتسليم درجة إيمانية عليا لا يبلغها إلا الخلّص من أولياء الله؛ لأنَّ الإنسان فيها يُسلّم نفسه لله تعالى مختاراً مطيعاً، بلا قيد ولا شرط، وقد أكّد القرآن الكريم على عملية التسليم في عدة آيات، قال تعالى:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

والتسليم لله معنى جامع لأعمق ألوان الارتباط بالله تعالى، وامتثال أمره، (والتوجه الكامل، وبكلّ الوجود إلى الذات المقدسة) حتى يعود المستسلم

(١) لقمان: ٢٢.

(٢) البقرة: ١١٢.

خاضعاً، مطيعاً، مفوّضاً، متواضعاً لله تعالى، لا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً.

وبعبارة أوضح: إنَّ التسليم هو الانقياد، والطاعة المطلقة بتجرّدٍ كامل عن إرادة كلّ شيء سوى الله تعالى، وهذه هي أولّ درجات الإسلام والإيمان، ومنها يرتقي إلى درجات أعلى، وإن كانت هذه الدرجات هي ثمرات التسليم؛ منه تنبع، وبه تثمر، وإليه تعود، وقد أوضح أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه الحقيقة بقوله:

«لأَنْسُبَنَّ الإِسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: الإِسْلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ، وَالإِقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ، والأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ»[١].

بهذا التسلسل البديع بيَّن الإمام عليه السلام جذور الإسلام وكيفية امتداده في الجوانح، وسيطرته على الجوارح، (إنَّه الاستسلام المطلق لله - مع إحسان العمل والسلوك - الاستسلام بكامل معناه، والطمأنينة لقدر الله، والانصياع لأوامر الله، وتكاليفه، وتوجيهاته، مع الشعور بالثقة، والاطمئنان للرحمة، والاسترواح للرعاية، والرضى الوجداني، رضى السكون والارتياح.. كلّ أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله، والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان)[٢].

هذه أبرز صفة برزت في شخصية قمر بني هاشم حتى عاد لا يرى مؤثراً في الوجود إلا الله، ولا شيء يستحق أن يبذل الإنسان مهجته من أجله إلا دين الله.

---

(١) نهج البلاغة: ٥٠٧، الكلمات القصار: ١١٨ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤٩٢/٦.

والله إن قطعـــــتم يمينـــــي إنّي أحامي أبـداً عـن دينـي

ومن هذا التسليم جاءت الصفة الثانية، وهي التصديق الذي يلازم التسليم، ولا ينفكّ عنه؛ فلا يكون تسليم بلا تصديق ويقين؛ (فالتسليم الذي هو حقيقة الإسلام يخصّ القلب، هذا التسليم يوصله الإمام عليه السلام إلى جذور الحقيقة وهو التصديق، ومن التصديق يصعد الفرع الثاني للتسليم حيث يمتدّ إلى الجوارح وهو الأداء، والأداء هو العمل الصالح. إذن أساس الإسلام هو التصديق، ومن التصديق يتفرع فرعان: فرع يتصل بالقلب؛ وهو اليقين، والتصديق، والإقرار؛ وفرع يتصل بالجوارح؛ وهو الأداء، والعمل الصالح)[1].

ومن هذه الخصلة العرفانية العالية التي تجسّدت في سلوك أبي الفضل عليه السلام اتّضحت لنا معالم شخصيته - فهو صادق مع الله تعالى في إيمانه: حباً، وخوفاً، ورجاءً، وورعاً وتقوى، وهو صادق مع أخيه الحسين عليه السلام امتداد رسول الله صلى الله عليه وآله - وبرز الوفاء في موقفه بأروع صوره، وأعلى مراتبه؛ فكان مصداقاً رائعاً للموفين بعهدهم إذا عاهدوا، وضرب بذلك المثل الرائع الذي بقي إلى اليوم، وسيبقى إلى يوم القيامة يرنّ في آذان أبناء آدم.

ومع التسليم، والتصديق، والوفاء، كان «**ناصحاً**»، أي: إنّه لم يكن يطلب بذلك سوى رضا الله تعالى في جهاد أعدائه تعالى...

بهذه السمات العالية تحلّى العباس بن علي عليهما السلام؛ فوصل إلى أعلى مراتب الكمال البشري، فأصبح مثالاً، وأسوةً، ومقتدى، ومحرّكاً للتاريخ إلى يوم القيامة.

والإمام الصادق عليه السلام إنما أشار في الزيارة إلى تلك الخصال لا ليمدح

(١) من محاضرات آية الله الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي رحمه الله .

العباس عليه السلام وحسب، ولا ليبين مقامه فقط -ففضائله ومقامه أوضح من الشمس في رابعة النهار -وإنما يريد أن يهدينا ويرشدنا من خلال ذلك إلى مكارم الأخلاق.

الشهادة الثانية: شهد له عليه السلام بالعبودية الكاملة لله تعالى؛ وهي فرع التسليم له تعالى، فلا يكون الإنسان لله تعالى عبداً ما لم يسلّم نفسه لله تسليماً مطلقاً، ولا يصل الإنسان إلى تلك المرتبة ما لم يتحرر من كلّ الضواغط الداخلية والخارجية كي يُعَبِّدَ نفسه لله تعالى عن علم، وطواعية، واختيار؛ وبذلك يصبح حراً من كل القيود الشهوانية أو الطاغوتية.

(إنَّ هذه الصفة (العبودية لله) أرقى مراتب الإنسان الكامل؛ لأنَّها حلقة الوصل بين المولى والعبد، وأفضل حالات أيّ فاضل، حيث يجد نفسه الطرف الرابط لموجد كيانه جلَّ وعلا، وإنَّ من أكمل مراتب الوجود فيما إذا التأم المنتهى مع المبدأ بنحو الصلة، وهذا لا يكون إلا إذا بلغ العبد أرقى مراتب الإنسانية التي تلحقه بعالم البساطة، وتنتهي به إلى صقع التجرد؛ فتؤهله لأن يتصل بالمبدأ الأعلى، فلو فقد الإنسان تلك الملاءمة دحره عن حضيرة القداسة انقطاع النسبة، وبُعْد المَرمَى، وشسوع المسافة)[1].

فالعباس بن علي عليه السلام كان مصداقاً تامّاً للعبد الصالح؛ لأنَّه بذل كلّ شيء في سبيل الله تعالى كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الْمُطِيعُ لله، وَلِرَسُولِه، ولأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ...**».

وخلاصة الكلام: العبودية هي الطاعة المطلقة لله تعالى بالانقياد لأوامره،

(١) المقرم، العباس عليه السلام: ١٤٠-١٤١.

والتسليم لقضائه وقدره، ودلالة ذلك بذل كلّ شيء في سبيل الله، والذوبان في حبه وطاعته بمنع النفس عما تهوى، وتحميلها ما تكره، وجعل رضوان الله غاية في كلّ عمل يقوم به العبد، وهذا ما نفهمه من كلمات الزيارة لأبي الفضل عليه السلام التي تجلّت فيها معالم شخصية أبي الفضل؛ ولهذا (كان الحريّ بأرباب المقاتل والنسب أن يدوّنوا له هذا اللقب المعرب عن أسمى منزلة له عليه السلام وهو العبد الصالح)[1].

الشهادة الثالثة: إنَّه امتداد للسائرين الأوائل في نصرة الحق، وهم البدريّون الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله يوم الفرقان: «**أَشْهَدُ وأُشْهِدُ اللهَ أَنَّكَ مَضَيْتَ عَلَى مَا مَضَى بِه الْبَدْرِيُّونَ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ...**»، وقد وصفهم الإمام عليه السلام بأربعة أوصاف:

الأولى: إنّهم مجاهدون في سبيل الله.

الثانية: إنّهم مناصحون، أيّ مخلصون لله بتجرّد كامل.

الثالثة: المبالغة في نصرة أولياء الله.

الرابعة: الذبّ عن أحبّاء الله تعالى.

وهذه الأوصاف الأربعة كلها تجسَّدت عملياً في العباس عليه السلام .

الشهادة الرابعة: المبالغة في النصح، وهو تعبير ينبئ عن الجهود العالية التي بذلها أبو الفضل في نصرة الحق والعدل، وببذل منقطع النظير: «**وَأَعْطَيْتَ غَايَةَ الْمَجْهُودِ**».

الشهادة الخامسة: عارف بربّه، فقيه في دينه، بصير في أمره؛ ولهذا وصفه

(١) المقرم، العباس عليه السلام : ١٢٣ .

الإمام عليه السلام بأنَّه نافذ البصيرة، صلب الإيمان، ثابت الجنان، وأقدم على ما أقدم وهو واعٍ لتلك المهمة الصعبة التي ناء بها، وبذل كلّ غالٍ ونفيس في سبيلها، ومضى إلى الله راضياً مرضياً، يقول الإمام السجاد عليه السلام: «رحم الله عمّي العباس فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتّى قُطعت يداه، فأبدله الله بجناحين، يطير بهما مع الملائكة في الجنّة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وإنَّ للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة»[١].

هذه بعض خصال هذا العبد الصالح، ولا عجب إذا كان كذلك؛ فقد تربّى في مدرسة النبوة والإمامة، ورضع من ثدي الإيمان، زقّ العلم زقاً... وكان كما يحدّثنا المؤرخون: إنَّه من سادة فقهاء أهل البيت عليهم السلام ... ولهذا كان عليه السلام حامل لواء الحسين عليه السلام في معركة الطف الفاصلة، (وقد خصّه به دون أهل بيته وأصحابه، وذلك ما تتوفّر فيه من القابليات العسكرية، ويعتبر منح اللواء في ذلك العصر من أهمّ المناصب الحسّاسة في الجيش)[٢].

ولهذا كان الحسين عليه السلام حريصاً على بقاء أبي الفضل إلى جنبه؛ ليبقى لواء التوحيد مرفرفاً بيده؛ ولذا قال الحسين عليه السلام للعباس حينما أراد أن يبرز لمنازلة الأعداء: «يا أخي، أنت صاحب لوائي»[٣].

وحينما سقط العباس مضرجاً بدمه قال الحسين عليه السلام: «الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي»[٤].

---

(١) الشيخ القرشي، العباس بن علي عليه السلام رائد الكرامة والفداء في الإسلام: ٣٥-٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤١/٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ٤٢/٤٥.

[من الكامل]

نـادى وقـد مـلأ البـوادي صـيحةً ... صـمّ الصـخور لهولهـا تتـألمُ

أأخـيَّ يهنيـك النعـيم ولـم أخـل ... ترضـى بـأن أرزى، وأنـت مُـنَعَّمُ

أأخـيَّ مـن يحمـي بنـات محمّـدٍ ... إن صـرنَ يسـترحمنَ مـن لا يـرحمُ

هذا حسامك من يـذبّ بـه العـدى، ... ولـواك هـذا مـن بـه يتقـدَّمُ

هوّنـت يـا ابـن أبـي مصـارع فتيتـي ... والجـرحُ يسـكنه الـذي هـو آلـمُ[1]

(١) السيد جعفر الحلي، سحر بابل وسجع البلابل: ٤٣٢.

مَعَ أنْصارِ الْحُسَيْنِ عليه السلام

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

إنَّ أعلى درجات الإيمان، وأسمى صفات المؤمنين هي حالة التطلّع إلى لقاء الله بالشهادة، والشوق، والتلهّف إليها، وبذلك عدَّها أمير المؤمنين عليه السلام من مواطن البشرى حينما قال لرسول الله صلى الله عليه وآله -كما ينقل في أحد خطبه-: «أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ، حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنَ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّ ذلِكَ لَكذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَيْسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ»[2].

والعارفون بالله شديدو الشوق إلى ذلك، كما وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة المتقين: «وَلَوْلا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوقاً إِلى الثَّوَابِ، وَخَوفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ»[3].

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥١، خطبة: ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

وأيّ عمل من أعمال الخير هو دون مرتبة الشهادة مهما بلغ المؤمن من الإخلاص والتفاني كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «فوق كلّ ذي برّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[١].

ولعلّ السبب في ذلك: أنَّ الشهداء هم مشاعل طريق الإيمان يضيؤون الطريق أمام البشريّة إلى الله تعالى، فلهم حقٌّ على كلّ إنسان مهما بلغ من العلم، والعمل، والتقوى، فالفضل لهم؛ لأنَّهم عَبَّدُوا الطريق للآخرين بدمائهم.

فالفقيه، والكاتب، والخطيب، والمدرس، والمهندس... كلّهم مدينون للشهداء، فلولاهم لما استطاع الفقيه أن يفتي، والكاتب أن يكتب، والمعلّم أن يعلّم، والخطيب أن يطرح مفاهيم الإسلام في الهواء الطلق، ولا الحاكم العادل أن يحكم؛ فالشهداء هم الذين يوجدون للأمة المناخ المناسب للرقي والتقدم بإيجادهم ظروفاً جديدة تهيئ للإنسان حالة الإبداع والابتكار.

وحالة التطلّع للشهادة، أو حبّ لقاء الله لا يمكن أن يتحقّق في ذات الإنسان بدون مقدّمات تربوية تهيئ النفس للقاء الله تعالى أهمها:

١- **التحرّر الروحي والفكري من زخارف الدنيا**، والارتفاع عن تراب الأرض، والتطلع إلى نور السماء؛ فـ(الشهيد تخلّص من أثقال الأرض، والانشداد بها، فأصبح قليل المؤونة، كثير المعونة، شرُّه مأمون، وخيره مأمول...)[٢]، كما (أنَّ الشهيد القتيل لم يسأم الحياة - بل أراد إحياء الموتى - وهو لم يتئس بالموت، بل كان يربأ بنفسه أن يموت حياً)[٣].

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٠/١١.

(٢) مكّي قاسم البغدادي، الشهادة تأصيل لا استئصال: ١٠٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٢/١.

٢- **الحبّ لله وفي الله**: فإنَّ قلب المتطلع للشهادة طافح بحبّ الله، متشوّق إلى لقائه تعالى؛ ولهذا فهو دائم اللهفة، والشوق إلى لقاء المحبوب...

وهذا الحبّ يوسّع آفاق النفس، ومداركها، وطموحاتها، فيجعلها تنظر إلى ما بعد الحياة الدنيا، يرنو ببصره إلى الآفاق الإلهية غير المحدودة، فيسمو، وتضيق الدنيا به فلا تطمئن نفسه إلا بلقاء الله تعالى.

روي: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله رَغَّبَ في الجهاد، وذكر الجنة، ورجل من الأنصار يأكل تمرات في يده، فقال: إنّي لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منهنّ، فرمى ما في يده، فحمل بسيفه، فقاتل حتى قتل»[١].

وقد روى ابن كثير أنَّ عمير بن الحمام كان في يده تمرات يأكلهن، فبعد أن أنهى رسول الله صلى الله عليه وآله خطبته يحثّ القوم على القتال قد أخذت كلمات الرسول صلى الله عليه وآله منه بمجامع قلبه حتى قال: «بخٍ بخٍ أفما بيني، وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟» قال: «ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله»[٢].

فحبُّ الشهادة نابع من حب الله تعالى؛ فهو ليس حبّاً ذاتياً، وإنما هو حبٌّ طريقي كما يقول الأصوليون؛ ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «والذي نفس محمّد بيده، لوددت أنّي أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل!»[٣].

وسُئِلَ أميرُ المؤمنين عليه السلام: «بماذا أحببت لقاء الله؟» فقال عليه السلام: «لما رأيته

(١) ابن عبد البر، الاستذكار: ١٤/٢٩٥-٢٩٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣/٣٣٧-٣٣٨.

(٣) صحيح مسلم: ٦/٣٣-٣٤.

قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه، علمت أنَّ الذي أكرمني بهذا ليس ينساني، فأحببت لقاءه»[١].

٣- **وضوح الرؤية أو الهدفيّة المقدّسة**: ونقصد بوضوح الرؤية أن يعي ما يريد الله تعالى من عباده، ويتحرّك ضمن تلك الإرادة بحيث يعرف ماذا يريد؟ ولماذا يتحرك؟ ويستقصي أسرار نفسه في حركته، فيحبسها على الله... ومن الواضح الجلي أنَّ من خصائص الرسالة الإسلامية أنّها تُشعر المؤمن بقدسية أهدافه لكونها إلهية... وجميل ما ذكره المفكر الشهيد مطهري رحمه الله في بعض مؤلفاته في التفريق بين الهدف المقدس والهدف العظيم:

فالهدف المقدس هو أن يطلب الإنسانُ الحقيقةَ، ويعمل على خدمتها وتطبيقها من دون نظر إلى مصالحه الشخصية الآنية سواء كانت تلك المصالح مادية أو معنوية، فهو ينظر إلى المصلحة العامة، ويتحرك لأجل تحقيقها، ويتجاوز الذاتية والأنانية بكلّ أشكالها.

وأما الهدف العظيم: أعمال كبيرة وعظيمة، ولكن صاحبها يُقدّم مصلحته، ويضعها فوق كلّ الاعتبارات كمن يريد أن يحرر أمته، ليتحكم بها، ويتسلط عليها، ويقدّم خدمات كثيرة للآخرين كي يطيعوه، فبعض الناس يكون فكره، وذكاؤه، وعلاقاته، وثروته، وقدراته مسخرة لذلك، فهو يحاول دائماً أن يسلّط الأضواء على نفسه، ويبرّز ذاته، وإن كانت أهدافه عظيمة... ومن الناس عكس أولئك فهم يعيشون مع الناس، ويعايشونهم، ويشاركونهم آلامهم وآمالهم، ولكن من منطلق رسالي لا من منطلقات شخصية...

---

(١) الشيخ الصدوق، كتاب الخصال: ٣٣/١.

وخلاصة الكلام: إنَّ الهدف المقدس هو تجاوز الأنا الضيّقة إلى رحاب الله تعالى الواسعة، وتسخير كلّ القوى العقلية، والبدنية لله تعالى.

وأما الهدف العظيم قد يكون كبيراً، ولكن منطلقاته ذاتية أنانية ومصلحية.

نعود إلى أصحاب الحسين عليه السلام: فمن هم؟ وماذا كانت أهدافهم ومنطلقاتهم؟ وما هو الفرق بينهم وبين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وأصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام؟

ولا شك أنّهم زبدة الأمة الإسلامية، وخلاصة من ربّاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام .

والفرق بينهم وبين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام أنَّ أولئك كانوا يقاتلون ولهم أمل في النصر، والبقاء، والغلبة، وأما أصحاب الحسين عليه السلام فقد كانوا على يقين قاطع أنّهم مقتولون، ولا أمل لهم بالغلبة العاجلة، فقد أخبرهم الحسين عليه السلام بأن من لحق به استشهد، وأنّ الله أذن بقتله وقتلهم، فصبروا، واستماتوا، وتفانوا في جهاد عدوّهم، ونصرة إمامهم .

ولذلك مهما أوتي المرء من فطنة، وإدراك، وبلاغة في التعبير لا يمكن أن يعطي تقييماً دقيقاً لتلك الثلّة المباركة، ومن هنا كان التقييم الوحيد لهم هو ما عَرَّفَهُمْ به إمامُهم بأنَّهم يستأنسون بالمنيّة كما يستأنس الطفلُ بمحالب أمِّه.

وقد اتّسم أصحاب الحسين عليه السلام بكلّ صفات الكمال نذكر بعضاً من تلك الصفات:

١- الإدراك والوعي الكامل لفريضة الجهاد وفق سنة التكليف؛ فهم كانوا يعلمون أنّهم مستشهدون لا محال، ورغم ذلك واصلوا الكفاح، وتفانوا في أداء فريضة الجهاد المقدسة في سبيل الله تعالى.

٢- التطوّع للتضحية من دون إغراء ولا تهديد، بل كانوا على علم بكلّ ما سيحدث، والحسين عليه السلام قال لهم:

«أما بعد؛ فإنه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف عنّي لم يبلغ الفتح»[١].

«من كان باذلاً فينا مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢].

٣- الشوق إلى لقاء الله، بل العشق له: لذلك كانوا مسرورين متفائلين، يقول المؤرخون: «جعل برير يهازل عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن: دعنا، فوالله ما هذه بساعة باطل، فقال له برير: والله لقد علم قومي أنّي ما أحببتُ الباطلَ شابّاً ولا كهلاً، ولكن والله إنّي لمستبشرٌ بما نحن لاقون، والله إنّ بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنّهم قد مالوا علينا بأسيافهم»[٣].

وخرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له برير بن خضير الهمداني: «يا أخي، ليس هذه بساعة ضحك!» قال حبيب: «فأيّ موضع أحقّ من هذا بالسرور؟ والله ما هو إلا أن تميل علينا هذه الطغام بسيوفهم، فنعانق الحور العين»[٤].

وأدقُّ وصفٍ لهم ما نطق به قائدهم وإمامهم في جوابه لأخته زينب سلام الله عليها: «والله لقد بلوتهم، فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس[٥]، يستأنسون

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ٣٩، والملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٩.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦-١٢٧ .

(٣) تاريخ الطبري: ٤٢٣/٥ .

(٤) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ٢٩٣/١ .

(٥) الأشوس: الجريء على القتال، والأقعس: الثابت العزيز، المنيع.

بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمّه»[١].

ولذلك عندما خاضوا غمار الموت كانوا كالأسود الضارية التي لا تهاب شيئاً ولا تتراجع بحال؛ فقد نقل ابن أبي الحديد: «قيل لرجل شهد يوم الطفّ مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله!؟ فقال: عَضَضْتَ بالجندَل، إنَّك لو شهدت ما شهدنا، لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتُلقي أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها فماذا كنا فاعلين لا أمّ لك!»[٢].

وهذا الشوق بلقاء الله تعالى نابعٌ من الحبّ والعشق الإلهي... هذا العشق أنساهم حتى ألم الجراح، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ أصحاب جدي الحسين عليه السلام لم يجدوا ألم مسّ الحديد»[٣].

وإلى هذا المعنى أشار الإمام الحسين عليه السلام حين قال لأصحابه قبل أن يقتل: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: يا بنيّ، إنَّك ستساق إلى العراق، وهي أرض قد التقى بها النبيّون وأوصياء النبيّين، وهي أرض تدعى عمورا، وإنَّك تستشهد بها، ويستشهد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مسّ الحديد»، وتلا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[٤][٥].

---

(١) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٢٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٣/٣.

(٣) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٧٠.

(٤) الأنبياء: ٦٩.

(٥) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٨٠/٤٥-٨١.

٤- عدم الاهتمام بالخطر المحدق بهم من كلّ جوانب حياتهم، وحسبهم من السموّ الخلقي، واليقين الذي لا شائبة فيه أنّه ما من أحدٍ منهم إلا وكان بإمكانه أن ينجو بنفسه وعياله بمجرد التراجع عن نصرة الحسين عليه السلام.

يقول العقاد: «ولم يكن من أصحاب الحسين عليه السلام إلا من يطلب الموت، ويتحرّى مواقعه وأهدافه.. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على أفواق نبله، ويرسلها فيقتل بها ويجرح، وقلّما يخطئ مرماه، فأحاطوا به، وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا، ثم أسرّوه، والدم يسيل من وجهه ويديه، فحسبوه يلين للوعيد، ويجزع من التمثيل به، فأسمعهم ما يكرهون، وراح يستزيد غيظهم، ويقول لهم: لقد قتلت منكم اثني عشر رجلاً سوى من جرحت، ولو بقيت لي عضدٌ وساعدٌ لزدتُ»[1].

ولا عجب ذلك من نافع؛ فإنّه كان (سيداً شريفاً سرياً[2] شجاعاً، وكان قارئاً كاتباً من حملة الحديث، ومن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وحضر معه حروبه الثلاث في العراق، وخرج إلى الحسين عليه السلام فلقيه في الطريق)[3].

ولما ضَيَّق الحرّ على الحسين عليه السلام قام نافع، فقال: «يا ابن رسول الله، أنت تعلم أنَّ جدك رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقدر أن يُشْرِب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحبّ، وقد كان منهم منافقون يعِدونه بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمرّ من الحنظل، حتى قبضه الله إليه، وإنَّ أباك علياً رحمة الله عليه قد كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره،

(١) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٥٣/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٢) السَّري جمعه سراة، ومعناه الرفيع المنزلة.

(٣) السماوي، إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٤٧.

وقاتلوا معه الناكثين، والقاسطين، والمارقين، [وقوم خالفوه] حتى أتاه أجله، فمضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة؛ فمن نكث عهده، وخلع بيعته فلن يضرّ إلا نفسه والله مغنٍ عنه، فسر بنا راشداً مُعافاً، مُشَرِّقاً إن شئت، وإن شئت مُغَرِّباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا وإنَّا على نيّاتنا، وبصائرنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك»[١].

وإذا أردنا أن نستقرئ حياتهم نجد أكثر من شاهد على أنّهم لم يعبؤوا بالخطر المحدق، ولم يُعيروه أيّ أهمية، بل كانوا يلتذّون بلقاء العدو، ويستأنسون بالموت في سبيل الله تعالى؛ فهذا عابس الشاكري يتقدم إلى الحسين عليه السلام ويقول: «يا أبا عبد الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب، ولا بعيد أعزَّ عليَّ، ولا أحب إليَّ منك، ولو قدرتُ على أن أدفع عنك الضَّيم والقتل بشيء أعزّ عليَّ من نفسي ودمي؛ لفعلتُه. السلام عليك يا أبا عبد الله، أشهد أنّي على هديك، وهدى أبيك»، ثم مشى بالسيف مصلتاً نحوهم، وبه ضربة على جبينه[٢].

وروى أبو مخنف عن الربيع بن تميم الهمداني أنَّه قال: «لما رأيته [عابساً] مقبلاً عرفته، وقد شاهدته في المغازي، وكان أشجع الناس، فقلت: أيّها الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب، لا يخرجنّ أحد منكم، فأخذ ينادي: ألا رجل لرجل؟! فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة؛ قال: فرُمِيَ بالحجارة من كلّ جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومِغفَرَه، ثم شدَّ على الناس، فوالله لرأيته يكرد[٣] أكثر من مائتين من الناس، ثم إنّهم تعطّفوا عليه من كلّ جانب، فقتل»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨٢/٤٤-٣٨٣، وإبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٤٧-١٤٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٤٤/٥.

(٣) يكرد: يطرد.

(٤) تاريخ الطبري: ٤٤٤/٥.

بهذه الروح المقدامة المتفانية في سبيل الله، وبهذا التحدّي الذي لو فتشنا التأريخ، وغصنا إلى أعماقه لن نجد له نظيراً، يلقي درعه ومغفره؛ ليتحدى الموت بأبشع أشكاله، ويثبت للتاريخ أنَّ الرسالة أغلى من الروح والدم، وكل غالٍ ونفيس...

٥- إنّهم من أهل البصائر: وهم الذين حملوا الإسلام عن علم وبصيرة متسلّحين بالحجج والبينات الواضحة من الله تعالى، فهم ليسوا مجرد رواة، وإنّما هم وعاة لرسالة الله تعالى، ودعاة إليها، وكانوا حقّاً كما وصفهم أحد رجالات جيش ابن سعد عندما رأى أنّهم لا يبارزهم مبارز إلا وجندلوه، قائلاً للناس:

«يا حمقى، أتدرون من تقاتلون! فرسان المصر، قوماً مستميتين، لا يبرزنَّ لهم منكم أحد، فإنّهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم»، فقال عمر بن سعد: «صدقت، الرأيُ ما رأيتَ»، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألا يبارز رجلٌ منكم رجلاً منهم[١].

ولا عجب أن يكونوا من أهل البصائر؛ فقد أخذوا الحقَّ، والعلم، والإيمان من منبعه الصافي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، أخذوه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أوصيائه الطاهرين؛ ولهذا «حَمَلُوا بَصَائِرَهُم عَلَى أسْيافِهِم»[٢] كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام، يقول ابن أبي الحديد في شرح هذه العبارة:

«يعني أنَّهم أظهروا بصائرهم، وعقائدهم، وقلوبهم للنّاس، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها، مع تجريد السيوف من أجفانها، فكأنّها شيء محمول على

(١) تاريخ الطبري: ٤٣٥/٥.

(٢) نهج البلاغة: ٢٤٠، خطبة: ١٥٠.

السيوف يبصره من يبصر السيوف، ولا ريب أن السيوف المجرّدة من أجلى الأجسام للأبصار، فكذلك ما يكون محمولاً عليها»[١].

وهكذا استمرّ روح الولاء وفاء للحسين عليه السلام إلى آخر لحظة من حياتهم صلوات الله عليهم، فكانوا بحقّ أنصار الله، وأنصار رسوله، وأنصار الإسلام، فصلوات الله عليهم وسلامه عليهم بما صبروا فنعم عقبى الدار.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣١/٩.

الفصل السادس

دَوْرُ الشَّبابِ في

ثَوْرَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، و[عن] شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت»[1].

تكتسب مرحلة الشباب أهميّتها من حيث إنّها مرحلة: القدرة، والطاقة والفاعلية، والإبداع، والحركية... وبذلك تكون أهمّ مرحلة في حياة الإنسان حاضره ومستقبله، فهي المرحلة الأولى التي يضع الإنسان قدمه على عتبة الحياة، وبها تتفتح قدراته الاكتسابية، والإبداعية، وبها يتوجّه لبناء شخصيته، وإرساء دعائم مستقبله بما يكتسب من ملكات إنسانية فاضلة: كالعلم، والحلم، والصّبر، وقوة الإرادة، والعزم، وما يتّسم به من صفات أخلاقية سامية كالعفّة، والحكمة، والشجاعة، والعدالة، وما يتفرّع منها من سجايا أخلاقية سامية أخرى...

كلّ ذلك إذا لم يحصل عليه الإنسان في شبابه فسوف يصعب عليه تحصيله بعد ذلك، فمن عمل على اكتساب الأخلاق العالية والخصال الحميدة، والملكات الفاضلة في شبابه سهل عليه ذلك، وترسَّخت في نفسه، واستقامت بها شخصيته في الأعمّ الأغلب؛ لأنَّ «قَلْبَ الحَدَثِ كَالأَرْض الخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ».

---

(١) الشيخ الصدوق، كتاب الخصال: ٢٥٣/١.

ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ تعلَّم فِي شَبَابِهِ كان بِمَنْزِلَةِ الرَّسْمِ فِي الْحَجَر، وَمَنْ تعلَّم وَهُوَ كَبِيرٌ كان بِمَنْزِلَةِ الْكِتَابَةِ عَلى وَجْهِ الْمَاء»[1].

وعلّة ذلك أنَّ نفس الإنسان في مرحلة الشباب تتّسم بالصّفاء والخلوّ من كلّ ما يشوبها ويشغلها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «وَإِنَّمَا قَلْبُ اَلْحَدَثِ كَالأَرْضِ اَلْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ»[2].

(إنَّ أيام الشباب تعني بلوغ أعلى القمم، وشروع أجمل مراحل العمر، والشابّ في هذه المرحلة يرى الأشياء جميلة، والأفق واسعاً مليئاً بكل ما يستهويه ويرتضيه، ويصبح غارقاً بالآمال والأمنيات، وقلبه طافحاً بالحب والأمل... وتشكّل أيام الشباب مشعلاً وضّاءً، وسراجاً منيراً في عمر الإنسان، إنّها عهد السرور والفرح، عهد القوّة والعنفوان، عهد النشاط والأمل، عهد الجدّ والعمل، وعهد الحركة الدؤوبة والحماس)[3].

ولهذا فإنَّ مرحلة الشباب كانت ولا تزال موضع اهتمام كلّ الأمم الواعية والمتحضّرة، وتولي مرحلة الشباب أهمية بالغة في كلّ مشاريعها ومؤسساتها، وتبذل الجهود المضنية والأموال الطائلة؛ فتشكيل المنظمات الشبابية، وإقامة المخيّمات الواسعة، وإجراء السفرات والحفلات... وما إلى ذلك من أساليب كلّها لأجل استيعاب طاقتها، وتسخيرها لمصلحتها العامة أو الخاصة.

---

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢٢/١.

(٢) نهج البلاغة: ٤١٩، كتاب: ٣١.

(٣) الشيخ الفلسفي، الشّاب بين العقل والعاطفة: ٦/١-٧.

(إنَّ كل الشعوب كانت في الماضي تهتمّ بمسألة الشباب، وتدرك قيمة الشباب ومنزلته إلى حدّ ما، وتلحظ باهتمام التطورات الهامّة التي كانت تطرأ على الشباب لدى بلوغهم، وتعتبر القوى الشابّة ثروة إنسانية عظيمة... وفي عالمنا اليوم، يستأثر الشباب باهتمام خاص وكبير، وهاهم اليوم يشاركون مشاركة فعّالة في شتى المجالات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والصناعية، والأخلاقية، ويؤدّون أدواراً مهمّة في كل من هذه المجالات...)[١].

ولذلك نرى جميع القطاعات الاجتماعية، وعلى مختلف الأصعدة الثقافية والسياسية، والاقتصادية، والصناعية، والفنية يركّزون اهتمامهم على اجتذاب الطاقات الشابة، واحتوائها للاستحواذ عليها، كلّ هذا ينطلق من أهدافه التي رسمها.

فـ(الساسة يعتمدون على الشباب، والرواة والقصصيون يختارون شخصياتهم من بين الشباب، والصحفيون يشيدون بالشباب حتى التملّق، وخلاصة القول: كل ذلك ساهم بإيجاد هالة من الغموض حول الشباب)[٢].

أَهَمِّيَةُ الشَّبابِ في الإِسْلامِ:

لقد عنى الإسلام عناية خاصة بالشباب، وأولى هذه المرحلة أهمية بالغة بحيث إنَّه عدَّها المرحلة الأساسية في بناء شخصية الإنسان، وحمَّل الإنسان مسؤولية كبيرة عن تلك المرحلة الهامّة من حياته، فهو يُسأل عنها كما يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن حب أهل بيت النبوة عليهم السلام، إنَّ أمراً يُقْرَن بحب أهل بيت

(١) الشاب بين العقل والعاطفة: ٩/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله لخير دلالة على أهميته، وإشارة إلى ثقل المسؤولية عنه؛ ولهذا أكّدت التعاليم الإسلامية على وجوب استثمار الإنسان لمدّة شبابه، وعبّرت عنه بالاغتنام؛ فذلك الاستثمار هو: (غنيمة) كبيرة وعظيمة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا أبا ذر، اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[١].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «بَادِرْ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ»[٢].

ومن هنا أكّدت الرسالة الإسلامية على وجوب تربية الشباب، والاعتناء بهم، وبنائهم بناء فكرياً وروحياً وخلقياً؛ لأنَّهم مؤهلون لتقبّل التعليم أكثر من غيرهم؛ فهم أرقّ أفئدة، وأزكى نفساً، وأعلى همّة، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوصيكم بالشباب خيراً؛ فإنّهم أرقُّ أفئدة»[٣]، وقد جاء الحثّ على التفقّه متواصلاً وبصيغة الوجوب مرة، وبالتهديد أخرى، وبالترغيب ثالثة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لو أُتيت بشَابّ مِنْ شباب الشيعة لا يتفقّه لأدّبته»، قال: «وكان أبو جعفر عليه السلام يقول: تفقَّهوا، وإلا فأنتم أعراب»[٤].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لو أتيت بشابّ من شباب الشيعة لا يتفقّه في الدين لأوجعته»[٥].

ويقول أبو عبد الله عليه السلام: «لستُ أحبّ أن أرى الشابّ منكم إلا غادياً في

---

(١) بحار الأنوار: ٧٧/٧٧.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٥٩، ح/٣٠٢٩.

(٣) الثعالبي، الطرائف واللطائف واليواقيت في بعض المواقيت: ٣٥٦.

(٤) بحار الأنوار: ٢١٤/١.

(٥) المصدر نفسه .

حالين: إمّا عالماً أو متعلّماً، فإن لم يفعل فرّط، فإن فرّط ضيّع، وإن ضيّع أثم، وإن أثم سكن النار والذي بعث محمّداً بالحق»[١].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعتمد على الشباب، ويسند إليهم مناصب ومسؤوليات حساسية وهامة، وطالما لاقى معارضة شديدة من بعض من يعدّ نفسه أولى بذلك؛ لكبر سنّه أو قدمه، وكان صلى الله عليه وآله يردّ عليهم ردّاً حاسماً كما سنبيّن ذلك إن شاء الله، ونحن نذكر بعض الأمثلة من ذلك:

١- اختار صلى الله عليه وآله مصعب بن عمير؛ ليكون ممثّلاً له في المدينة المنورة؛ وليُقرئ الناس القرآن، ويُعلّمهم أحكام الإسلام، ويمهّد أرض المدينة لاستقبال الرسول صلى الله عليه وآله.

قال ابن إسحاق: «فلما انصرفوا عنه القوم - الاثنا عشر رجلاً الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وآله في العقبة الأولى - بعث رسول الله صلى الله عليه وآله معهم مُصعب بن عمير... وأمره أن يُقْرئهم القرآن، ويُعلّمهم الإسلام، ويفقّههم في الدين، فكان يُسَمَّى المُقْرئ بالمدينة: مُصْعَبُ، وكان منزلُه على أسعد بن زرارة»[٢].

وكان أوّل من جمع الجمعة بالمدينة، وأسلم على يده أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وكفى بذلك فخراً.

وتفصيل ذلك: «إنَّ أسعد بن زُرارة خرج بمُصْعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخلَ به حائطاً من حوائط بني ظَفر... فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممن أسلم، وسعد بن معاذ،

(١) الشيخ الطوسي، كتاب الأمالي: ٤٥٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٧٦/٢.

وأُسيد بن حُضَير يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلمّا سمعا به، قال سعد بن معاذ لأُسيد بن حُضَير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا؛ ليُسفّها ضعفاءنا، فازجُرهما، وانْهَهُما عن أن يأتيا دارَيْنا، فإنَّه لولا أنَّ أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمتَ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً.

قال: فأخذَ أُسيدُ بن حُضَير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه، قال: فوقف عليهما مُتَشَتّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهانِ ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ.

ثمّ رَكَزَ حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، فتطهر وتُطَهّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثمّ تصلي. فقام، فاغتسل، وطهّر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثم قام، فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمتُ الرجلين، فوالله

ما رأيتُ بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثْتُ أنَّ بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنَّهم قد عرفوا أنَّه ابن خالتك؛ ليُخْفِروك[1].

قال: فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أنّ أُسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهم، فوقف عليهما متشتّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا منّي، أَتَغْشَانَا في دارَينا بما نكره - وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد مَنْ وراءَه مِنْ قومِه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أوَتقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفتَ.

ثم رَكَزَ الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهم: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتُطهّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثمّ تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل، وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أُسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومُه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم، قال: يا بني عبد الأشهل،

(١) الاخفار: نقض العهد، والغدر.

كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا، [وأوصلنا]، وأفضلُنا رأياً، وأيمننا نقيبة؛ قال: فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل، ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لمْ تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون...»[1].

وهكذا أدّى هذا الشاب مهمته خير أداء، فأدخل كلمة التوحيد إلى كلّ بيت في المدينة، وبعد حين رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليقدم له حصيلة عمله.

فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنَّا لجُلُوس مع رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بُردة له مرقوعة بفرو، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله بكى للذي كان فيه من النعمة، والذي هو فيه اليوم، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حُلَّة، وراح في حُلَّة، ووضعت بين يديه صحفة، ورُفِعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟ قالوا: يا رسول الله، نحن يومئذٍ خير منّا اليوم، نتفرغ للعبادة، ونكفى المؤونة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ»[2].

٢- واختار صلى الله عليه وآله عتّاب بن أسيد بعد فتح مكة أميراً عليها لما سار إلى حنين وكان عُمْرُ عتّاب آنذاك نيفاً وعشرين سنة، وأمره أن يصلّي بالناس، وهو أوّل أمير صلّى بمكة بعد الفتح جماعة... وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عتّاب، تدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله عز وجل، ولو أعلم لهم خيراً

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢/٧٧-٨٠.

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة: ٥/١٨٣.

منك استعملتُه عليهم»[١].

وقد واجه اختيار عتاب بن أسيد موجة احتجاجات من كبار رجالات العرب خصوصاً رؤساء القبائل، ولم يسمع صلى الله عليه وآله تلك الاحتجاجات، بل أمرهم بامتثال أوامره وطاعته، (وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يدافع دائماً عن عتّاب بن أسيد الذي ظلَّ والياً على مكة حتى آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قَدَّمَ فترة ولايته خدمات جليلة في جميع المجالات، إنَّ إصرار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على إبقاء عتّاب بن أسيد والياً على مكة رغم احتجاج كهولها ونبلائها، ورسالته الجوابية على هذا الاحتجاج يُبَيِّنان النهج الإسلامي في حماية الشبّان الأكفّاء)[٢].

٣- كما اختار صلى الله عليه وآله في أواخر حياته لقيادة حملة ضخمة لغزو الروم الشاب أسامة بن زيد، وقد ضمّ الجيش في هذه الحملة كبار الصحابة ووجوه القوم، يقول المؤرخون: «فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزاة فيهم أبو بكر وعمر، وسعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة وقتادة بن النعمان»[٣].

وقد واجه تعيينه أيضاً اعتراضاً شديداً من قبل الصحابة، وأثار استنكار بعض العناصر القياديّة، (فتكلّم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، وعليه قطيفة، فصعد المنبر، فَحَمَدَ الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، أيّها النّاس، فما مقالة بلغني عن بعضكم في تأمير أسامة، ولئن طعنتم في تأميري

(١) أسد الغابة: ٥٥٦/٣.

(٢) الشاب بين العقل والعاطفة: ٢١/١.

(٣) بحار الأنوار: ٤١٠/٢١.

أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم الله إن كان للإمارة خليقاً، وإنَّ ابنه بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليَّ، فاستوصوا به خيراً، فإنّه من خياركم)[1].

وهكذا يؤكد التأريخ الرسالي مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بالشباب اهتماماً كبيراً فيوصي بهم، ويسند إليهم المسؤوليات الكبيرة، وهذا دليل على أنَّ الشباب لهم الدور الأساسي في مسيرة الرسالة، (إنَّ إصرار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على حماية الشباب الأكفّاء، ودعم مواقعهم كان له الأثر البالغ في أذهان عامة المسلمين، وجعل الذين كانوا يخطئون في تقييمهم لجيل الشباب يلتفتون إلى جهلهم، ويراجعون حساباتهم)[2].

اهْتِمامُ الأُمَمِ وَالشُّعوبِ بِمَرْحَلَةِ الشَّبابِ:

كما أشرنا سابقاً أنَّ جميع الأمم المتحضرة تولي مرحلة الشباب أهمية بالغة؛ فتضع لها الخطط والبرامج التربوية والتعليمية والترفيهية، وتعمل بشكل متواصل لاستقطاب الشباب بواسطة المدارس، والجامعات، والنوادي، والمخيمات، وتصرف لها جهوداً عظيمة، ومبالغ طائلة، وقد جعلت بعض الدول وزارة خاصة بالشباب، وأوجدت لها منظمات، وأحزاب، ومؤسسات كبيرة، وفرقاً مختلفة... كلّ ذلك لأنَّ الشباب هم الثروة القومية التي لا يمكن لأمة أو شعب أن تنهض من دون تربيتها وإعدادها، (إنّ القوى البشرية لكلّ بلد من البلدان تعتبر جزءاً مهماً من الثروة القومية لذلك البلد، ويشكّل جيل الشباب

(١) بحار الأنوار: ٢١/٤١٠.

(٢) الشاب بين العقل والعاطفة: ١/ ٢٣.

أساس القوى البشرية لكلّ بلد)[1].

دَورُ قُوى الاسْتِكْبارِ في إِفْسادِ الشَّبابِ:

لقد قامت قوى الاستكبار العالمي بدور خطير وفعّال في إفساد الشباب المسلم وفق مخططات مدروسة دراسة دقيقة، ومبنية على أسس علمية ونفسية، وقد نجحت هذه القوى إلى حدّ كبير في تنفيذ مخططاتها، استقطبت عدداً هائلاً من الشباب المسلم من خلال البعثات الدراسية إليها، وقد تمّ هذا منذ أمد بعيد ناهز القرنين من الزمان، فقد كان طلاب البعثات الذين تلقّوا دراساتهم في الجامعات الغربية إذا رجعوا إلى بلدانهم رجعوا بعقلية غربية مائة في المائة، لما بذل عليهم من جهود كبيرة، وفق مناهج معدّة لهم سلفاً، ضمن مخططات مدروسة كي يمحوا من نفوسهم كلّ المعتقدات الدينية والأحاسيس الوطنية والقومية... وهؤلاء قد هُيِّئت لهم سبل الوصول إلى أعلى المناصب، (وكانت هذه المجموعة التي أمسكت بزمام السلطة من الذين برزوا من الطبقات العليا، ودرسوا في الخارج، وانعزلوا عن ثقافتهم الذاتية، فصاروا لا يعرفون شيئاً عن مشاعر أبناء شعبهم، وعاشوا في «برج عاجي» على حد قول لويس... وكان اقتباس هؤلاء من الثقافة والحضارة الغربيَّتين اقتباساً سطحياً جداً، حيث كانوا يقتبسون من الغرب الظواهر والأشكال والموضات والمصطلحات فقط، ولم يدركوا روح الحضارة الغربية، وسرّ نجاح الغربيين قط، ولما كان هؤلاء المتغرِّبون غرباء عن حضارتهم وثقافتهم الخاصة فقد تحوّلوا إلى دمى عديمة الإحساس، ومقطوعة الجذور، فلم يستفيدوا من ثقافتهم، ولا من ثقافة الغربيين،

(١) الشاب بين العقل والعاطفة: ١/ ٧.

وقلّما استطاعوا خلق الابتكارات والإبداعات، أو امتلكوا النضج والتحرك الفكري، فكان مثلهم مثل قطرات ماء انفصلت عن غيومها، وبدل أن تسقط في أحضان البحر، أو الأرض الخصبة سقطت في صحراء محرقة، فحكم عليها بالفناء)[١].

أما أهم السبل التي استقطبوا بها الشباب؛ فهي:

١- **فتح المدارس بمختلف مراحلها**؛ فإنَّنا إذا تتبعنا النظم التعليمية في المنطقة الإسلامية نجد أنَّ الواضعين لها كلّهم من الغربيين، وقد لعب المبشرون المسيحيون دوراً مهماً في ذلك، ومع الأسف الشديد فإنَّ علماءنا في وقت انتشار المدارس لم يقوموا بدور إيجابي إزاء هذه الظاهرة، وإنما وقفوا موقفاً سلبياً.

لقد قدّم (المبشرون الأوربيون نشاطاً واسعاً نحو إيجاد مؤسسات تعليمية، وكان هدفهم الرئيس نشر الاستعمار الثقافي الغربي، وإضعاف الإسلام، وتوفير مقدمات عدوان المستعمرين، وكانوا يلعبون دور طلائع الاستعمار بعملهم هذا، وكان الفرنسيون الكاثوليك أوّل فئة من المبشرين أنشأت مؤسسات تعليمية في مصر، ثم تبعهم في ذلك رجال الكنيسة الإنجليز، والألمان، والأمريكيون أيضاً، وكان للأقليات أيضاً دورها في نشر النظام التعليمي الغربي ففي عام (١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م) أنشأ كلّ من اليهود، والأرمن، واليونانيين الساكنين في مصر مؤسسات تعليمية عديدة)[٢].

وقد اتّسع هذا العمل إلى أن استقطب آلاف الطلاب في مدارس يهودية ومسيحية، ونذكر بعض الأرقام لذلك:

---

(١) الدكتور علي محمد النقوي، الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي: ٥٧-٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٦-١٧٧.

ففي مصر مثلاً بلغ عدد المدارس سنة ١٨٧٩م (مائة وست وأربعون مدرسة مرتبطة باليهود تمارس نشاطها، ويدرس فيها (١٢٥٣٩) طالباً ...

وفي تلك الأعوام أيضاً أنشأ الأمريكيون مدارس كثيرة في بيروت والقدس وأرجاء لبنان كافة، وفي (عام ١٢٧٧هـ /١٨٦٠م) كانت في الشامات ثلاث وثلاثون مؤسسة تعليمية للمبشرين يدرس فيها (٨٠٠) طالب و(٢٠٠) طالبة، وفي عام (١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م) تأسست جامعة بيروت، وكان اسمها في البداية مدرسة السوريين البروتستانت .

هاتان المؤسستان أي **جامعة سان جوزيف، وجامعة بيروت الأمريكية** خرَّجتا أوّل جيل من مشاهير المتغرّبين، أمثال بطرس البستاني، والعازوري، اللذين دخلا في البداية من نافذة الأدب العربي، ثم لعبا دورهما الرئيسي في إيجاد القومية العربية، ونشرها)[1].

وقد خرّجت الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة سان جوزيف أخطر الشخصيات المتغرّبة، والتي لعبت دوراً خطيراً في نشر الثقافة الغربية، وتأصيل الروح القومية، ومحاربة الإسلام بطرح البديل عنه من خلال طرح الفكر القومي، وهذا ما نظّر له ميشيل عفلق، وشبلي شميل، وما قام به أبو خلدون في وضع المناهج المدرسية في المنطقة الإسلامية.

كل هؤلاء وغيرهم لعبوا دوراً خطيراً في تأصيل الروح القومية، ومحاربة الإسلام، ومحاولة تأطيره بأطر عربية قومية؛ لتحريف حقيقته الإلهية التي تشمل البشرية كافة، وهي من باب دسّ السم بالعسل تجنّباً لحساسية الأمة الإسلامية.

---

(١) الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي: ١٧٧-١٧٩.

وفي إيران أسّس «أمير كبير» أول مؤسسة تعليمية مهمّة أسماها دار الفنون سنة ١٨٥٢م؛ لتخريج كوادر للجيش والدوائر الحكومية، وكانت في حقيقتها أوّل مدرسة تعليمية غربية جديدة.

(ولعبت دار الفنون دوراً مهمّاً في نشر القيم الغربية بين المجتمع، وترجمت فيها كثير من الكتب الدراسية الغربية، ومعظم الذين تخرَّجوا في الأعوام الأولى في هذه المدرسة والذين بلغ عددهم (١١٠٠) شخص أمسكوا في الأعوام التالية بزمام المناصب والرتب الحسّاسة العسكرية والإدارية، وأشاعوا في عهد ثورة الدستور وبعدها الاستعمار الثقافي في البلاد، وأوجدوا تيّاراً أدّى إلى تسلُّم رضا خان وولده السلطة، وارتباط البلاد بأمريكا وتبعيتها لها)[1].

وحديث المدارس ودورها في تشويه أذهان الشباب طويل تجده في كلّ موقع من البلاد الإسلامية نكتفي بهذا المقدار .

٢- **طرحوا مصطلحات برّاقة جذّابة** لها مواقع السحر في النفوس، وهي ألفاظ ظاهرها جميل، ولكنه يستبطن أخبث جذور الفساد، وأبشع صور الخداع، فلأجل ترويج أيّة فكرة تطرح شعارات برّاقة كالحرّية، والثقافة، والتطور، والتقدم والتحديث لخداع الشباب؛ فهم في هذه الشعارات يدسون السم بالعسل جاء في (البروتوكول) التاسع من (بروتوكولات) حكماء الصهيون ما يأتي:

«إنَّ الكلمات التحريرية لشعارنا الماسوني هي (الحرية والمساواة والإخاء) وسوف لا نبدل كلمات شعارنا، بل نصوغها معبرة ببساطة عن فكرة، وسوف نقول: «حق الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء»، وبها سنمسك الثور من

(١) الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي: ١٨٦.

قرنيه، وحينئذٍ نكون قد دمّرنا في حقيقة الأمر كلّ القوى الحاكمة إلا قوّتنا»[١].

وجاء في البروتوكول العاشر:

«أرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أنَّ الحكومات والأمم تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شيء، نعم، فكيف يتاح لهم الوقت؛ لكي يختبروا بواطن الأمور في حين أنَّ نوابهم الممثلين لهم لا يفكرون إلا في الملذّات؟

من الخطير جداً في سياستنا أن تتذكروا التفصيل المذكور آنفاً، فإنَّه سيكون عوناً كبيراً لنا حينما تناقش مثل هذه المسائل: توزيع السلطة، وحرية الكلام، وحرية الصحافة والعقيدة، وحقوق تكوين الهيئات، والمساواة في نظر القانون، وحرمة الممتلكات والمساكن...»[٢].

وهكذا تطرح المبادئ الفاسدة، والمصطلحات البرّاقة، بثوب مبهرج، وأسلوب جذاب لأنظار الشباب، فيخدعون بها، ويسقطون في شباكها...

٣- **نشر التحلّل الخلقي**: وهو من أوّليات وسائل الاستعمار للسيطرة على الشعوب؛ لإشاعة الفساد، وتهيئة أسبابه، وترويجه في الوسط الاجتماعي، جاء في (البروتوكول) الرابع لحكماء صهيون:

«إنَّ الصراعَ من أجل التفوق، والمضاربة في عالم الأعمال ستخلقان مجتمعاً أنانياً غليظ القلب، منحل الأخلاق . هذا المجتمع سيصير منحلاً كلّ الانحلال، ومبغضاً أيضاً من الدين والسياسة، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب متّخذاً اللذات المادية التي

(١) محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي: ١٣٠-١٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٤.

يستطيع أن يمدّه بها الذهب مذهباً أصيلاً، وحينئذٍ ستنضم إلينا الطبقات الوضيعة ضدّ منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين دون احتجاج بدافع نبيل، ولا رغبة في الثورات أيضاً، بل تنفيساً عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا»[١].

إذن هدف الاستكبار العالمي الذي ترسمه وتحرّكه الصهيونية العالمية والماسونية السرية، وتخطّط له، مبنيٌّ على التحلّل الخلقي؛ لأنَّ أيّ أمّة إذا بقيت ملتزمة بالأخلاق الحسنة تبقى متماسكة، ولا يمكن للعدو أن يسيطر عليها.

ولهذا التَفَتتْ أمُّ الفساد الكبرى الصهيونية العالمية إلى هذه الحقيقة، فأصدرت توجيهاتها قائلة:

«عليكم أن تواجهوا التفاتاً خاصّاً في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التي أنتم بها محاطون، وفيها تعملون، وعليكم ألا تتوقعوا النجاح خلالها في استعمال مبادئنا بكل مشتملاتها حتى يعاد تعليم الأمة بآرائنا، ولكنّكم إذا تصرفتم بسداد في استعمال مبادئنا فستكشفون أنَّه -قبل مضي عشر سنوات- سيتغير أشدّ الأخلاق تماسكاً، وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل»[٢].

ولتحقيق هذا الهدف سُخّرت طاقات ضخمة مادية وبشرية، واستُعملت كلّ الوسائل لأجل ذلك؛ فالجرائد، والمجلات، والكتب، والمسارح، والسينما، والإذاعات المسموعة والمرئية بما تقدم من أفلام، ومسلسلات، ومسرحيات كلّها استعملت؛ لأجل نشر التحلل الخلقي.

٤- **فتح المنظمات والأحزاب العلمانية** بمختلف اتجاهاتها، والعمل

---

(١) الخطر اليهودي: ١٢٠-١٢١.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٠.

على اجتذاب الشباب إليها، وتهيئة كل وسائل الفساد الفكرية، والأخلاقية للسيطرة عليه من خلال عملائها، ولا نعرف خطراً تعرضت له الأمة الإسلامية أفظع من المنظمات والأحزاب العلمانية بمختلف مذاهبها الفكرية والاجتماعية.

٥- **عملوا بجدّ على خلق فجوة واسعة بين الشباب**، وبين علماء الدين الواعين جاء في تقرير المؤتمر الذي عقدته الاستخبارات الأمريكية (CIA) عام ١٩٨٣م: «فإنَّ مراجع الشيعة وعلماءهم هم القوة الحقيقية المحرّكة في هذه الطائفة؛ وذلك لقوّة معتقداتهم، والقاعدة العريضة التي تؤمن بمبادئهم، ومن ثم حجم وكبر تضحيات هؤلاء المراجع في سبيل الدفاع عن معتقداتهم؛ إذ لم يخضعوا - على طول التاريخ - لأيّة سلطة لا تمارس حكم الإسلام كمبدأ، وفي عصرنا الحديث فإنّ سبب منع بريطانيا من دخول إيران هو موقف المرجع الشيعي آية الله محمد تقي الشيرازي، وفي العراق فإنّ مركز تدريس المبدأ الإسلامي هو مدينة النجف، ولقد فشل صدام التكريتي في السيطرة عليها وإخضاعها لإرادته؛ ولذلك اضطرّ إلى ممارسة القوة ضد مراجعها، وإغلاق مدارسها الدينية، وأما في قم حالياً فهي قوة عظمى، وكذلك في لبنان فقوة السيد موسى الصدر هي التي أجبرت القواعد الأمريكية والبريطانية والفرنسية على النزوح من لبنان، وعندما اجتاحت إسرائيل لبنان فإنَّ المقاومة الرئيسية كانت حزب الله في لبنان، وعليه وجدنا أنَّ المواجهة المباشرة للشيعة فاشلة؛ لأنَّها تُقوّي شوكتهم، وتُضاعف من مواجهتهم... وعليه أيضاً يجب اتّباع السياسة البريطانية «فرّق تسد»، وإشاعة التفرقة بين الشيعة أنفسهم، وكذلك بينهم وبين السنة.

أما الخطط المتّبعة من أجل هذا الغرض؛ فهي تتلخّص في تعيين ومساعدة

الأشخاص الذين يكرهون الشيعة، ويتحاملون عليهم، ودعمهم بشتى الوسائل والإمكانات، بعدها تقوم حملة واسعة؛ لتشويه سمعة الشيعة نوجّهها بالقيام لحرب ضدّ الشيعة، ومنها جماعة طالبان في أفغانستان، وجيش الصحابة في باكستان... وكذلك اتّباع أساليب الدعاية الفاعلة ضد قادة الشيعة من المراجع لنؤجج أتباعهم ضدّهم»[1].

ومن خلال ما روّجوه من أباطيل وأفكار مجافية للإسلام، قد ألبسوها ثوب التقدّم والحرية، بما طرحوه من نظريات أطّروها بإطار العلم، ونشروها على مختلف الأصعدة سيما في المدارس بحيث دخلت كتب العلوم الطبيعية التي تُدَرَّس في المدارس في المراحل الابتدائية والمتوسطة، أوجدوا فجوة واسعة بين علماء الإسلام، وبين الشباب، جاء في البرتوكول الثالث عشر من الخطر اليهودي ما يأتي:

«ولهذا السبب سنحاول أن نوجّه العقل العام نحو كلّ نوع من النظريات المبهرجة Fantastic التي يمكن أن تبدو تقدمية، أو تحررية، لقد نجحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا على التقدّم في تحويل رؤوس الأمميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية، ولا يوجد عقل واحد بين الأمميين يستطيع أن يلاحظ أنَّه في كلّ حالة وراء كلمة «التقدّم» يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية. إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد، ولا مجال فيه من أجل «التقدم»، إنَّ التقدم -كفكرة زائفة - يعمل على تغطية الحق، حتى لا يعرف الحق أحد غيرنا، نحن شعب الله المختار الذي

(١) مقتبس من أحد مواقع الانترنيت، عن جريدة لواء الصدر.

اصطفاه؛ ليكون قوّاماً على الحق»[١].

«لا تتصوروا أنَّ تصريحاتنا كلمات جوفاء، ولاحظوا هنا أنَّ نجاح دارون Darwin، وماركس Marx، ونيتشه Nietsche قد رتّبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد»[٢].

ومما يؤسف له أنَّ وضع بعض المنسوبين إلى العلم والعلماء يساعد على ذلك من خلال عزلتهم وانزوائهم، وعدم تبصّرهم بالأوضاع الاجتماعية والسياسية ومتطلبات الزمان واعتزالهم العمل السياسي، والاجتماعي... وإذا ما برز عالم عامل يعي الأوضاع السياسية والاجتماعية فإنَّ أعداء الإسلام يعملون لإسقاطه فيحركون هؤلاء الجامدين بصورة وبأخرى، ويصورونه أنَّه منحرف عن الإسلام؛ ليوقفوا حركته ويعزلونه عن ساحته الاجتماعية، فإذا عجزوا عن ذلك خطفوه، أو قتلوه...

مَسْؤولِيَّاتُ المُؤسّساتِ الدّينِيّةِ:

لعلّ أعظم مسؤولية هي مسؤوليات علماء الدين، فيجب على تلك المؤسسات أن تقوم بدورٍ فعال في توجيه طاقات الشباب إلى ما فيه الصلاح والخير للأمة الإسلامية من خلال الخطوات الآتية:

١- دراسة مشاكل الشباب دراسة علميّة مبنيّة على أسس تغييرية إصلاحية، مع طرح الحلول المناسبة لها.

---

(١) محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي: ١٥١-١٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ١١٣.

٢- توفير المناخ الجذّاب في الأجواء الإسلامية كي تستقطب طاقاتهم مع وضع برامج تربوية، وفكرية، وأخلاقية .

٣- توعيتهم على ما يحاك لهم من مؤامرات تستهدف إغراءهم وإفسادهم.

٤- تهيئة الأجواء الإيمانية من خلال برامج علمية ذات طابع ترفيهي كالسفرات، وإقامة المخيمات الكشفية، والمسابقات الفكرية والرياضية، ومن خلال ذلك توجّه طاقات الشباب إلى ما فيه الخير والصلاح.

مَسْؤولِيَّةُ الشَّبابِ:

قلنا إنَّ لمرحلة الشباب دوراً مهماً، وخطيراً في حياة الإنسان؛ ولذا ينبغي أن لا يدع هذه الفرصة تمرّ مرور السحاب، بل عليه أن يستغل مرحلة شبابه لما يُقَوِّم فكره وسلوكه وأخلاقه، وعليه أن يستخدم قواه التي منحه الله إيّاها في أداء واجباته التي فرضها الله عليه، وامتثال أوامره، وعليه أن يسمع نصائح من هو أكبر منه، ويطلب منهم الهداية والنصيحة والإرشاد، فإنَّ من شاور الرجال شاركها في عقولها، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رَحِمَ اَللَّهُ اِمْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا...»[1].

مَخاطِر تُداهِمُ الشَّباب:

لما كانت مرحلة الشباب مدّة حساسة، ودقيقة، وسريعة المرور، فهناك مخاطر جمّة يمكن أن تداهم الشباب إذا لم يأخذوا حذرهم؛ نذكر منها:

---

(١) نهج البلاغة: ١٢٣، خطبة: ٧٦.

١- **الفـراغ:** مـن مميّـزات الشـباب الحيويـة، والطاقـة، والحركـة المفرطـة أحياناً، وإذا لم يجد ما يصرف به تلك الطاقة بطرق شرعية فإنّـه ينجـرّ إلـى طـرق ملتوية قد تهوي به إلى مستنقع الرذيلة؛ ولذلك من أهم ما يشـغل بـال المفكـرين المصلحين هو كيف يملـؤون فـراغ الشـباب؛ لأنَّهـم يعلمـون أنَّ الوقـت الفـائض الذي يجعل الشاب عاطلاً يجرّه إلى التمرّد والشغب، وفـي بعـض الـدول الغربيـة تشـكّلت مـن هـؤلاء الشـباب عصـابات خطيـرة للسـلب والاعتـداء، والسـرقة، والاغتصاب مما جعل أجهزة البوليس تضجّ منهم، إنَّ أوقـات الفـراغ تـؤدي إلـى الميوعة، والابتذال، والإسفاف فـي الأخـلاق إلـى أقصـى الحـدود، حتـى أقـاموا جزيرة العراة... هكذا يكون الفراغ مفسداً، أو مدمّراً للشاب .

٢- **أصدقاء السوء:** ليس هناك من خطر يداهم الشـاب كأصـدقاء السـوء؛ فإنَّ الإنسان ابن محيطه يتأثر بمن يعاشر سلباً أو إيجاباً.

إنَّ (الذي يقيم علاقة مع رفيـق السـوء لـيس فقـط يحـرم نفسـه مـن بلـوغ الكمال، بل إنَّه يفرط بكمالاته الفطرية، وفضائله الطبيعية، وبالتالي سيعرّض نفسه لآلام دنيوية، وعقاب أخروي، وحينما يبتئس، ويشقى، ويفقد دينه ودنياه، يعـضّ على أصابع الندم، ويتمنّى لو أنّه لم يتّخذ فلانـاً خليلاً)[1]، ويبقـى يـردد: ﴿ **يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا** ﴾[2].

ولهـذا حـذَّر أهـل بيـت العصـمة والطهـارة عليهم السلام مـن مرافقـة أهـل السـوء والعلاقة معهم، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«اِحْذَرْ مُصَـاحَبَةَ كُـلِّ مَـنْ يُقْبَـلْ رَأْيُـهُ وَيُنْكَـرُ عَمَلُـهُ؛ فَـإِنَّ الصَّـاحِبَ مُعْتَبَـرٌ

(١) الشاب بين العقل والعاطفة: ٢٨٣/٢ .

(٢) الفرقان: ٢٨ .

بِصَاحِبِهِ».

«اِحْذَرْ مُجَالَسَةَ قَرِين السّوْءِ؛ فَإِنَّهُ يُهْلِكُ مُقَارِنَهُ (قرينه)، وَيُرْدِي مُصَاحِبَهُ (صاحبه)».

«صَاحِبُ السّوْءِ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ».

«جَلِيسُ الشَّرِّ نقْمَةٌ».

«صُحْبَةُ الأَشْرَارِ تُكْسِبُ الشَّرَّ كَالرِّيحِ إذا مَرَّتْ بِالنَّتِن حَمَلَتْ نَتِناً»[١].

«لا تَصْحَب الشّرِّيرَ؛ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِهِ شَرّاً وَأَنْتَ لا تَعْلَمْ»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «من يصحب صاحب السّوء لا يسلم»[٣].

٣- **وسائل الإعلام الاستكبارية** سواء كانت مكتوبة، أو مسموعة، أو مرئية؛ فإنَّ لها تأثيراً كبيراً في حياة الشباب؛ ولذا أنفقت اليوم ثروات ضخمة لأجل ذلك، وبدأت هذه الوسائل تقتحم علينا بيوتنا كما هو اليوم في محطّات التلفزة العالمية الموجّهة بالأقمار الصناعية، وما تبثّه من أفلام خليعة وأفكار منحرفة لها الأثر الفعال في حياة الشباب؛ لذلك يجب أن نفكّر كيف نحمي أبناءنا منها بإيجاد البديل لها، وأن نقف موقفاً إيجابياً أي لا نمنع منها، بل نجد البديل الذي يجذب الشباب إليه.

الشّبابُ في الطَّفِ:

لقد كان للشباب في معركة الطف الفاصلة دور فعال؛ فقد وقفوا مواقف بقيت آثارها إلى اليوم محرّكة للتاريخ، ومقوّمة لمسيرته، ونحن نذكر بعض

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٣١-٤٣٣، ح/٩٨٨٢-٩٨١٦-٩٨١٩-٩٨٢٤-٩٨٢٦ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٧٢/٢٠، حكمة: ١٤٧.

(٣) كتاب الخصال: ١٦٩/١، وينظر في هذا الباب: الأصول من الكافي لثقة الإسلام الكليني: ٦٣٨/٢-٦٣٩ .

مواقف الشباب الذين أبوا إلا أن يقدموا أنفسهم فداءً للإسلام بين يدي الحسين عليه السلام، ومن هؤلاء:

١ - **عمرو بن جنادة الأنصاري**: وهو شاب جاء مع أمّه وأبيه، وبعد أن استشهد أبوه، وهو ابن إحدى عشرة سنة جاء يستأذن الحسين عليه السلام للمبارزة، فأبى عليه الحسين عليه السلام، وأرجعه، وقال: «هذا شابٌّ قُتِل أبوه، ولعلّ أمَّه تكره خروجه»، فقال الشاب: «أمّي أمرتني يا ابن رسول الله!»، فخرج وهو يقول :

أميري حسين ونعم الأمير سرور فؤاد البشير النذير
عليٌّ وفاطمة والداه فهل تعلمون له من نظير

ثمَّ قاتلَ فَقُتل، وحُزَّ رأسه، ورمي به إلى عسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أمه رأسه، وقالت له: «أحسنت يا بني! يا قرّة عيني وسرور قلبي!»... وأخذت عمود خيمة، وحملت على القوم، وهي تقول:

أنا عجوزٌ في النسا ضعيفة باليةٌ خاويةٌ نحيفة
أضربكم بضربة عنيفة دون بني فاطمة الشريفة

والحقيقة لا يدري الإنسان بمن يعجب بالأم، أم بولدها، أم بزوجها... يقول المؤرخون: حملت على الأعداء، فقتلت رجلين، فأمر الحسين عليه السلام بصرفها، ودعا لها[1].

٢ - **عبد الله بن عمير الكلبي**: وهو (شابٌّ مقاتل شديد المراس من الكوفة من أعظم الثوّار حماساً)[2].

وكان بطلاً شجاعاً، ذاب في ولاء أهل البيت عليهم السلام، وخاض غمار الحرب

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢/٢٥-٢٦، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٦٤.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، أنصار الحسين عليه السلام: ٩٩.

حتى قتل تسعة عشر فارساً، واثني عشر راجلاً، يقول المؤرخون إنَّه قال للحسين عليه السلام: «ائذن لي أخرج»، فرآهُ رجلاً آدم طويلاً، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، فقال: «إنّي أراه للأقران قاتلاً، اخرج إن شئت»، فخرج إليهما - يسار مولى زياد بن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد - فقالا له: «من أنت؟»، فانتسب لهما، فقالا له: «لا نعرفك؛ ليخرج إلينا - زهير بن القين، أو حبيب بن مظاهر -»، ويسار أمام سالم، فقال له: «يا ابن الزانية، أو لك رغبة عن مبارزة أحد، وليس أحد من الناس إلا وهو خير منك؟» ثم حمل عليه، فضربه حتى سكت، وأنَّه لمشتغل به يضربه بسيفه، إذ شدَّ عليه سالم، فصاح به أصحابه: «العبد قد دهاك»، فلم يلتفت إليه حتى جاء سالم وبَدَرَه بضربة، فاتّقاها الكلبي بيده، فأطار أصابع كفّه، ثم أمال عليه الكلبي، فقتله، ثم قُتِلَ بعد ذلك[1].

ولما استشهد انطلقت زوجته أم وهب تبحث عنه بين جثث القتلى، فلما عثرت عليه جلست إلى جانبه، وهي تبارك له شهادته بإيمان وإخلاص قائلة: «هنيئاً لك الجنة، أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك»[2]، ولما أبصر بها الرجس الخبيث شمر أوعز إلى غلامه رستم بقتلها، فباغتها بعمود على رأسها، فمضت إلى ربِّها شهيدة.

هذان أنموذجان من النماذج التي فدت نفسها لرسالة الله تعالى، ومضت على هدي أهل البيت عليهم السلام، وكثير غيرهما.

هذا من أصحاب الحسين عليه السلام، وأما من أهل بيته؛ فكثيرون نذكر منهم القاسم بن السبط المجتبى عليه السلام، فقد برز للميدان، (وهو غلام لم يبلغ الحلم، فلما

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ١١/٢.

(٢) القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٤/٣.

نظر إليه الحسين عليه السلام اعتنقه وبكى، ثم أذن له، فبرز كأنَّ وجهه شقة قمر، وبيده السيف، وعليه قميص وإزار، وفي رجليه نعلان، فمشى يضرب بسيفه، فانقطع شسع نعله اليسرى، وأنف ابن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أن يحتفي في الميدان، فوقف يشدّ شسع نعله، وهو لا يزن الحرب إلا بمثله...

وبينا هو على هذا إذ شدَّ عليه عمر بن سعد بن نفيل الأزدي... فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: يا عماه، فأتاه الحسين عليه السلام كالليث الغضبان، فضرب عمراً بالسيف، فاتّقاه بالساعد، فأطنَّها من المرفق، فصاح صيحة عظمة سمعها العسكر، فحملت خيل ابن سعد؛ لتستنقذه، فاستقبلته بصدرها، ووطأته بحوافرها، فمات.

وانجلت الغبرة، وإذا الحسين عليه السلام قائم على رأس الغلام وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: بعداً لقوم قتلوك، خصمهم يوم القيامة جدك .

ثم قال: عزَّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثمّ لا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقلَّ ناصره، ثم احتمله، وكان صدره على صدر الحسين عليه السلام، ورجلاه يخطّان في الأرض، فألقاه مع علي الأكبر... ورفع طرفه إلى السماء قائلاً: اللهم أحصِهم عدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً، صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً)[1].

(١) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٧٧-٢٧٨ .

مِثالُ الفُتُوَّةِ

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[1].

تتحدّث هذه الآيات عن قصة شباب مؤمنين تنوّرت قلوبهم بنور التوحيد الخالص، فنهضوا رافضين العيش في أجواء الكفر والفسق والفجور مع توفّر العيش الرغيد لهم، والسعة في الجاه والسلطان؛ لأنَّ ذلك يتنافى مع عبودية الله من خلال الخضوع لعبوديّة البشر.

مَعْنى الفُتُوَّة:

لغةً: «الفتى: الشباب، والفتاة: الشابة، والجمع «الفتيان» و«فتية» في الكثرة والقلّة، والأصل أن يقال «الفتى» للشاب الحدث، ثمّ استعير للعبد، وإن كان شيخاً»[2].

---

(١) الكهف: ١٣-١٦.

(٢) الطريحي، مجمع البحرين: ٣٢٥/١.

فالفتوّة إذن هي مدّة الشباب للرجل والمرأة؛ فيقولون: «فتى وفتاة»، وقد استعير هذا اللفظ للرّجل ذات الخصال الحميدة، والسمات الكريمة: كالحلم، والكرم، والشجاعة والإباء، والعفّة، والنجابة... قال القتيبي: «ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال، يدلُّك على ذلك قول الشاعر: [من الكامل]

إنّ الفتى حمّال كلّ ملمّة ... ليس الفتى بمنعّم الشُّبّان»[١]

وفي مجمع البيان: «رأس الفتوة الإيمان، وقيل: الفتوّة بذل الندى، وترك الأذى، وترك الشكوى... وقيل: هي اجتناب المحارم واستعمال المكارم»[٢].

وعن محمد بن خالد البرقي عن أبي قتادة القمي رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: «تذاكرنا أمر الفتوّة عنده، فقال: أتظنّون أنَّ الفتوة بالفسق والفجور؟! إنما المروءة والفتوّة طعام موضوع، ونائل مبذول، وبرٌّ معروف، وأذًى مكفوف، وأمّا تلك فشطارة وفسق»[٣].

وعن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «إنَّ أعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إليه في رداء ممشّق[٤]، فقال: يا محمّد، لقد خرجت إليَّ كأنَّك فتًى، فقال: نعم يا أعرابي، أنا الفتى، ابن الفتى، أخو الفتى، فقال: يا محمّد، أما الفتى فنعم، وكيف ابن الفتى، وأخو الفتى؟ فقال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[٥]، فأنا ابن إبراهيم، وأما أخو الفتى؛

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١٤٦/١٥ .

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٧٠٠/٦.

(٣) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار: ١١٩.

(٤) ثوب ممشّق: مصبوغ بالمشق، وهو طين أحمر يستعمل للصبغ .

(٥) الأنبياء: ٦٠ .

فإنَّ منادياً نادى في السماء يوم أحد: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي»؛ فعليٌّ أخي وأنا أخوه»[١].

إذن الفتوّة لا تعني مرحلة زمنية في عمر الإنسان، إنّما هي كمال يكسبه الإنسان في الفكر والأخلاق والسلوك... وقوام ذلك كما تعرضه الآيات الكريمة المتقدمة في فتية الكهف، وتتلخّص بالنقاط الآتية:

١- **الإيمان بالله تعالى**: فهو الذي يمنح الإنسان القوّة والاستقامة أمام مغريات الحياة الدنيا ومشاكلها وصعوباتها، بل يخلق ثورة في النفس تجعل الإنسان يتمرّد على الواقع الفاسد، ولو كان وحيداً فريداً في الدنيا كلّها؛ فلا يستوحش، ولا يتراجع، ولو وقفت الدنيا كلّها في وجهه، والإيمان الذي نقصده: هو الطاعة لأمر الله تعالى بكلّ أبعاده، والتسليم الكامل لقضائه، وقدره، ولا نقصد به (هذه العقيدة الإلهية التي يؤمن بها المسلمون فحسب، يسوقون له من الأدلّة ما لا يبقى مجالاً للتشكيك.. وإنما نعني به هذا الاطمئنان النفسي، والشعور النفسي العميق بالله الذي يصدر عنه المؤمنون في جميع أعمالهم وحركاتهم)[٢]، وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«بينا رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض أسفاره إذ لقيه ركب، فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرّضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: علماء حكماء، كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين، فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه

(١) معاني الأخبار: ١١٩.

(٢) ثقافة الدعوة الإسلامية: ١٢١/٤.

ترجعون»[١].

٢- **التبصر في دين الله**: حيث إنَّ الفتى المؤمن هو الذي يسعى دائماً لنيل الكمالات الروحية والأخلاقية والفكرية... ولا يتسنّى ذلك إلا لمن سعي بجد لفهم ووعي دين الله تعالى وبياناته ودلالاته وأحكامه، يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٢].

فالبصير في دينه هو الذي وعى الإسلام (على الوجه الصحيح)، والتزم به شكلاً ومضموناً، وطبَّقه على نفسه، وعالج مشاكل الحياة على ضوئه.

وخلاصة الكلام: إنَّ أهل البصائر هم الواعون للإسلام الملتزمون به، والداعون إليه بجدّ وإخلاص من دون طلب منفعة دنيوية، وبعبارة أوضح: أهل البصائر هم (النخبة الواعية للإسلام) التي تَبَصَّرت في الدين، وأبصرت الواقع، وعملت على تغييره وفق مبادئ الحق والعدل.

٣- **العزم والاستقامة** على مواصلة السير إلى الله رغم وعورة الطريق، ومقاومة الضغوط الداخلية والخارجية، والصبر على مقاومة الباطل أين ما كان، وعند من كان، ولعلّ هذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي أصبحت قلوبهم ثابتة مستقرة ومطمئنة في مسيرتها لا يشوبها شك ولا ريب في صحّة مسيرتها؛ ولذلك لا تحيد عنها قيد أنملة، يقول صاحب مجمع البيان في تفسير الآية: «وطَّنوا أنفسهم على إظهار الحق، والثبات على الدين، والصبر على المشاقّ، ومفارقة الوطن»[٣].

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٥٣/٢.

(٢) الأنعام: ١٠٤.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ٧٠٠/٦.

ومثال الفتوّة الخالصة: ما أقدم عليه شابٌّ من أصحاب الإمام علي عليه السلام في معركة الجمل حيث وقف أمير المؤمنين عليه السلام داعياً لهم للتراجع عن غيِّهم، والتحاكم إلى كتاب الله تعالى، فلم يجيبوه إلا بالسهام، وطلبِ القتال، فما كان من أمير المؤمنين عليه السلام إلا أن (رفع مصحفاً بيده، فقال: من يأخذ هذا المصحف، فيدعوهم إلى ما فيه، وله الجنة؟ فقام غلام شابٌّ اسمه مسلم، عليه قباء أبيض، فقال: أنا آخذُه، فنظر إليه عليٌّ عليه السلام، وقال: يا فتى، إن أخذته فإنَّ يدك اليمنى تُقْطَع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل، فقال: لا صبر لي على ذلك، فنادى عليٌّ عليه السلام ثانية، فقام الغلام، وأعاد عليه القول، وأعاد الغلام القول مراراً، حتى قال الغلام: أنا آخذه، وهذا الذي ذكرت في الله قليل، فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: هذا كتابُ الله بيننا وبينكم، فضربه رجلٌ، فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى، فضربه أخرى، فقطع اليسرى، فاحتضنه، فضربوه بأسيافهم حتى قتل، فقالت أم ذريح العبديّة في ذلك:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهمُ ... بمصحف أرسله مولاهمُ

للعدل والإيمان قد دعاهمُ ... يتلوا كتابَ الله لا يخشاهمُ

فخضّبوا من دمه ظباهمُ ... وأمّهم واقفة تراهمُ

تأمرهم بالغيِّ لا تنهاهمُ)[1].

٤- **القيام والتحرّك لتوحيد الله**، وتعبيد الناس إليه، وهذا من أهمّ خصائص الفتوّة، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا**﴾.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١٢/٩، وتاريخ الطبري: ٥١١/٤-٥١٢، باختلاف طفيف.

فقد ذهب بعض المفسرين أنّهم قاموا بوجه ملكهم الذي كان يدعوهم لعبادة الطاغوت، فأعلنوا التوحيد بوجهه مُتَحَدِّينَ طغيانه... فالفتى المُوَحِّد ثورة ضدّ الظلم يرفض الانصياع إلى دعاة الكفر مهما أفاضوا عليه من الإغراءات الدنيوية، ومن هذا المنطلق كانت نهضة هؤلاء الفتية واستنكارهم لعبادة غير الله تعالى، وهذا هو منتهى التوحيد الخالص والانقطاع إلى الله تعالى.

٥- **تشخيص الحالة السيّئة** التي يعيشها المجتمع، والعمل على تغييرها، فإذا لم يستطع التغيير، وعجز عن النهوض اعتزل ذلك الواقع، وهكذا ألهم الله تعالى عباده الصالحين، فقالوا مشخصين الواقع السيّئ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ ﴾، وإذ لم يكن لهذه العبادة دليل عقلي صحيح فهو ظلم وافتراء ﴿ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾، فإذا كانت هذه العبادة ظلماً وافتراءً وكذباً، وجب التغيير، ولما لم تكن عناصر التغيير متوفّرة وجب عليهم الاعتزال ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾.

وليس المقصود بالاعتزال: الانهزام والتراجع، بل المقصود هو الخروج من الأجواء المتعفّنة التي لا يستطيع الإنسان فيها أن يؤدي دوره في عبادة ربِّه؛ لإيجاد البديل المناسب لذلك، وتهيئة الأرضية المناسبة لتغيير الواقع...

وفي ثورة الحسين عليه السلام برزت الفتوّة بأنصع وأروع أشكالها، فكانت مثال الفتوّة الكاملة الجامعة لكلّ الكمالات البشرية، وهذا ما برز في شخصية عليّ الأكبر نجل الحسين عليه السلام الذي كان يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله خَلقاً، وخُلقاً، ومنطقاً؛ ولهذا كانت كلمة الحسين عليه السلام في وصف ولده جامعة مانعة حيث قال حين برز

علي الأكبر عليه السلام: « اللهُمَّ، اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمد صلى الله عليه وآله، كنّا إذا اشتقنا إلى وجه رسولك نظرنا إلى وجهه»[١].

ومما يشهد على صلابة وثبات إيمان علي الأكبر عليه السلام، وعظمته وجلاله حديث عقبة بن سمعان، قال: «فسرنا معه [الحسين عليه السلام] ساعة [من خروجه من قصر بني مقاتل]، فخفق عليه السلام، وهو على ظهر فرسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول: «إنّا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين» ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه عليٌّ بن الحسين، فقال: ممَّ حمدتَ الله واسترجعتَ؟ قال: يا بنيّ، إنّي خفقت خفقة فعنَّ لي فارسٌ على فرس، وهو يقول: القوم يسيرون، والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنّها أنفسنا نُعِيَتْ إلينا، فقال له: يا أبتِ، لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحقّ؟!، قال عليه السلام: بلى والله الذي مرجع العباد إليه، فقال: فإنّنا إذاً ما نبالي أن نموت محقّين، فقال له الحسين عليه السلام: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده»[٢].

هذا هو منطق الفتوّة في الإسلام: «ألسنا على الحقّ؟»، فما دام الإنسان على الحقّ فلا ضير في ما يلاقيه من مصاعب ومشاكل حتى لو وصلت إلى بذل الدم في سبيل الله تعالى.

ولهذا كان خروج علي الأكبر على الحسين عليه السلام ثقيلاً مؤلماً يقول المؤرخون أنَّه عليه السلام رفع شيبته نحو السماء وقال: «اللهُمَّ، اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمد صلى الله عليه وآله، كنّا إذا

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٤/٢.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٧٩/٤٤-٣٨٠.

اشتقنا إلى وجه رسولك نظرنا إلى وجهه، اللهمّ، فامنعهم بركات الأرض، وإن منعتهم ففرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا يقاتلونا ويقتلونا».

ثم صاح الحسين عليه السلام بعمر بن سعد: «ما لك! قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك في أمرك، وسلّط عليك من يذبحك على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم رفع صوته وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ثم حمل علي بن الحسين (الأكبر) وهو يقول :

أنا عليٌّ بن الحسين بن علي ... نحن وبيت الله أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدَّعي ... أطعنكم بالرمح حتى ينثني

أضربكم بالسيف حتى يلتوي ... ضرب غلام هاشمي علوي

فلم يزل يقاتل حتى ضجَّ أهل الكوفة لكثرة من قتل منهم... ثم رجع إلى أبيه، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: «يا أبة، العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة من ماء سبيل أتقوّى بها على الأعداء؟» فبكى الحسين عليه السلام، وقال: «يا بني، عزَّ على محمّد، وعلى علي، وعلى أبيك أن تدعوهم فلا يجيبونك، وتستغيث بهم فلا يغيثونك، يا بني هات لسانك»، فأخذ لسانه، فمصه، ودفع إليه خاتمه، وقال: «خذ هذا الخاتم في فيك، وارجع إلى قتال عدوك، فإنّي أرجو أن لا تمسي حتى يسقيكَ جدُّك بكأسه الأوفى شربةً لا تظمأ

(١) آل عمران: ٣٣-٣٤.

بعدها أبداً»، فرجع عليٌّ بن الحسين إلى القتال وحمل وهو يقول:

الحـرب قـد بانـت لهـا حقـائق وظهـرت مـن بعـدها مصـادق

والله ربّ العـــرش لا نفـــارق جمـــوعكم أو تغمـــد البـــوارق

ولما احتوشه الناس وقطعوه بأسيافهم إرباً إرباً، نادى بأعلى صوته: «يا أبتاه! هذا جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً...»، فصاح الحسين عليه السلام: «قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله؟! على الدنيا بعدك العفا»[1].

أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وبقي أبوك لهمِّها، وما أروع ما قاله الإمام كاشف الغطاء رحمه الله في وصف هذا المشهد المروع[2]: [من الطويل]

بني على الدنيا العفا مذ تركتها ورحت إلى دار المنى والمنايح

فأمسيتَ ما بين النبي وفاطم وأمسيتُ ما بين العدى والكواشح

كدحت إلى الرضوان لكن تركتني ورائك في بؤس من العيش كادح

فلست لرزء بعد ذاك بواجد ولا بنعيم عن لقاك بفادح

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢/٣٤-٣٦.

(٢) الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، شهادة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٣٩ .

دَوْرُ الْمَرْأَةِ

فِي ثَوْرَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام

ضمّت واقعة الطف من جميع الشرائح الاجتماعية؛ رجالاً ونساءً، عبيداً وأحراراً، شيباً وشباناً... كما شملت جميع الأبعاد الرسالية، وتجسّدت فيها أروع صور التضحية والفداء، والشجاعة والإباء من جانب، ومن جانب آخر برزت فيها أبشع وأفظع صور التوحّش، والخروج عن الحدود الإنسانية، وظهرت الخسّة بأحطّ درجاتها ما لم تعرف البشرية له نظير...

وقد كان للمرأة دورٌ فاعلٌ ومؤثّرٌ في هذه الواقعة منذ خرج الحسين عليه السلام من المدينة إلى ساعة استشهاده كما قامت بذلك الحوراء زينب سلام الله عليها، ومن خلال تتبّع أحداث الطف (سنجد أنَّ للمرأة في هذه الثورة الكبيرة دوراً بارزاً مشرفاً ظهر بشكل ملفت النظر حقاً... وحتّى المرأة الكوفية التي تخاذلَ رجلها، واستسلم، وتراجع، وآثر الانحياز في النهاية إلى جانب ابن زياد، كانت تقف موقفاً عظيماً لم يتح لكثيرين من الرجال أن يقفوه، حتى لقد فاقت كثيرات منهنّ الرجال الشجعان أنفسهم)[1].

ولنقف قليلاً عند بعض مواقف نساء الطف لنثبت دور المرأة البارز فيها.

---

(١) محمد نعمة السماوي، موسوعة الثورة الحسينية: ١٧٨/٧.

الحَوْراءُ زَيْنَب عليها السلام :

يبدو لنا جليّاً من خلال تتبّع حياة هذه المرأة العظيمة، والتي كان لها الدور البارز في واقعة عاشوراء ابتداءً واستمراراً ... أنها كانت مُعَدَّةٌ إعداداً إلهياً خاصاً للقيام بهذا الدور العظيم الذي حفظ الإسلام من التحريف، بل من الانقراض والفناء... فقد ذكر المؤرخون أنَّ النبي صلى الله عليه وآله حين علم بمولد زينب سلام الله عليها وجم، وبكى، وضَّمها إلى صدره، وهو يوسعها تقبيلاً، حتّى أثار ذلك عجب أمّها سيدة نساء العالمين عليها السلام، فقالت: «ما يبكيك يا أبتي؟ لا أبكى الله لك عيناً»، فأجابها بصوت خافت حزين النبرات: «يا فاطمة، اعلمي أنَّ هذه البنت بعدي وبعدك سوف تنصبّ عليها المصائب والرزايا»[1].

وكأنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقرأ مستقبل الإسلام، ويعلم ما سوف تواجهه من عقبات وشدائد ومحن...

ومن عناية أمير المؤمنين عليه السلام بابنته الحوراء أنَّه كان يطفئ مصابيح الضريح المقدس للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله عند زيارتها له، فقد حَدَّث يحيى المازني قائلاً: «كنتُ في جوار أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة مدّة مديدة، وبالقرب من البيت الذي تسكنه زينب ابنته، فلا والله ما رأيتُ لها شخصاً، ولا سمعتُ لها صوتاً، وكانت إذا أرادت الخروج لزيارة جدِّها رسول الله صلى الله عليه وآله تخرج ليلاً، والحسن عن يمينها، والحسين عن شمالها، وأمير المؤمنين عليه السلام أمامها، فإذا قربت من القبر الشريف سبقها أمير المؤمنين عليه السلام، فأخمد ضوء القناديل، فسأله الحسن عليه السلام مرّة عن ذلك، فقال عليه السلام: أخشى أن ينظر أحدٌ إلى شخص أختك

(١) القرشي، السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام: ٣٨.

زينب»[١].

وفي بعض الروايات: «إنَّ الحسين عليه السلام كان إذا زارته زينب يقوم إجلالاً لها، وكان يجلسها في مكانه»[٢].

وهكذا يتضح لنا أنّ العناية الفائقة التي حظيت بها عقيلة بني هاشم من قبل جدِّها وأبيها وأخويها في جميع مراحل حياتها كانت تهدف إلى إعدادها إعداداً رسالياً لتحمّل المسؤولية الكبيرة التي ستناط بها في مستقبل أيامها، وما هذا الاهتمام الشديد إلا لِعَظَم المسؤولية التي ستتحملها في مواجهة الأخطار التي ستواجه الرسالة، وتقف عقبة في طريق حركتها، فإنّنا نعلم أنّ اهتمامات رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيتها الطاهرين عليهم السلام لم تكن اهتمامات ذاتية عاطفية، وإنّما هي اهتمامات رسالية مبدئية.

نشأت الحوراء زينب عليها السلام في مدرسة الوحي ترفل بالعناية الإلهية من قبل جدها، وأبيها، وأمها، وأخويها تنهل من فيض علومهم، وتحاكي سلوكهم، وتتخلّق بأخلاقهم، فقد كانوا يزقّونها العلم زقّاً، وترتشف من فيض بحرهم الطافح بالعلم والإيمان، والعمل... وهكذا (رضعت لبان الوحي من ثدي الزهراء البتول، وغُذّيَت بغذاء الكرامة من كفّ ابن عم الرسول، فنشأت نشأت قدسية، وربيت تربية روحانية، متجلببة جلابيب الجلال والعظمة، مترديةً رداء العفاف والحشمة، فالخمسة أصحاب العباء عليهم السلام هم الذين قاموا بتربيتها، وتثقيفها، وتهذيبها، وكفاك بهم مؤدبين ومعلمين)[٣].

(١) النقدي، زينب الكبرى: ٤١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨.

ولهذا فلا مبالغة إذا قلنا بأنّها جمعت كلّ صفات الكمال التي ورثتها من ذويها الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، ومما يدلّ على ذلك قوّة شخصيتها، وتماسكها واتّزانها في أشدّ المحن، وأفظع المصائب، وقد وصفها العلماء، والكتّاب، والمؤرخون، بأسمى آيات الجلال، والكمال، قال السيد أبو القاسم الخوئي:

«أقول: إنّها شريكة أخيها الحسين عليه السلام في الذبّ عن الإسلام، والجهاد في سبيل الله، والدفاع عن شريعة جدّها سيد المرسلين، فتراها في الفصاحة كأنّها تفرغ عن لسان أبيها، وتراها في الثبات تنبئ عن ثبات أبيها، لا تخضع عند الجبابرة، ولا تخشى غير الله سبحانه، تقول حقّاً وصدقاً، لا تحركها العواصف، ولا تزيلها القواصف، فحقّاً هي أخت الحسين عليه السلام، وشريكته في سبيل عقيدته، وجهاده»[1].

وقال ابن الأثير: «زينب بنت علي بن أبي طالب... أدركت النبي صلى الله عليه وآله، وولدت في حياته، ولم تلد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته شيئاً. وكانت زينب امرأة عاقلة، لبيبة، جَزْلة، زَوَّجَها أبوها عليٌّ رضي الله عنهما من عبد الله بن أخيه جعفر، فولدت له علياً، وعوناً الأكبر، وعباساً، و[من أولاد عبد الله بن جعفر] محمداً[2]، وأم كلثوم، وكانت مع أخيها الحسين رضي الله عنه لما قتل، وحُملت إلى دمشق، وحضرت عند يزيد بن معاوية، وكلامها ليزيد حين طلب الشاميّ أختها فاطمة بنت علي من يزيد مشهور مذكور في التواريخ، وهو يدلّ

(١) السيد الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٩١/٢٣.

(٢) محمد بن عبد الله بن جعفر أمه الخوصاء بنت حفصة بن ثقيف...راجع إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ٧٧.

على عقل، وقوة جَنَان»[١].

وقال العلامة البرغاني في "مجالس المؤمنين": «إن المقامات العرفانية الخاصّة بزينب عليها السلام تقرب من مقامات الإمامة»[٢].

وقال آخر: «كانت زينب الكبرى في البلاغة والزهد، والتدبير والشجاعة، قرينة أبيها وأمها عليهما السلام؛ فإنّ انتظام أمور أهل البيت عليهم السلام، بل الهاشميين بعد شهادة الحسين عليه السلام كان برأيها وتدبيرها»[٣].

وقال الأستاذ قاسم حسن في كتابه السيدة زينب عليها السلام: «السيدة الطاهرة الزكيّة بنت الإمام علي بن أبي طالب ابن عمّ الرسول، وشقيقة ريحانتيه، لها أشرف نسب وأجل حسب، وأكمل وأطهر قلب، فكأنّها صيغت في قالب ضمخ بعطر الفضائل، فالمستجلي آثارها يتمثّل أمام عينيه رمز الحقّ، رمز الفضيلة، رمز الشجاعة، رمز المروءة، فصاحة اللسان، قوّة الجنان، مثال الزهد والورع، مثال العفاف والشهامة، إنَّ في ذلك لعبرة»[٤].

ومن أمثلة زهدها ما روي عن الإمام السجاد عليه السلام: «أنّها صلوات الله عليها ما ادّخرت شيئاً من يومها لغدها أبداً»[٥].

ولجلالة قدرها كان ابن عباس عندما يروي عنها يقول: «حدّثتني عقيلتنا زينب بنت علي»[٦].

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة: ١٣٢/٧-١٣٣، ط/دار إحياء التراث العربي.

(٢) السيد جواد شبر، أدب الطف: ٢٤٠/١.

(٣) زينب الكبرى: ٤٨.

(٤) أدب الطف: ٢٣٩/١.

(٥) زينب الكبرى: ٨٩.

(٦) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين: ٩٥.

وعلى كلّ حال فكلما قيل فيها فهو دون حقّها وقدرها، وكيف لا وهي ربيبة الوحي، حملت بين جنبيها روح جدّها الطاهر، وقوّة أبيها المرتضى، وحِلْم أخيها الحسن، وإباء أخيها الحسين، وتحمّلت مصائب أمها وزيادة، فقابلتها بصبر أبيها، فلا نبالغ إذا قلنا: بأنها اتصفت بكلّ ما اتّصف به ذووها من صفات الكمال، وتحمّلت كلّ المصائب التي مرّت عليهم، فحفظت رسالتهم من التحريف، والأمّة من الانحراف، حين وضعتها على جادّة الصواب، وأعادت لها روح الثورة والتحدّي، والرفض، بما أوضحت لها من مناهج البقاء، وسبل النجاة، فكانت حقّاً شريكة الحسين في ثورته، ومتمِّمة لمسيرته.

[من الكامل]

وتشاطرت هي والحسين بدعوة ... حتم القضاء عليهما أن يندبا
هذا بمشتبك النصول وهذه ... في حيث معترك المكاره في السبا[1]

وحقّاً ما صاغه شاعرهم السيد الهندي رحمه الله على لسانها[2]: [من الطويل]

جرى ما جرى في كربلاء وعينها ... ترى ما جرى مما يذوب له الصخرُ
لقد أبصرت جسم الحسين موزّعاً ... فجاءت بصبر دون مفهومه الصبرُ
رأته ونادت يا ابن أمي ووالدي ... لك القتلُ مكتوبٌ ولي كتب الأسر

عالِمَةٌ غَيْرُ مُعَلَّمَةٍ:

كانت الحوراء زينب عليها السلام ذات مستوى علمي رفيع وضعها في مستوى المسؤولية التي أنيطت بها، وقد أكّد ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام بشهادته لها

(١) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٢٢.

(٢) ديوان السيد رضا الهندي وأبنائه: ٨٤.

حين قال: «**أنتِ بحمد الله عالمةٌ غيرُ مُعَلَّمَةٍ، فَهِمَةٌ غيرُ مُفَهَّمَةٍ**»[١].

ومعنى ذلك بما أنّها عاشت في رحاب بيت النبوة الذي جسّد الإيمان والعلم والعمل سلوكاً أخلاقياً وعقائدياً، وجعله شاخصاً مُتَمثّلاً بهم، وبما أنّها تميّزت بذكاء فائق، ورثته من جدِّها وأبيها وأمها، وتلقَّت العلم منهم مباشرة بدون أن تتلمذ على يد أستاذ، أي: (مادة علمها من سنخ ما منح به رجالات بيتها الرفيع أفيض عليها إلهاماً لا بتخرج على أستاذ وأخذ عن مشيخة)[٢].

ولعلمها الغزير، وإيمانها الراسخ، ووعيها الرسالي الرفيع، كانت لها نيابة خاصّة عن الحسين عليه السلام، وكان الناس يرجعون إليها في الحلال والحرام حتّى برئ الإمام السجاد عليه السلام، وكان ما يخرج عنه عليه السلام من علم ينسب إليها ستراً على الإمام من كيد الطغاة[٣]، وقال الطبرسي: «إنّها عليها السلام روت أخباراً كثيرة عن أمّها الزهراء»[٤]، كما أكّد ذلك السيد الخوئي فقال: «روت عن أمّها سلام الله عليها، وروى عنها جابر»[٥].

وقال العلامة النقدي: «وعن عماد المحدثين: إنَّ زينب الكبرى كانت تروي عن أمّها وأبيها وأخويها، وعن أم سلمة، وأم هاني، وغيرهما من النساء، وممن روى عنها ابن عباس، وعلي بن الحسين عليه السلام، وعبد الله بن جعفر، وفاطمة بنت الحسين الصغرى، وغيرهم»[٦].

---

(١) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج: ٣٤٨/٢، وبحار الأنوار: ١٦٤/٤٥ .

(٢) زينب الكبرى: ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه: ٥٧ .

(٤) أدب الطف: ٢٤٣/١.

(٥) معجم رجال الحديث: ١٩٠/٢٣.

(٦) زينب الكبرى: ٥٧ .

وقد ذكر كتّاب السير: «أنَّ العقيلة عليها السلام كان لها مجلس خاص لتفسير القرآن تحضره النساء»[١].

ولا عجب من ذلك؛ فإنَّها ولدت، وتربَّت في كلّ أدوار حياتها في مدرسة القرآن الذي عاشته مجسّداً في ذويها بكلّ نفسٍ تنفَّسوه، وكلّ خطوة خطوها...

وكلّ ما تميّزت به الحوراء من علم، وعمل، وتحمّل للمصائب هو نتاج عمق معرفتها لله، وإيمانها، وذوبانها في حبّه، تقول صلوات الله عليها: «من أراد أن يكون الخلق شفعاءه إلى الله فليحمده، ألم تسمع إلى قولهم: سمع الله لمن حمده، فَخِف الله لقدرته عليك، واستحِ منه لقربه منك»[٢].

وقد تجلّت في زينب عليها السلام شخصية جدّها وأبيها وأمها وأخويها، وظهر ذلك واضحاً في عبادتها لله تعالى، فقد عرفت بكثرة العبادة حتى سميت (**عابدة آل علي**)، وكانت تقوم الليل، بل حتى ليلة الحادي عشر من المحرم بما فيها من مصائب اهتزَّت الجبال الرواسي لها، وبكت السماء دماً منها، ولم يُرْفَع حجرٌ إلا وُجِدَ تحته دمٌ عبيط[٣]، ورغم ذلك كلّه كانت الحوراء زينب تؤدي وِرْدَها

---

(١) زينب الكبرى: ٥٩.

(٢) السيد الأمين، أعيان الشيعة: ١٤٠/٧.

(٣) قال ابن حجر الهيثمي: «ومما ظهر يوم قتله من الآيات أيضاً أنَّ السماء اسودَّت اسوداداً عظيماً حتى رؤيت النجوم نهاراً، ولم يرفع حجر إلا وجد تحته دم عبيط»، والدم العبيط هو الطري غير النضيج، الصواعق المحرقة: ١٩٢.

وورد في تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٢٩/١٤-٢٣٠:

عن زيد بن عمرو الكندي قال: «حدثتني أم حيّان قالت: يوم قتل الحسين أظلمت علينا ثلاثاً، ولم يمس أحد من زعفرانهم شيئاً، فجعله على وجهه إلا احترق، ولم يقلب حجر بيت المقدس إلا أصبح تحته دم عبيط».

وعن حمّاد بن زيد، عن مَعْمَر قال: «أول ما عرف الزهري [أنّه] تكلم في مجلس الوليد بن عبد الملك، فقال الوليد: أيّكم يعلم ما فعلت أحجار بيت المقدس يوم قُتل الحسين بن علي؟ فقال الزهري: بلغني وقالوا أنه لم يقلب حجرٌ إلا وجد تحته دم عبيط».

وعن عمر بن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه قال: «أرسل عبد الملك إلى ابن راس الجالوت، فقال: هل كان في قتل الحسين علامة؟ قال ابن راس الجالوت: ما كشف يومئذ حجر إلا وجد تحته دم عبيط».

ونوافلها بكل اطمئنان، وتوجّه، وقد أحسن الكاتب الإسلامي الفذ العلامة محمد جواد مغنية رحمه الله حين كتب في كتابه "الحسين وبطلة كربلاء":

«ولا تأخذك الدهشة أيها القارئ إذا قلت: إنَّ صلاة السيدة زينب ليلة الحادي عشر من المحرم كانت شكراً لله على ما أنعم، وأنّها كانت تنظر إلى تلك الأحداث على أنّها نعمة خصَّ الله بها أهل بيت النبوة، من دون الناس أجمعين، وأنَّه لولاها لما كانت لهم هذه المنازل والمراتب عند الله والناس... وزينب هي بنت أمير المؤمنين عليه السلام لا تعدوه في إيمانها ولا في نظرها إلى طريق الخلود والكرامة.. ولذا لم تترك الصلاة شكراً لله، حتى ليلة الحادي عشر من المحرم، وحين مسيرها مسبيّة إلى الكوفة والشام، وحمدت الله وهي أسيرة في مجلس يزيد على أن ختم اللهُ للأول من أهل البيت بالسعادة، وللآخر بالشهادة والرحمة»[1].

ونتيجة هذا الوعي الإيماني استطاعت الحوراء زينب عليها السلام أن تؤدي الدور الذي أنيط بها من قبل جدِّها وأبيها، وأن تواصل ثورة أخيها، وتحقّق جميع أهدافها بصورة مذهلة تقف عندها العقول والقلوب.

وقد استطاعت وهي أسيرة بأوحش صور السبي والأسر، أن تهزّ عروش الظالمين، وتحطّم كبرياء الطغاة، وتعلن الحقّ في قلاع الكفر، وترفع صوت الإسلام المحمّدي عالياً في ظروف كُمَّتْ فيها الأفواه، وأخضعت فيها الرؤوس تحت سطوة السيوف التي استمرَّت تقطر دماً بلا توقف تقمع كلّ صوت حر يرتفع، فأيَّ قدرة تميَّزت بها الحوراء عليها السلام؟! حتى استطاعت أن تحفظ رسالة الله، وتعيدها إلى مجراها الذي وضعها الله فيه، وتنسف كلّ ما بناه معاوية، ويزيد،

(١) محمد جواد مغنية، الحسين وبطلة كربلاء: ١٩١-١٩٢.

ومن خطَّط لهما على المدى الطويل.

تقول الدكتورة بنت الشاطئ: «لم تمض زينب إلا بعد أن أفسدت على «ابن زياد، ويزيد، وبني أمية» لذّة النصر، وسَكِبَتْ قطرات من السمّ الزعاف في كؤوس الظافرين! فكانت فرحة لم تطل.. وكان نصراً مؤقتاً لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة قضت آخر الأمر على دولة بني أمية»[١].

وإنّ كل الأحداث السياسية التي ترتَّبت بعد ذلك من خروج المختار، وثورة ابن الزبير، وسقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، ثم تأصّل مذهب الشيعة إنّما كانت زينب باعثة ذلك ومثيرته[٢].

مَوَاقِف مُذْهِلَةٌ:

لو تأمّلنا ببعض مواقف الحوراء زينب الساخنة لعرفنا مدى القدرة والمعنوية التي تميّزت بها هذه البطلة المؤمنة، ولا عجب من ذلك إذا ما أدركنا (أنّها كانت نتاج تربية أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّها كانت تتمتع بالوعي الرسالي والإدراك والعلم الذي تلقَّته من مصدره الصحيح، أدركنا أيضاً أن غيرها ما كان ليقدر على القيام بالمهام العديدة التي أخذتها على عاتقها القيام بها، ومنها الحفاظ على النساء والأطفال، والقيام بمهمة الإعلام المضادّ لدولة الانحراف الأموية اليزيدية، وقد نجحت حقّاً بلفت الأنظار إلى قضية الحسين عليه السلام كقضية للأمة المسلمة، وأنّ الحسين عليه السلام إنّما كان يدافع عنها، ويحرص على وجودها كأمّة إسلامية لا كأمة دون هوية، ودون رسالة كبيرة، كرسالة الإسلام التي

(١) بنت الشاطئ، السيدة زينب عقيلة بني هاشم عليها السلام: ١٥٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٩-١٦١.

حملتها ثمّ أرادت القيادات المنحرفة لها أن تتخلى عنها)[١].

إنَّ المصائبَ التي مرَّت عليها، وثبتت أمامها لو مرّت على الجبال لفتَّتها، وعلى البحار لبخَّرتها... امرأة ذات عواطف جياشة ترى بأُمّ عينيها أعزّ خلق الله عليها من أخوتها وبنيها يُقَتَّلونَ أمام عينيها، ثم لا يكتفى بذلك، بل تُقطع الرؤوس، وتُرفع على الرماح، ويمثل بالأجساد... مع شدّة العطش الذي يفتّت الأكباد، وصراخ الأطفال، وعويل النساء، وهجوم الأعداء، مع خسّتهم وقسوتهم، واشتعال النيران في الخيام.

رغم كلّ ذلك تقف متماسكة متوازنة، لم تفقد صوابها، ولم تخرج عن اتّزانها، وتحافظ على وعيها، وتدير المعركة بكلّ جدارة... إنَّ هذا حقاً لأمر مذهل تعجز عنه الرجال من أولياء الله فضلاً عن النساء، ولا غرابة في ذلك، فقد أُعدِّت لتلك المهمة في مدرسة الوحي على يد جدّها وأبيها.

[من الكامل]

بأبي التي ورثت مصائب أمّها ... فغدت تقابلها بصبر أبيها

لم تلهَ عن جمع العيال وحفظهم ... بفراق أخوتها وفقد بنيها[٢]

وبذلك أصبحت مظهراً لقدرة الله تعالى التي تتجلّى في عباده الصابرين، وتجلّياً لشخصية محمّد المصطفى، وعلي المرتضى، وفاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين...

ولهذا فإنَّنا نشكك في الرواية التي تقول: إنّها حين سمعت أخاها ينعى نفسه في ليلة التاسع من محرم عمدت إلى جيبها فشقَّته، ولطمت وجهها، وخرّت

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٣٩٢/٥.

(٢) ديوان السيد رضا الهندي وأبنائه: ٧٣.

إلى الأرض مغشياً عليها... فإنَّ من يدرك شخصية زينب عليها السلام في إيمانها، وتسليمها لله، وذوبانها في حبّه، واستجابتها لأمره في ساعة العسرة - وأيّة عسرة وما أدراك ما تلك العسرة - لا يمكن أن يصدق ذلك في زينب (التي فاقت الفوارس في الشجاعة، واتّخذت طول حياتها تقوى الله بضاعة، وكان لسانها الرطب بذكر الله على الظالمين غضباً، ولأهل الحق عيناً معيناً، كريمة الدارين، وشقيقة الحسنين، بنت البتول الزهراء التي فضّلها الله على النساء، وجعلها عند أهل العزم أمّ العزائم، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم)[1].

كما لا يعقل، ولا يُقبل أنَّ زينب التي اتّسمت بالصبر بأعلى درجاته، وبالزهد بأسمى مراتبه، وبالتسليم المطلق لله أن تخالف وصية أخيها حين قال لها: «يا أختاه، يا أمّ كلثوم، وأنتِ يا زينب، وأنتِ يا رقية، وأنتِ يا فاطمة، وأنتِ يا رباب، أنظرْنَ، إذا أنا قتلت فلا تشققْنَ عليَّ جيباً، ولا تَخْمُشْنَ عليَّ وجهاً، ولا تقلنَ عليَّ هجراً»[2].

وفي تاريخ أبي مخنف أنّه قال لها: «يا أُخَيّة، إنّي أقسم عليك فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليَّ جيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكتُ»[3].

فهل يمكن لزينب عليها السلام أن تنسى وصيّة أخيها، وتتصرّف بهذا التصرّف الذي يتنافى مع ما جبلت، وتربَّت عليه، فإن قيل: إن هذا كان قبل الوصية لها، نقول: إن ذلك يتنافى مع قوة شخصية زينب عليها السلام، (وما نحسب أنَّ زينب وإن

(١) النقدي، زينب الكبرى: ٥٤-٥٥، عن كتاب السيدة زينب لمحمّد علي أحمد المصري .

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتل الطفوف : ١٤١، ولواعج الأشجان للسيد الأمين: ١٠٣ .

(٣) تاريخ الطبري: ٤٢١/٥ والإرشاد للشيخ مفيد: ٩٤/٢ .

كان وقع المصيبة هائلاً عليها تفقد صوابها، وتنسى كلمات أخيها بخصوص الصبر والتجلّد، وقد استجابت لها فعلاً، وكان دورُها كبيراً في الحفاظ على موكب الأطفال والنساء، وفي لفت الأنظار إلى أبعاد المعركة كلّها، وجناية النظام الحاكم على الأمّة كلّها، لا على الحسين وأصحابه وحدهم)[1].

ثم إذا كانت يغشى عليها، وتفقد وعيها بمجرد أن ينعى الحسين عليه السلام لها نفسه، فكيف تحمَّلت وهي تراه وحيداً بين الأعداء، وقد تناوشته السهام والرماح من كلّ جانب.

وعلى كلّ حال زينب عليها السلام أكبر وأسمى من أن تنهار، أو تجزع، أو تتراجع؛ فهي بنت من تكسّرت على صخرة صبره أمواج المصائب والفتن، وهي سلام الله عليها قد واكبت كلّ مصائب آل العبا، فأين يكون الجزع من هذا؟!

(وهذه الصديقة الطاهرة قد رأت من المصائب والنوائب ما لو نزلت على الجبال الراسيات لانفسخت، واندكّت جوانبها، لكنّها في كلّ ذلك كانت تصبر الصبر الجميل كما هو معلوم لكلّ من درس حياتها، وأول مصيبة دهمتها هو فقدها جدّها النبي صلى الله عليه وآله، وما لاقى أهلها بعده من المكاره، ثم فقدها أمّها الكريمة بنت رسول الله بعد مرض شديد، وكدر من العيش، والاعتكاف في بيت الأحزان)[2].

كما شاهدت بعينها كيف كان أبوها يعاني من مكائد القوم طيلة ربع قرن، ورأته يجود بنفسه حين نزل إلى رأسه سيف الغدر والخيانة، وولج السمّ إلى جسمه.

---

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٣٩٠/٥.

(٢) زينب الكبرى: ١٠٣ .

(ثم فقدها أخاها المجتبى مسموماً تنظر إليه، وهو يتقيأ كبده في الطست قطعة قطعة، وبعد موته تُرشق جنازته بالسهام، ثم رؤيتها أخاها الحسين عليه السلام تتقاذف به البلاد، حتى نزل كربلاء، وهناك دهمتها الكوارث العظام من قتله عليه السلام وقتل بقية أخوتها وأولادهم، وأولاد عمومتها، وخواص الأمّة من شيعة أبيها عطاشى، ثم المحن التي لاقتها من هجوم أعداء الله على رحلها... وهي مع ذلك كلّه صابرة محتسبة، ومفوضة أمرها إلى الله تعالى، قائمة بوظائف شاقّة...)[1].

ولنمرّ سريعاً على بعض مواقفها العظيمة، والتي لا تزال آثارها ترنّ في مسامع الأجيال، ونذكر من تلك المواقف موقفها حين رأت أخاها وحيداً فريداً تتناوشه سهام الغدر، وسيوف الظلم إلى أن سقط على الأرض يجود بنفسه، والأعداء تحيط به من كلّ جانب، (أيّ هول كانت ترى زينب، وأيّة آلام هائلة كانت تعاني؟ فمشهد الإمام الوحيد الجريح، وهو يغالب حشد الأعداء، ويقاومهم، ويقف بوجوههم بذلك الصبر والثبات، يتقي سيوفهم ورماحهم ونبالهم، ويشدّ على فرسانهم وهو يقاتل على رجليه، ثم يتلقّى بعد ذلك عشرات من الطعنات الغادرة، كان فوق طاقتها حتى وإن كانت هي زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام، فهل ملكَ رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه دموعه وهو يرى ما سيجري على ولده في كربلاء، حتى تملكها زينب فلا تفيض، ولا تنطلق محاولةً إنقاذ أخيها، واستنهاض ما مات من غيرة، وشهامة في نفوس أولئك الذين ادّعوا أنّهم من محبّي وموالي رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

(١) زينب الكبرى: ١٠٣-١٠٤.

كان الحسين عليه السلام في تلك الحال إذ خرجت زينب.. وهي تقول: ليت السماء تطابقت على الأرض.. وا أخاه، وا سيداه، وا أهل بيتاه.

وقد دنا عمر بن سعد من الحسين عليه السلام، فقالت: يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر إليه، فدمعت عيناه وهي تسيل على خدّه ولحيته، وصرف بوجهه عنها، ولم يجبها بشيء، فنادت: ويلكم أما فيكم مسلم، فلم يجبها أحد بشيء)[1].

اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنّا هَذا القُرْبان !!

إنَّ القلمَ ليجف، واللسانَ ليخرس، والقلوبَ لترتجف عند هذه العبارة إذا وعينا الظرف الذي قيلت فيه... (أيّة كلمة على قصرها أبلغ من هذه الفقرة القصيرة، الكبيرة بمضمونها، واهتزَّ المشاهدون لهذا الموقف، فزينب لم تصرخ، ولم تبكِ، إنّما قصدت جسد أخيها؛ لتدعو الله أن يتقبّل من هذا البيت الطاهر قربان العقيدة، وفداء الإيمان...

«**اللهمَّ تَقَبَّلْ منّا هذا القربان**».. وهذه الكلمة التي سمّرت قائد الجيش الأموي عمر بن سعد، وأذهلته، وأفقدته وعيه، وحتى ذلك الفظّ الجلف شمر بن ذي الجوشن فقد أشاح بوجهه عنها، ومهما حاول المشاهدون بالتظاهر باللامبالاة، لكنّ العوامل النفسية بدأت تتصارع في أعماقهم، ولا نقول: إنَّ ضمائرهم تحرّكت، فضمائرهم قد احتضرت منذ تحرّكهم للمعركة)[2].

إنّها كلمة الشكر لله تعالى، والتحدّي للظالمين، وبيان لقيمة العقيدة التي

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ١٨٨/٧-١٨٩.

(٢) محمد بحر العلوم، في رحاب السيدة زينب: ١٤٨-١٤٩.

يجب أن يقدم المؤمن من أجلها كلّ شيء، ولو كان ذلك المُقَدَّم دم رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس هناك من دم أغلى وأقدس من دم الحسين عليه السلام الذي هو دم رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ الحسين من رسول الله، ورسول الله من الحسين.

«حسين مني وأنا من حسين»[١].

إنَّ امرأة تقف هذا الموقف لا يمكن أن تنهار وهي تؤدي تكليفها الذي أناطه الله بها على لسان جدّها صلى الله عليه وآله، إنَّها زينب، وما أدراك ما زينب، إنها بنت علي عليه السلام، وشقيقة الحسين عليه السلام، حاملة الراية من بعده؛ لتكمل رسالته في ثورته الخالدة التي خلد الإسلامُ سليماً، ناصعاً بخلودها .

ولو انتقلنا من هذا الموقف الرهيب إلى موقف أرهب، حيث تمرّ زينب عليها السلام وهي ترعى النساءَ والأطفالَ وإماماً عظيماً تريد أن تحفظه من كيد الغادرين، في هذا الحال تمرّ على الأجساد المقطّعة الرؤوس، والرؤوس منصوبة على الرماح نصب عينيها، فترى الإمام السجاد عليه السلام يجود بنفسه[٢] من شدّة الألم، وهول المنظر، وفظاعة الفاجعة، التي شاهدها بأمّ عينه، وهو مقيّد على الجمال، هنا زينب ترقب هذه الحالة التي أخذت الإمام عليه السلام، وهي حالة وجدانية تصيب الإنسان من شدّة الحزن... وليس هي حالة جزع كما وصفها الشيخ القرشي فالجزع يتنافى مع شخصية المعصوم عليه السلام، لكن قد يظهر عليه الحزن العميق والأسى الشديد كما أصيب النبي يعقوب عليه السلام بحزنه على ولده يوسف، فلا

(١) صحيح سنن الترمذي: ٥٣٩/٣، ح/٣٧٧٥ .

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب ١٣٧/٣: «وأجاده: قتله. وجاد بنفسه عند الموت يَجُودُ جَوْداً وجُؤوداً: قارب أن يقضي؛ يقال: هو يجود بنفسه إذا كان في السياق، والعرب تقول: هو يجود بنفسه، معناه يسوق بنفسه، من قولهم: إنَّ فلاناً لَيُجاد إلى فلان، أي يُساق إليه. وفي الحديث: «فإذا ابنه إبراهيم عليه السلام يجود بنفسه» أي يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ماله يجود به».

عجب إذا كان الإمام زين العابدين عليه السلام يجود بنفسه، وهي أعلى درجات الحزن، ولكن لا تدخله في الجزع، وإنّما القلب يحزن، والعين تدمع، ولا يقول ما يغضب الرب كما جاء عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله[1].

وحين رأت الحوراء زينب عليها السلام تلك الحالة قد ظهرت على الإمام عليه السلام بادرت إليه مسلّية، وهي تقرأ ما يستبطن هذا المشهد المروّع من أسرار لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، فقالت عليها السلام:

«ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وأخوتي... فوالله إنَّ ذلك لعهد من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جدّك وأبيك وعمّك، ولقد أخذ الله ميثاق أُناس من هذه الأمّة لا تعرفهم فراعنة هذه الأمّة، وهم معروفون في أهل السماوات، إنَّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرِّقة فيوارونها، وهذه الجسوم المضرّجة، وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء، لا يدرس أثره، ولا يعفو رسمه، على كرور الليالي والأيام، وليجتَهِدَنَّ أئمة الكفر، وأشياع الضلالة في محوه، وتطميسه فلا يزداد أثره إلا ظهوراً، وأمره إلا علوّاً»[2].

والأحداث التي مرّت عبر التاريخ على مرقد الحسين عليه السلام منذ العهد الأموي مروراً بالحكم العباسي، وإلى اليوم من محاولة المحو والتطميس لهذا الرمز المقدس يؤكد صحّة ما نطقت به الحوراء زينب عليها السلام قبل ألف وأربعمائة سنة، فقد قام هارون العباسي والمتوكل بهدم المرقد الشريف في سنة ٢٣٦هـ، وكذلك ما قامت به الوهابية والصليبية الحاقدة على يد حزب البعث في سنة ١٩٩١م كما سيأتي في بحث سر الخلود في ثورة الحسين عليه السلام من هذا الكتاب.

(١) ينظر: مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد للشهيد الثاني: ٩٣.

(٢) ابن قولويه، كامل الزيارات: ٤٤٥، وبحار الأنوار: ١٧٩/٤٥-١٨٠.

ولعلّ الحوراء زينب عليها السلام في حديثها تشير إلى حديث أم أيمن الذي روي في كامل الزيارات وبحار الأنوار[١].

قالت زينب عليها السلام: «فلما ضرب ابن ملجم (لعنه الله) أبي عليه السلام، ورأيت عليه أثر الموت منه، قلت له: يا أبة حدثتني أم أيمن بكذا وكذا وقد أحببت أن أسمعه منك، فقال: يا بنية الحديث كما حدثتك أم أيمن»[٢].

وهذا الحديث الطويل يؤكد ما قلناه أنَّ الحسين عليه السلام هو ذخيرة الله في الأرض لإحياء شريعته، وإنَّ زينب عليها السلام أُعِدَّتْ إعداداً خاصاً من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، وأخويها عليهما السلام؛ لمواصلة ثورة الحسين عليه السلام، وحفظها من التشويه الإعلامي، (وكان أمراً في غاية الأهمية أن يصل صوته للأمة كلّها، وأن تعرف تفاصيل المعركة، وما دار فيها من أمور وحوادث، وما فعله الحسين عليه السلام وقاله، وما فعله أصحابه، وما فعله أعداؤه أيضاً، إذ كيف تتفاعل هذه الأمّة مع حدث لم تعرف تفاصيله، وكأنّها تشهده، وكيف يتمّ الأمر دون شهود حقيقيين عاشوا الأحداث وشهدوها، ليرووا للأمة كلّ تفصيلاتها بدقّة وصدق بعيداً عن التلفيقات والأكاذيب الأموية)[٣].

وهذا ما لم يستطع المشفقون على الحسين عليه السلام أن يعوه حين حاولوا أن يثنوه عليه السلام عن الخروج، ولما عجزوا عن إقناع سيد الشهداء بالتراجع، أو الفرار إلى أماكن نائية عن السلطة سألوه عليه السلام عن علّة حمل النساء معه فأجابهم: بـ«إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[٤]؛ لتواصل هؤلاء النسوة حركة التوحيد في السبا،

(١) ينظر: كامل الزيارات: ٤٤٥-٤٤٨، وبحار الأنوار: ١٧٩/٤٥-١٨٣ .

(٢) كامل الزيارات: ٤٤٨، وبحار الأنوار: ١٨٣/٤٥ .

(٣) موسوعة الثورة الحسينية: ٣٨٦/٥ .

(٤) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨ .

ويكشفن المخطط الأموي الذي كان يهدف لمحو عقيدة التوحيد، ودفن محمد وآل محمّد إلى الأبد كما أكّد معاوية ذلك للمغيرة بن شعبة حيث قال له: «وإنَّ ابن أبي كبشة [رسول الله] ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فأيّ عمل يبقى؟ وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفنا»[1].

ولا بدَّ أن نشير أنَّه كان من المستحيل على أيّ أحد أن يقوم بالدور الذي قامت به العائلة النبوية، واقتحمت قلاع الظلم ومعسكرات الضلال؛ لتبليغ كلمة الله تعالى كما في خطابات الإمام السجاد وزينب عليهما السلام في أهل الكوفة والشام بحضور يزيد، (وهل في القدرة والإمكان لأحد أن يدمغ خصمه بتلك الكلمات، وهي على الحال الذي عرفت؟! ثمّ لم تقنع منه بذلك، حتى أرادت أن تمثّل له وللحاضرين عنده ذلّة الباطل، وعزّة الحقّ، وعدم الاكتراث واللامبالاة بالقوّة، والسلطة، والهيبة، والرهبة، أرادت أن تُعَرِّفَهُ خِسَّةَ قدره، وضِعة مقداره، وشناعة فعله، ولؤم فرعه، وأصله)[2].

ولنتجاوز موقف زينب عليها السلام على الأجساد الطاهرة إلى موقف آخر قلب المقاييس الطاغوتية، وأفسد الموازين الأموية، وقلب السحر على الساحر، فحوّل الذلة المزعومة بالسبي إلى عزّة رسالية، أفرغت على لسان ربيبة الوحي، ألا وهو استعراض الأسرى في شوارع الكوفة (مقرّ عزّها، وعاصمة أبيها، كان سبي زينب الخطوب وعقيلة بني هاشم، وتدخلها بجملة ربائب الخدر من آل الرسول،

(١) راجع تفصيل الرواية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣٠/٥.

(٢) نبذة من السياسة الحسينيّة، رسالة للإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء منشورة في مجلة تراثنا، العدد المزدوج ٧٩-٨٠: ٣٦٥-٣٦٦.

وحولها يتامى وذراري أبيها علي عليه السلام، على محامل غير مجلّلة بالغطاء، وهنَّ لا يملكن من السواتر غير الحياء، يسوقهن الجيش المنتصر أمام الركاب كالإماء، وأهل الكوفة في عَبرة وعِبرة من هذا المشهد الغريب، يضجّون ويعجّون مما جرى على آل الرسول، وفيهم من يناولون الأطفال بعض الخبز، والتمر رأفة، ورحمة. فحريّ بالحرة الهاشمية سليلة الرسول أن تصرخ بهم وتقول: «إنَّ الصدقة محرَّمة علينا أهل البيت»، ونساء الأزقة والسطوح باكيات على هؤلاء)[1].

وظنّ ابن زياد بعمله هذا أنَّه يذلّ حملة رسالة الله، إلا أنَّ زينب قد أفسدت عليه فرحته، وقلبت النصر المزعوم إلى ندامة وحسرة، وجعلته هو وسيّده يزيد يتمنى لو أخفى جريمته الشنعاء.

قال بشير بن حذيم الأسدي: «نظرتُ إلى زينب بنت علي يومئذٍ، ولم أرَ خفرة قطّ أنطق منها كأنّما تنطق عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتُفرغ عنه، أومأت إلى الناس أن اسكتوا! فارتدّت الأنفاس، وسكنت الأجراس، فقالت:

الحمدُ لله، والصلاة على أبي محمّد رسول الله، وعلى آله الطيبين الأخيار آل الله، وبعد: يا أهل الكوفة، ويا أهل الختل، والخذل، والغدر! أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، أتتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم؟ وهل فيكم إلا الصلف، والطنف، والشنف، والنطف[2]، وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو

(١) السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، نهضة الحسين عليه السلام: ١٤٣ -١٤٤ .

(٢) الأول: الوقاحة، والثاني: فساد الأخلاق، والثالث: الكراهية، والرابع: النجاسة .

كقصة[١] على ملحودة! ألا ساء ما قدَّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنتحبون؟ إي والله، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها، وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً.

وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم الأنبياء، وسيد شباب أهل الجنّة، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم، ومدرة[٢] ألسنتكم، ألا ساء ما تزرون، وبعداً لكم وسحقاً! فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذّلة والمسكنة.

ويلكم، يا أهل الكوفة، أتدرون أيّ كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله فريتم، وأيّ دم له سفكتم، وأيّ كريمة له أبرزتم، وأيّ حريم له أصبتم، وأيّ حرمة له انتهكتم؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[٣]، إنَّ ما جئتم بها لصلعاء، عنقاء، سوداء، فقماء، خرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، وملاء السماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً؟ ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى، وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنّكم المهل فإنَّه عز وجل لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثار، كلا إنَّ ربكم لبالمرصاد، فترقبوا أوّل النحل[٤] وآخر صاد[٥]»[٦].

---

(١) القصة: وهي الجص.

(٢) مدرة: كبر المقدم في اللسان.

(٣) مريم: ٨٩-٩٠.

(٤) أي: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾.

(٥) أي ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

(٦) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٤٥/٢-٤٧.

فماذا كانت نتيجة هذا الخطاب الملتهب؟ لقد حرّك الضمائر، وأيقظ الغافلين، وهزَّ عروش الظالمين، وأسقط كلّ الحسابات التي توقّعوها، فقد حسبوا أنّهم بقتل الحسين عليه السلام سيدفنون الإسلام معه إلى الأبد، وإذا بالنتيجة جاءت بالعكس تماماً؛ فـ(إنَّ موكب سبايا كربلاء خلال مسيرة الرجوع الملحمية، سجَّل صوتاً إعلامياً واضحاً ومؤثراً، وجعل الأمة كلّها تتعاطف مع قضية الحسين عليه السلام، وتستجيب له، وتعلن العداوة للنظام الأموي، وإن جاء ردّ الفعل متبايناً ومتأخراً، بفعل القمع والتضليل الأمويين)[١].

قال بشير: «فوالله، لقد رأيتُ الناس يومئذٍ حيارى، كأنَّهم كانوا سكارى، يبكون ويحزنون، ويتفجّعون ويتأسّفون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم»، قال: «ونظرت إلى شيخ من أهل الكوفة، كان واقفاً إلى جنبي، قد بكى حتى اخضلّت لحيته بدموعه، وهو يقول: صدقتِ، بأبي وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبّانكم خير الشبان، ونساؤكم خيرُ النسوان، ونسلكم خير نسل، لا يخزى ولا يبزى[٢]»[٣].

وبعد أن ألقت الحوراء خطابها الملتهب ضجّ الناس بالبكاء والحنين والنوح، ونشر النساء شعورهن، ووضعن التراب على رؤوسهن، وخمشن وجوههنّ، وضربن خدودهن، ودعون بالويل والثبور، وبكى الرجال فلم يرَ باكية وباكٍ أكثر من ذلك اليوم[٤].

ثم إنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام أومأ إلى الناس أن اسكتوا، فسكتوا، فقام

---

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٣٨٧/٥.

(٢) يبزى: أي لا يقهر، من بزاه يبزوه قهره .

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٤٧/٢، والاحتجاج للطبرسي: ٣٤٨/٢، ومثير الأحزان لابن نما: ٨٦، مع اختلاف بالعبارات.

(٤) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٣، وبحار الأنوار: ١١٢/٤٥، ولواعج الأشجان للسيد الأمين: ٢٠٥.

قائماً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ صلّى عليه، ثم قال: «أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، أنا ابن المذبوح بشطّ الفرات من غير ذحل ولا ترات، أنا ابن من انتهك حريمه، وسُلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن من قُتل صبراً، وكفى بذلك فخراً.

أيّها الناس، ناشدتكم الله هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه، وخذلتموه؟! فتبّاً لما قدّمتم لأنفسكم وسوءاً لرأيكم، بأيّة عينٍ تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمّتي»[1].

وهكذا كُشِفَتْ الحقيقة للناس أجمع، وعلى رؤوس الأشهاد، حقيقة آل محمد صلى الله عليه وآله التي حاول بنو أمية أن يشوّهوها، وحقيقة الحكم الأموي، والمنهج القائم عليه، وأنَّه منهج بعيد عن الإسلام والإنسانية بُعد السماء عن الأرض.

والموقف الأعنف والأشدّ إدخال حرائر آل محمد صلى الله عليه وآله على العتلّ الزنيم عبيد الله بن زياد، وهو منتفخ متغطرس على كرسيّه، وكان يتوقع أن يرى على أسراه الذلّ والانكسار، والخوف، والانهزام، والانهيار النفسي بعد تلك الجولة المرهقة، وفوق ذلك كلّه وضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه، وهو ينكث بقضيب بين ثنيَّتيه ساعة، وحين رأى تلك الصورة البشعة زيد بن أرقم، قال له: «اُعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيَّتين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شَفَتَيْ رسول الله صلى الله عليه وآله على هاتين الشفتين يقبّلهما»، ثم انفضح الشيخ يبكي؛ فقال له

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٩، وبحار الأنوار: ١١٢/٤٥-١١٣.

ابن زياد: «أبكى الله عينيك! فوالله لولا أنّك شيخ قد خَرِفْتَ، وذهب عقلُك لضربتُ عنقك»، قال: «فنهض فخرج... وهو يقول:... أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمَّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذلّ، فبعداً لمن رضي بالذلّ!».

قال الراوي: «فلما دُخل برأس الحسين عليه السلام وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة عليها السلام أرذل ثيابها، وتنكّرت، وحفَّت بها إماؤها، فلما دخلت جلست، فقال عبيد الله بن زياد: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثاً، كلّ ذلك لا تكلّمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة، قال: فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فَضَحَكم، وقَتَّلَكم، وأكذَبَ أحدوثَتَكم!».

فردّت عليه الحوراء عليها السلام بقوّة وردع، بلا خوف ولا تردّد، قائلة: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد صلى الله عليه وآله، وطهّرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، إنّما يفتضح الفاسق، ويكذَّب الفاجر».

وأراد أن يشفي غيضه من عنف الردّ الذي لم يكن يتوقعه من امرأة أسيرة تحت سيطرته، فقال: «فكيف رأيتِ صنع الله بأهل بيتك؟»

فقالت: «ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتبَ الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينَك وبينَهم، فتحاجّون إليه، وتخاصمون عنده، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أمّك يا ابن مرجانة».

ولما رأى الردّ بهذه القوّة الرادعة استشاط غضباً، وهمَّ بها، إلا أنّ عمرو بن حريث هدّأه، وقال له: «إنّها هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها!».

ورغم ذلك قال: «قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعُصاة المَردة من أهل بيتك».

وهنا أخذ الحزن زينب الحوراء عليها السلام، فقالت: «لَعَمري لقد قتلْتَ كَهْلي، وأبرْتَ أهلي، وقطّعْتَ فرعي، واجتَثَثْتَ أصلي، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيت».

فما كان من ابن زياد إلا البذاءة والانحطاط فقال: «هذه شجاعة[1]، قد لَعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً»، قالت: «ما للمرأة والشجاعة، إنّ لي عن الشجاعة لشغلاً، ولكنْ نَفْثي ما أقول»[2].

(وكان جواب زينب مفحماً مسكتاً، لم يملك له ابن زياد ردّاً أو إجابة، لقد ذكّرته بأولئك الذين كان يتحدّث عنهم بتلك الاستهانة، فهم آل البيت أكرمهم الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وأنهم المُطهّرون الذين أذهب الله عنهم الرجس بشهادة من الله وإرادة منه، وفي هذا كفاية لهم، لا كما يدّعي ابن زياد الفاسق الفاجر، هو وأميره يزيد، فإذا ما كان لأحد أن يفتضح بفعله وتصرفه، فهو من كان على شاكلتهما ومن أمثالهما)[3].

ولما حطّمت زينب عليها السلام كبرياء ابن زياد، وردعته بقوّة لم يكن يتصوّر أنّ أحداً يردّ عليه بهذه الصراحة والقوة، حاول التنفيس عن حقده، والتعبير عن حقارته وشماتته، وماذا يملك هؤلاء غير الظفر والناب، وإذا به يلتفت إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فقال له: «ما اسمك؟»

قال عليه السلام: «أنا عليّ بن الحسين».

---

(١) في رواية أخرى: هذه سجاعة.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٥٦/٥-٤٥٧، وبحار الأنوار: ١١٥/٤٥-١١٦.

(٣) موسوعة الثورة الحسينية: ١٩٥/٧.

قال: «أولم يقتل الله علي بن الحسين!» فسكت .

فقال له ابن زياد : «ما لك لا تتكلم!».

قال عليه السلام: «قد كان لي أخ يقال له أيضاً عليّ، فقتله الناس».

قال: «إنّ الله قد قتله». فسكت عليّ بن الحسين عليه السلام.

فقال له: «ما لك لا تتكلم!».

قال عليه السلام: « ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾».

قال: «أنت والله منهم، ويحك انظروا هل أدْرَكَ؟ والله إنّي لأحسبه رجلاً».

فكشف عنه مُريّ بن معاذ الأحمريّ، فقال: «نعم قد أدرَك»، فقال: «اقتله».

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «من تُوَكّل بهؤلاء النسوة؟» وتعلّقت به زينب عمته، فقالت: «يا ابن زياد، حسبُك منّا، أما رويتَ من دمائنا! وهل أبقيت منّا أحداً!»، فاعتنقته، فقالت: «أسألك بالله إن كنتَ مؤمناً إن قتلتَه لمّا قتلتَني معه!»، وناداه علي بن الحسين عليه السلام فقال: «يا ابن زياد، إن كانت بينك وبينهنّ قرابة فابعث معهنّ رجلاً تقيّاً يصحبهنّ بصحبة الإسلام»، فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: «عجباً للرحم! والله إنّي لأظنها ودّت لو أنّي قتلتُه أنّي قتلتُها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك»[1].

تلك هي السياسة الأموية قائمة على أساس الإرهاب والإرعاب بالقتل والسجن والتشريد، وهذا شأن كلّ الطغاة على طول خطّ التأريخ، وهذا ما

(١) تاريخ الطبري: ٤٥٨/٥، ونحن إذا تأملنا في هذه الرواية نجد فيها إضافات دُسَّت فيها لأجل الحطّ من صمود العائلة النبوية، وإلا لا يمكن أن يقبل التخضع من آل محمد صلى الله عليه وآله لهذا العتل الزنيم، وفي الرواية ما يشعر بذلك!

واجهته الحركة الإسلامية منذ عهد الأمويين وإلى اليوم، وكأنّ التأريخ يعيد نفسه، وتتكرر نفس الأساليب الوحشية مع الفارق في قدرة التحمل بين آل محمد صلى الله عليه وآله وبين شيعتهم...

ورغم ذلك الرعب والوحشية، فقد جعل ابن زياد (لعنه الله) العائلة النبوية في وضعٍ يترقبون القتل بين الفينة والأخرى، وهم في السجن، فقد روى عوانة بن الحكم الكلبيّ:

«لما قتل الحسين وجيء بالأثقال والأسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عبيد الله، فبينا القوم محتسبون إذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: «خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوماً، وراجع في كذا وكذا، فإن سمعتم التكبير، فأيقنوا بالقتل، وإن لم تسمعوا تكبيراً هو الأمان إن شاء الله».

قال: «فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة، إذا حجر قد ألقي في السجن ومعه كتاب مربوط ومَوسى، وفي الكتاب: أوصوا واعهدوا فإنما يُنتظر البريد يوم كذا وكذا، فجاء البريد، ولم يسمع التكبير، وجاء الكتاب بأن سرّح الأسارى إليّ»[1].

ويمكن من خلال هذا النص أن نتصور الحالة المأساوية لنساء وأطفال، وإمام عليل بحيث وصلت المأساة إلى أنَّ الباب لا يفتح عليهم، وحتى إيصال الخبر يلقى إليهم من الأعلى؛ فقد (كان ترقّبُ الموتِ عاملَ قلقٍ كبيرٍ، ولعلّه كان شكلاً من أشكال الموت البطيء، فأيّ قيمٍ عليا، وأيّة موانع تمنع يزيد من إصدار

(١) تاريخ الطبري: ٤٦٣/٥.

أوامره بالإجهاز عليهم داخل ذلك السجن بعد أن أقدم على جريمته الكبرى بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه؟)[١].

ونحن نستشفّ تدخل اليد الغيبية في هذه المعركة الحامية، والمأساة التي صنعت تاريخ الإسلام من جديد، هذا التدخل يتجلّى في حماية هذه العائلة مع تحدّيها بصلابة منقطعة النظير، وقوّتها المعنوية، وعنفها في الردّ على الطغاة، وحفظها من الإبادة، وكشف الجريمة على أيدي المجرمين أنفسهم، وإلا كان بإمكانهم أن يحجزوا الإمام السجاد عليه السلام والنساء والأطفال، ويدفنوهم إلى الأبد، ويخفوا جريمتهم النكراء، وتمرّر على الأمة في غفلتها المطبقة، ويبقى ما كان على ما كان، ويدفنون الإسلام مع الحسين عليه السلام وأهل بيته، ولعلّ هذه هي دلالة قول الإمام الحسين عليه السلام لمن سأله عن حكمة حمل الأطفال والنساء: «إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[٢]، وقوله عليه السلام: «وقد شاء [الله تعالى] أن يرى حرمي ورهطي ونسائي مشرَّدين، وأطفالي مذبوحين مظلومين، مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً»[٣].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٤].

والعجب العجاب أنّ ترتيب أمر أهل بيت الوحي في هذه المأساة ترك ليدير أمره ابن مرجانة، فأمر برأس الحسين عليه السلام، فطيف به في سكك الكوفة؛

---

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ١٩٩/٧ .

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨، بحار الأنوار: ٣٦٤/٤٤، وينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي : ٦٠/٣.

(٣) بحار الأنوار: ٣٣١/٤٤-٣٣٢ .

(٤) التوبة: ٣٢ .

ليرعب الناس وليشفي غيظه من آل رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم صعد المنبر، وقال:

«الحمد لله الذي أظهر الحقَّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين وأشياعه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب»، وحين سمع ذلك عبد الله بن عفيف الأزدي، قام إليه، وقال: «يا ابن مرجانة، إنَّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، يا عدوّ الله أتقتلون أولاد النبيّين، وتتكلّمون بهذا الكلام على منابر المسلمين»، فغضب ابن زياد، ثم قال: «مَنْ هذا المتكلّم؟»، فقال: «أنا المتكلم يا عدو الله، أتقتل الذّرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس، وتزعم أنّك على دين الإسلام؟ وا غوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار ينتقمون ومن طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين؟».

فقال ابن زياد: «عليَّ به»، فبادر إليه الجلاوزة من كلّ ناحية؛ ليأخذوه، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمه؛ فخلّصوه من أيدي الجلاوزة، وأخرجوه من باب المسجد، وانطلقوا به إلى منزله، فقال ابن زياد: «اذهبوا إلى هذا الأعمى، أعمى الأزد... فأتوني به»، ووصل أصحاب ابن زياد إلى دار عبد الله بن عفيف، فكسروا الباب، واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: «أتاك القوم من حيث تحذر»، فقال: «لا عليكِ ناوليني سيفي»، فناولته إياه، فجعل يذبّ عن نفسه، وهو يقول:

أقسم لو يفسح لي عن بصري ضاق عليك موردي ومصدري

وأخذ أسيراً، وأدخل على ابن زياد، فقال ابن زياد: «ماذا تقول يا عبد الله في أمير المؤمنين عثمان بن عفان؟».

فقال: «يا عبد بني علاج، يا ابن مرجانة - وشتمه - ما أنت وعثمان بن عفان؟ أساء أم أحسن، وأصلح أم أفسد، والله تعالى وليّ خلقه، يقضي بينهم وبين

عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عنك وعن أبيك، وعن يزيد وأبيه»، فقال ابن زياد: «لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت غصّة بعد غصّة»، فقال عبد الله بن عفيف:

«الحمد لله رب العالمين، أما أنّي قد كنتُ أسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أمك، وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه، وأبغضهم إليه، فلما كُفَّ بصري يئست من الشهادة، والآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرّفني الإجابة بمنّه في قديم دعائي».

فقال ابن زياد: «اضربوا عنقه»، فضربت عنقه، وصلب في السبخة[1].

ثم اختار ابن زياد فريقاً من أشدّ أعداء آل محمد يقودهم شمر بن ذي الجوشن، ومخفر بن ثعلبة، وأبو بردة بن عوف الأزدي، وطارق بن ظبيان في جماعة من أهل الكوفة، وأمرهم بحمل السبايا والرؤوس إلى دمشق، وإيصالها إلى مقر الخلافة اليزيدية بشكل استعراضي تعبيراً عن النصر الذي حقّقه .

ويبدو أنَّ خطة وضعت من مقر حكومة يزيد؛ لنشر الرعب وتحطيم أيّة حالة ثورية في النفوس... وقد لاقى أهل بيت النبوة عليهم السلام ألواناً من العذاب والأذى ما لم يخطر على بال، وكان أشدَّها على حرائر الرسالة هو عرضهنَّ على الناس دون أن يرعى في ذلك ديناً ولا إنسانية.

ولما كان حمل الرؤوس أمراً غير مألوف فإنّ أنظار الناس تتوجه إلى ذلك، مما دعا منظمي الموكب أن يضعوا الرؤوس وسط الموكب؛ ليُعَرّض النساء إلى مشاهدة المتفرجين، وقد روي أنّ أم كلثوم قالت لشمر: «إذا دخلت

(١) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: ٢٠٣-٢٠٧، وبحار الأنوار: ١١٩/٤٥-١٢١.

بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظّارة، وتقدَّمْ إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل، وينحّونا عنها، فقد خُزينا من كثرة النظر إلينا»، ولخبثه ولؤمه (أمر بضدّ ما سألته بغياً منه وعتوّاً، وسلك بهم على تلك الصفة حتى وصلوا باب دمشق حيث يكون السبي)[١].

وهكذا استمر إلى أن أُدخلوا على يزيد، وهو متغطرس على عرشه، فأمر بالرأس الشريف أن يصلب على باب داره، و(أمر أن يدخلوا أهل بيت الحسين عليه السلام داره، فلما دخلت النسوة دار يزيد لم تبقَ امرأة من آل معاوية إلا استقبلتهن بالبكاء والصراخ والنياحة والصياح على الحسين عليه السلام، وألقين ما عليهن من الحلي والحلل، وأقمْنَ المأتم عليه ثلاثة أيام)[٢].

وحتى زوجة يزيد (لع) هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز لما سمعت الخبر تقنَّعت بثوبها، وخرجت، فقالت ليزيد: «أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ مصلوب على فناء بابي؟» قال: «نعم، فأعولي عليه، وحدّي على ابن بنت رسول الله»[٣].

ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه، وكان ينكث بقضيب من خيزران ثنايا الحسين عليه السلام، ويتمثل بأبيات ابن الزبعرى[٤]: [من الرمل]

---

(١) مثير الأحزان لابن نما: ٩٧، والملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٠، وبحار الأنوار: ١٢٧/٤٥.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٨١/٢ وتاريخ الطبري: ٤٦٢/٥ .

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٨٥/٦٢ وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام لابن الدمشقي :٢٩٣/٢، وبحار الأنوار: ١٤٣/٤٥.

(٤) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٤-٢١٥، وكتاب الفتوح لابن أعثم: ١٢٩/٥، باختلاف طفيف.

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

تلك هي الحقيقة الأموية انكشفت لكلّ ناظر بعد أن تقنّعت وراء اسم الإسلام خمسين سنة، وهنا برزت بنت علي عليها السلام؛ لتسطر أعظم ملحمة كشفت عن الوجه القبيح الذي أخفاه الشرك الأموي، ولا عجب من بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فهي (جديرة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهدّ عزائم الرجال.. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد، وبنت علي، وأخت الحسين، وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحياتها بقيه العقب الحسيني من الذكور.. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء)[1].

لقد دخلت الحوراء عليها السلام في معركة حامية مع يزيد حطّمت كبرياءه، وكشفت كفره، وكفر من نصَّبه، ومن المواقف الحادّة بين يزيد والحوراء في مجلسه عندما قال أحد الحاضرين ليزيد: «هب لي هذه الجارية، - يعني فاطمة بنت الحسين عليها السلام -»، فأخذت بثياب عمتها زينب بنت علي بن أبي طالب... فقالت زينب للشامي: «كذبت والله ولؤمت، والله ما ذلك لك ولا له»، فغضب يزيد، ثم قال: «كذبتِ، إنَّ ذلك لي، ولو شئت أن أفعل لفعلت»، فردّت عليه بحجّة رسالية دامغة قائلة: «كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملّتنا،

(١) العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٦٢/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

وتدينَ بغيرها»، فغضب يزيد واستطار، ثم قال: «إيّاي تستقبلين بهذا؟! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك»، قالت زينب عليها السلام: «بدين الله، ودين أبي، ودين أخي، اهتديتَ أنت وجدّك وأبوك إن كنتَ مسلماً»، قال يزيد: «كذبت يا عدوة الله»، فقالت زينب: «أنت أمير تشتم ظالماً، وتقهر بسلطانك»، فكأنه استحى، فسكت[1].

تلك هي لغة السياسة الأموية، ولم تكن لغة يزيد لتختلف عن لغة عبده ابن زياد إن لم يكن أسوأ، وكان يظن أن يجد الخنوع والذلّ والانكسار غالباً على بنات الرسالة، ولكنه فوجئ بهذا الرد العنيف من قبل الحوراء زينب عليها السلام، وهكذا أثبتت الحوراء (أنَّها كانت بمستوى رسالة أخيها وثورته.. وأنّها لم تكن مجرد امرأة محزونة مكروبة أثقلها هول المصاب وعظم الجريمة، بل كانت امرأة قوية ذات موقف حازم وثابت، وقد ساهمت بلفت الأنظار إلى ثورة الحسين عليه السلام ضد الانحراف الأموي المتسارع، وعملت على تهديم ما بنته دولة الظلم، وظلّت رمزاً للمرأة الرسالية المؤمنة الواعية التي تدرك واجباتها، وما ينبغي عليها القيام به في كلّ ظرف وفي كل وقت)[2].

ومما يدلّك على ذلك خطابها حين سمعت يزيد ينشد أبيات ابن الزبعرى وهو ينكث ثنايا الحسين عليه السلام حيث تصدّت له بخطابٍ حماسي، ثوري بليغ أخرس الألسن، وحيَّر العقول، وأذهل النفوس، قالت سلام الله عليها:

«الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمد وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول:

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ١٢١/٢، والاحتجاج للطبرسي: ٣٥٣/٢-٣٥٤، وتاريخ الطبري: ٤٦١/٥-٤٦٢.

(٢) موسوعة الثورة الحسينية: ٢٠٦/٧-٢٠٧.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[1].

أظننتَ يا يزيد - حيث أخذتَ علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء - أنَّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامةً!! وأنَّ ذلك لعظيم خطرك عنده!! فشمختَ بأنفك، ونظرتَ في عطفك، جذلاً مسروراً، حين رأيت الدّنيا لك مُسْتوسِقَةً، والأمور مُتَّسِقَةً، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجلّ: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ ﴾[2].

أمِنَ العدل يا ابن الطّلقاء، تخديرك إماءك، ونساءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا؟! قد هتكت ستورهنَّ، وأبديت وجوههنَّ، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنَّ أهل المنازل والمناهل، ويتصفّح وجوههنَّ القريب والبعيد، والدنيّ والشريف، ليس معهنَّ من رجالهنَّ وليّ، ولا من حماتهنَّ حميّ.

وكيف تُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟!

وكيف يستظلّ في ظلّنا أهل البيت من نظر إلينا بالشّنف، والشّنآن، والإحن، والأضغان؟!

ثم تقول غير متأثّم ولا مستعظم:

فأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا: يا يزيد لا تُشلْ

منتحياً على ثنايا أبي عبد الله عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة، تنكتها

---

(١) الروم: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٧٨.

بمخصرتك.

وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريّة محمّد صلى الله عليه وآله ، ونجوم الأرض من آل عبد المطّلب؟! وتهتف بأشياخك، زعمت أنّك تناديهم!

فلتردنَّ وشيكاً موردهم، ولتودَّنَّ أنّكَ شُللتَ وبُكمتَ، ولم تكن قلتَ ما قلتَ، وفعلتَ ما فعلتَ.

اللهُمّ، خذ بحقّنا، وانتقم ممن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله ما فريتَ إلا جلدك، ولا حززتَ إلا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحمّلت من سفك دماء ذرّيته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، وحيث يجمع الله شملهم، ويلمُّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1].

وحسبك بالله حاكماً، وبمحمّد صلى الله عليه وآله خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك، ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلاً، وأيّكم شر مكاناً، وأضعف جنداً.

ولئن جرت عليَّ الدَّواهي مخاطبتكَ، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصّدور حرّى .

ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشّيطان الطّلقاء! فهذه الأيدي تنضح من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر

(١) آل عمران: ١٦٩.

الزّواكي تتناهبها العواسل، وتعفوها أمّهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنماً؛ لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدَّمَتْ يداك، وما ربّك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى، وعليه المعوّل.

فكِدْ كيدَكَ، واسعَ سعيَك، وناصِبْ جهدَك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها.

وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المناد: ألا لعنة الله على الظالمين.

فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة.

ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنَّه رحيمٌ ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

وهذا الخطاب من روائع الأدب الثوري في الإسلام حيث كشف لنا عن قوّة شخصية الحوراء زينب عليها السلام في جميع نواحيها الفكرية، والبلاغية، والنفسية، والعمق العلمي، والدراية الدقيقة بمخططات الأعداء، وما كانوا يهدفون إليه، (ثم إنَّ هذه الخطبة التأريخية القاصعة لا تزال تنطق ببطولات الحوراء الخالدة، وجرأتها النادرة، وقد احتوت النفس القوية الحساسة الشاعرة بالمثالية الأخلاقية الرفيعة السامية، وسيبقى هذا الأدب الحيّ صارخاً في وجوه الطغاة الظالمين على مدى الدهر، وتعاقب الأجيال، وفي كلّ ذكرى لواقعة الطفّ الدامية المفجعة)[2].

ويمكن أن نستنتج من الخطاب ما يأتي:

---

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٥-٢١٨، وبحار الأنوار: ١٣٣/٤٥-١٣٥، وبلاغات النساء لابن طيفور: ٣٥-٣٦ مع اختلاف طفيف.

(٢) القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٨١/٣.

١- لقد كشفت الظنّ الزائف ليزيد - بل لجميع الطغاة على طول التاريخ حسبانهم أنّ ما حقّقوه من غلبة على أعدائهم بالظلم، والعدوان كرامة وقوة وعظمة... وهو في حقيقته ضعف، وخسارة؛ لأنه تجاوز على حدود العقل والشرع والمنطق السليم، واستشهدت بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1].

أي أنّهم وقعوا في مسلسل سنة الاستدراج، وهي سنة تلقي بالإنسان في الهاوية إن لم يلتفت لنفسه.

٢- كشفت عمق الجريمة الأموية في هتك حرمات العائلة النبوية من خلال الاستعراض العام لحرائر آل محمد صلى الله عليه وآله من بلد إلى بلد، وهي جريمة لا تدانيها جريمة أخرى، وهي سبي بنات رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ما لم تعرف له الإنسانية مثيلاً في سابق عهدها.

٣- أعادت للأذهان أنّ ما أقدم عليه يزيد هو امتداد لإقدام جدّته هند، وجدّه أبو سفيان في حرب الرسول صلى الله عليه وآله، وأنّ هذه الجريمة هي امتداد لتلك الجريمة التي أقدمت عليها جدّته حين مضغت كبد حمزة عم الرسول ... وأنَّ هذا العداءَ اليوم نابعٌ من ذلك، حين نظر أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالعداء والبغض والأحقاد، التي هي امتداد للأحقاد الجاهلية... فيزيد وأبوه في حربهم لآل رسول الله صلى الله عليه وآله في الحقيقة هو بقاؤهم على جاهليتهم، وكفرهم، وتستّرهم بالإسلام، وتسلّقهم على عرش الخلافة... وأنَّ كل ما أقدم عليه يزيد هو لأحقاد جاهلية متأصّلة في نفوس معاوية ويزيد، وجميع السائرين في ركابهم.

(١) آل عمران: ١٧٨.

٤- ثم تُعْلِم يزيد بقصر مدته، وما سيقع فيه من ندم وحسرة يوم يقف بين يديّ الله، ويتمنى لو أنّه انشلّت يداه، وبكم لسانه لما سيلاقيه من عذاب الله الأليم.

٥- ثم أوضحت حقيقة إلهية أنّ كل جريمة، أو فعل قبيح يقدم عليه الإنسان إنما يضرّ بها نفسه، ويحرق بها مستقبله، فلا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولهذا تخاطب يزيد قائلة: «فوالله ما فريتَ إلا جلدك، ولا حززتَ إلا لحمك»، وإنَّ الموت الحقيقي قد حلَّ بك وبأضرابك وأسلافك، وإنَّ الحياة الخالدة منحت للذين قتلتهم، ومثّلت بأجسادهم، ورفعت رؤوسهم على الرماح، وأكدّت ذلك باستشهادها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1].

٦- ورغم ما أقدمت عليه يا يزيد من جريمة شنيعة، فإنَّ مصيرَك إلى بؤس وعذاب؛ لأنّك خاصمت الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ومن كان الله خصمه أفلج حجته، وأهلكه في الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

٧- ثم تستصغر قدر يزيد، وتستحقره، وتهونه، وتهينه بعبارة دامغة رائعة فتقول: إنّني أكبر من أن أخاطبك، وأنت أحقر من أن أقَرِّعَك، وأوبخك؛ لأنّك أصغر وأحقر من أن توبّخ، فحتى التوبيخ والتقريع في حقّك كثير، فما أنت إلا كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، وهل تنتفع الأنعام بالتوبيخ والتقريع... والحقّ أنّنا لا نجد عبارة تحقير وتصغير لطاغوت متغطرس على سريره أدقّ، وأبلغ، وأعمق من قولها عليها السلام:

«ولئن جرت عليَّ الدَّواهي مخاطبتكَ، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم

(١) آل عمران: ١٦٩.

تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصّدور حرّى».

٨- ثم تبدي عجبها واستغرابها؛ لتسلّط حزب الشيطان المجرم على الأولياء من حزب الله تعالى النّجباء الأطهار الأزكياء، ولا تزال أيدي المجرمين ملطّخة بدماء الأطهار الأبرياء، وها هي جثث الطاهرين ملقاة على أرض المعركة تنتابها الوحوش، ورغم ذلك كلّه لا تحسب يا يزيد أنّك فزت وانتصرت، ولا تتصوّر أنّك غنمتَ بقتلنا وسبْينا؛ فإنّك سوف تجدنا خصماءك وغرماءك بين يدي الله تعالى، وستجد أعمالك الإجرامية شاخصة أمامك...

٩- ثم تتحدّاه أن يحقّق أهدافه التي يصبو إليها، وهي محو ذكر أهل البيت عليهم السلام، وإماتة وحيهم... فإنّه أضعف من ذلك، ولن يستطيع لا هو، ولا سواه، ولا يمكن أن يبلغ مداهم، ولا تذهب عنه ما جنته يداه أبداً.

١٠- ثم تقول له: إنّ رأيك ضعيف هزيل، وعمرك قصير، وأيامك معدودة، وأعدادك لا محال مبدّدة... فلا تغترّ بما تملك فما دولتك إلا كظلّ زائل...

١١- ثم تحمد الله وتشكره على النعم العظيمة التي أفاضها على آل محمد صلى الله عليه وآله حيث ختم لأولهم - وهو رسول الله صلى الله عليه وآله - بالسعادة والمغفرة في الدنيا والآخرة، ولآخرهم وهو الحسين عليه السلام (على احتمال) بالشهادة والرحمة...

وتختم خطابها بالتوسل بالله تعالى بأن يكمل لها ولهم المزيد من الثواب، ويحسن قيامها بخلافة الحسين عليه السلام في أداء دورها الذي أناطه رسول الله صلى الله عليه وآله بها.

نِساءٌ أُخريات شارَكْنَ في واقِعَةِ الطَّفِ:

لم تكن نساء أهل البيت عليهم السلام وحدهنّ قد شاركن الحسين وصحبه في واقعة الطف، وإنّما هناك نساء أخر كان لهنّ دورٌ فعالٌ ومؤثرٌ في المعركة؛ قبلها وفيها وبعدها، بل إنّ البعض من النساء لم تكتفِ (باستنكار الموقف المخزي الذي وقفته الدولة الأموية وأعوانها من الحسين عليه السلام في معركة الطف، وإنما قيام بعضهن بالمشاركة في هذه المعركة، ومرافقة أزواجهن وبنيهن إلى كربلاء، وبذل جهود كبيرة لحثّهم على الدفاع عن الحسين عليه السلام، بل والنزول إلى الساحة بأنفسهنَّ للمشاركة، وقد قتلت إحداهن فعلاً في تلك الساحة)[1]، كما سيتضحّ لنا ذلك من خلال التتبّع لمواقفهن.

ونحن نذكر بعضاً من ذلك:

١ - **مارية ابنة سعد**: وهي نموذج نسائي يتّسم بالوعي والتحضير للمعركة، فقد كان بيتها مركزاً يجتمع فيه الشيعة؛ ليتحدّثوا في فضائل أهل البيت عليهم السلام، وقال يزيد بن نُبَيط من عبد القيس لأولاده وهم عشرة: «أيّكم يخرج معي؟»، فانتدب معه ابنان له: عبد الله وعبيد الله، فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: «إنّي قد أزمعتُ الخروج، وأنا خارج»، فقالوا له: «إنّا نخاف عليك أصحاب ابن زياد»، قال: «إنّي والله لو قد استوت أخفافهما بالجَدَد لهان عليَّ طلب من طلبني»، وصحبه عامر، ومولاه، وسيف بن مالك، والأدهم بن أمية، فوافوا الحسين عليه السلام بمكة، وضمّوا رحلهم إلى رحله حتى وردوا كربلاء، وقتلوا معه[2].

---

(١) موسوعة الثورة الحسينية: ٢١٢/٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥٤/٥، وإبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للسماوي: ١٨٩-١٩٠.

٢- **طوعة**: وهي امرأة كانت للأشعث بن قيس، فأعتقها، فتزوجها أسيد الحضرمي، فولدت له بلالاً، وقصتها مع مسلم معروفة[١]... إلا أنّ جلالة موقفها يتجلّى لنا من خلال إيوائها لمسلم، وهي تعرف به، وتعرف قسوة ووحشية ابن زياد، وما سيحلّ بها لو كشف اختفاء مسلم عليه السلام في بيتها، ورغم ذلك كلّه أخفته، وتحمّلت كلّ المصاعب والمصائب، وهي دلالة على قوة إيمانها، وعمق ولائها، ولم يكشف لنا التاريخ عن مصيرها بعد ذلك...

٣- **دلهم بنت عمرو**: وهي زوجة زهير بن القين كان لها الدور الفاعل والمؤثر في تغيير موقف زهير؛ فحين تلكأ عن الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام له لنصرته انبرت بكلّ جرأة وشجاعة إيمانية إلى زوجها، فنادته بروح فيّاضة بالإيمان والقداسة لأهل البيت النبوة، فقالت: «أيبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه! سبحان الله! لو أتيته فسمعتَ من كلامه، ثم انصرفتَ»[٢].

وموقفها هذا هو الذي دفع زهير إلى الذهاب إلى الحسين عليه السلام ورجوعه مستبشراً قد أسفر وجهه، وفوراً يأمر بضمّ ركبه إلى ركب الحسين عليه السلام، وكان له ذلك الدور الفاعل موعظة للقوم، وحرباً لأعداء الله ...

وهكذا دخل التاريخ من أوسع أبوابه بكلمة قصيرة من زوجته دلهم رحمها الله وحينما رجع إليها زوجها قائلاً: «أنت طالق، فإني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلا خير، وقد عزمتُ على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بروحي وأقيه بنفسي»، ثم أعطاها مالها، وسلّمها إلى بعض بني عمّها ليوصلها إلى أهلها، فقامت

---

(١) راجع ذكر خبرها في: الإرشاد: ٥٤/٢-٥٦، ومناقب آل أبي طالب: ١٠١/٤-١٠٢، وجمل من أنساب الأشراف للبلاذري: ٣٣٨/٢، والبداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ١٦٦-١٦٧ .

(٢) تاريخ الطبري: ٣٩٦/٥ .

إليه وودّعته وبكت، وقالت: «خار الله لك، أسألك أن تذكرني في يوم القيامة عند جدّ الحسين عليه السلام»[١].

٤ - **أم عمرو بن جنادة**: وهي امرأة جاءت مع زوجها وولدها، فاستشهد زوجها مع الحسين عليه السلام، وكان لها ولد اسمه عمرو، فأمرته أن يقاتل بين يدي الحسين عليه السلام قائلة: «يا بني، اخرج فقاتل بين يدي ابن رسول الله حتى تقتل»، فقال: «أفعل»، فخرج، ولما استأذن الحسين قال عليه السلام: «هذا شاب قتل أبوه، ولعلّ أمه تكره خروجه»، فقال الشاب: «أمي أمرتني يا بن رسول الله»، فخرج، وهو يقول :

أميري حسين ونعم الأمير ... سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه ... فهل تعلمون له من نظير

ثم قاتل، فقتل، وحزّ رأسه، ورمي به إلى عسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أمه رأسه، وقالت له: «أحسنت يا بني! يا قرة عيني، وسرور قلبي»... وأخذت عمود خيمة، وحملت على القوم، وهي تقول :

أنا عجوز في النسا ضعيفة ... باليةٌ خاويةٌ نحيفة
أضربكم بضربة عنيفة ... دون بني فاطمة الشريفة

فأمر الحسين عليه السلام بردّها إلى المخيم، ودعا لها[٢].

هذا هو موقف الإيمان، والإخلاص، والتضحية بكل غالٍ ونفيس، امرأة يستشهد زوجها فلم تبالِ، ولم تتراجع، ويزداد دافعها إلى الفداء، فتدفع فلذّة

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٣ .

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٥/٢-٢٦ .

كبدها إلى المعركة، ثم تندفع هي بنفسها؛ لتقاتل بين يدي الحسين عليه السلام، ولو فتّشنا طوايا التاريخ التضحوي؛ لنجد مثل هذه المرأة، فلا نجد إلا القليل النادر...

٥- **أم وهب بنت عبد**: وهي زوجة عبد الله بن عمير بن عباس الكلبي، وكان هذا الرجل بطلاً شجاعاً شريفاً، نزل الكوفة ومعه زوجته أم وهب.

وعند قدوم الحسين عليه السلام إلى الكوفة رأى ما يجري من استعداد لمقاتلته، وتجمّع قوى الضلال بالنخيلة يُعرَضون ليسرَّحوا إلى الحسين عليه السلام، فسأل عنهم، فقيل له: «يسرّحون إلى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»، فقال: «والله لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصاً، وإني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إيّاي في جهاد المشركين»، ثم دخل على امرأته، فأخبرها بما سمع، وأعلمها بما يريد، فقالت: «أصبتَ أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك».

فخرج بها ليلاً حتى أتى الحسين عليه السلام، فأقام معه، ثم استأذن أبو وهب الحسين عليه السلام للمبارزة، ولما برز للقتال، راح يجندل الفرسان، ولما قطعت أصابع كفه اليسرى بضربة وجّهها له سالم مولى يسار أقبل نحو الحسين عليه السلام وهو يرتجز أمامه:

إن تنكروني فأنا ابن كلبِ ... حسبي بيني في عُلَيم حسبي
إنّي امرؤٌ ذو مِرّة وعصب ... ولستُ بالخوّار عند النكب
إنّي زعيم لك أم وهب ... بالطعن فيهم مُقدِماً والضرب
ضربِ غلام مؤمن بالربِّ

وما أن رأت أم وهب بطولة زوجها حتى أخذت عموداً، وأقبلت نحو

زوجها، وهي تقول: «فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد صلى الله عليه وآله»، فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، وتقول: «إني لن أدعك دون أن أموت معك»، ولما كانت يده اليمنى قابضة على السيف، واليسرى مقطوعة الأصابع لم يستطع ردَّها، جاء الحسين عليه السلام، وقال: «جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ، فإنّه ليس على النساء قتال»، فانصرفت إليهنّ[١].

وعندما استشهد زوجها مشت إليه، وجلست عند رأسه، تمسح التراب عنه، وتقول: «هنيئاً لك الجنة، أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك»، واستجاب الله لدعاء أم وهب حيث أمر الخبيث شمر غلامه رستم أن يضرب رأسها بالعمود، فاستشهدت مكانها[٢].

ويقول المؤرخون: إنّها أوّل امرأة قتلت من أصحاب الحسين عليه السلام[٣].

تلك هي الروح التي تألّقت في حبّها لله وأوليائه، وارتفعت إلى مستوى التضحية والفداء مستبشرة بما تلقى من مصائب ومصاعب... وهذا هو سرّ الفداء، إنّه حبّ الله ورسوله وأهل بيته... وطلب رضوان الله تعالى دون سواه ...

٦- **أم وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي**: إنّ وهباً هذا كان نصرانياً، فأسلم هو وأمه على يد الحسين عليه السلام، وخرج مع الحسين عليه السلام هو وأمه وزوجته، فقالت له أمُّه: «قم يا بنيّ، فانصر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»، فقال: «أفعل يا أمّاه، ولا أُقصر إن شاء الله»، فبرز وهو يرتجز ويقول:

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٤٢٩/٥-٤٣٠، إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٧٩-١٨١ .

(٢) ينظر: إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٨١ .

(٣) بحار الأنوار: ١٧/٤٥ .

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي سوف تروني وترون ضربي

ثم حمل، فلم يزل يقاتل حتى قتل جماعة، فرجع إلى أمّه وامرأته، فوقف عليهما، فقال: «يا أماه، أرضيت عني؟» فقالت: «ما رضيت، أو تقتل بين يدي ابن بنت رسول الله»، فقالت امرأته: «أسألك بالله لا تفجعني بنفسك»، فقالت له أمّه: «لا تسمع قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله ليكون غداً شفيعك عند ربّك»، فرجع ولم يزل يقاتل حتى قتل تسعة عشر فارساً، واثني عشر راجلاً، ثمّ قطعت يداه، فأخذت امرأته أو أمه عموداً، وأقبلت نحوه، وهي تقول: «فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين حرم رسول الله»، فأقبل كي يردّها إلى النساء، فأخذت بجانب ثوبه، وقالت: «لن أعود أو أموت معك»، فقال الحسين عليه السلام: «جزيتم من أهل بيتي خيراً، ارجعي إلى النساء رحمك الله»، فانصرفت، ولما قتل ذهبت امرأته أو أمه تمسح الدم عن وجهه، فأمر شمر غلاماً له، فضربها بعمود فشدخها وقتلها[1].

وحديثها متداخل مع حديث أم وهب بنت عبد زوجة عبد الله بن عمر الكلبي ... وكلتاهما تقدمتا بروح ولائية متفانية في سبيل الله تعالى .

٧- **امرأة من بكر من وائل**: روى حميد بن مسلم قال: «رأيت امرأة من بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد فلمّا رأت القوم قد اقتحموا على نساء الحسين عليه السلام فسطاطهنّ وهم يسلبونهنّ، أخذت سيفاً وأقبلت نحو الفسطاط، فقالت: يا آل بكر بن وائل: أتسلب بنات رسول الله، لا حكم إلا لله، يا ثارات رسول الله، فأخذها زوجُها، وردَّها إلى رحله»[2].

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٧/٤٥، ومقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ١٥/٢-١٦ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨/٤٥ .

ويبدو هنا أنّ المرأة عندما خرجت لم تكن عارفة بالأمر فلما انكشفت لها الحقيقة ثارت ثائرتها... إلا أنّ زوجها جبن ولم يسلك مسلكها.

٨- **زوجة مالك بن نسر الكندي**: لما ضعف الحسين عليه السلام عن القتال وقف ليستريح، فجاءه رجل من كندة يقال له: مالك بن نسر [اليسر]، فشتم الحسين عليه السلام، وضربه بالسيف على رأسه، وكان عليه برنس فامتلأ دماً، فقال له الحسين عليه السلام: «لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك الله مع الظالمين»، ثم ألقى البرنس، ولبس قلنسوة، واعتمّ عليها، وقد أعيى وتبلَّد، وجاء الكندي وأخذ البرنس، وكان من خز، فلما قدم به بعد الواقعة على امرأته، فجعل يغسل الدم عنه، فقالت له امرأته: «أتسلب ابن بنت رسول الله وتدخل بيتي؟! اخرج عني حشا الله قبرك ناراً»، فلم يزل بعد ذلك فقيراً بأسوأ حال، ويبست يداه إلى أن مات، وكانتا في الشتاء تنضحان دماً، وفي الصيف تصيران يابستين كأنهّما عودان[1].

وهذا أيضاً موقف شريف ينمّ عن إيمان وورع، ارتفع بهذه المرأة أن تنفصل عن زوجها، وتطرده من بيتها استنكاراً لهذه الجريمة الفظيعة التي ألبسته العار في الدنيا والآخرة.

٩- **النوار بنت مالك**: وهي أنموذج آخر من النماذج التي استنكرت الجريمة أيّما استنكار كسابقتها وخلاصة موقفها: لما قطع رأس الحسين عليه السلام على يد شمر أو سنان (سرح عمر بن سعد برأس الحسين عليه السلام من يومه ذلك مع خولي بن يزيد وحُميد بن مسلم الأزدي إلى عبيد الله بن زياد، فأقبل به خولي، فوجد باب القصر مغلقاً، فأتى منزله، فوضعه تحت إجانة في الدار، ثم دخل

(١) ينظر: مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ٣٩/٢-٤٠، وبحار الأنوار: ٥٣/٤٥.

البيت، فأوى إلى فراشه، فقالت له امرأته وهي النّوار بنت مالك الحضرمية: ما الخبر؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معكِ في الدار، قالت: فقلت: ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة، وجئتَ برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ، والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً، قالت: فقمت من فراشي، فخرجت، وجلست أنظر، فوالله ما زالت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت طيراً بيضاً ترفرف عليها)[1].

١٠- **زوجة علي بن مظاهر**: وهي أنموذج آخر من النماذج التي أبت الانصراف إلى بني عمّها حين قال الحسين عليه السلام لأصحابه: «ألا ومن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلى بني عمّها، لأني غداً مقتول ونسائي تسبى»، وما أن سمعت الخبر من زوجها حيث أذن لها بالانصراف قائلاً: «قومي حتى ألحقك ببني عمك بني أسد»، قالت له:

«والله ما أنصفتني يا ابن مظاهر، أيسرُّك أن تسبى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا آمنة من السبي؟

أيسرّك أن تسلب زينب إزارها من رأسها وأنا أستتر بإزاري؟

أيسرّك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها، وأنا أتزين بقرطي؟

أيسرّك أن يبيض وجهك عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ويسودّ وجهي عند فاطمة الزهراء.

والله، أنتم تواسون الرجال، ونحن نواسي النساء».

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام وهو يبكي، فقال له الحسين عليه السلام:

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٤٦٣/٢٠-٤٦٤، والكامل في التأريخ: ٨٠/٤.

«ما يبكيك؟»، فقال: «سيدي، أبت الأسدية إلا مواساتكم»، فبكى الحسين عليه السلام، وقال: «جزيتم منّا خيراً»[١].

وهكذا من خلال التتبّع الدقيق لما دوّنه المؤرخون حول ثورة الحسين عليه السلام نجد كثيراً من هذه المواقف المشرفة، وإن كانت على المستوى الفردي إلا أنّها تعبّر عن استنكار للجريمة، وراحت هذه المواقف تتجمّع حتى انفجرت ثورة هنا وهناك...

والأعجب من ذلك أنّ استنكار الجريمة يتمثل في بيوت المجرمين على أعلى المستويات، نذكر منها: مرجانة أم ابن زياد؛ فقد استنكرت عليه قتله للحسين عليه السلام، وقالت: «يا خبيث، قتلت ابن رسول الله، لا ترى الجنة أبداً»[٢].

وحتى دار الخلافة اليزيدية شملها الاستنكار، ودخلها العزاء الحسيني، فعند وصول بنات رسول الله سبايا إلى دمشق، وأدخلن (دار يزيد لم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين عليه السلام، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً)[٣].

ولما أدخلوا السبايا على يزيد، ووضعوا الرأس بين يديه، وحدثوه سمعت الحديث هند بنت عامر بن كريز، وكانت تحت يزيد، فتقنعت بثوبها وخرجت، وهي تقول ليزيد: «أرأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟»، فأجابها: «نعم، فأعولي عليه وحدّي على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤].

---

(١) الحائري، معالي السبطين: ٣١٧/١.

(٢) الكامل في التأريخ: ٦٣/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٨٤/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٨٥/٤.

لقد هزَّ قتل الحسين عليه السلام كلّ الأوساط الاجتماعية، وعلى مختلف المستويات، فزلزل العرش الأموي، ونبّه الأمة على الخطر المحدق بها، ولم يستثن أيّ شريحة في المجتمع الإسلامي، وحتى يزيد نفسه شمله الندم لما رأى ردّة الفعل العنيفة في الناس، وراح يردّد أمام الناس -ليغطي على فضيحته - «والله يا حسينُ، لو كنتُ أنا صاحبك ما قتلتُك»[١].

وقيل دمعت عينا يزيد -دموع التماسيح طبعاً -وقال: «كنت أرضى من طاغيتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أنّي صاحبه لعفوتُ عنه، فرحم الله الحسين»، ولم يصل المخبر بجائزة[٢].

إنّ يزيد أراد أن يلقى باللوم على ابن زياد ليبرئ نفسه من الجريمة كما تقدّم في بحوث سابقة.

(١) الكامل في التأريخ: ٨٥/٤.

(٢) المصدر نفسه:٨٤/٤.

الفصل السابع

الأَبْعادُ الرِّساليّة في ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

لقد جسّدت ثورة الطف الكبرى كلّ أبعاد الرسالة الإلهية العقائدية، والعبادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية، ومثّلت الإسلام بالقول والفعل في أحرج الساعات، وتجلّت فيها أخلاقية حَمَلة الرسالة في أنصع صورة وأروعها، كما أبرزت خطّين فكريين متخالفين في الهدف والأسلوب:

خطّ التوحيد الخالص، وخطّ الشرك المتستّر بالإسلام، وأفرزت الناس إلى محورين متضادّين، وكشفت دخائل النفوس، وأبرزت كلّ التناقضات القائمة في حياة الناس، وبذلك تميّز جند الله عن جند الشيطان.

وخلاصة الكلام: إنّ ثورة الحسين عليه السلام كانت تهدف إلى (تجسيم الإسلام وبلورته عملاً وواقعاً، أي تطبيقه على أرض الواقع - وليس ظاهرياً، ومن أجل العرض المسرحي - ...

وما حادثة كربلاء إلا تجسيدٌ للإسلام بكلّ أبعاده وجوانبه كافة، لكنّه تجسيدٌ مفعمٌ بالحيوية، والروحية المتعالية.

إنّ واقعة الإمام الحسين عليه السلام يبدو أنها جاءت؛ لتعبّر عن عرض مسرحي، حماسي، ونهضوي، ومأساوي، ووعظي، وتبلور للعشق الإلهي، والمساواة الإسلامية، والعواطف الإنسانية، وكلّ ذلك في أعلى أوج ممكن، وبواسطة مختلف صور الأبطال: الشيخ والشاب، المرأة والرجل، الحر والعبد، الراشد

والطفل الرضيع، مع تصوير لكلّ أبعاد الإسلام.

فهي واقعة أرادت التعبير عن التوحيد، كما عن العرفان والعشق الإلهي، والتسليم والرضا، والتضحية في سبيل الله، أملاً بنيل الحق، في نفس الوقت الذي حملت فيه جانب الاعتراض، والتمرد العنيف، ومساندة المحرومين، بالإضافة إلى التعبير عن حماسة أخلاقية وإنسانية، وشجاعة، وحكمة، ووعظ، ومساواة إسلامية، وتجلّ رفيع وسام للعواطف الأخلاقية والإسلامية)[1].

ولنتأمل قليلاً في خطوات التحرك الحسيني لنرى حقيقة ذلك:

ففي الجانب العقائدي: لقد تجسّدت عقيدة التوحيد في كلّ حركة من المسيرة الحسينية، وأبرزت قوة الانشداد إلى خطّ التوحيد، وتجلّت عظمة الاعتصام بالله بأجلى صورة قولاً وعملاً، ومن هذه الصور التي تجلّت في أحاديث الحسين عليه السلام كتابه لأخيه محمد بن الحنفية قال:

«هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، إن الحسين يشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عند الحقّ، وأنّ الجنّة والنار حقٌّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث ما في القبور...»[2].

وواضح في هذه الوصيّة بيان العقيدة الحقّة بالله ورسوله واليوم الآخر، وفي هذا إشارة إلى أنّه خرج لله، ولأجل إعلاء كلمة الله تعالى بإظهار كلمة التوحيد والدفاع عن دين الله في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لإرجاع خطّ الرسالة إلى مساره الأصيل، والدليل على ذلك ما ختم الوصية بها، قال: «إنّي

(١) الشهيد مطهري، الملحمة الحسينية: ٣١٦/٣-٣١٧.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٧٣/١ .

لم أخرج أشراً، ولا بطراً ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ أطلب الإصلاح في أمّة جدي محمد صلى الله عليه وآله أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا صبرتُ حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»[١].

وفي كتابه إلى أهل البصرة يقول عليه السلام: «... وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، فإنّ السنة أميتت، وإنّ البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدِكُم إلى سبيل الرشاد...»[٢].

وفي كتابه لأهل الكوفة: «... فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام»[٣].

إن قوله عليه السلام: «**والحابس نفسه على ذات الله**» يصوّر لنا أسمى درجات التوحيد؛ لأنّه لا يرى في الوجود مؤثراً إلا الله تعالى، وهذا هو التوحيد الخالص.

وفي جوابه لعبد الله بن جعفر عندما قدم له كتاب الأمان من عمرو بن سعيد أمير مكة قال عليه السلام: «أما بعد؛ فإنّه لم يشاقّ من ﴿**دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾[٤]، وقد دعوتني إلى البر والإحسان، وخير الأمان أمان الله، ولن يُؤَمِّنَ الله يوم القيامة من لا يخافه في الدنيا»[٥].

وفي جوابه للطرماح بن عدي عندما أخبره عن أهل الكوفة: «أما والله إنّي

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ٢٧٣/١.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥٧/٥، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٤٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٥٣/٥، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٤٥.

(٤) فصلت: ٣٣.

(٥) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣١٢/١.

لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قُتلنا أم ظفرنا»[١].

وفي خطابه لأهل مكة: «رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين»[٢].

وفي أحرج اللحظات حيث أعيته الجراح، وأضعفه النزف، يرفع طرفه إلى السماء مناجياً ربّه: «صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي رب سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك، يا غياث من لا غيث له، يا دائماً لا نفاد له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كلّ نفس بما كسبت، احكم بيني وبينهم، وأنت خير الحاكمين»[٣].

ومن صور التوحيد والعرفان إقامة الصلاة في ساحة المعركة، والنبال تنهال عليهم كالمطر حتى استشهد أحد أصحابه.

وفي ليلة عاشوراء كان لهم دويٌّ كدويّ النحل بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وقارئ للقرآن.

[من الكامل]

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله إن ضمّتهم الأسحارُ

وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب أنّهم أحرارُ[٤]

ولن نستطيع أن نستقصي كلّ مواقفهم التوحيدية، وما ذكرناه هو غيض من فيض ... ومن أسمى صور التوحيد ما أبرزه الإمام السجاد عليه السلام في معسكر

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٥/٥.

(٢) القاضي النعمان، شرح الأخبار: ١٤٦/٣.

(٣) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٩٧.

(٤) ديوان السيد حيدر الحلي: ٨٤/١.

يزيد حين قطع عليه خطابه بالأذان فعندما قال المؤذن: «الله أكبر»، قال عليه السلام: «كَبَّرْتُ كبيراً لا يقاس، ولا يدرك بالحواس...»، ولما قال المؤذن: «أشهد أن لا إله إلا الله» قال عليه السلام: «شهد بها شعري وبشري، ولحمي، ودمي، ومخي، وعظمي»[1].

هذا في البعد التوحيدي الذي يمثّل العمود الفقري في الإسلام، وأروع الصور التي تجلّى فيها التوحيد الخالص دعاؤه عليه السلام عندما نظر إلى جموع العسكر كأنّها السيل زاحفة نحوه، رفع يديه بالدعاء، وقال: «اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك فكشفته، وفرجته، فأنت وليّ كلّ نعمة، ومنتهى كلّ رغبة»[2].

وأما في **بُعد الرفض والثورة** على النظام القائم فقد تجلّى في مواقفه جميعاً؛ نذكر منها:

١- في قطع الطريق على الناصحين له والمشفقين عندما أعلن رفضه لبيعة يزيد، ولم يكن هؤلاء الناصحين من عامة الناس، بل كانوا من عليَّة القوم، ووجوه الأمة البارزين كابن عباس الذي قال له: «فإن أبيتَ إلا أن تخرج فسِرْ إلى اليمن فإنّ بها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك فيها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس، وترسل وتبثّ دعاتك، فإنّي أرجو

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٧٨/٢، وبحار الأنوار: ١٣٩/٤٥.

(٢) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٣٦، وقد ذكره ابن الأثير في الكامل في التأريخ: ٦٠/٤-٦١، وابن عساكر في تأريخ مدينة دمشق: ٢١٧/١٤.

أن يأتيك عند ذلك الذي تحبّ في عافية».

فقال له الحسين عليه السلام: «يا ابن عم، إنّي والله لأعلم أنّك ناصح مشفق، وقد أزمعتُ السفر»[١].

ومن هؤلاء عبد الله بن عمر بن الخطّاب الذي راح ينصح الحسين عليه السلام بالبيعة، والركون للظلم، فقال له الحسين عليه السلام: «يا عبد الله، أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا عليه السلام يُهدى إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل! [وأن رأسي يُهدى إلى بغيّ من بغايا بني أمية!]، أما تعلم أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً؟ ثم يجلسون يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً فلم يعجّل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ذي انتقام» ، ثم قال له: «اتقِّ الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعن نصرتي»[٢].

٢- وعندما قال له الحرّ: «أمرنا إن لقيناك لا نفارقك حتى نأتي بك على الأمير» كان جوابه حاسماً وقاطعاً قائلاً: «إنّ الموت أدنى [إليك] من ذلك»[٣]، وعندما قال له: «إنّي أذكّرك الله في نفسك، فإنّي أشهد لئن قاتلتَ لَتُقْتَلَنَّ»، فقال له الحسين عليه السلام: «أفبالموت تخوّفني، وهل يعدو بكم الخطبُ أن تقتلوني؟ وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فخوَّفه ابن عمّه، وقال: أين تذهب؟ فإنّك مقتول، فقال: [من الطويل]

---

(١) الكامل في التأريخ: ٣٩/٤، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٧٠-١٧١ .

(٢) ابن نما، مثير الأحزان: ٤١، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٣٨ ، مع اختلاف طفيف.

(٣) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٧٨/٥.

سأمضي فما بالموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقّاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً وباعد مجرما
فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما»[1]

ومن أجلى صور الرفض والثورة على الظلم والظالمين خطابه في جيش ابن سعد عندما أحاطوا به من كلّ جانب ومكان قائلاً:

«ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركَزَ بين اثنتين: بين السِّلّة والذّلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وحجور طهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة: من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة مع قلّة العدد وخذلان الناصر»[2].

وأما **البعد الحماسي**؛ فقد ألهب المشاعر، وأشعل الثورة في النفوس بمواقفه الأبية حتى سُمّي سيد أباة أهل الضيم، ومن مواقفه الحماسية قوله عليه السلام: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»[3].

ويقول بعض الرواة: إنّ الحسين عليه السلام كان في مسيره ينشد هذه الأبيات[4]:

[من الطويل]

إذا المرء لم يحمِ بنيه وعرسه ونسوته كان اللئيم المسببا
وفي دون ما يبغي يزيد بنا غداً نخوض حياض الموت شرقاً ومغربا
ونضرب ضرباً كالحريق مقدماً إذا ما رآه ضيغم راح هاربا

(١) الشيخ المفيد، كتاب الإرشاد: ٨٢/٢.
(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٦ ، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٢٤٤ .
(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٥٨/١.
(٤) القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٣٠٦/٢.

وأما **البعد الأخلاقي** في ثورة الطف؛ فلقد جسّد الحسين عليه السلام كلّ مكارم الأخلاق في حركته المباركة المعطاء، وأبْرَزَ أخلاق الأنبياء مع أعدائه، فلم يعرف قلبه الحقد عليهم وهم يحملون السلاح؛ لتقطيع أوصاله.

ومن أمثلة ذلك سقيه لجيش الحر الذي حاصره، ومنعه من الرجوع، أو الحركة، فعندما التقى جيش الحر الذي أظناه العطش، وقد جاء ليحاصره ويأسره، فحين اقتربوا منه رآهم، (وقد أشرفوا على الهلاك من شدّة الظمأ، فرقَّ عليهم، وغضَّ نظره من أنّهم جاؤوا لقتاله، وسفك دمه، فأمر أصحابه أن يسقوهم، ويرشّفوا خيولهم، وقام أصحاب الإمام عليه السلام، فسقوا الجيش، ثم انعطفوا إلى الخيل، فجعلوا يملؤون القصاع والطساس فإذا عب فيها ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً عزلت، وسقي الآخر حتى سقوا الخيل عن آخرها)[1].

بل أكثر من هذا كان الحسين عليه السلام نفسه يقوم بذلك في بعض الأحيان، قال علي بن الطعان المحاربي: «كنت مع الحر بن يزيد يومئذٍ فجئت في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسين عليه السلام ما بي وبفرسي من العطش قال لي: «أنخ الراوية» فلم أفهم؛ لأن الراوية عندي السقاء. فقال: «أنخ الجمل»، فأنخته، فقال: «اشرب» فجعلت كلما شربت الماء سال الماء من السقاء، فقال الحسين عليه السلام: «أخنث السقاء»، فلم أفهم أنّه أراد اعطفه، ولم أدرِ كيف أفعل، فقام، فعطفه، فشربت، وسقيت فرسي»[2].

سبحان الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، أيّ سموّ هذا؟ وأيّ عظمةٍ هذه؟ التي تجسّدت فيها الأخلاق الإلهية من الرحمة، والرأفة، والعطف، والشفقة على

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٧٤/٣.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٣٠/١، وتاريخ الطبري: ٤٠١/٥.

أعدائه.. ولم يكن هذا من الحسين عليه السلام تكلّفاً، أو افتعالاً، أو ليكسب عطف أعدائه، وإنما خُلُقٌ إلهيٌّ تلقّاه من جدّه وأبيه تربّى عليه، واشتدَّ به عوده، بل يهدف إلى بيان الروح الإنسانية في الإسلام التي لا يعرف الحقد إلى قلوبها سبيلاً.

ومن أمثلة ذلك قبوله لتوبة الحر، وهو الذي جعجع به، وكان السبب المباشر في محاصرته... فعندما رآه نادماً منكسراً طالباً للتوبة قائلاً: «يا ابن رسول الله، جعلني الله فداك، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت القوم يردون عليك ما عرضت عليهم، ولا يبلغون بك هذه المنزلة، وإنّي لو سوّلت لي نفسي أنّهم يقتلونك ما ركبت هذا منك، وإنّي قد جئتك تائباً مما كان مني، ومواسيك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة؟».

أجابه الحسين عليه السلام: «نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما اسمك؟» قال: «أنا الحرٌّ»، قال عليه السلام: «أنت الحرٌّ كما سمّتك أمّك. أنت الحرٌّ في الدنيا والآخرة...»[1].

ومن سموّه الخلقي إنه لم يبدأهم بالقتال رغم تحرّشاتهم الكثيرة من أمثال شمر وغيره.

ومن أمثلة البعد الأخلاقي في الطف إيثار أبي الفضل العباس عليه السلام في عدم شربه للماء وقلبه كصالية الجمر فلما اغترف غرفة من الماء؛ ليشرب ذكر عطش أخيه ومن معه من النساء والأطفال، فرمى الماء من يده، وامتنع أن يروي غليله، وقال:

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام : ١٣/٢ .

يـا نفـس مـن بعـد الحسـين هـوني وبعـــده لا كنـــت أن تكـــوني
هـــذا الحســـين وارد المنـــون وتشـــربين بـــارد المعـــين
تالله ما هذا فعال ديني[1]

ولو فتّشنا طوايا التاريخ القديم والحديث في الشرق والغرب على أن نجد مثل هذا الإيثار لما وجدنا.

وبرزت سمة الوفاء في أصحاب الحسين عليه السلام بشكل لا نظير لـه حتى أن أحدهم كان مضرجاً بدمائه، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه، وعندما وقف عليه الحسين عليه السلام التفت إلى الحسين عليه السلام، فقال: «أوفيتُ [يا ابن رسول الله]؟» فقال له الحسين عليه السلام: «نعم، أنت أمامي في الجنة، فاقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله عني السلام، واعلمه أنّي في الأثر»[2].

وجسّد الحسين عليه السلام مبدأ المساواة، وهو في أشدّ الحالات حراجة، فتراه يقف على أصحابه عند استشهادهم واحداً واحداً من دون فارق؛ فهو يقف على زعيم كبير كحبيب بن مظاهر، والحرّ بن يزيد الرياحي كما يقف على العبد الأسود جون، وعلى واضح التركي؛ فتراه يضع خده على خدّ جون في ساحة المعركة، وهو في لحظاته الأخيرة، ويدعو له، ويقول: «اللهمّ، بَيِّضْ وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمّد وآل محمد»[3]، وعندما يقف على الغلام التركي (واضح) ويضع خده على خده يحسّ الغلام بذلك ويبتسم مسروراً، ثم تفيض روحه إلى بارئها.

(١) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٨١.
(٢) مثير الأحزان: ٦١.
(٣) بحار الأنوار: ٢٣/٤٥.

وأما في جانب **المواعظ العظيمة** التي تقدّم بها إلى جيش ابن زياد فلا تحصر بكلمات بل تمثل دروساً من المعرفة، وسموّاً في الروح، وطهارةً في القلب... ويكشف فيها واقع المجتمع البشري؛ فيقول:

«إنّ النّاس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما دَرّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون»[1].

وهكذا نرى أن الحسين عليه السلام قد جسّد الإسلام في كلّ مواقع حركته، وفي كلّ موقف من مواقفه السياسية، والفكرية، والأخلاقية، والعسكرية، والاجتماعية... إلا أنّ القوم طبع الله على قلوبهم، فواجهوا هذا السموّ بأحط درجات الخسّة التي فاقت وحوش الغابات، وكشفت دناءة النفوس، فلم يكتفوا بقتله، بل قطعوا رأسه الشريف، ورفعوه على الرمح، وداسوا صدره بحوافر الخيول، وتركوه في ميدان المعركة بلا غسل، ولا كفن، ولا دفن، تصهره الشمس.

[من الطويل]

وأيّ شهيدٍ أصلت الشمس جسمه ... ومشهدها من أصله متولّدُ
وأيّ ذبيحٍ داست الخيل صدره ... وفرسانها من ذكره تتجمّدُ
ألم تكُ تدري أنَّ روح محمد ... كقرآنه في سبطه متجسّدُ
فلو علمت تلك الخيول كأهلها ... بأنّ الذي تحت السنابك أحمدُ
لثارت على فرسانها وتمرّدت ... عليهم كما ثاروا بها وتمرّدوا[2]

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٧٤.

(٢) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٣١٧-٣١٨.

عامِلُ التَّبْليغِ

في ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1].

التبليغ في الإسلام هو توصيل أو إيصال الفكرة، أو الحكم أو المفهوم إلى الناس والتعريف به، نقول: بلغ الخبر، أو الرسالة أوصلها إلى من ينبغي أن يوصلها له، وهو نوع تذكير، يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «واصطفى سبحانه من ولده [آدم] أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم -إلى أن يقول:- ليستأدوهم ميثاق فطرته[3]، ويذكّروهم منسيّ نعمته»[4].

ويقول عليه السلام: «فبلّغ الرسالة صادِعاً بها، وحمل على المحجّة دالاً عليها»[5].

ويقول عليه السلام: «فصدع بما أمِرَ، وبلّغ رسالة ربِّه...»[6].

ويقول عليه السلام: «بلغ عن ربه مُعذِراً، ونصح لأمّته منذراً»[7]، وهذه هي المهمّة

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) إبراهيم: ٥.

(٣) أي ليطلبوا منهم أداء ما ألزمهم من الميثاق والعهد.

(٤) نهج البلاغة: ٤٥-٤٦، الخطبة الأولى.

(٥) المصدر نفسه: ٣٠٠، خطبة: ١٨٥.

(٦) المصدر نفسه: ٣٨٠، خطبة: ٢٣٠.

(٧) المصدر نفسه: ١٩١، خطبة: ١٠٨.

الأولى والأَوْلى للأنبياء، ومن سار على هَدْيهم إلى يوم القيامة، يقول تعالى :

﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[١].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٢].

ويمكن أن نقول: إنّ التبليغ عملية إعلامية؛ لنشر الإسلام وترويجه في المجتمع الإنساني لإسعاده في الدنيا والآخرة .

وهناك فرق بين الإعلام الإسلامي، والإعلام السياسي السائد اليوم، حيث إنّ الإعلام الإسلامي يطرح الحقيقة كما هي من دون لفّ ودوران وخداع وتزييف، وأما الإعلام السياسي الذي يحاك في دهاليز السياسة؛ فإنّه يتبع شتى الأساليب لخداع الجمهور، وتضليلهم، والاستحواذ على مشاعرهم، وتحريف أفكارهم.

ونذكر لذلك مثالاً واحداً هو: (ما قام به نابليون بونابرت حينما حاول غزو مصر عام ١٧٩٨م؛ ليستعبد أهلها، ويستغل ثرواتها، فقد ادّعى أنّه قدم؛ لينتشل المصريين من براثن ظلم المماليك، وخلع على نفسه لقب حامي الإسلام، بل تطرف في تبجحه ونفاقه فادّعى أنّه مسلم... ولم يمض وقت طويل حتى كانت خيول الغزاة الأفاقين تدوس الجوامع، وتضرب الثوّار بكلّ قسوة وعنف)[٣].

هذا مثال واحد يعطينا صورة واضحة عن أساليب المكر والخداع في الإعلام السياسي الذي أصبح اليوم علماً قائماً بذاته، ومدارس متعددة لها مميزاتها وخصائصها، وفُتحت له في كلّ دولة جامعات ومعاهد خاصة به، ولكلّ

(١) العنكبوت: ١٨ .

(٢) الشورى: ٤٨ .

(٣) صلاح نصر، الحرب النفسية : ٧٥.

مدرسة مناهج، وأساليب، وأدوات منفردة بها.

ولما كان التبليغ هو مسلك الأنبياء والمرسلين، وقد عانوا من أجله كثيراً من الأذى والتعذيب والاضطهاد، بل القتل والتشريد والسجن، فهو وظيفة إسلامية تقع على عاتق المسلمين جميعاً، حيث جاءت النصوص القرآنية صريحة في وجوب الدعوة والتبليغ على كلّ قادر عليه وعارف بفنونه يقول تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

ولا يقتصر التبليغ على الدعوة القوليّة في بيان المفاهيم، وإنّما يشمل الدعوة بالسلوك المستقيم، أي إنّ الداعية المبلّغ يجب أن يجسّد الإسلام في سلوكه وأخلاقه ليكون قدوة وإسوة، وهذا ما عبّرت عنه الأحاديث الشريفة بالدعوة الصامتة؛ لأنّه يجذب القلوب إليه بلا تكلّف، ولعلّ هذا هو المقصود من الحديث المشهور عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «... وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً، ولا تكونوا شيناً»[3].

وقال عليه السلام: «كونوا دعاة للنّاس بغير ألسنتكم؛ ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية»[4].

وعن أبي الحسن الأول عليه السلام: «ليس من شيعتنا من لا تتحدّث المخدَّرات بورعه في خدورهنّ، وليس من أوليائنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) فصلت: ٣٣.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٧/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٧٨/٢.

فيهم [من] خلق الله أورع منه»[١].

وهذا النوع من التبليغ الذي يمكن أن نسمّيه التبليغ الصامت أكثر أثراً، وأعمق تأثيراً في النفس، لأنّه دلالة على الصدق والإخلاص، وعلى محتوى داخليّ زكيّ طاهرٍ، وهو أكثر جاذبية للنفوس من الدعوة الكلامية؛ لأنّ الاستقامة السلوكية داعية للتأسّي والاقتداء، فهنيئاً لمن يُذكّرُ بالله منظرُه وملتقاه...

والحسين عليه السلام كان من هذا النمط حيث كان الناس عندما ينظرون إليه أو يلتقونه تنجذب إليه قلوبهم، ويذكّرهم بالله، ويرجعهم إليه رغم الدعاية الأموية المضلّلة، والضغوط المتواصلة؛ فقد كان عليه السلام يفرض وجوده وحبّه حتى على المناوئين إليه، قال رجاء بن ربيعة: «كنت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله إذ مرَّ الحسين بن علي عليه السلام، فسلّم، فردّ عليه القوم السلام، وسكت عبد الله بن عمرو، ثم رفع ابن عمرو صوته بعد ما سكت القوم، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أقبل على القوم، فقال: ألا أخبركم بأحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى، قال هذا هو المقفى»[٢].

وابن عمرو بن العاص هذا كان من المعادين لأهل البيت عليهم السلام، ومن المحاربين لهم في صفين إلى جنب معاوية، ورغم ذلك لم يستطع أن ينكر فضل الحسين عليه السلام، وتمنى لو يحظى برضاه؛ ولهذا يقول في آخر الرواية المتقدمة: «والله ما كلّمته كلمة ولا كلّمني كلمة منذ ليالي صفين، ووالله لئن يرضى عنّي أحبُّ إليَّ من أن يكون لي مثل أحد»[٣].

---

(١) الأصول من الكافي : ٧٩/٢.

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٨٦/٩.

(٣) المصدر نفسه.

وعامل التبليغ في ثورة الحسين عليه السلام عامل مهمٌّ وأساسيٌّ وفعّالٌ في كافة تحرّكاته منذ خروجه إلى حين استشهاده، مارسه بجدّ متواصل مع جميع الذين التقاهم، كما واصل أهل بيته الإعلام للثورة في كلّ محطة مرّوا بها إلى أن رجعوا إلى المدينة، ثم استمرّوا على ذلك مما اضطرّ السلطة آنذاك أن تبعد الحوراء زينب عليها السلام إلى مصر، أو إلى الشام كما في بعض الروايات.

وملخّص الكلام: إن الحسين عليه السلام كان مبلّغاً لرسالة الله تعالى بالقول والفعل، وهذا المعنى يتجلّى لنا جيّداً عندما نتأمل في حركة الحسين عليه السلام من ساعة خروجه إلى ساعة استشهاده... فعندما تحرّك من المدينة سلك الطريق الأعظم، فقيل له: «لو تنكّبت الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب»، قال عليه السلام: «لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ»[1].

ومما لا شكَّ فيه أنّه إنّما سلك الطريق الأعظم؛ ليعلن للناس اعتراضه وغضبه وثورته على الحكم الأموي، وهذا المسلك تبليغ عمليٌّ يهدف تحريك الجمهور ضدّ الحكم الأموي، كما أنّ اختياره لمكّة محطّة أولى لهجرته، (وفي تلك الأشهُر تشكل مجالاً واسعاً للاتصال بأكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات من مختلف البلاد الإسلامية).

إنّ تلك الأشهُر بالذات هي محطّ رحال الناس من مختلف البلاد الإسلامية سواء كانت للحج والعمرة، أو للتجارة، وهكذا أوصل صوته وصورته إلى كلّ البقاع الإسلامية وكشف للملأ أجمع جرائم بني أمية، وخططهم لحرب الإسلام؛ فالكلُّ يعرف الحسين عليه السلام أنّه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّه سيد

(١) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ١٤٠.

شباب أهل الجنة، وكما تحدّثنا الروايات أنّه عليه السلام عندما حلّ في مكة كان موضع توجّه الناس إليه، وإقبالهم عليه، قال ابن الأثير: «فأقبل حتى نزل مكة، وأهلها مختلفون إليه، ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق»[١].

وقال ابن كثير: «فعكف الناس على الحسين [بمكة] يفدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه»[٢].

وقال الشيخ المفيد رحمه الله: «وأقبل أهلها يختلفون إليه، ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق...»[٣].

وقال ابن الصباغ : «فأقبل الحسين عليه السلام حتى دخل مكة المشرفة، ونزل بها، وأهلها يختلفون إليه ويأتونه، وكذلك من بها من المجاورين والحجاج والمعتمرين من سائر أهل الآفاق»[٤].

إذن بحلول الإمام الحسين عليه السلام في مكّة يكون قد أعلن ثورته، وأبلغ الناس بما ينوي به، وبذلك أوصل صوته إلى الآفاق الإسلامية جميعاً؛ ولأجل هذا (كان قصده الرئيسي في التوجه إليها [مكّة] هو إبلاغ وفود العالم الإسلامي من المعتمرين والحجّاج بقيامه، ونهضته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طلباً للنصر، وإتماماً للحجّة على الناس)[٥].

هذا يمثّل قيمة تبليغيّة كبيرة، ثم إنّه عليه السلام خطب في مكة قائلاً: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذَّ عن رسول

(١) ابن الأثير، الكامل في التأريخ: ٢٠/٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٦٢/٨ .

(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٣٦/٢ .

(٤) ابن الصباغ، الفصول المهمة: ١٧٤ .

(٥) نجم الدين الطبسي، الإمام الحسين عليه السلام في مكة المكرمة: ١٧ .

الله لحمته، بل هي مجموعةٌ له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه، وينجز بها وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، إنّي راحلٌ مصبحاً إن شاء الله»[١].

بل روى الخوارزمي في مقتله أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان لا يصلّي بصلاة أمير مكة بل كان يؤذّن رافعاً صوته؛ ليعلن للناس عدم شرعية حكومة هؤلاء، وسقوط عدالتهم، يقول الخوارزمي: «وكان أمير مكّة من قبل يزيد يومئذٍ عمر بن سعد بن أبي وقاص[٢]، فأقام الحسين عليه السلام مؤذناً يؤذن رافعاً صوته، فيصلي بالناس، وهاب ابن سعد أن يميل الحجاج مع الحسين عليه السلام لما يرى من كثرة اختلاف الناس إليه من الآفاق، فانحدر إلى المدينة، وكتب بذلك إلى يزيد»[٣].

وهذا خير دليل على أنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما اختار مكة في أشهر الحج؛ لكي يوصل صوته إلى جميع الآفاق؛ وليعلن معارضته، واللافت للنظر خروجه يوم التروية، وهو اليوم الذي يفيض به الحجاج إلى عرفات، حيث حلَّ إحرامه، وقطع حجتّه، وكان لذلك أكبر الأثر في نفوس الناس، فقد أثار تساؤلاً حادّاً في نفوس الحجيج، بل أحدث هزّة عنيفة فيها لما يتمتع به من مكانة مقدّسة عند جميع المسلمين، وخروجه هذا بهذه الصورة، وفي يوم التروية بالذات- حيث يفيض الناس إلى عرفة - إعلان بالخطر المحدق بالإسلام والمسلمين من قبل السلطة الأموية الجائرة حيث لم يعد هناك أمانٌ لأيّ مسلمٍ ولو في بلد الأمن والأمان، وحتى لو كان ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّ كلّ مقدّسات المسلمين

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٥٩٣/١.

(٢) هكذا ورد، والصحيح عمرو بن سعيد بن العاص.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٧٧/١.

أصبحت معرّضة للهتك، وبهذا الإعلان الصارخ الشديد كشف المؤامرة الكبرى التي حاكها بنو أمية، لهتك حرمة الإسلام في البيت الحرام بقتله عليه السلام، ولذلك كان يقول:

«وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني، والله ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت، والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلَّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام[١] المرأة»[٢].

وقال لمحمد بن الحنفية : «يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت»[٣].

ومن الأدوار التبليغيّة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام من خلال مسيرته من المدينة إلى مكة، ثم إلى العراق: إنّه ما مرَّ بأحد داخلاً، أو خارجاً من مكة، أو العراق إلا وتحدّث معه، واستفسر منه عن أوضاع الكوفة، ثم دعاه إلى نصرته حتى الناصحين المشفقين عليه الذين نصحوه كثيراً بعدم الخروج كان يدعوهم لنصرته، يقول لعبد الله بن عمر عندما نصحه بالرجوع والمسالمة ليزيد: «أسألك بالله يا أبا عبد الرّحمن، أعندك أنّي على خطأ من أمري هذا؟ فإن كنتُ على خطأ فردَّني عنه، فإني أرجع وأسمع وأطيع»، فقال ابن عمر: «اللهمّ لا، ولم يكن الله تبارك وتعالى ليجعل ابن بنت رسوله على خطأ، وليس مثلك في طهارته وموضعه من الرسول أن يسلم على يزيد بن معاوية باسم الخلافة، ولكن أخشى

(١) الفرام: خرقة الحيض.

(٢) أعيان الشيعة: ٥٩٣/١ .

(٣) المصدر نفسه .

أن يُضرب وجهُك هذا الحسن الجميل بالسيوف، وترى من هذه الأمة ما لا تحبّ، فارجع معنا إلى المدينة، وإن شئت أن لا تبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك»، فقال له الحسين عليه السلام: «هيهات يا ابن عمر، إنَّ القوم لا يتركوني، إن أصابوني وإن لم يصيبوني، فإنّهم يطلبوني أبداً حتى أبايع وأنا كاره، أو يقتلوني [...إلى أن يقول له:...] فاتقِّ الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعنّ نصرتي»[١].

وهكذا استمرّ في دعوته لكلّ من التقاه في الطريق من المدينة إلى العراق كدعوته لعبيد الله بن الحر الجعفي، وزهير بن القين اللذين كان هواهما عثمانياً، فيقول عليه السلام لعبيد الله: «فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟» قال عبيد الله: «وما هي يا ابن رسول الله؟» فقال عليه السلام: «تنصر ابن بنت نبيك، وتقاتل معه»[٢].

وفي رواية الخوارزمي: «وإنّي أدعوك إلى توبة تغسل ما عليك من الذنوب، أدعوك إلى نصرتنا أهل البيت، فإن أُعطينا حقَّنا حمدنا الله تبارك وتعالى على ذلك وقبلناه، وإن مُنعنا حقَّنا وركبنا بالظلم كنت من أعواني على طلب الحقّ»[٣].

وفي خطابه في جيش الحرّ واحتجاجه عليهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول فيه: «أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله... [إلى أن يقول:] نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوة»[٤].

---

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٨٠/١.

(٢) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ١٩٤.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٢٦/١.

(٤) تاريخ الطبري: ٤٠٣/٥.

واستمرّ الإمام الحسين عليه السلام على هذا النهج حتى وهو يخوض المعارك، ينصح، ويوعظ، ويذكر المقاتلين له بالله وبصلته برسول الله صلى الله عليه وآله؛ ففي الساعة التي وقف جيش الحقّ مقابل سيول البغي والضلال نظر الإمام الحسين عليه السلام إلى جمعهم كأنّه السيل رفع يديه بالدعاء، وقال :

«اللهُمّ، أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك فكشفته، وفرجته، فأنت وليّ كلّ نعمة، ومنتهى كلّ رغبة»[1].

ثم دعا براحلته، فركبها، ونادى بصوت عالٍ يسمعه جلُّهم : «أيّها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما هو لحقٌّ لكم عليَّ...».

ثم قال: «أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابنَ بنت نبيِّكم صلى الله عليه وآله، وابن وصيِّه، وابن عمِّه وأوّل المؤمنين بالله ، والمصدِّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أوَ ليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمي؟ أوَ لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة؟» ...»[2].

وفي رواية الزهري أنّه خطبهم غداة اليوم الذي استشهد فيه، وقال: «يا عبادَ الله، اتّقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإنّ الدنيا لو بقيت على أحد، [أو بقي عليها أحد] لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأولى بالرضا، [وأرضى] بالقضاء؛

(١) الكامل في التأريخ: ٤/٦٠-٦١ ، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٢٣٦ .

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٤٢٤-٤٢٥ ، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٢٣٦-٢٣٧ .

غير أن الله خلق الدنيا للفناء، فجديدها بالٍ، ونعيمها مضمحلٌّ، وسرورها مُكْفَهِرٌّ، منزل تَلْعة، ودار قُلْعة؛ فتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلّكم تفلحون»[1].

ونحن إذا تأمّلنا في هذه الكلمات الطافحة بالحرارة الرسالية نجد أنّها تهدف إلى إنقاذ هذا الكمّ الهائل من الناس، يدعوهم إلى الله، وهم شاهرون السلاح بوجهه يريدون سفك دمه! فيا لها من مواقف دعوتية لا تدع عذراً لمعتذرٍ في الدعوة إلى الله تعالى.

فإذن حركة الإمام الحسين عليه السلام هي حركة الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ لرسالته بكلّ أبعادها العقائدية، والروحية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية...

بل يمكن القول: إنّ حمل الإمام الحسين عليه السلام لعياله، وأهل بيته جميعاً؛ لأجل مواصلة الإعلام بالثورة بعد استشهاده عليه السلام، ونحن لا نشك أنّه عليه السلام لو لم يحمل أهل بيته لاستطاع الإعلام الأموي أن يدفن الثورة في عقر دارها، ويخفيها على الناس، ولقالوا: إنّ الإمام الحسين عليه السلام مات حتف أنفه... ولكنّ أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام واصلوا الإعلام والتبليغ الثوري حين أُسروا وسُيِّروا من الكوفة إلى الشام، ثم نُقلوا إلى المدينة، ولم يتوقفوا عن بيان حقيقة الثورة الحسينية، ونفاق ملوك بني أمية، وانحرافهم وتحريفهم لمبادئ وأحكام ومفاهيم الإسلام؛ وبذلك استطاعوا إبطال مفعول الإعلام الأموي الذي أراد أن يمرّر على الجمهور خداعه وأكاذيبه من أنّ هذه السبايا من الخوارج، حيث أقاموا المهرجانات، وزيّنوا المدن[2] ... فرحين بالانتصار على العدوّ الذي قتلوه، ومثّلوا

(١) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: ٩٢/١، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٢٣٧.

(٢) راجع: مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ٦٧/٢.

بأجساد القتلى، وسبوا أهل بيته... ولكن سرعان ما انكشف الزيف الأموي عندما انطلق أهل البيت يُعَرِّفون بأنفسهم، ويُذَكّرون الناس - من خلال خطبهم الثورية الملتهبة - بالله ورسوله واليوم الآخر.

فقد حدّثنا المؤرخون: «أنّ السبايا لما وردوا مدينة دمشق، أدخلوا من باب يقال له باب «توما»، ثم أُتي بهم حتى أقيموا على درج باب المسجد الجامع، حيث يقام السبي، وإذا شيخ أقبل حتى إذا دنا منهم، قال: الحمد لله الذي قتلكم، وأهلككم، وأراح العباد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم.

فقال له [الإمام] علي بن الحسين عليه السلام: يا شيخ، هل قرأت القرآن؟

قال: نعم!

قال عليه السلام: هل قرأت هذه الآية: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[1].

قال الشيخ: قرأتُها!

قال عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ! وهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

قال: نعم!

قال عليه السلام: فنحن أهل البيت الذي خصّصنا بآية الطهارة.

فبقي الشيخ ساكتاً ساعة نادماً على ما تكلَّم، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال:

اللهُمَّ، إنّي أتوب إليك من بغض هؤلاء، وإنّي أبرأ إليك من عدوّ محمّد

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

وآل محمّد من الجن والأنس»[١].

وهكذا واصل أهل البيت عليهم السلام عملهم التبليغي في حلّهم وترحالهم، وشرح حالهم إلى أن وصلوا إلى المدينة حتى صاروا على مشارف المدينة، قال بشير بن حذلم: «لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين عليهما السلام، فحطَّ رحله، وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه، وقال: يا بشر، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قلت : بلى، يا ابن رسول الله، إنّي لشاعر، قال عليه السلام: فادخل المدينة، وانعَ أبا عبد الله عليه السلام».

قال بشر: «فركبتُ فرسي وركضتُ حتى دخلتُ المدينة، فلمّا بلغتُ مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعتُ صوتي بالبكاء، وأنشأت أقول: [من الكامل]

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرارُ

الجسم منه بكربلاء مضرّجٌ ... والرأس منه على القناة يدارُ»

قال: «ثم قلت: هذا علي بن الحسين عليه السلام مع عمّاته وأخواته، قد حلّوا بساحتكم، ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه».

قال: «فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلا برزن من خدورهنّ، مكشوفة شعورهنّ، مخمّشة وجوههنّ، ضاربات خدودهنّ، يدعون بالويل والثبور، فلم أرَ باكياً ولا باكيةً أكثر من ذلك اليوم، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وسمعت جارية تنوح على الحسين عليه السلام... ثم قالت: أيها الناعي، جدّدتَ حزننا بأبي عبد الله عليه السلام، وخدشتَ منا قروحاً لمّا تندمل، فمن أنت يرحمك الله؟

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٦٨/٢-٦٩.

قلت: أنا بشير بن حذلم، وجهني مولاي علي بن الحسين عليه السلام، وهو نازل موضع كذا وكذا مع عيال أبي عبد الله الحسين عليه السلام ونسائه».

قال: «فتركوني مكاني، وبادروني، فضربتُ فرسي، حتى رجعتُ إليهم، فوجدتُ الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلتُ عن فرسي، وتخطّيت رقاب الناس حتى قربتُ من باب الفسطاط، وكان علي بن الحسين عليه السلام داخلاً، فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي، فوضعه له، وجلس عليه وهو لا يتمالك من العبرة، فارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين الجواري والنساء، والناس من كل ناحية يعزّونه، فضجّت تلك البقعة ضجّة شديدة.

فأومأ بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم.

فقال عليه السلام: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين، الذي بَعُدَ فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفواجع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاظعة الكاظة الفادحة الجائحة.

أيها القوم، إنّ الله تعالى وله الحمد ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة: قُتل أبو عبد الله الحسين عليه السلام وعترته، وسبيت نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان، من فوق عامل السنان، وهذه الرزيّة التي لا مثلها رزيّة .

أيّها الناس، فأيّ رجالات منكم يسرّون بعد قتله؟! أم أية عين منكم تحبس دمعها، وتضنّ عن انهمالها؟!

فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار،

والملائكة المقرّبون، وأهل السماوات أجمعون.

أيّها الناس، أيّ قلب لا ينصدع لقتله؟! أم أيّ فؤادٍ لا يحنّ إليه؟! أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصم؟!

أيّها الناس، أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين شاسعين عن الأمصار، كأنّنا أولاد ترك أو كابل، من غير جرمٍ اجترمناه، ولا مكروهٍ ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هذا إلا اختلاق.

والله لو أنَّ النبي تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظَّها، وأفظعها، وأمَرّها، وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا وأبلغ بنا، إنّه عزيز ذو انتقام»[1].

وهكذا استمرّ أهل البيت عليهم السلام يواصلون تبليغ رسالة الله في السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، رغم كلّ المصائب والنوائب، مبشّرين ومنذرين، وتحمّلوا من أجل ذلك كلّ أنواع المحن والمصائب، حتّى[2]: [من الوافر]

قضوا ما بين مقتول بسم ومحزوز الوريد من القفاء

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٢٢٦-٢٣٠ .

(٢) السيد جواد شبر، أدب الطف: ٥٨/١٠ .

التَّحَدّي في ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

امْتِدادٌ للتَّحَدّي

في حَياةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وآله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمنُ أشدُّ في دينهِ من الجبال الرّاسية؛ وذلك أنّ الجبلَ قد ينحت منه، والمؤمنُ لا يقدر أحدٌ على أن ينحت من دينه شيئاً؛ وذلك لضنّه بدينه، وشحّه عليه»[1].

من خلال الصراع بين أتباع مدرسة الهدى وأتباع مدرسة الضلال تبرز مواقف بطولية تبقى محطات نور تمنح القوّة والصلابة والبصيرة والعزم والاستقامة للمؤمنين، وتمنح أصحابها الخلود والبقاء عبر الزمان، وتبقى مناراً على طول الزمن تهتدي بها الأجيال .

ومن أبرز ظواهر التأريخ الرسالي بروز ظاهرة التحدّي للواقع الفاسد، والسلطة الجائرة، ورفض العروض المغرية، فإنّ أئمة الضلال يتبعون شتّى الأساليب؛ ليوقفوا تيار الهدى... فمن أساليبهم تقديم العروض المغرية لدعاة الله تعالى لشراء ضمائرهم، وتخدير عقولهم واحتوائهم ليخرجوهم عن جادّة الصواب.

ومن أساليبهم: القتل، والتعذيب، والسجن، والتشريد، وتوجيه الافتراءات والتهم، ونشر الإشاعات والأكاذيب .

---

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ٧٣٤/٢، وبحار الأنوار للمحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩٩/٦٧ .

وفي حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أمثلة حيّة من ذلك، فقد قدّموا له شتى العروض، والإغراءات نذكر منها ما رواه كعب القرظيّ، قال:

«حُدِّثتُ أنّ عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد وحده: يا معشرَ قريش، ألا أقوم إلى محمد، فأكلّمَه وأعرضَ عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال : يا ابن أخي، إنّك منّا حيث قد علمت من السِّطة[1] في العشيرة، والمكان في النسب، إنّك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم، فرّقتَ به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلَّك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قل يا أبا الوليد، أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً[2] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنّه ربما غلب التابع[3] على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وآله يستمع منه، قال: أقد فرغتَ يا أبا

---

(١) السِّطة: الشرف.

(٢) الرئي بفتح الراء وكسرها: ما يتراءى للإنسان من الجن.

(٣) التابع: من يتبع من الجن.

الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منّي، قال: أفعل؛ فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[1]

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبةُ أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك.

فقام عتبةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قطّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل، وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهرْ على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[2].

هذا مثال واحد من أمثلة التحدّي الفكري، وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهل عتبة ويرجعه إلى قومه؛ ليدعوهم إلى الإيمان به، إلا أنّه لم يوفّق لا هو ولا قريش لهذا الشرف العظيم.

---

(١) فصلت: ١-٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣١٣/١-٣١٤.

ومن أمثلة ذلك يوم اتصلوا بأبي طالب، وقالوا له: «يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه»؛ فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه...

ثم إنّهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: «يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهَه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين...».

ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعدواتهم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «يا ابن أخي، إنّ قومك قد جاءوني؛ فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فابقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق».

قال الراوي: «فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قد بدا لعمه فيه بَداء أنّه خاذله ومسلمه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه»، قال: «فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

قال: «ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فبكى، ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي»، قال: «فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[1].

ولمّا رأت قريش صمود النبي صلى الله عليه وآله بوجه تلك التحديات ومقاومة أبي

(١) راجع: ابن هشام، السيرة النبوية: ٢٨٣/١-٢٨٥ .

طالب، وانتشار الإسلام ازدادت عتوّاً ومواصلة في التعذيب بأبشع أشكاله، قال ابن إسحاق: «ثم إنّ الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إنّ أشراف قريش من كل قبيلة، كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير، وعن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال:

اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم».

قال: «اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلموه، وخاصموه حتى تُعذِروا فيه، فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فَأْتِهم، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله سريعاً... وكان عليهم حريصاً يحبّ رشدهم، ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمّد، إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك لقد شتمتَ الآباء، وعِبتَ الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفّهتَ الأحلام، وفرّقتَ الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب به الشرف فينا فنحن

نُسَوِّدك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رَئِيّاً - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1].

ولما فشلت كلّ تلك المحاولات ورفض رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ المساومات الفكرية طلبوا منه التنازل ولو مؤقّتاً عن دين الله تعالى، واستعملوا شتّى الأساليب حتى أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[2].

فالآية تصوّر حالات المداهنة والمساومة لرسول الله صلى الله عليه وآله ليتنازل عن بعض معتقداته وكيف عصم الله رسوله من الوقوع في شباكهم وسدّده في مواجهة تحدياتهم.

وإنّ من أروع صور التحدي التي برزت في التاريخ الإسلامي ما أقدم عليه سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الحسين عليه السلام وأصحابه في مواجهة الانحراف الأموي عن الإسلام رغم قوّة الدولة الأموية، وجبروت ملوكها.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ /٣١٥-٣١٦.

(٢) الإسراء: ٧٣-٧٤.

فوقف سيد الأباة ليسطّر أروع البطولات على طول التاريخ البشري؛ ليواجه أعتى أمواج الجاهلية التي عادت من جديد على لسان معاوية ويزيد بشكل صريح، يقول ابن أبي الحديد:

«سيّد أهل الإباء، الذي علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنيّة، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام؛ عُرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان؛ إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك.

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلويّ البصريّ، يقول: كأن أبيات أبي تمام في محمّد بن حُميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام: [من الطويل]

وقد كان فوت الموت سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخلقُ الوعرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيمَ حتى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرَّوع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجلَهُ ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سُنْدُسٍ خُضْرُ»[1]

ومن صور التحدّي في ثورة الحسين عليه السلام حين قال مروان لوالي المدينة: «أيّها الأمير، إن فارقك الساعة، ولم يبايع، فإنّك لم تقدر منه على مثلها أبداً، حتى تكثر القتلى بينك وبينه، فاحبسه عندك، ولا تدعه يخرج أو يبايع، وإلا فاضرب عنقه»، فالتفت إليه الحسين عليه السلام، وقال: «ويلي عليك يا ابن الزرقاء، أتأمر بضرب عنقي؟ كذبت والله، ولؤمت؛ والله لو رام ذلك أحد لسقيتُ الأرضَ من دمه قبل ذلك، فإن شئت ذلك، فرم أنت ضرب عنقي إن كنتَ صادقاً»؛ ثم أقبل الحسين عليه السلام على الوليد؛ فقال: «أيّها الأمير، إنّا أهل البيت النبوَّة، ومعدن الرسالة،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٩/٣.

ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل نفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أينا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[١].

ومنها قوله عليه السلام عندما حدّثه أخوه عمر الأطرف، وأخبره بقتله، قال: «لا أعطي الدنيّة من نفسي أبداً»[٢].

وقال لمحمّد بن الحنفية لما اقترح عليه أن يُخفي نفسه في بعض الأصقاع: «يا أخي، لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»[٣].

ومن صور التحدّي عند الحسين عليه السلام كلامه يوم الطف: «ألا وإن الدَّعي ابن الدَّعي قد ركَز بين اثنتين، بين السلّة، والذّلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيَّةٌ»[٤].

ولا عجب هذا من الحسين عليه السلام؛ فهو ربيب النبوة، وسيد شباب أهل الجنة، ولكن تعال معي؛ لننظر إلى موقف بعض أصحابه، وأهل بيته الذين ضربوا المثل الأعلى في الصمود والتحدّي مثال ذلك قيس بن مسهر الصيداوي الذي حمل كتاب الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة، ثم قبض عليه الحصين بن تميم مدير شرطة ابن زياد، فبعثه إلى ابن زياد، فقال له عبيد الله: «اصعد إلى القصر فسب الكذّاب ابن الكذّاب!!» فصعد، ثم قال: «أيها الناس، إنّ هذا الحسين بن علي خير خلق الله؛ ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر،

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٦٧/١.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٠٠.

(٣) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ١٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٤.

فأجيبوه»، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فأمر به عبيد الله بن زياد أن يُرمى به من فوق القصر، فرمي به، فتقطع، فمات[١].

ومن قبل هذا فُعل بعبد الله بن يقطر، وكان قد سرّحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق، وهو لا يدري أنّه قد أصيب، فقبضت عليه شرطة الحصين، فسرح به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له عبيد الله: «اصعد القصر، والعن الكذّاب ابن الكذّاب، ثم أنزل حتى أرى فيك رأيي»، فصعد فلما أشرف على الناس قال: «أيّها الناس، أنا رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله إليكم لتنصروه وتوازروه على ابن مرجانة، وابن سميّة، الدعيّ ابن الدعيّ»، فأمر به، فألقي من فوق القصر، فتكسرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه عبد الملك بن عمير اللخمي قاضي الكوفة وفقيهها فذبحه، فلما عيب عليه، قال: «إنّي أردت أن أريحه»[٢].

إنّ هذه الصور من الصمود والتحدي لتعطي الإنسان دروساً قيّمة في التضحية والفداء، والصبر، والإباء، والاستقامة على أداء الرسالة، التي لا تحدّ بحدود الزمان والمكان.

ومن هذه الصور ما قام به سويد بن عمرو بن أبي المطاع سقط لوجهه وظن أنه قتل فلما قتل الحسين عليه السلام وسمعهم يقولون قتل الحسين، أخرج سكينة كانت معه وقاتل بها، فتعطفوا عليه وقتلوه[٣].

هذه بعض الصور من التحدّي التي برزت في يوم عاشوراء، وما قبله، وأما الصور التي برزت بعد الثورة من شيعة أهل البيت فكثيرة جداً، كموقف الإمام

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٥/٥.

(٢) السماوي، إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ٩٣، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ١٧٨ .

(٣) ينظر: إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٦٩-١٧٠ .

السجاد عليه السلام وخطابه في معسكر يزيد، وموقف الحوراء عليها السلام وخطابها في الكوفة، وفي معسكر يزيد، وفي مجلس ابن زياد كما تقدّم في بحوث سابقة؛ وموقف عبد الله بن عفيف وغيره ...

ولنرجع إلى الحسين عليه السلام، وننظر كيف تحدّى الدنيا جميعاً، وتحدّى حتّى العواطف الأبوية؛ ليضرب المثل الأعلى في التضحية والفداء، في سبيل بقاء الإسلام ونصرته...

يقول المؤرخون: إنّ الحسين عليه السلام لما لم يبقَ أحد من أصحابه دعا بولده الرضيع يودّعه، فأتته زينب بابنه عبد الله، وأمه الرباب، فأجلسه في حجره يقبّله، ويقول: بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدك المصطفى خصمهم، ثم أتى به نحو القوم، يطلب له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم، فذبحه، فتلقى الحسين عليه السلام الدم بكفه، ورماه نحو السماء.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «فلم تسقط منه قطرة».

وفيه يقول حجة آل محمّد عجل الله تعالى فرجه الشريف: «السلام على عبد الله الرضيع المرمي الرضيع المتشحط دماً، والمصعد بدمه إلى السماء، المذبوح بالسهم في حجر أبيه، لعن الله راميه حرملة بن كاهل الأسدي وذويه»[1].

[من الطويل]

ومنعطفٍ أهوى لتقبيل طفله ... فقبَّلَ منه قبله السهمُ منحرا

لقد ولدا في ساعة هو والردى ... ومن قبله في نحره السهم كبّرا[2]

(١) ينظر: مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ٨٠/١.

الفصل الثامن

فَلْسَفَةُ إِحْياءِ ذِكْرى

ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

لم يكن إحياء ذكرى سيد الشهداء عليه السلام على طول الزمن مجرّد عادات وتقاليد وأعراف تعارفت عليها الأمة، ولم تكن مجرد إثارة للعواطف وإسالة للدموع، وإنما أمر أئمة الهدى عليهم السلام بإحياء تلك الفاجعة في كلّ آن وزمان لأهداف رسالية بنّاءة، وقد يتصوّر بعض الناس أنّ شيعة أهل البيت اعتادوا عليها؛ لأنّها (فلكلور) تأريخي كما صوّر بعض الذين لا يفهمون فلسفة الوجود وعلة الإيجاد في مسيرة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم.

إنّنا حين نحييها إنّما نحيي الفكر الإسلامي بكلّ أبعاده الإلهية فكرياً وأخلاقياً وسياسياً واجتماعياً وثورياً؛ لأنّ أهل بيت النبوة والعصمة والطهارة في اعتقادنا هم المصداق العملي للإسلام شكلاً ومضموناً.

ولأجل تحقيق الأهداف التي حدّدها أئمة الهدى عليهم السلام للأمة من عملية الإحياء لا بد من تعريفها بتلك الأهداف كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الرضا عليه السلام: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا»، فقيل له: «وكيف يُحيي أمركم؟» قال: «يتعلّم علومنا، ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[1].

وباختصار نستطيع أن نحدد فلسفة إحياء هذه الذكرى بالنقاط الآتية:

---

(١) الصدوق، معاني الأخبار: ١٨٠، وبحار الأنوار: ٣٠/٢.

أولاً: لتبقى نداءات الإسلام حيّةً نابضة بالحركة التغييرية والإصلاحية الشاملة لكلّ أوضاع المسلمين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله من خلال الحسين عليه السلام الذي يمثّله مصداقاً ومفهوماً، بل شكلاً ومضموناً؛ ولذا ضحّى من أجلها بنفسه وأهله وأصحابه؛ لتبعث روح الثورة والرفض في النفوس على مسار الزمن وإلى يوم القيامة، فصرخة الحسين عليه السلام لا تنحصر في زمن دون آخر، وإنّما هي باقية خالدة بخلود الإسلام، ومن هنا جاء الحديث الشريف: «حسين مني وأنا من حسين»[1]؛ فحسينٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله فلذّة كبده، ورسول الله من الحسين عليه السلام؛ لأنّ شجرة الإسلام سُقيت بدمه الزكيّ، وبقيت حيّة نابضة بالحياة، والحركة، والنهوض، ومصارعة عواصف الانحراف المتجدّدة على طول التأريخ.

ثانياً: لقد أمر أئمة الهدى عليهم السلام بإحياء هذه المناسبة؛ لأجل أن تبقى مدرسة الإسلام الحسينية داعية للاستقلال الفكري، والنهوض الاجتماعي، والتحرّر السياسي، والسموّ الأخلاقي على طول مسار الرسالة الإلهيّة، تستنهض الهمم، وتحرّر إرادة الإنسان من عبودية الهوى والطاغوت السياسي والفكري، وتحطّم عروش الظالمين، وتفضح المتاجرين بالدّين الذين يداهنون ويهادنون الطغاة، ويراوغون ويخادعون الجاهلين، ويتلبّسون بثوبه زوراً وبهتاناً، ويمدّون يد السلام لأعدائه، فإذا جاءت التضحية انفضّوا عنها، وسقطوا في مزبلة التأريخ، وبذلك تكون مجالس الإحياء هذه مرآة كاشفة عن الواقع الفاسد لتوجّه إليه أنظار المخلصين وتغيّره إلى الواقع الإسلامي السليم وفق منهجية أهل بيت الرسالة عليهم السلام؛ تعلّم وتعليم، وتغيير روحي وفكري وأخلاقي وسياسي واجتماعي...

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٥٣٩/٣، ح/٣٧٧٥.

ثالثاً: إنّ وعي حركة الحسين عليه السلام ترفع درجات محييها عند الله إلى مستوى الإنسانية الحقّة؛ لأنها تحرّره من ضغط الشهوات الداخلية، وتبعث في نفسه روح الرفض لكلّ أشكال الضغوطات الخارجية من سياسات غاشمة، وتيّارات فكريّة منحرفة، وإغراءات دنيوية مزخرفة وبذلك يكون المحيي متحرّراً من أهوائه، ليكون حاملاً لواء العدل الإلهي، وبذلك يكون مسلماً حقيقياً بوعي تلك الذكرى؛ لأنَّ مدرسة الحسين عليه السلام هي مدرسة صناعة الإنسان بكلّ ما للكلمة من أبعاد؛ ولهذا ينبغي بل يجب على كلّ المتصدين لإحياء هذه الذكرى أن يضعوا نصب أعينهم مسؤولية إحيائها بوعي ومعرفة؛ لتجسّد الإسلام الحقيقي في مواقف وكلمات وتضحيات ونداءات وصرخات الحسين وأهل بيته عليهم السلام، ولتمثّل كلّ أبعاد الثورة في جانبيها الفكري والعاطفي، ولذا يجب أن نوازن بين الجانب الفكري الواعي والعواطف الناضجة؛ لتفجّر العواطف الحسينية العقائد الإلهية في نفوس حامليها، وتجسّد تلك الشعائر الأحكام الشرعية، والأخلاق الإسلامية، والعقائد السليمة التي ضحّى من أجلها الحسين عليه السلام بكلّ وجوده، فأعطى كلّ شيء لله تعالى، وأعطاه الله تعالى الخلود والبقاء في ضمير الإنسانية إلى يوم القيامة، وبذلك يكون إحياء هذه الذكرى تصحيحاً لمسار المسلمين على طول الزمان، ويكون الحسين عليه السلام مقياساً وميزاناً لكلّ حركة إسلامية تدّعي نصرة الإسلام والنهوض الاجتماعي.

رابعاً: ومما لا يشكّ فيه عاقل منصف أنَّ ثورة الحسين عليه السلام تحمل الهدى والنور لجميع الناس من ذوي الضمائر الحيّة، في الوقت الذي تحمل فيه إشارات الموت والدمار والفناء للظالمين في جميع الأجيال على امتداد بقاء الإنسان على

الأرض، ومن هنا يمكن القول بضرس قاطع: إنّ هذا الإحياء هو إحياء للنفس الإنسانية في استقلالها الفكري، وتحرّرها السياسي، واستقامتها السلوكية؛ فإحياء ذكرى الحسين عليه السلام هي إحياء للحقّ في النفوس، وكلّ دمعة تراق لمأساة الطف تغسل أدران القلوب، وتزكّي النفوس، وتبعث الهمم، وتثبّت على الحق.

خامساً: ومن علائم العظمة في ثورة الحسين عليه السلام أنّها لا تزال حيّةً في الضمائر تتجدد في كلّ عام؛ لتوقظ الغافلين، وتردّ المنحرفين عن المسار الإلهي إلى جادّة الصواب، وتدفع المجتمع البشري على مرّ الزمن إلى ساحات الجهاد، لتحيي العدل والحقّ والخير والجمال في النفوس، وتدفع الناس جميعاً إلى الخير والعطاء، وتغذيهم بالوفاء والنصيحة والصبر، وتعمل على ترشيد مسيرتهم في الحياة من خلال تهذيب الضمائر، وتنضيج العواطف، وتقويم الأفكار، وتنمية الوعي الرسالي؛ فهي تركز في القلوب أسمى معاني الإنسانية من التحدّي والصبر، والتضحية والفداء، والرحمة والوفاء، والتحرّر والاستقلال، وبالتالي هي هندسة بناء الإنسان الحر الكريم الذي لا يخضع لظالم ولا لشهوة.

سادساً: وثورة الحسين عليه السلام منارٌ يضيء الدرب أمام جميع المصلحين على مختلف مشاربهم ونحلهم، كلّ يرتشف من بحره الطافح بالقيم الإنسانية العليا، والعقائد الإلهيّة السليمة، والمواقف الرساليّة الصلبة بمقدار سعة ظرفه، وطهارة نفسه، ومستوى وعيه للإسلام؛ ومن هنا لا بدّ أن نشير أنّ من لا يعرف الإسلام بكلّ أبعاده العقائدية والتشريعية والأخلاقية لا يمكن أن يعي الحسين عليه السلام بكلّ أبعاده، ويبقى ارتباطه بالحسين عليه السلام شكلياً عاطفياً وموسمياً... ولذا طريق معرفة الحسين عليه السلام هو وعي الإسلام بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله.

سابعاً: مما لا ريب فيه أنّ المتأمل في مسيرة إحياء الثورة الحسينية منذ انفجارها وإلى اليوم يرى أن ليس هناك أكثر عطاءً وتضحيةً وفداءً وفضلاً على المسلمين منها؛ لأنّ الحسين عليه السلام أصبح شعار كلّ المظلومين؛ فهو المنقذ والمجدّد لهذا الدين الذي كادت السياسة الأمويّة أن تأتي عليه لولا تلك الثورة الجبّارة التي استأصلت المخطط الإجرامي الذي انطلق من الخطّ الأموي بعد رحيل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله، فاقتلعته من جذوره، وهدمت بناءه، وتركته قاعاً صفصفا، وبهذا أعادت للإسلام حيويته وإشراقه وحركيته، وللمسلمين وعيهم وهمتهم.

ثامناً: إنّ ثورة الحسين عليه السلام أوضحت لنا أهمية الإسلام في حياة الإنسانية، وأنّه فوق كلّ الاعتبارات والقيم والدماء مهما بلغت في قدسيتها، فليس هناك دمٌ في قدسيته فوق دم الحسين عليه السلام الذي هو دم رسول الله صلى الله عليه وآله، فأراقه فداء للإسلام تحت الشعار الزينبي: «**اللهُمَّ، تقبل منّا هذا القربان**»، ومن ثورة الحسين عليه السلام يتّضح لنا أهمية الإسلام، ويرسم ويضع المنهج الفعّال المؤثر لتقدّم المسلمين، وانتصارهم على طول الزمن.

تاسعاً: إنَّ ثورة الحسين عليه السلام هي الصرخة المدويّة على طول التأريخ في الكيانات الطاغوتية فهي التي أسقطت دولة بني أميّة، وأنهت وجودها، وأبطلت كلّ المخطّطات التي وضعها أعداء الإسلام لتحريفه، وحقاً ما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه «الحسين أبو الشهداء» حيث قال: «ولم تعمّر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين عليه السلام نيف وستون سنة! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى

عليها، وأصبحت ثارات الحسين عليه السلام نداء كلّ دولة تفتح لها طريقاً إلى الأسماع والقلوب»[١].

وكما قال الكاتب الألماني ماربين في كتابه «السياسة الإسلامية»: «إنَّ حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمةُ قلبٍ كبير عزَّ عليه الإذعان، وعزَّ عليه النصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة»[٢].

وهكذا انتصر الإسلام بدم الحسين عليه السلام بأروع صور النصر ما لم تعرف له الإنسانية نظيراً، وبقي صلوات الله عليه محرّكاً للأجيال إلى يوم القيامة، كما وصف الأديب المصري سيد قطب قائلاً: «والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة، وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتزّ له الجوانح بالحبّ والعطف، وتهفو له القلوب، وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيّعون وغير المتشيّعين من المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودّع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محرّكاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محرّكاً لخطى

(١) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢/٢٣٠-٢٣١، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٢) المصدر نفسه: ٢/٢٣٠.

التأريخ كلّه مدى أجيال..»[1].

وبعد هذا كلّه لا بد أن نوضح الخيارات التي وقف أمامها الحسين عليه السلام في ثورته المباركة.

لقد أدرك الحسين عليه السلام حقائق أساسية تجسّدت أمام ناظريه، وهي:

أولاً: جديّة السياسة الأموية في تغيير معالم هذا الدين كمقدّمة للقضاء عليه وإطفاء نوره من خلال مخطّط مدروس محكم وضع على المدى البعيد على أيدٍ أخفت كفرها، وأبرزت إيمانها، وتسلّلت إلى الصفوف المتقدّمة في الدولة الإسلامية، وبدأت تنفيذ مخطّطها بشكل دقيق بحيث سخّرت له كلّ أموال المسلمين من خلال شراء الضمائر بوضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله لتحريف الأحكام وإفساد العقائد، وبالتالي تغيير الإسلام المحمدي الأصيل إلى الإسلام الأموي المزيف، وسخّرت لذلك كلّ المخططات الإعلامية والسياسية والفكرية بطريقة محكمة خلاصتها: «حاربوا الإسلام بالإسلام من على منبره»، ومن هنا انطلق لعن علي عليه السلام إمام المسلمين من على سبعين ألف منبر في طول الأمّة وعرضها.

ثانياً: الخدر الثقيل الذي أصاب المسلمين نتيجة تلك السياسة، فخمدت الأصوات الحرّة، وكُمَّت الأفواه، ومات الرادع الديني في النفوس، وعادت الأمة جثّة هامدة لا تسمع ما يقال لها، وإذا سمعت لا تعي حيث انقلبت كلّ المقاييس، وتغيّرت كلّ الموازين، وصار الناس عبيداً للظالمين يتقرّبون إليهم بمقدار ما يفيضون عليهم من أموال، بل حتى لو لم ينالوا منهم شيئاً يملأ بطونهم.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٨٩/٧-١٩٠.

ثالثاً: وعى الحسين عليه السلام العلاج الشافي للأمّة الذي يوقظ الضمائر، وينفض عنها غبار الغفلة والركود، ويهزّ القلوب، وينهض بالأمة، ألا وهو الدم، وليس كلّ دم، وإنّما هو الدم الذي غذى الرسالة في بدر وأحد وحنين، وانطلقت منه الإرادة الرسالية المغيّرة، ألا وهو دم رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وليس لذلك إلا دم الحسين عليه السلام وأهل بيته، فليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ابن غير الحسين عليه السلام آنذاك، حيث قال عليه السلام مخاطباً جيوش الضلال بهذه الحقيقة: «**أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيّكم! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم**»(١).

فوقف بين إراقة دمه، وسبي عياله، وبين حياة رسالته؛ فإمّا أن يموت هو وتسبى عياله، وبذلك تنبعث روح الرسالة، وتتجدّد، وتنسف عروش الظالمين، وتصحّح الموازين؛ وإما أن يبقى هو حياً ويموت الإسلام، وبذلك يمرّر الخط الأموي بهدوء ورضى منه وإمضاء لكلّ التحريفات التي وقعت في دين الله، وهيهات أن يرضى بذلك، ومن هنا اختار حياة الرسالة على حياته، فرحل جسده الظاهري، وبقيت روحه الرسالية صارخة أبد الآبدين: «إنّ لِقَتْلِ الحُسَين حَرارَةً في قُلوبِ الْمؤمِنينَ لا تَبْردُ أبَداً»(٢).

رابعاً: الحسين عليه السلام رأى أنّه هو المسؤول الأوّل والوحيد أمام الله تعالى وأمام الأجيال إن وقف موقفاً سلبياً تجاه الأوضاع المنكرة، ولم يغيّر، ولم يبدّل، ولم يفجّر الثورة الحمراء التي عصفت بالاستبداد، وهدّمت صروح الظلم

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٩٨/٢.

(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل: ٣١٨/١٠.

والطغيان، وقادت جماهير الأمة إلى ميادين الحقّ والعدل، وهذا ما صرح به صلوات الله عليه في جيش الحر وأصحابه من شرطة ابن زياد قائلاً:

«أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غيّر، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم، أنّكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم عليَّ بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنُكْر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظَّكم أخطأتُم، ونصيبَكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وهكذا بقي الحسين عليه السلام بركاناً متفجراً على طول الزمن، وثورة ملتهبة في الضمائر لن يطفيها كيد الكائدين، ولا بغي الباغين، ولا تخطيط المحرفين.

[من الكامل]

دم يا حسين مدى الزمان مخلّداً ... نوراً وصوتَ هداية لن يخمدا

هذا طريقك وهو سيف قاطع ... فيه نحطّم من عليه تمرَّدا

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٣/٥.

يـا سـيّدَ الأحـرار، يـا رمـزَ الإبـا ... لـولاك مـا وجـد الزمـان موحّـدا
شـيّدتَ ديـن محمـد وأقمتـه ... لمـا سـللت علـى الضـلال مهنّـدا
وبذلت مـا ملكـت يـداك لنصـره ... حتى استوى رغـم العـدو مشـيدا

مَدارِسُ الحُسَيْنِ عليه السلام

قال الإمام الصادق عليه السلام لداود بن سِرْحان: «يا داود، أبلغ مواليّ عنّي السلام، وأنّي أقول: رحم الله عبداً اجتمع مع آخر، فتذاكرا أمرنا، فإنّ ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإنّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا»[1].

لماذا تقام مجالس العزاء الحسيني في كل عام في شهري محرم وصفر، بل وفي أغلب أيام السنة؟

هل هي عادة اعتدناها حتى صارت جزءاً من أعرافنا وتقاليدنا؟ أم هي عبادة نتقرّب بها إلى الله تعالى؟ وما المراد منها؟ وكيف يجب أن تكون؟

هل تقام لأنَّ فيها كلَّ هذا الثواب؟ أم تقام لأجل أن نبكي ونعيش مأساة الحسين عليه السلام؟ أم لكي تتعمق روح الولاء الإسلامي للحسين عليه السلام؟

وللجواب على هذه التساؤلات لا بد وأن نرجع إلى بيانات الحسين عليه السلام التي صدرت منه؛ لنقف على حقيقة ما أراده الحسين عليه السلام من ثورته؛ لنعرف أهدافه من تلك العمليّة التضحويّة، والتي كان يعرف مقدّماً نتائجها العسكرية كما دلّت تصريحاته على ذلك، وبأنّه مقتول مع جميع أهل بيته وأصحابه.

---

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي: ٣٥٠، وبحار الأنوار للمحدث المجلسي: ٢٠٠/١.

ومن أوائل بياناته قوله عليه السلام في كتاب كتبه إلى بني هاشم: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي بن أبي طالب إلى بني هاشم: أمّا بعد، فإنّه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ مبلغ الفتح، والسلام»[١].

وقوله عليه السلام لأم سلمة: «والله إنّي مقتول كذلك، وإن لم أخرج إلى العراق يقتلونني أيضاً»[٢].

وغيرها من البيانات الصريحة التي تدلّ على أنّه يعلم بمصيره ومستقبله مفصّلاً، ورغم ذلك مضى، واستشهد هو وأهل بيته وأصحابه، وأحدث بدمه زلزالاً اقتلع الكيان الأموي من جذوره، وأبطل المخطط الذي رُسِمَ؛ لتحريف الإسلام، ثم القضاء عليه، وبقيت ثورته ملتهبة في القلوب، ولن تنطفئ إلى يوم القيامة، تُلهبُ المشاعر، وتوقظ الغافلين، وترهب الظالمين، ولن تبرد حرارة قتله أبداً أبداً، وهو ما أكدّه جده الصادق الأمين صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى حين قال: «إنّ لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»[٣].

ولهذا بقيت تلك الحرارة مستعرة في قلوب المؤمنين، ومجالس عزاء الحسيني تلهب تلك الحرارة... ومن هنا فإنّ لمجالس العزاء أهدافاً مرسومة مسبقاً، ولكن تحقيق تلك الأهداف تتناسب تناسباً طردياً مع وعي المقيمين والمتحدّثين فيها.. ونحن نذكر بعض تلك الأهداف:

١- إرجاع الناس إلى الله تعالى؛ وذلك لأنّ الحسين عليه السلام ما ثار وتحمّل ما

(١) بحار الأنوار: ٣٣٠/٤٤.

(٢) قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح: ٢٥٣/١، حديث رقم: ٧.

(٣) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل: ٣١٨/١٠.

تحمّل من التضحية والفداء؛ إلا لأجل تعبيد الناس لله تعالى؛ ولهذا يروي لنا الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه الحسين عليه السلام أنّه قال: «أيّها الناس، إنّ الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[1].

ومن خلال التأمل في كلماته ومواقفه وإقدامه على الشهادة يتبين أنّه عليه السلام أراد من كلّ خطوة خطاها، ومن كلّ كلمة نطق بها أن يُعَبِّد الناس لله تعالى، ويقرّبهم إليه بتحكيم شرائعه.

ومن هنا يجب أن تكون مجالس عزاء الحسين عليه السلام مدارس إلهية تُرجع الناس إلى الله تعالى، وإذا لم تكن كذلك فلا حاجة للحسين عليه السلام وأولاده، وإخوانه وأصحابه بها؛ لأنَّ مجالسه يجب أن تصوّر حياته، وأخلاقه، وأهدافه، ووسائله؛ فهي مجالس ذكر وعبادة يتقرب العبد بها إلى الله من خلال ما يطرح فيها من معارف إلهية ومفاهيم إسلامية، وما تبعثه في النفوس من حرارة رسالية، وشوق إلى الله تعالى.

وخلاصة القول: إنَّ مجالس العزاء الحسيني محاريب ذكر تركّز العقيدة الإسلامية في النفوس، وتعمّق حب الله ورسله في القلوب، وتدلّ الإنسان على الهدى، وتحميه من السقوط في الردى...

٢- إنّ المجالس الحسينية تبيّن لنا أهمية الإسلام، وأنّه فوق كل الاعتبارات والقيم، وقيمته لا تحدّ بحدود فهي أثمن من الأرواح، والأموال، والأولاد، وكلّ شيء، ولهذا بذل عليه السلام ماله ودمه وأولاده، ورضي أن تسبى بناته

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ٥٦/١، وبحار الأنوار: ٣١٢/٥.

ونساؤه فداء للإسلام.

ثم إنّ مجالس الحسين عليه السلام تعطي المفهوم الصحيح للدين، وتعيده للحياة ليحكمها ويقودها، وحقّاً ما قاله الإمام الخميني رحمه الله: «ولولا نهضة الحسين عليه السلام تلك لتمكَّنَ يزيد وأتباعه من عرض الإسلام مقلوباً للناس، فهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام منذ البداية، وكانوا يُكنّون الحسد والحقد لأولياء الإسلام»[١].

وبهذه المجالس يتضح أنّ الدين ليس مجرد عبادات شكليّة، وإنّما هو نظام ومنهج حياة، وهذه من أعظم الخدمات التي تقدّمها هذه المجالس، وهكذا (أثمرت شهادة سيد المظلومين عليه السلام وأتباع القرآن في عاشوراء خلود الإسلام، وكتبت الحياة الأبديّة للقرآن الكريم)[٢].

٣- إنّ المجالس الحسينية الواعية تبعث روح التغيير وروح الإصلاح في نفوس مستمعيها، وهو ما أشار إليه الحسين عليه السلام بقوله: «...وإنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله»[٣].

وكما خرج الحسين عليه السلام لأجل الإصلاح لا بد وأن تكون المجالس المعقودة باسمه مجالس إصلاح؛ لتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم، وهذا الهدف هدف أساسي ومركزي، يقول الإمام الخميني رحمه الله: «ليعلم شعبنا قيمة، وأهمية هذه المجالس التي أبقت الشعوب حيّة، في أيام عاشوراء بنسبة أكبر، وفي سائر الأيام بدرجة أقلّ، وبهذا الشكل الذي نراه، ولو كان المبهورون

(١) الإمام الخميني، نهضة عاشوراء: ٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٥٧.

(٣) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٢١/٥.

بالغرب يعرفون البعد السياسي لها، ولو كانوا يدّعون - حقّاً - السعي لتحقيق مصالح الشعب والبلد لرغبوا هم فيها أيضاً، ولبادروا إلى إقامتها»[١].

٤- لقد كان الحسين عليه السلام يحاول أن يشحذ في النفوس روح الرفض والثورة على الباطل والظلم بكلّ أشكاله؛ ولهذا يجب أن تبعث مجالس الحسين عليه السلام روح الرفض في نفوس حضّارها، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربِّه محقّاً»[٢].

وعلى طول الطريق كان عليه السلام يبعث روح الثورة والرفض في نفس كلّ من يلتقيه؛ ولهذا يجب أن تبعث هذه المجالس روح الحماس الحسيني، ولذا فإنّ المجالس التي لا تبعث في نفوس مستمعيها الحماس الثوري، والرفض الرسالي لكلّ ما يخالف شريعة الله تعالى لا يمكن أن نسميها «مجالس حسينية».

٥- ثم إنّ مجالس الحسين عليه السلام لا بد أن تعمّق روح الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى في نفوس الحاضرين، ولقد كان الحسين عليه السلام يهدف إلى تحقيق ذلك منذ الساعات الأولى في انطلاقه وقبل وصوله كربلاء، فعندما خطب في جيش الحرّ قال بعد الحمد لله والثناء عليه: «أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأي سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله...»[٣].

---

(١) نهضة عاشوراء: ٢٠.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٠٣/٥.

بهذه الكلمات الملتهبة استطاع الحسين عليه السلام أن يلهب المشاعر، ويصعّد الحماس الثوري في نفوس أصحابه، ويعمّق في نفوسهم الشعور بالمسؤولية، وما لم تكن مجالسه كذلك فليس لها بالحسين عليه السلام أيُّ مساس...

ولهذه المجالس عمق في تاريخ البشرية فما ذكر الحسين عليه السلام في محفل نبيّ، ولا وليّ، ولا وصيّ، ولا عبد صالح، ولا إنسان ذو فطرة سليمة[1] إلا وأبكاه وأثار أشجانه كما ثارت أشجان جدّه وأبيه وأمّه وأخيه، وهو بعد حيٌّ بينهم، ولا غرابة في ذلك؛ فهو عليه السلام عِبْرَة وعَبرة لكلّ مؤمن، بل لكلّ إنسان.

(١) يقول الصحفي المسيحي الشهير حافظ إبراهيم خير الله حين زار كربلاء: «الرعشة لا بدّ منها.. إطلال مآذن كربلاء عليّ من بعيد.. والمقبل إلى العتبات المقدّسة في العراق يرتعش؛ لأنه مكان محجته.. دخلت إلى مقام الحسين فصعقت وذهلت.. هو ذا من استشهد فأصبح رمزاً للانتفاض على الظلم، هو ذا من استشهد في سبيل العدل، وترك الملايين تتطلّع إليه مثالاً للإنسان الذي أفنى جسده في سبيل الكمال البشري.. المسألة لم تعد تتحمّل علامات استفهام.. بعد ربع ساعة وجدت نفسي أبكي، ثم أبكي، ثم أبكي» عن كتاب صفحات لوفت الفراغ للشيخ محمد جواد مغنية:٣١.

لِماذا هَذا التَّأكيدُ؟

قال الإمام الصادق عليه السلام للفضيل بن يسار: «أتجلسون وتتحدثون؟»

قال: «نعم».

فقال عليه السلام: «أما إنّي أحب تلك المجالس، فأحيوا أمرنا، فإنّ من جلس مجلساً يحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[1].

وفي حديث آخر أنّه عليه السلام قال لفضيل: «تجلسون وتحدثون؟».

قال: «نعم، جعلت فداك».

قال: «إنّ تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل، من ذكرنا، أو ذكرنا عنده، فخرج من عينيه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[2].

لماذا هذا التأكيد المتواصل من قبل أئمة الهدى عليهم السلام على إقامة مأتم الحسين عليه السلام بهذه الدرجة؟ حتى رسخ في ضمير الأمة ووجدانها، وتحوّل إلى شعار خالد من شعائرها التي لا تنفكّ عنه طيلة أيام السنة، وعلى مختلف المستويات الاجتماعية والعلمية، وتحمّلوا من أجل إقامته شتى صنوف الاضطهاد، والمطاردة، والقتل، وسلب الحقوق، وبذل الأموال الطائلة...

---

(١) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٩٦-٩٧.

(٢) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٢/٤٤، ونفس المهموم للمحدث القمي: ٤٢.

أقول: لماذا كلّ هذا؟

هل لمجرد التحسيس بفظاعة المأساة؛ لإثارة العواطف، وإسالة الدموع؟

أم لأجل الحصول على الثواب العظيم الذي كتبه الله تعالى لمن يحضر مجلس العزاء الحسيني؟

أم لأجل ترسيخ الروح المبدئية في نفوس الشيعة؟

أم لأجل التوعية الجماهيرية، وتثقيف الناس بالمفاهيم الإسلامية؟

أم لأجل بقاء حرارة الثورة الإسلامية مستعرة في كلّ زمان ومكان؟

والجواب: إنّ لكلّ تلك الاحتمالات وجهاً من الصحة مع تفاوت في درجات التأثير، ولكن لا بدّ أن نتساءل هل الحسين عليه السلام وحده الذي يرسّخ الروح المبدئية في النفوس دون غيره من الأئمة الطاهرين عليهم السلام؟

والحقيقة: إننا إذا أردنا أن نفهم سرَّ هذا التأكيد على إقامة الشعائر الحسينية لا بدّ وأن نفهم، بل يجب أن نعي الخصائص التي تميّز بها الحسين عليه السلام عن غيره من الأئمة والأولياء، والصالحين.

ونشير إلى بعض تلك الخصائص باختصار:

تؤكد لنا الروايات الواردة عن السنة والشيعة بأنّ الحسين عليه السلام هو ذخيرة الله في أرضه، وبه تُحفظ رسالة السماء على طول حركة التأريخ الرسالي، فهو وارث الأنبياء جميعاً، وبتلك الوراثة حفظ رسالتهم جميعاً؛ ولهذا يمكن أن نسميه «حامي رسالة الأنبياء»، وبلا شك أنّ معنى وراثة الحسين للأنبياء عليهم السلام معنى عميق ودقيق، ويحتاج إلى حسّ مرهف ووعي رسالي عميق.

فليس معنى الوراثة وراثة المال، والجاه، والسمعة... وإنّما المقصود أنّ

الحسين عليه السلام ورث من الأنبياء أموراً نذكر منها:

الأول: ورث المعاناة التي مرَّ بها جميع الأنبياء عليهم السلام على طول مسار الرسالة، وبعبارة أخص: ورث المسؤولية الشرعية في تحمّل أعباء الرسالة في أشق مراحلها وأحرج أزماتها؛ ولهذا (ادّخره الله سبحانه لوقت سارت فيه الأمة في أعماق الفتن والابتلاء)[1].

الثاني: ورث مسؤولية الحفاظ على خطّ الأنبياء، وحفظ بذلك التوحيد الإلهي من التشويه، والتحريف، والاندثار.

الثالث: ورث الحياة الخالدة في نفوس وقلوب وضمائر المؤمنين على طول مدى الحياة الإنسانية إلى يوم القيامة حين قام بمسؤولية تلك الوراثة على أكمل وجه وأتمِّه، وبذلك طبع بصماته على صفحات القلوب، وأصبح أنموذجاً إلهياً خالداً أبد الآبدين، يقول عبد الله العلايلي: «والنموذج الإلهي لا يكون إلا واحداً فقط، يجيء مع الشريعة حتى إذا أعطى أثره وارَّثه، ترك له نماذج كثيرة في كلّ وجه، ومن كلّ طِيّة، يستوون على أنّهم نماذج رسولية لا يتم الأثر الديني الصحيح إلا بوجودهم، فهم في حاجة كلّ عصر؛ لأنَّهم من تمام صلاحه وهدايته، وعلى هذا التصوّر بنى أربابُ الإشارات الذين استعلوا على الرسوم ملحظهم في الوارث المحمدي، والحاجة إليه في كلّ جيل.

وأبو عبد الله الحسين عليه السلام سيّد الوارثين، ما في ذلك ريب، فكان في كلّ عملٍ من عمل الدنيا والآخرة مثالة بارعة، حتى أجمع الحفّاظ والرواة والإخباريون على أنّه أعاد سنّة المصطفى في كلّ مظاهره وأشكاله، وساعد به أنّه

(١) سعيد أيوب، معالم الفتن: ٢٦٣/٢ .

كان أشبه بجدّه صلى الله عليه وآله في لون الشاكلة، ومسحة الخلق، وزادت الأسوة في إبراز الشبه، وإظهار التماثل، فكان مجلسه مهوى الأفئدة، ومتراوح الأملاك يشعر الجالس بين يديه أنّه ليس في حضرة إنسان من عمل الدنيا وصنيعة الدنيا، تمتدّ أسبابها برهبته وجلاله وروعته، بل في حضرة طفاح بالسكينة، كأنَّ الملائكة تروح فيها وتغدو، وتطيل بها وتقصّر حتى يشيع معناها في الجالسين، فيتصوّرون[1] كأنّ في حدودهم حظيرة قُدُسٍ عليا لبناتها أولئك الجالسون، وسرّها الناطق ذلكم الإنسان الكامل واسطة العقد»[2].

وهنا لا بدّ أن نتأمل لماذا خُصّصَ الحسين عليه السلام من دون بقية الأئمة بأنَّه وارث الأنبياء؟

حتى أصبح الاعتراف والإقرار للحسين عليه السلام بتلك الوراثة غذاء يومياً، أو أسبوعياً لدى الشيعة، يغذّون به أرواحهم، ويزكّون به نفوسهم من خلال الزيارة الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام:

«السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله»[3].

ويثار السؤال: لماذا خصّ الله الحسين عليه السلام بهذه الوراثة؟ لماذا لم يقل لعلي عليه السلام - وهو أفضل من الحسين - وارث الأنبياء؟

---

(١) يتصورون: أي يتشكلون بصورة.

(٢) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين عليه السلام: ٨٢-٨٣.

(٣) مقطع من زيارة وارث المعروفة، كامل الزيارات لابن قولويه: ٣٧٥.

والجواب: إنّ الله ادّخر الحسين عليه السلام منذ أول الخليقة لحفظ رسالته من المسخ والتشويه، والتحريف والاجتثاث.

والدليل على هذا الادّخار: أنّنا نجد في الأحاديث الواردة من طرق السنة والشيعة: أنّ آدم بكى على الحسين عليه السلام، وأن إبراهيم وإسماعيل وموسى وسليمان عليهم السلام... مرّوا بكربلاء، وبكوا على الحسين عليه السلام، ولفت أنظارهم ما يحدث في كربلاء[1].

وأما رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فقد روى المؤرخون سنة وشيعة أنّه بكى من حين رأى الحسين عليه السلام وليداً في أول يوم جاء إلى الدنيا، يقول بعض المؤرخين: «ولمّا بُشّرَ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بسبطه المبارك خفَّ مسرعاً إلى بيت بضعته فاطمة عليها السلام، وهو مثقل الخطا قد ساد عليه الوجوم والحزن، فنادى بصوت خافت حزين النبرات: يا أسماء، هلمي ابني، فناولته أسماء [الوليد]، فاحتضنه النبي، وجعل يوسعه تقبيلاً، وقد انفجر بالبكاء، فذهلت أسماء، وانبرت تقول: فداك أبي وأمي ممَّ بكاؤك؟!! فأجابها النبي صلى الله عليه وآله، وقد غامت عيناه بالدموع: من ابني هذا، وملكت الحيرة إهابها فلم تدرك معنى هذه الظاهرة ومغزاها، فانطلقت تقول: إنّه ولد الساعة، فأجابها الرسول صلى الله عليه وآله بصوت متقطع النبرات حزناً وأسًى قائلاً: تقتله الفئة الباغية من بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي...

ثم نهض، وهو مثقل بالهمّ، وأسرَّ إلى أسماء قائلاً: لا تخبري فاطمة، فإنّها حديثة عهد بولادة...»[2].

وفي رواية أخرى: إنّه دفعه إلى صفيّة بنت عبد المطلب، وهو يقول: «لعن

(١) ينظر: المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٤٢/٤٤-٢٤٤.

(٢) الشيخ القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٧/١-٢٨.

الله قوماً هم قاتلوك يا بُنيّ» يقولها ثلاثاً، قالت: «فقلتُ: فداك أبي، وأمي، ومن يقتله؟!» قال: «بقيّة الفئة الباغية من بني أمية لعنهم الله»[١].

وهكذا نجد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يظهر اهتمامه بالحسين عليه السلام، ويبدي لوعته، وحبَّه، ويشير إلى ذلك بضمِّه إلى صدره وهو جالس، وحمله في حالة الصلاة، وهو يخطب على المنبر ينزل ويتناول الحسين عليه السلام، ويشير إلى مأساته ويخبر بقتله؛ فقد روت أم سلمة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، قال: لا يدخل عليَّ أحد، فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام فسمعت نشيجَ رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي، فاطلعت فإذا حسين في حجره، والنبي صلى الله عليه وآله يمسح جبينه، وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت حين دخل، فقال: إنّ جبريل عليه السلام كان معنا في البيت، قال: أفتحبه؟ قلت: أما في الدنيا فنعم، قال: إنّ أُمَّتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء، فتناول جبريل من تربتها، فأراها النبي صلى الله عليه وآله فلما أحيط بحسين حين قتل قال: ما اسم هذه الأرض، قالوا كربلاء، فقال صدق الله ورسوله كرب وبلاء»[٢].

ومثل هذا صنع أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما مرَّ بصفين، قال ابن عباس: «كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خرجته إلى صفّين، فلما نزل بنينوى وهو بشط الفرات قال بأعلى صوته: يا ابن عباس، أتعرف هذا الموضع؟ قلت له: ما أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتّى تبكي كبكائي».

قال: «فبكى طويلاً حتى اخضلَّت لحيته، وسالت الدموع على صدره،

---

(١) الصدوق، الأمالي: ١٠٦، مجلس ٢٨، الحديث ٦، وترتيب الأمالي: ٨٧/٥.

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٨٨/٩-١٨٩.

وبكينا معاً، وهو يقول: أوّه أوّه ما لي ولآل أبي سفيان؟ ما لي ولآل حرب حزب الشيطان؟ وأولياء الكفر؟ صبراً يا أبا عبد الله فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى منهم»[١].

وعن شيان بن محرم، وكان عثمانياً، قال: «إنّي لمع علي رضي الله عنه، إذ أتى كربلاء، فقال: يُقتل بهذا الموضع شهيد ليس مثله شهداء إلا شهداء بدر، فقلت: بعض كذباته!!! وثَمَّ رِجْلُ حمار ميت، فقلت لغلامي: خذ رِجلَ هذا الحمار، فأوتدها في مقعده وغيّبها، فضرب الدهر ضربة، فلما قتل الحسين بن علي انطلقت ومعي أصحابي، فإذا جثة الحسين بن علي على رِجل ذلك الحمار، وإذا أصحابه ربضة حوله»، قال الهيثمي: «رواه الطبراني»[٢].

ونحن هنا نتساءل: هل بكاء النبي صلى الله عليه وآله، وتفجّعه على قتل الحسين عليه السلام، وهو بعد طفل رضيع، وبكاء أمير المؤمنين عليه السلام كان مجرد عاطفة أبوية، وشفقة على الحسين عليه السلام ورحمة له؟ أم كان جزعاً منهما - والعياذ بالله -، ألم يعلموا أن جميع أوصيائهم سيعذبون ويقتلون؟ فلماذا هذا التواصل في البكاء، والندب، والتذكير، والتأكيد المستمر على محبّته ونصرته إلى حدّ يلفت النظر، ويثير التساؤل، ويدلّل على أهمية الحدث في مستقبل الدعوة الإسلامية.

والحقيقة الناصعة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام لا يمكن أن يمسّهما الجزع، ولا تحكمها العاطفة الأبوية، وإنّما الأمر أكبر من ذلك وأعمق؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى يعلم علماً يقينياً أنّ حياة دينه مرتبطة بشهادة ولده الحسين عليه السلام، فأراد أن يؤكد ذلك لأمّته؛ ليشدَّها بالحسين عليه السلام، ويربطها

(١) بحار الأنوار: ٢٥٢/٤٤.

(٢) مجمع الزوائد: ١٩١/٩.

بحركته على طول خط التاريخ البشري إلى يوم القيامة؛ لتبقى شهادته زلزالاً يهزُّ عروش الظالمين إلى الأبد، ولعلَّ هذا مدلول الحديث الشريف المشهور:

«حسين مني وأنا من حسين»[١].

«إنّ الحسينَ مصباحُ الهدى وسفينة النجاة»[٢].

بَرَكَةُ اسْتِشْهادِ الحُسَيْنِ عليه السلام:

روى المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وآله رجع من سفر له مغموماً، وصعد المنبر، فخطب ووعظ، والحسين بين يديه مع الحسن، فلما فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسين عليه السلام، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهُمّ، إنّي محمّد عبدك ونبيك، وهذان أطائب عترتي، وخيار ذريتي وأرومتي، ومن أخلفهما في أمتي، اللهمّ، وقد أخبرني جبرئيل: بأنّ ولدي هذا مقتول مخذول، اللهمّ، فبارك لي في قتله، واجعله من سادات الشهداء، إنّك على كل شيء قدير، اللهمّ، ولا تبارك في قاتله وخاذله»[٣].

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلاً عند قوله صلى الله عليه وآله: «اللهمّ، فبارك لي في قتله» ونتساءل: كيف يكون قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بركة لجدّه؟ وأيّ بركةٍ تلك التي يطلبها رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

إنّها بركة بقاء الإسلام حيّاً، نابضاً في قلوب حامليه، متحركاً، ومغيّراً، ورافضاً لكلّ العبوديات ببركة دم الحسين عليه السلام وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٥٣٩/٣، ح/٣٧٧٥.

(٢) هاشم البحراني، مدينة المعاجز: ٣٢٧/٢.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٣٩/١.

بعد هذا كلّه يمكن أن نتوصّل إلى سرّ التأكيد على إقامة المأتم الحسيني، ويمكن أن نشير إلى ذلك بنقاط:

١- إنّ إقامة الشعائر الحسينية تكشف لنا عن أهمية الإسلام، وقيمته في حياة البشرية، وأنّه فوق كلّ الاعتبارات المادية والمعنوية، وأنّ كل شيء من مال وبنين بل كلّ ما في الدنيا يجب أن يبذل من أجله حتى لو كان التضحية بالنفس، وقد بذل الحسين عليه السلام دمه لأجله، وهو دم رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس فوق ذلك من قيمة...

٢- إنّ إحياء هذه الذكرى تكشف باستمرار عن المنهج الذي انتهجه أئمة أهل البيت عليهم السلام في حماية الإسلام، ونشر مبادئه، وتحقيق أهدافه، وهو منهج يتّسم بالتخطيط الواعي الهادف كما يتّسم بالتضحية والفداء.

٣- من خلال إظهار تضحياتهم الكبرى في سبيل الحقّ والعدل يوجّه المجتمع روحياً، وفكرياً، ووجدانياً، وأخلاقياً، وبذلك تضع هذه المجالس الإنسان على جادة الصواب، وتعمل على تغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم.

وبعبارة أخرى: إنّ ذكر مواقفهم وكلماتهم تعمّق روح الولاء في نفوس شيعتهم، وتدفعها إلى الثورة والرفض لكلّ ما يخالف شريعة الله، كما أنّ لها دوراً فعالاً في تنقية النفوس من الأدران ومذام الأخلاق؛ وذلك لأنّ ذكر الأولياء ودراسة سيرتهم يوجب المحبة، والمحبة توجب التجاذب، والتجاذب يوجب التواصل معهم في مسيرتهم، يقول الإمام الخميني رحمه الله: «ونرى ذكر الأولياء ومقاماتهم دخيلاً في تصفية القلوب، وتخليصها وتعميرها، لأنّ ذكر الخير بالنسبة إلى أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبّة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب

يوجب التجاذب، وهذا التجاذب يسبّب التشافع الذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم، وباطنه الظهور بالشفاعة في العالم الآخر، لأنّ شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطني، ولا تكون عن جزاف وباطل»[١].

طبعاً هذا يتحقّق إذا كانت المجالس مجالس واعية هادفة يتبنّى إقامتها أناس عارفون لأهداف ثورة الحسين عليه السلام وأبعادها وإلا فلا...

٤- كما إنّ تلك المجالس توضّح أنّ الصراع الذي دار بين أئمة الهدى عليهم السلام، وبين خصومهم ليس صراعاً شخصياً ذاتياً - كما يحاول بعض الكتّاب أن يصوّره - وإنّما هو صراع بين اتجاهين مبدئيين عقائديين، وبعبارة أدقّ: إنّه صراع بين الإيمان الواضح الصريح، وبين الشرك المبطّن بالإيمان.

٥- إنّ استعراض أحداث الطف، وترديد شعاراتها، وبيان سلوك قادتها في مختلف حالاتهم يتضمّن إدانة صريحة لكلّ نظام مخالف لشرعة الله تعالى.

وأحسن من قال: «كلّ طعنة سيف في عاشوراء.. هي طعنة لمفاسد الحكم في أيّ زمان ومكان، وكلّ نقطة دم أريقت فداء للحق.. استمرّت تعلن فداءها في رغبة الإنسان العامرة في الاستشهاد في سبيل مبادئه»[٢].

وبهذا أصبحت مجالس العزاء الحسيني الواعية مدارس تبعث حسَّ البطولة والشجاعة، وتذكّي روح الحماس في النفوس، وتصعّد فيها روح التطلّع للشهادة، وحبّ الموت في سبيل الله تعالى، وبهذا تبعث الشعور بالمسؤولية إزاء كل الأوضاع المنافية لأحكام الله تعالى...

---

(١) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة: ٣٧٣.

(٢) د. أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي: ٨٠.

وبذلك يتضح لنا معنى قول الصادق عليه السلام: «أحيوا أمرنا»، فعن أبي الصلت الهروي قال: «سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا، فقلت له: وكيف يُحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا، ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[1].

وعن ابن سعد عن الأزديّ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «قال لخيثمة وأنا أسمع: يا خيثمة، اقرأ موالينا السلام، وأوصِهم بتقوى الله العظيم؛ وأن يعود غنيّهم على فقيرهم؛ وقويّهم على ضعيفهم، وأن يشهد أحياؤهم جنائز موتاهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم فإنَّ لقياهم حياة لأمرنا؛ ثم رفع يده فقال: رحم الله من أحيا أمرنا»[2].

فإحياء أمرهم إذن هو إحياء للإسلام في نفوس معتنقيه بكلّ أبعاده الفكرية والروحية، والسياسية، والأخلاقية، والاجتماعية... ولهذا جاء التأكيد من قبل أئمة الهدى عليهم السلام على إحياء هذه المناسبة لا سيما في أيام محرّم وصفر لما فيها من ذكر لسيرتهم، وما تستبطن من حثّ على الالتزام بأحكام الإسلام، وتَخَلُّقٍ بأخلاقه، ودعوة لمبادئه، وشرائعه، وأحكامه.

يقول دعبل الخزاعي: «دخلت على سيّدي ومولاي على بن موسى الرضا عليه السلام في مثل هذه الأيام - أيام محرّم -، فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب، وأصحابه من حوله، فلما رآني مقبلاً قال لي: مرحباً بك يا دعبل، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه، ثم إنّه وسّع لي في مجلسه، وأجلسني إلى جانبه، ثم قال لي: يا دعبل، أحب أن تنشدني شعراً؛ فإنّ هذه الأيّام أيّام حزن كانت علينا أهل

(١) الصدوق، معاني الأخبار: ١٨٠، وبحار الأنوار: ٣٠/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢٣/٧٤.

البيت...»[١]، فأنشده التائية المعروفة[٢]: [من الطويل]

أفاطمُ لو خلت الحسين مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فرات
إذاً للطمت الخدَّ فاطم عنده ... وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطمُ قومي يا ابنةَ الخير واندبي ... نجوم سماوات بأرض فلاة
قبور بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخّ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوز جان محلها ... وقبر بباخمرى لدى الغربات
وقبر ببغداد لنفس زكية ... تضمنها الرحمن بالغرفات
وقبر بطوس يا لها من مصيبة ... ألحَّت على الأحشاء بالزفرات

وهكذا يرسم دعبل لوحة رائعة مفجعة لما سيؤول إليه مصير آل محمد صلى الله عليه وآله، ولعله يشير إلى الخبر الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه (كان ذات يوم جالساً، وحوله علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال لهم: كيف بكم إذا كنتم صرعى، وقبوركم شتّى؟ فقال له الحسين عليه السلام: أنموت موتاً، أو نقتل؟ فقال صلى الله عليه وآله: بل تقتل يا بنيَّ ظلماً، ويقتل أخوك ظلماً، وتشرَّد ذراريكم في الأرض، فقال الحسين عليه السلام: ومن يقتلنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: شرار الناس، قال: فهل يزورنا بعد قتلنا أحد؟ قال: نعم، طائفة من أمتي يريدون بزيارتكم برّي وصلتي، فإذا كان يوم القيامة جئتهم إلى الموقف حتى آخذ بأعضادهم فأخلّصهم من أهواله وشدائده)[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «زارنا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم، فقدّمنا إليه

(١) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٥٧/٤٥.
(٢) جواد شبر، أدب الطف: ٢٩٧/١.
(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد: ١٣١/٢.

طعاماً، وأهدت إلينا أم أيمن صحفة من تمر، وقعباً من لبن وزبد، فقدمنا إليه، فأكل منه، فلما فرغ قمت، فسكبت على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ماءً، فلما غسل يديه، مسح وجهه ولحيته ببلة يده، ثم قام إلى مسجد في جانب البيت، وصلّى وخرَّ ساجداً، فبكى وأطال البكاء، ثم رفع رأسه فما اجترى منّا أهل البيت أحد يسأله عن شيء، فقام الحسين عليه السلام يدرج حتى صعد على فخذي رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخذ برأسه إلى صدره، ووضع ذقنه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: يا أبه، ما يبكيك؟ فقال: يا بني، إنّي نظرت إليكم اليوم، فسررت بكم سروراً لم أسرّ بكم قبله مثله، فهبط إليَّ جبرئيل عليه السلام فأخبرني أنّكم قتلى، وأنّ مصارعكم شتّى، فحمدت الله على ذلك، وسألت لكم الخيرة. فقال له: يا أبه، فمن يزور قبورنا، ويتعهدها على تشتتها؟ قال: طوائف من أمتي يريدون بذلك برّي وصلتي، أتعاهدهم في الموقف، وآخذ بأعضادهم فأنجيهم من أهواله وشدائده»[1].

والأخبار في هذا الباب كثيرة مستفيضة.

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات: ١٢٦-١٢٧ .

الشَّعائِرُ الحُسَيْنِيَّةُ

مَدارِسُ تَغْييرٍ وَإِصْلاحٍ وَبِناء

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[1].

الشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة الدالّة على كلّ مَعْلم من معالم الدين له حرمة وقدسيّة من خلال ما نَدَبَ إليه الشرعُ المقدسُ، وأمَرَ المسلمين بالقيام به، وفي مجمع البيان: «قيل: شعائر الله: دين الله كله، وتعظيمها: التزامها»[2].

وهذا المعنى مقارب جداً لما نصَّ عليه اللغويون في معاجمهم.

ففي الصحاح: «والشّعائر : أعمال الحجّ. وكلّ ما جعل علماً لطاعة الله تعالى»[3].

وفي القاموس المحيط: «شعائره : معالمه التي ندب الله إليها، وأمر بالقيام بها»[4].

وقال الزبيدي: «شِعار الحج ، بالكسر: مناسكه وعلاماته، وآثاره وأعماله، وكلّ ما جعل علماً لطاعة الله عز وجل، كالوقوف والطواف، والسعي والرمي والذبح ، وغير ذلك»[5].

---

(١) الحج: ٣٢.

(٢) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان: ١٣٣/٧ .

(٣) الجوهري، الصحاح: ٦٩٨/٢ .

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط : ٤١٧ .

(٥) الزبيدي، تاج العروس: ١٩٠/١٢-١٩١ .

وقال الزجاج -في شعائر الله -: «يعني بها جميع متعبداته التي أشعرها الله، أي جعلها أعلاماً لنا، وهي كلّ ما كان من موقف أو مسعى أو ذبح، وإنما قيل: شعائر لكل علم مما تُعبّد به؛ لأنَّ قولهم: شعرت به: علمته، فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات الله تعالى شعائر»[١].

وقال الشيخ الطوسي في التبيان: «والشعائر : المعالم للأعمال، فشعائر الله: معالم الله التي جعلها مواطن للعبادة، وهي أعلام متعبداته من موقف، أو مسعى، أو منحر، وهو مأخوذ من شعرت به: أي علمت، وكلّ معلم لعبادة من دعاء، أو صلاة، أو أداء فريضة، فهو مشعر لتلك العبادة»[٢].

إذن الشعائر التي حثَّ القرآن على تعظيمها بالإيمان بها، والالتزام بأحكامها، والتأدّب بآدابها هي طاعةٌ، وامتثالٌ لأوامر الله تعالى، وبذلك تكون وسيلة لترسيخ التقوى في القلوب، فالغاية إذن من هذا التعظيم بناء الشّخصيّة المتّقيّة؛ لأنَّ التقوى هي الغاية الأساسية من الالتزام بالفرائض، والأحكام الشرعية، وفائدتها تعود للإنسان ذاته؛ لأنَّ الله لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرُّه معصية من عصاه.

وخلاصة الكلام: شعائر الله هي (التي تمثّل العلامات البارزة في الخطّ الطويل الذي رسمه الله للإنسان في مسيرته إليه، وحدّد له فيه مفردات العبادة، والمعاملة، والعلاقة، والانتماء، فقد جعل الله في كلّ موقع من مواقع الحياة علامة على أوامره ونواهيه، في ما يصلح أمر الإنسان، أو يبعده عن الفساد؛ ليكون

(١) المصدر نفسه: ١٩١/١٢ .

(٢) الشيخ الطوسي، التبيان: ٤٢/٢ .

التزامه بتلك الأوامر والنواهي دليلاً على طاعة الله، حيث يلتقي الإنسان به عند كلّ حكم من أحكامه، في مظهر حيّ من مظاهر الطاعة التي تتجسّد في تعظيم الشعائر الدينية، تعظيماً لله)[١].

وعلى هذا المعنى أكّد علماء التفسير، يقول السيد السبزواري رحمه الله: «الشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة تطلق: تارة: على معالم الحجّ ومشاعره، وهي أعلامه الظاهرة المعدّة للنسك والعبادة، ومشاعر الله: كل ما يتعبّد فيه لله عزّ وجلّ، وأخرى: على العبادة والنسك من صلاة، وصوم، ودعاء، وقراءة القرآن، وغير ذلك مما يصحّ أن تكون عبادة»[٢].

ويقول الرازي: «وأما ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ فهي أعلام طاعته، وكلّ شيء جعل علماً من أعلام طاعة الله فهو من شعائر الله»[٣].

إذن يمكن القول: إنَّ كل ما يدفع الإنسان إلى الالتزام بشرعة الله، والعمل على تطبيقها تعبّداً لله، وامتثالاً لأمره ضمن النهج الشرعي الذي نصَّ عليه الكتاب والسنّة والعقل الإسلامي السليم مما يقرّب الإنسان إلى الله، ويحبّبه إليه، ويخضعه لأوامره، فهو من شعائر الله، يقول صاحب تفسير الأمثل: «إنَّ شعائر الله تشمل جميع الأعمال الدينيّة التي تذكّر الإنسان بالله سبحانه وتعالى وعظمته ، وإنَّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب»[٤].

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن: ٦٥/١٦.

(٢) السيد السبزواري، مواهب الرحمن: ٢١٤/٢-٢١٥.

(٣) الرازي، التفسير الكبير: ١٧٧/٤.

(٤) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٤٤/١٠.

أَهَمِيَّةُ الشَّعائِرِ الحُسَيْنِيَّةِ:

بناء على ما تقّدم من بيان لمعنى ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الشعائر الحسينية تكون أحد مصاديق شعائر الله التي يجب أن يعظّمها المسلمون؛ وذلك لأنَّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بروح الإسلام، وجوهره، ومنه تستمدّ معينها، وعلى أساسه يقوم بناؤها، ولعلَّ هذا هو سر التأكيد المتواصل من قبل أهل البيت العصمة والطهارة عليهم السلام في إحياء ذكرى أحداث الطف؛ فإنَّها مجالس ذكر لله تعالى، يقول الإمام الصادق عليه السلام لداود بن سرحان: «يا داود، أبلغ مواليّ عنّي السلام، وأنّي أقول: رحم الله عبداً اجتمع مع آخر، فتذاكرا أمرنا، فإنَّ ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإنّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا»[١].

قال الإمام الصادق عليه السلام للفضيل بن يسار: «أتجلسون وتتحدثون؟»، قال: «نعم»، فقال عليه السلام: «أما إنّي أحب تلك المجالس، فأحيوا أمرنا، فإنّ من جلس مجلساً يحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[٢].

وفي رواية أخرى: قال: «إنّ تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل، من ذكرنا، أو ذكرنا عنده، فخرج من عينيه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[٣].

وفي خبر بشير بن حذلم، قال: «لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين

---

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي: ٣٥٠، وبحار الأنوار: ٢٠٠/١.

(٢) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٩٦-٩٧.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٢/٤٤، ونفس المهموم للمحدث القمي: ٤٢.

عليه السلام، فحطَّ رحله، وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه، وقال: يا بشر، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قلت : بلى، يا ابن رسول الله، إنّي لشاعر، قال عليه السلام: فادخل المدينة، وانعَ أبا عبد الله عليه السلام».

قال بشر: «فركبتُ فرسي وركضتُ حتى دخلتُ المدينة، فلمّا بلغتُ مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعتُ صوتي بالبكاء، وأنشأت أقول: [من الكامل]

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرارُ
الجسم منه بكربلاء مضرّجٌ والرأس منه على القناة يدارُ»

قال: «ثم قلت: هذا علي بن الحسين عليه السلام مع عمّاته وأخواته، قد حلّوا بساحتكم، ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه».

قال: «فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلا برزن من خدورهنّ، مكشوفة شعورهنّ، مخمّشة وجوههنّ، ضاربات خدودهنّ، يدعون بالويل والثبور، فلم أرَ باكياً ولا باكيةً أكثر من ذلك اليوم، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

(وكان الإمام الباقر عليه السلام يحضّ المؤمنين على إقامة مجالس عزاء الحسين عليه السلام في (مِنى) أيام التشريق، حيث يجتمع المسلمون من أقطار الأرض؛ ليسمعهم مصيبة الحسين عليه السلام وفاجعة عاشوراء)[2].

أقول لماذا هذا التأكيد من قبل أهل البيت عليهم السلام على إقامة مجالس عاشوراء حتى رسخ في ضمير الأمّة، ووجدانها، وتحوَّل إلى شعار خالد من شعائرها التي لا تنفكّ عنه طيلة أيام السنة، وعلى مختلف المستويات الاجتماعية

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٢٢٦-٢٣٠ .

(٢) الشيخ محمد مهدي الآصفي، الشعائر والشعارات الحسينية: ٥٠ .

والعلميّة، وتحمّلوا من أجل إقامته شتّى صنوف الاضطهاد والمطاردة ، والقتل، وسلب الحقوق، وقطع الأيدي بل الرؤوس، وبذل الأموال الطائلة.

هل هو لمجرّد التحسيس بفظاعة المأساة، وإثارة العواطف، وإسالة الدموع؟ أم لأجل الحصول على الثواب؟ أم لأجل التوعية الجماهيرية؟ أم لأجل بقاء حرارة الثورة مستعرة في نفوس المؤمنين؟

والواقع أنَّ كلَّ هذه الوجوه لها وجه من الصحة، ولكنَّ الأصل فيها تركيز روح الولاء لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وآله، ولأهل البيت عليهم السلام في نفوس المسلمين، والمؤمنين، وقد ذكرنا في بحث سابق من هذا الفصل أسرار تأكيد أئمة أهل البيت عليهم السلام عليها، وبيّنا الأهداف المرسومة لها.

الوَسائِلُ الشَّرْعِيَّةُ لإِقامَةِ المَجالِسِ الحُسَيْنِيَّةِ:

إنَّ إقامة الشعائر الحسينية هي تعبير عن الولاء العميق لله ولرسوله وأهل بيته، ونقصد بالولاء: الانتماء الفكري، والسياسي، والأخلاقي لهم، فليس الولاء في الإسلام مجرّد رفع شعار دون أن يستبطن تحمّل مسؤولية ما يدعو إليه.

ويمكن أن نؤكد أنَّ التعبير عن هذا الولاء يتناسب تناسباً طردياً مع مستوى الوعي الذي يحمله الموالي؛ ولذا كلّ شخص يعبّر عن ولائه بمستوى وعيه، فمنهم من يعبّر تعبيراً فكرياً، وعقائدياً ببيان مبادئ أهل البيت عليهم السلام، وعقائدهم، وأفكارهم بكتابة البحوث، والدراسات الفكرية التي توضّح جميع أبعاد رسالة أهل البيت عليهم السلام على مختلف الصعد، ونشر أحاديثهم، وتعاليمهم، وتوضيح سيرتهم، ومسيرتهم، وتحاول أن تجسّدها واقعاً ملموساً في الحياة الإنسانية، ولعلَّ

هذا هو مدلول قولهم عليهم السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»[١]، أو قولهم: «وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً»[٢]، أو حثّهم على حفظ أحاديثهم وكلماتهم، ووصفها بالنور، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ على كلّ حقّ حقيقةً، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حفظ من أمّتي أربعين حديثاً ممّا يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»[٤].

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من حفظ من أمّتي أربعين حديثاً من السنّة كنت له شفيعاً يوم القيامة»[٥].

وعن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من حفظ عنّي من أمّتي أربعين حديثاً في أمر دينه يريد به وجه الله عز وجلّ، والدار الآخرة، بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»[٦].

وعن حنان بن سدير، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من حفظ عنّا أربعين حديثاً من أحاديثنا في الحلال والحرام بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً ولم يعذّبه»[٧].

ومن الموالين من يعبّر عن ولائه ببذل المال، والإنفاق في خدمة هذه المجالس، ومنهم من يعبّر بالحزن والبكاء، بل والجزع الشديد، وهكذا تتعدّد أساليب التعبير.

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ٧٨/٢.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٠٠/٨.

(٣) الأصول من الكافي: ٦٩/١.

(٤) الشيخ الصدوق، كتاب الخصال: ٥٤١.

(٥) المصدر نفسه: ٥٤٢.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

ولا مانع من تنوّع الأساليب إلا أنَّه يجب أن تنسجم هذه الأساليب مع الشرع المقدس، والعقل، والذوق السليم، ولا تخرج عن ذلك قيد أنملة.

إذن التعبير عن الولاء بإقامة هذه الشعائر ونوعية أساليب الإقامة خاضع لمستوى وعي الموالي للإسلام، وفهمه لأهل البيت عليهم السلام.

ولا بد أن نعلم أنَّه لا يمكن لأحد أن يفهم حقيقة ثورة الحسين عليه السلام ما لم يعِ الإسلام وعياً سليماً في بعديه العقائدي والنظامي؛ ولذلك كلّما ارتفع وعي الجمهور الحسيني فإنَّه يعبّر تعبيراً ينسجم مع الإسلام قلباً وقالباً، والعكس صحيح؛ ولذلك من أهم واجبات العلماء والمبلغين، والكتّاب الرساليين التأكيد على رفع مستوى الوعي الإسلامي للجماهير؛ لتكون إقامة الشعائر تعبيراً عن روح الإسلام، وجوهره، ومقوماً لسلوك الفرد، وبانياً لكيان الجماعة، يقول آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي رحمه الله: «لا بد أن يقوم العلماء دائماً بدور الإرشاد والتوجيه، لتهذيب الشعائر والمجالس الحسينية، وتوجيهها، وتصفية هذه الشعائر مما لحقها من الطقوس والأعمال التي لا يستسيغها الذوق السليم، ولا روح الإسلام، ومنهجه في العزاء، ولا تعاليم أهل البيت عليهم السلام في إقامة عزاء الحسين عليه السلام وإقامة الشعائر، وهذا واجب العلماء والخطباء، الذين أوكل الإسلام إليهم مهمة توجيه الجمهور وتوعيته»[1].

وقال السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله: «إنّ هذه المواكب [الحسينية] شوكة في عيون حكام الجور، إنَّ هذه المواكب وهذه المظاهر هي التي زرعت في نفوس وقلوب الأجيال حبّ الحسين عليه السلام، وحبّ الإسلام، وبالتالي يجب أن

(١) الشعائر والشعارات الحسينية: ٥٨.

تبقى رغم حاجتها إلى تهذيب وتعديل يناسب العصر»[١].

الشُّروطُ اللازِمةُ لإقامَةِ الشَّعائِرِ الحُسَيْنِيَّةِ:

لا يمكن أن نطلق العنان لكلّ أحد في إقامة هذه الشّعائر، وإنما يجب أن تخضع للشروط الشرعية شكلاً ومضموناً، قلباً وقالباً؛ لتعطي صورة حيّةً جذّابة للسامع، أو المشاهد، وتثير عواطفه، وتغيّر فكره، وتقوّم سلوكه، ومن هذه الشروط:

١- أن تكون مصداقاً معبّراً عن المبادئ التي ضحّى من أجلها الحسين عليه السلام، وممثّلة لتعاليمه، ومجسّدة لأخلاقه، ومروّجة لأحكامه.

٢- أن تكون في كلّ ممارساتها موافقة ومنسجمة، بل خاضعة لأحكام الشرع الشريف، وبتعبير السيد الشهيد محمد باقر الحكيم رحمه الله: «أن لا تكون الممارسة مما نهى عنها الشارع المقدس بعنوانها الخاصّ لانطباق عنوان محرّم عليها كالضرر أو الهتك أو الاختلاط المباح بين الرجال والنساء»[٢].

٣- أن يكون القصد منها تعظيم شعائر الله بصدق، وإخلاص، وورع، تقرّباً إلى الله، وبتجنب الرياء، والسمعة، والشهرة قدر المستطاع في التحكم بأهواء النفس.

٤- التثبت والتدقيق في نقل الأحاديث والأخبار والتأكّد من صحتها سنداً ومتناً؛ فمما لا شكّ فيه أنَّه قد تسربت إلى كثير من كتب المقاتل روايات

(١) السيد كاظم الحائري، مباحث الأصول: ١٠٧/١.

(٢) مجلة التوحيد، العدد ٩٤، محرم الحرام ١٤١٩هـ، نقلاً عن مقدمة في الإصلاح والتجديد للشعائر الحسينية لحسين الشامي: ٤٠٩.

وقصص مشكوكة تخالف سيرة أهل البيت عليهم السلام، فقد أكّد المرجع الديني السيد السيستاني ذلك في توجيهاته: «لا بدّ من عدم ذكر ما لا سند له من القصص والحكايات حتى لو كانت مذكورة في بعض الكتب المشهورة وخصوصاً في المجالس التي يحضر فيها شرائح من المثقفين والعلماء، وأن يبتعدوا عن فكرة أنَّ الناس تقبل كلّ شيء»[١].

٥- يجب تجنّب المبالغات في الأدبيات الحسينية سواء كانت قصائد قريض أو شعراً شعبياً، والتأكّد من مطابقتها لأحكام الشرع؛ لئلا يكون لها آثار سلبية على الإسلام.

٦- (يجب أن لا تتضمن الممارسة آثاراً سلبية مثل هتك حرمة أهل البيت عليهم السلام، أو إعطاء صورة مشوّهة أو انطباع عام غير صحيح، أو تكون منفّرة ومقزّزة كما هو الحال في بعض الممارسات التي توحي بمثل ذلك في جميع الأوساط الاجتماعية أو في بعضها على الأقل، حيث لا يعرف لها مثيلاً في لون من ألوان العبادة أو السلوك الاجتماعي العام الذي أقرّه الشارع المقدس أو ندب إليه)[٢].

---

(١) تقويم الشعائر الحسينية، من وحي الثورة وفتاوى الإمام السيستاني: ١٨ .

(٢) مجلة التوحيد، العدد ٩٤، نقلاً عن مقدمة في الإصلاح والتجديد للشعائر الحسينية: ٤٠٩ .

لِمَ نَبْكي الحُسَيْنَ عليه السلام ؟

قال الإمام الرضا عليه السلام: «من تذكّر مصابنا، وبكى لما ارتكب منّا، كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذُكّرَ بمصابنا فبكى، وأبكى لم تبكِ عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يُحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[1].

لقد تواترت الأحاديث والأخبار بالحثّ على تذكّر مصاب أهل البيت عليهم السلام يوم الطف، والبكاء عليهم، ومشاركتهم في أحزانهم، فقد كان جميع أئمة الهدى عليهم السلام إذا حلَّ شهر المحرّم تغيّرت أحوالهم، وغمر الحزن نفوسهم، وغلب البكاء عليهم، فكانوا يأمرون الشعراء أن يندبوا الحسين عليه السلام ويبكوه بشدة، فقد روى الريان بن شبيب قال: «دخلت على الرضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرّم، فقال لي: يا ابن شبيب... إنَّ المحرَّم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرِّمون فيه الظلم والقتال؛ لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيها، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً. يا ابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فإنه ذُبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهم في الأرض شبيهون»[2].

---

(١) الصدوق، الأمالي: ٦٣، مجلس ١٧، ح ٤، وبحار الأنوار: ٢٧٨/٤٤ ، وترتيب الأمالي للمحمودي: ١٨٣/٥ .

(٢) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٩٩/١، والأمالي للصدوق: ١٠٢، وبحار الأنوار: ٢٨٦/٤٤، وترتيب الأمالي: ١٨٥/٥.

وعلى هذا النهج سار شيعة أهل البيت عليهم السلام في كلّ زمان ومكان، وأقاموا مجالسهم في أحرج الظروف وأشدّها.

والسرّ في تأكيد أئمة الهدى عليهم السلام على إقامة هذه المجالس؛ لأنّها مجالس تشدّ الأمة إلى خطّ الأئمة الهداة، وتبعث فيها روح التحدّي والرفض لكلّ أشكال الضلال والباطل، وتثبت دعائم الهدى والحقّ.

ولإصرار شيعة أهل البيت عليهم السلام على إقامتها راح الجاهلون والمتجاهلون يعيبونهم على ذلك، فقالوا: «إنّ واقعة الطف وقعت قبل ألف وأربعمائة سنة، فما معنى إعادة ذكرها في كلّ عام بهذا الشكل المحزن؟» ، بل قال بعضهم: «إنّ يزيد قتل الحسين مرّة، وأنتم تقتلونه في كلّ عام»، وقال آخرون: «إنَّ أمراً فظيعاً وقع في أعماق التأريخ فلماذا تعيدونه في كلّ عام؟»...

وكلّ هذه الإشكالات لا شكَّ أنَّها جاءت نتيجة الجهل أو التجاهل لموقع الحسين عليه السلام في حركة التأريخ، ودوره في تحريك عجلته، أو لتجاهل موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وتناسي عنايته، ورعايته، ووصاياه المتواصلة به، وبكائه، وتفجّعه صلى الله عليه وآله بمجرّد ذكر ما سوف يواجهه أهل بيته عليهم السلام، وأنّه ما كان يفعل ذلك عن عاطفة أبوية مجرّدة، وإنّما لعلمه بأهمية هذا الحدث في مستقبل الرسالة الإلهية، أو إنّ ذلك ناتج عن حالة عدم التدبّر فيما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من مواقف سلوكية مع الحسين عليه السلام وتصريحات واضحة فيه صلوات الله عليه، والأخبار الواردة عن شهادته عن طريق السنة والشيعة، وإلا بماذا نفسر بكاء النبي صلى الله عليه وآله على الحسين عليه السلام، وهو طفل وُلِدَ لتوّه.

لو تأمّلنا بموقف النبي صلى الله عليه وآله هذا، وبكاؤه وإخباره، والحسين لتوّه نزل إلى الدنيا، لعرفنا أنّ الحسين عليه السلام ذخيرة الله في أرضه، وإلا ما هذا البكاء؟ وما هذا

الحزن؟ ولماذا يخبر عن قتله قبل ستين عاماً من شهادته، وما الداعي إلى ذلك؟ ورسول الله سيّد حكماء الخلق كافة، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

فمما لا شكَّ فيه أنّه لو لم يكن لهذا الحدث أثر عظيم في مستقبل الرسالة لما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ هذا، ولما أخبر عنه في مواقع مختلفة.

شَرْعِيَّةُ البُكاءِ عَلى الحُسَيْنِ عليه السلام:

(إنّ الحزن والبكاء ليسا أمرين اختياريين يستطيعهما الإنسان ساعة يشاء، ويمتنع منهما ساعة يشاء، بل هما أمران خارجان عن الإرادة المباشرة للإنسان، فإذا أرادهما كان عليه أن يهيئ نفسه لهما باستذكار ما يُوَلّدُ في القلب مشاعر الحزن، وفي القلب دواعي البكاء)[2].

والبكاء ظاهرة إنسانية ينفّس بها الإنسان عمّا يختزنه من هموم، وأحزان، ومشاعر كئيبة، وما يساوره من انفعالات تملك عليه إحساسه ومشاعره، فيعبّر عنه بالدموع، وهذه الدموع قد تكون لحزن، وقد تكون لفرح، أو خوف، أو خشية.. وأنواع البكاء وأسبابه كثير.

(ومن المعروف في الشريعة الإسلامية وأخلاقيات الإسلام أنَّها لا تشجّع على إظهار الجزع للموت والتفجع والجزع على الميت، بل ترى أنّ ذلك مكروه، وبعض مظاهره محرّم، ولكن ذلك لا يسري على ما يحصل من البكاء والجزع والتفجع على الإمام الحسين عليه السلام)[3].

---

(١) النجم: ٣-٤.

(٢) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين عليه السلام في الوجدان الشعبي: ٣١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٩.

روى علي بن أبي حمزة الثمالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ البكاء والجزع مكروه للعبد في كلّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليهما السلام فإنّه فيه مأجور»[1].

بعد هذه المقدمة نتساءل: هل البكاء على الحسين عليه السلام بدعة ابتدعها الشيعة - والعياذ بالله -؟ أم هي حالة شرعية لها مثيل في حياة الأنبياء والمرسلين، ولا سيما حياة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله.

ويمكن أن نستدلّ على شرعية البكاء بالأدلة الآتية:

١- ما نصّ القرآن عليه من بكاء يعقوب عليه السلام لفراق ولده يوسف عليه السلام، وهو حيٌّ في دار الدنيا حتى ذهب بصره، يقول تعالى في وصف حاله: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[2]، ولشدة حزنه ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾[3].

وروى الزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه سئل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وَجْدِ يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلى، قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنُّه بالله ساعة قط»، وعلّق الزمخشري على الحديث قائلاً: «فإن قلت كيف جاز لنبي الله عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حُمِدَ صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يُحْسَن، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وآله على ولده إبراهيم، وقال: القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما

(١) ابن قولويه القمي، كامل الزيارات: ٢٠١-٢٠٢.

(٢) يوسف: ٨٤.

(٣) يوسف: ٨٥.

يسخط الرب، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[١].

وفي تفسير الرازي: «روي أنّ يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم، قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى - وهي التي لها ولد واحد ثم يموت - قال: فهل له فيه أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد... وروي أنّ ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له: جئت لتقبضي قبل أن أرى حبيبي؟ فقال: لا، ولكن جئت لأحزن لحزنك، وأشجو لشجوك»[٢].

وهنا نتساءل: هل فِعْلُ يعقوب عليه السلام، وهو النبي المعصوم، في بكائه وحزنه على ولده يوسف حرامٌ - والعياذ بالله -؟ ومعلوم أنّ بكاءه لم يكن عادياً بل استوعب حياته كلّها، وهو يعلم علماً يقينياً أنّه حيٌّ يرزق؟ ونكتفي بجواب الفخر الرازي في تعقيبه على الحديث المتقدّم حيث قال: «وأمّا البكاء فليس من المعاصي. وروي أنّ النبي عليه الصلاة والسلام بكى على ولده إبراهيم عليه السلام، وقال: «إنّ القلب ليحزن والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون»، وأيضاً فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلاً تحت التكليف وأما التأوّه، وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه»[٣].

٢- بكاء النبي صلى الله عليه وآله على الحسين عليه السلام في مواضع كثيرة كيوم ولدته أمه، ويوم كان طفلاً يدرج، وفي كثير من الأحيان مذكّراً أمَّته بأهمية الحادث الذي سيقع في المستقبل كما تقدّم...

---

(١) الزمخشري، الكشاف: ٤٩٧/٢-٤٩٨.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٩٤/١٨.

(٣) المصدر نفسه .

وفي رواية أخرى عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، قال لا يدخل عليَّ أحد فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام فسمعت نشيجَ رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي، فاطلعت فإذا حسين في حجره، والنبي صلى الله عليه وآله يمسح جبينه، وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت حين دخل، فقال: إنّ جبريل عليه السلام كان معنا في البيت، قال: أفتحبه؟ قلت: أما في الدنيا فنعم، قال: إن أُمَّتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء...الخ»[1].

(وعن نجي الحضرمي أنّه سار مع علي رضي الله عنه، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى، وهو منطلق إلى صفين، فنادى عليٌّ: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشطّ الفرات، قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم، وإذا عيناه تذرفان، قلتُ: يا نبي الله، أغضبك أحدٌ؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل عليه السلام قبل فحدثني أنّ الحسين يُقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك أن أُشمَّك من تربته؟ قلت: نعم، قال: فمدَّ يده، فقبض قبضة من تراب، فأعطانيها فلم أملك عينيّ أن فاضتا)[2].

٣- بكاؤه صلى الله عليه وآله على عمّه حمزة رحمه الله سيد الشهداء يوم أحد، قال ابن مسعود: «ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله باكياً قطّ أشدّ من بكائه على حمزة بن عبد المطلب لما قتل... وضعه في القبلة، ثم وقف صلى الله عليه وآله على جنازته، وانتحب حتى نشغ من البكاء، يقول: «يا حمزةُ، يا عمَّ رسول الله، وأسدَ الله وأسد رسوله، يا حمزةُ يا فاعلَ الخيرات، يا حمزةُ يا كاشفَ الكربات، يا حمزة يا ذابّ عن وجه

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٨٨/٩-١٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٧/٩.

رسول الله» قال: وطال بكاؤه»[١].

وروي أنّ صفية جاءت يوم أحد فجلست عند رسول الله صلى الله عليه وآله (فجعلت إذا بكت يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا نشجت ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله، وجعلت فاطمة عليها السلام تبكي، فلمّا بكت بكى رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: لن أصابَ بمثل حمزة أبداً، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفية وفاطمة: ابشرا، أتاني جبرائيل عليه السلام، فأخبرني أنّ حمزة مكتوبٌ في أهل السّماوات السّبع: حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله، وأسدُ رسوله)[٢].

وفي تاريخ الطبري: «مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فبكى، ثم قال: لكنّ حمزة لا بواكي له! فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضَير إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحزّمْنَ، ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله»[٣].

٤- بكاؤه على ابن عمه جعفر بن أبي طالب رحمه الله فلما أتاه نعي جعفر وزيد بن حارثة بكى، وقال: «أخواي ومؤنساي ومحدّثاي»[٤].

٥- بكاؤه على ولده إبراهيم حين موته وبعده، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ذكر دخول النبي، وإبراهيم يجود بنفسه، قال: «فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله

(١) الطبري، ذخائر العقبى: ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧/١٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٥٣٢/٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧٣/١٥، والاستيعاب لابن عبد البر: ٥٤٦/٢.

عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنّها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وآله: إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربُّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

ولما قبض إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله قال لهم النبي صلى الله عليه وآله: «لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه»، فأتاه وانكبّ عليه وبكى[2].

فماذا يكون حاله صلى الله عليه وآله لو رأى ريحانته وسبطه يذبح عطشاناً، وتسحق أضلاعه سنابك الخيل، أما كان ينكبّ عليه ويبكي، وهل يلام من يشاركه صلى الله عليه وآله العزاء والبكاء؟

٦- بكاؤه على فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام؛ ففي كنز العمال عن علي عليه السلام: «لمّا ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم كفَّنها النبي صلى الله عليه وآله في قميصه، وصلّى عليها، فكبّر عليها سبعين تكبيرةً، ونزل في قبرها، فجعل يومي في نواحي القبر كأنّه يوسعه ويسوي عليها، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وحثا في قبراها، فلما ذهب قال له عمر بن الخطّاب:

يا رسول الله، رأيتُك فعلت في هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد! فقال: يا عمر، هذه المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدتني، إنّ أبا طالب كان يصنع الصنيع، وتكون له المأدبة، وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيباً فأعود فيه، وإنّ جبريل أخبرني عن ربّي أنّها من أهل الجنة، وأخبرني جبريل أنّ الله تعالى أمر سبعين ألفاً من الملائكة يصلون عليها»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٨٥/٢، باب قول النبي صلى الله عليه وآله: «إنّا بك لمحزونون».

(٢) سنن ابن ماجة: ٤٧٣/١، ح/١٤٧٥.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال: ٦٣٥/١٣-٦٣٦.

وهناك مواضع كثيرة بكى النبي صلى الله عليه وآله فيها، نذكر منها: بكاءه عند قبر أمه، وبكاءه على مرضعته حليمة السعدية، وبكاءه على عثمان بن مظعون... فهل بعد هذا يمكن لمؤمن بالله ورسوله أن يقول: إنّ البكاء حرام.

فَلْسَفَةُ البُكاءِ عَلى الحُسَيْنِ عليه السلام:

إنّ التأكيد من قبل أئمة الهدى عليهم السلام على البكاء أو التباكي على الحسين عليه السلام لم يكن عبثاً وبلا فائدة، بل لا بدّ لهذا البكاء من فوائد ودلالات لها مردودات نفسية وتربوية واجتماعية... ولفهم حقيقة البكاء لا بدّ وأن نثبت بعض الحقائق:

١- إنّ البكاء والضحك من الحالات الانفعالية التي يختصّ بها الإنسان دون غيره، ومن أعراضه وعلائمه الذاتية، وهي (من أشدّ حالات الإنسان حساسية) كما يقول الشهيد مطهري.

٢- إنّ من يمتلك القدرة على إبكاء الناس أو إضحاكهم يكون قادراً على امتلاك قلوبهم وجذبهم، بل التحكّم، والسيطرة على عواطفهم، وتوجيهها بالاتجاه الذي يريد.

٣- إنّ البكاء أنواع يتنوع بتنوّع دواعيه وأسبابه، وله آثار إيجابية كما له آثار سلبية، وقد يرتفع الإنسان ببكائه، وقد ينخفض به حسب دواعيه، فمن يبكي على الدنيا وزخارفها يختلف عمن يبكي خشية من الله تعالى، أو أسفاً على ضياع عمره، أو رحمة لمسكين، أو يتيم، أو مظلوم...

وعلى كلّ حال إنّ البكاء ينفّس عن الإنسان بعض آلامه حتى قال

الشاعر[١]: [من الطويل]

لعلّ انحدارَ الدمعِ يُعْقِبُ راحةً من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابل

أَنْواعُ البُكاءِ:

يتنوّع البكاء بتنوّع الانفعالات الإنسانية؛ فمن الناس من يبكي فرحاً لشيء ناله، أو معرفة اكتسبها كما وصف تعالى في كتابه الكريم مادحاً أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢] أي (إنّهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزَّت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثّر العميق العنيف بالحقّ الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أوّل الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير -وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع؛ ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثّر العميق العنيف.

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع؛ ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحقّ الذي تأثّروا به هذا التأثّر عند سماع القرآن؛ والشعور بالحقّ الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان.. إنّهم لا يقفون موقف المتأثّر الذي تفيض عيناه بالدمع، ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنّما هم يتقدّمون؛ ليتخذوا من هذا الحقّ موقفاً إيجابياً صريحاً.. موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان، وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة، صريحة:

---

(١) ديوان ذي الرمة: ١٣٣٣/٢.

(٢) المائدة: ٨٣.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

تلك حالة، وحالة أخرى هي حالة الحزن لشيء فقده الإنسان، أو فارقه، أو أراده ولم تصل إليه يده كأولئك الذي عشقوا الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله لا يملك لهم العدّة والعتاد فاعتذر لهم، فرجعوا آسفين محزونين رغم أنّ الرسول أعذرهم من الجهاد، وقال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾، وهذا الدمع لا لشيء إلا لأنّهم حزنوا لعدم مشاركتهم الرسول صلى الله عليه وآله في جهاده ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[2]؛ فعن ابن عباس قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المُزَني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا ولهم بكاء، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة، ولا محملاً؛ فلما رأى الله حرصهم على محبّته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه»[3].

وقال ابن إسحاق في سياق تبوك: «ثم إنّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار، وغيرهم من بني عمرو بن عوف»[4].

وأعلى وأسمى أنواع البكاء هو البكاء من خشية الله تعالى، يقول أمير

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٣/٣-١٤.

(٢) التوبة: ٩٢.

(٣) تفسير الطبري: ٦٢٤/١٠.

(٤) سيرة ابن هشام: ١٦١/٤.

المؤمنين عليه السلام: «إنّه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله»[١].

«البكاء من خيفة الله للبُعْدِ عن الله عبادةُ العارفين».

«البكاء من خشية الله ينيرُ القلب، ويعصم من معاودة الذنب».

«البكاء من خشية الله مفتاح الرحمة».

«بالبكاء من خشية الله تُمَحَّصُ الذّنوب»[٢].

وهناك من يبكي شفقة لمظلوم وهو عاجز عن دفع الظلم عنه...

فمن أيّ أنواع البكاء: البكاء على الحسين عليه السلام؟

يختلف البكاء على الحسين عليه السلام باختلاف المعرفة بشخصيته، فمن الناس من يبكيه لما حلَّ به، وبأهل بيته من ظلم، ومنهم من يبكيه لأجل الأجر والثواب، ومنهم من يبكيه للمواساة والمولاة، فالبكاء هنا (ليس أمراً شخصياً، يتعلّق بعاطفة بشرية تتفجّر بالأسف على ما فات، وإنّما هو حزن على قضية دينية عامة، تتمثل بالإمام الحسين عليه السلام وثورته، فالحزن ليس موقفاً عاطفياً، وإنّما هو موقف مبدئي يعبّر المؤمن عن التحامه به واعتناقه له بهذا التعبير العاطفي)[٣].

إذن البكاء على الحسين عليه السلام يختلف باختلاف المعرفة، وهو على ثلاثة أنواع:

١- بكاء أسى وحزن؛ لأنّه قتل مظلوماً.

٢- بكاء لطلب الثواب والأجر.

---

(١) السيد ابن طاووس، فلاح السائل: ٢٦٧.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٩٢.

(٣) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين في الوجدان الشيعي: ٣١٩.

٣- بكاء المواساة والموالاة والثورة.

ولا شكَّ أنَّ كل هذه الأنواع حسنة، ولا عيب فيها، ولكن لِكُلّ مرتبةٍ درجةٌ تختلف عن الأخرى.

فمن يبكي الحسين عليه السلام حزناً فقد شارك رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته حزنهم، وهي مشاركة وجدانية تربط الإنسان بخطّ الرسالة.

ومن يبكي الحسين عليه السلام طلباً للثواب فقد طلب ما عند الله تعالى.

وأعلى المراتب في ذلك من يبكيه للمواساة، وهذا الأخير هو الذي أراده أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ البكاء هذا تعبيرٌ عن تفاعل فكري وروحي ووجداني يشدُّ الباكي إلى المبادئ التي ضحّى من أجلها الحسين عليه السلام.

وبعبارة أخرى: إنَّ البكاء على الحسين عليه السلام هو تفاعل بين الفكر والعاطفة، فالحسين عليه السلام شهيد أفكار التوحيد وعقيدته، وعندما يمتزج بعواطف الإنسان تتفجر دموعاً تغسل رين النفس من أدران الذنوب، ويزيل عنها ركام الغفلة؛ لأنّه يهزُّها ويحرِّكها، وينفض عنها غبار كلّ التراكمات الناتجة من الغفلة والسهو والنسيان والعصيان.

لذلك فلعلَّ الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله من البكاء على الحسين عليه السلام هي دمعة الثورة على الخنوع، والانهزام، والذنوب، والآثام؛ فهو ليس جزعاً ولا فرحاً، إنّما هو تفاعل وجداني وفكري يختلف باختلاف المعرفة والمشاركة.

أَبْعادُ البُكاءِ الحُسَيْنيّ عِنْدَ الإمامِ الخُمَيْنيّ رحمه الله:

لعلَّ أكثر من أكدَّ وكشف أنَّ البكاء على الحسين عليه السلام له أبعاد غير أبعاد الحزن والأسى هو الإمام الخميني رحمه الله؛ فقد كان يؤكّد في كلّ مناسبة أنَّ للبكاء

على الحسين عليه السلام أبعاداً غير ما يتصوّر الجاهلون لواقعة الطف، ونحن نذكر بعض تلك الأبعاد مستشهدين ببعض كلماته:

١- البكاء وسيلة لحفظ الإسلام حيّاً في القلوب، يقول مخاطباً قرّاء التعازي والمراثي:

«وأنتم أيضاً عندما تقرؤون المراثي، وتطرحون المواضيع، وتذكرون المصائب، وتدفعون الناس للبكاء، اجعلوا هدفكم صيانة الإسلام، والدفاع عن هيبته ومجده. إنّنا نريد أن نحافظ على الإسلام بهذه المراثي، وبهذا البكاء، وتلاوة الشعر والنثر. نريد أن نصونه كما حفظه لنا الآخرون حتى الآن، ينبغي أن تقال هذه النقطة للناس كي يفهموها، وهي: أنّ قراءة المراثي، وذكر المصائب ليس **هدفه الإبكاء فحسب، وإنما البكاء وسيلة حُفِظَ بها الدين**، بل حتى التباكي يثاب المرء عليه، لماذا؟ لأنه هو الآخر يساعد على صون الدين»[١].

٢ - إبقاء وتصعيد اتقاد روح الثورة وتأجيجها. يقول الإمام الخميني رحمه الله:

«إنّ البكاء على الشهيد يُعدُّ إبقاءً على اتّقاد جذوة الثورة وتأجّجها، وما ورد في الروايات: مِن أنّ مَن بكى أو تباكى، أو تظاهر بالحزن فإنّ أجره الجنة، إنّما يفسر بكون هذا الشخص يساهم في صيانة نهضة الإمام الحسين عليه السلام»[٢].

وبناء على ذلك فإنّ محاربة الحكومات المختلفة للمجالس الحسينية، وبشكلها البسيط، أو محاولة احتوائها هو لغرض إيقاف فاعليتها، وتعطيل تأثيرها في النفوس، أو إخراجها عن هدفها المنشود، وذلك بتصوير البكاء تصويراً سلبياً، وبأنّه حالة انهزامية خانعة، أما الإمام الخميني فإنّه يفسر البكاء على الحسين عليه السلام

(١) الإمام الخميني، نهضة عاشوراء: ٨٦-٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨.

تفسيراً إيجابياً، وأنّه لا يعبّر عن حالة انهزامية، وإنّما يعبّر عن تفاعل وجداني ثوري فيقول رحمه الله:

«"**كلّ يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء**" منهج يعني أنّ علينا أن نستمر في الثورة والقيام والنهوض امتداداً لتلك النهضة في كل مكان، وفي كل يوم، وطبقاً لهذا المنهج، فالإمام الحسين عليه السلام ثار بعدد قليل، وضحّى في سبيل الإسلام بكل شيء واقفاً بوجه إمبراطورية كبرى ليقول: "لا".

فلا يتصور أبناؤنا وشبّاننا أن القضية قضية بكاء شعب لا غير! وأنّنا (شعبٌ بكّاء)! على ما يريد الآخرون أن يوحوا لكم به، إنّهم يخافون من هذا البكاء بالذات لأنّه بكاء على المظلوم، وصرخة بوجه الظالم، وهذه المواكب التي تجوب الشوارع للعزاء إنّما تواجه الظلم، وتتحدى الظالمين»[1].

٣- إنَّ الشعائر الحسينية شعائر سياسية تحمل روح الرفض والوقوف بوجه الظلم، وتتحدى الظالمين بكلّ أشكالهم. يقول رضوان الله تعالى عليه:

«إنّها شعائرنا الدينية التي ينبغي أن تصان، وهي شعائر سياسية يلزم التمسّك بها. حذار من أن يخدعنكم هؤلاء الكُتّاب الذين يهدفون إلى تجريدكم من كلّ شيء، وذلك تحت أسماء ومرامي منحرفة مختلفة»[2].

ويقول: «ينبغي أن تذكر المظالم كي يفهم الناس ماذا جرى، بل إنّ هذا يجب أن يقام كلّ يوم، فإنَّ لذلك أبعاداً سياسية واجتماعية غاية في الأهمية»[3].

ثم يفسّر الإمام الخميني رحمه الله في أحاديث أخرى كثرة الثواب للدموع التي

(١) نهضة عاشوراء: ١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٠-١١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢.

تذرف في مجلس الحسين عليه السلام، وأن هذه الدموع ليس غاية بذاتها، وهي المبتغاة دون سواها، وإنّما هي وسيلة تحريك وإيقاظ، يقول: «فالروايات التي تقول إنّ كل دمعة تذرف لمصاب الحسين عليه السلام لها من الثواب كذا وكذا، وتلك الروايات التي تؤكد أنّ ثواب من بكى أو تباكى... لم تكن من باب أنّ سيد المظلومين عليه السلام بحاجة إلى مثل هذا العمل، ولا لغرض أن ينالوا هم وسائر المسلمين هذا الأجر والثواب بالرغم من أنّه أمر محرز، ولا شكَّ فيه حتماً، ولكن لِمَ جُعل هذا الثواب العظيم لمجالس العزاء؟ ولماذا يجزي الله تبارك وتعالى من بكى أو تباكى بمثل هذا الثواب والجزاء العظيم؟

إنّ ذلك يتضح تدريجياً من ناحيته السياسية، وسيُعرف أكثر فيما بعد إن شاء الله، إنّ هذا الثواب المخصص للبكاء، ومجالس العزاء، إنّما يُعطى - علاوة على الناحية العبادية والمعنوية - على الناحية السياسية، فهناك مغزى سياسي لهذه المجالس.

لقد قيلت هذه الروايات في وقت كانت هذه الفرقة الناجية مبتلاة بالحكم الأموي، وأكثر منه بالحكم العباسي، وكانت فئة قليلة مستضعفة تواجه قوى كبرى.

لذا وبهدف بناء هذه الأقلّية، وتحويلها إلى حركة متجانسة، اختطّوا لها طريقاً بنّاءً، وتمَّ ربطها بمنابع الوحي، وبيت النبوة، وأئمة الهدى عليهم السلام، فراحوا يخبرونهم بعظمة هذه المجالس، واستحقاق الدموع التي تذرف فيها الثواب الجزيل، مما جمع الشيعة - على الرغم من كونهم آنذاك أقليّة مستضعفة - في تجمعات مذهبية، ولربما لم يكن الكثير منهم يعرف حقيقة الأمر، ولكنّ الهدف

كان بناء هيكل هذه الأقلية في مقابل الأكثرية.

وطوال التأريخ، كانت مجالس العزاء - هذه الوسائل التنظيمية - منتشرة في أرجاء البلدان الإسلامية، وفي إيران التي صارت مهداً للإسلام والتشيع أخذت هذه المجالس تتحول إلى وسيلة لمواجهة الحكومات التي توالت على سدّة الحكم ساعية لاستئصال الإسلام، وقلعه من جذوره، والقضاء على العلماء، فهذه المجالس والمواكب هي التي تمكّنت من الوقوف بوجهها، وأخافتها»[1].

والإمام رحمه الله يقصد أنّ هذه المجالس هي الرابطة الموصلة بين الشيعة وأئمتهم من جانب، وبين أبناء الشيعة بمختلف شرائحهم من جانب آخر، وبذلك تتكوّن شبكة اتصالات واسعة تمتدُّ إلى أعماق الجماهير بكلّ طبقاتهم، ويقول: «ولكنكم ترون كيف أنّ هذه المجالس والمواكب التي ربطت الجماهير ببعضهم، هذه المآتم التي حرّكت الجماهير يلتئم شملها من جميع الشرائح الاجتماعية المعزيّة بمجرّد أن يحصل أمر يستدعي التجمع، وليس في مدينة واحدة، بل في كل أنحاء البلاد، ودون حاجة إلى بذل جهود كبرى، أو إعلام واسع النطاق»[2].

وهكذا نجد في كثير من أحاديثه يؤكد أنّ البعد السياسي للشعائر الحسينية هو الأساس فيها، ومن دونها تصبح فارغة من محتواها الحقيقي، اسمعه يقول: «إن المهم في الأمر هو البعد السياسي لهذه الأدعية، وهذه الشعائر، المهم هو ذلك التوجّه إلى الله، وتمركز أنظار الناس إلى نقطة واحدة، وهدف واحد، وهذا هو الذي يعبّئ الشعب باتجاه هدف وغاية إسلامية، فمجلس العزاء لا يهدف

(١) نهضة عاشوراء: ١٢-١٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٥.

للبكاء على سيد الشهداء عليه السلام والحصول على الأجر - طبعاً فإن هذا حاصل وموجود - الأهم من ذلك هو البعد السياسي الذي خطَّطَ له أئمتنا عليهم السلام في صدر الإسلام كي يدوم حتى النهاية، وهو الاجتماع تحت لواء واحد وبهدف واحد، ولا يمكن لأي شيء آخر أن يحقق ذلك بالقدر الذي يفعله عزاء سيد الشهداء عليه السلام»[1].

٤- إنّ هذه المجالس مدارس لتخريج الأبطال من طلاب الشهادة، والمشتاقين إلى لقاء الله تعالى، يقول رحمه الله: «إنّ هذه المجالس... هي التي خرجت أولئك الشبّان الذين يتحرّقون شوقاً للذهاب إلى الجبهات، ويطلبون الشهادة، ويفخرون بها، وتراهم يحزنون إذ هم لم يحصلوا عليها.

هذه المجالس هي التي خرّجت أمهات يفقدن أبناءهنّ، ثم يقلن بأن لديهن غيرهم، وإنّهنّ مستعدات للتضحية بهم أيضاً»[2].

هذه إشعاعة بسيطة ذكرتها من كلمات الثائر الحسيني في بيان الأبعاد الأساسية في مجالس عاشوراء.

وكلّ ذلك مستمدّ من بيانات أئمة الهدى عليهم السلام؛ فقد كانوا صلوات الله عليهم - إضافة إلى تلك الأحاديث الشريفة التي تبعث في نفس الإنسان الثورة واليقظة، وتعمّق روح الرفض لكلّ معالم الباطل - إذا حلّت عليهم أيام عاشوراء يخيّم عليهم الحزن والأسى، وينصبون مجالس الرثاء والعزاء، ويحثون الشعراء على إنشاد المراثي في الحسين عليه السلام، فقد روى أبو الفرج الأصفهاني أنَّ السيد الحميري استؤذن له عند الإمام الصادق عليه السلام، فأمر عليه السلام آذنه بإيصاله، وأقعد

(١) المصدر نفسه: ١٦-١٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١٨.

حرمه خلف ستر، ودخل فسلّم وجلس، فاستنشده في الحسين عليه السلام، فأنشده قوله: [من مجزوء الكامل]

أمـــرر علـــى جـــدث الحسيـــ ـــــن وقـــل لأعظمـــه الزكيّـــة
آأعظمـــــاً لا زلـــــتِ مـــــن وطفـــــاءَ ســـــاكبةٍ رَوِيّـــــة
وإذا مـــــــــررتَ بقبـــــــره فأطـــل بـــه وقـــف المطيّـــة
وابْـــــكِ المُطَهَّـــــرَ للمطـــــ ـــــهَّر والمطهَّـــــرة النقيّـــــة
كبُكـــــاء مُعْولـــــةٍ أتـــــت يومـــــاً لواحـــــدها المنيّـــــة

قال: «فرأيت دموع جعفر بن محمد تتحدّر على خدّيه، وارتفع الصراخ والبكاء من داره، حتى أمره بالإمساك فأمسك»[1].

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢٦٠/٧، وروي أنّ أبا هارون المكفوف هو الذي أنشدها كما في كامل الزيارات: ٢٠٨، وبحار الأنوار: ٢٨٧/٤٤، إلا أن الشعر للسيد الحميري وقد ورد في ديوانه: ٢٢٦.

ماذا تَعَلَّمْنا

مِنَ الحُسَيْنِ عليه السلام ؟

عاش الحسينُ عليه السلام في ضمير الأجيال؛ ولذلك ما ذكر إلا واهتزّت الضمائر، وخشعت القلوب، وسالت الدموع؛ لأنّه ملك القلوب والضمائر، وأصبح محرّكاً لها في طول الزمن، يتعلّم منه جميع الأحرار كلّما تقتضيه لوازم الرفض والتحرّر من قيود الطغاة، فهو أسوة للشجاع، والبطل المقدام، ومثال حيٌّ يهدي الأجيال إلى ساحل النجاة وسبيل السلامة، وسلوة للمنكوبين والثكالى... ومعلم للإنسانية في مواجهة الظلم، والكفر، والشرك، والنفاق...

لذلك ينبغي أن نعرف جيداً أنّنا لا نقيم مجالس الحسين عليه السلام لنقضي وقتاً ممتعاً كما نقضيه مع قصص الأبطال، أو لنبكي عليه وعلى مصابه -وإن كان البكاء لمصابه مبارك[1]- وهكذا بقية الشعائر في إحياء ذكراه فهي وسائل في طريق الله لتزكية النفوس، وتربية الأجيال، وإعداد الدعاة إلى الله... واليوم ونحن نعيش محنة المهجر[2] حيث شتَّتنا الظالمون في بقاع الدنيا شرقاً وغرباً نريد أن تطرح على أنفسنا هذا التساؤل:

ماذا تعلّمنا من الحسين عليه السلام؟ وهل عرفنا كيف نرتشف من بحره الفيّاض بالتضحية، والفداء، والتحدّي، والرفض، والإخلاص، والتفاني، والعبادة، والزهد؟

---

(١) راجع بحث: «لِمَ نبكي الحسين» في هذا الكتاب.

(٢) كُتِبَ هذا البحث في وقت هجرتنا من العراق بعد الاضطهاد الذي لاقيناه من نظام البعث البائد.

لقد علّم الحسين عليه السلام البشرية جمعاء من الدروس والعبر ما لا يوجد في حياة غيره، فقد جمع في تضحيته وإبائه، وشجاعته، وإقدامه، وفي صبره، وتحمّله... حياة جدّه، وأبيه، وأمّه، وأخيه، وهي خلاصة حركة التوحيد على طول مسيرة الأنبياء، ولنذكر بعض ما تعلمناه من الحسين عليه السلام:

١- علّمنا الحسين عليه السلام أنّ التضحية بالفرد نفسه، أو بأهله وعياله، وكلّ ما يملك - ومهما كان الفرد عظيماً، بل حتى لو كان أعظم وأقدس من في الأرض - من أجل إقامة دين الله وحفظه من التحريف، والأمة من الانحراف واجبة، فإذا اقتضت مصلحة الإسلام التضحية بالفرد، فعليه أن يضحي.

وعلى هذا الأساس ضحّى بنفسه وأهله وأصحابه وأنصاره، وكلّ ما يملك لأجل تثبيت قواعد التوحيد، وإعادة الأمة إلى رشدها... ولذا يعلمنا الحسين عليه السلام أنّ الدين والإسلام أغلى وأعلى قيمة من الدماء والأموال والأولاد.

يقول الإمام الخميني رحمه الله: «إنّ الذي صان الإسلام وأبقاه حيّاً حتى وصل إلينا نحن المجتمعين هنا هو الإمام الحسين عليه السلام الذي ضحّى بكلّ ما يملك، وقدّم الغالي والنفيس، وضحّى بالشباب والأصحاب من أهله وأنصاره في سبيل الله عز وجل، ونهض من أجل رفعة الإسلام، ومعارضة الظلم»[1].

ويقول رحمه الله: «لقد بُعث الأنبياء لإصلاح المجتمع، وكلّهم كانوا يؤكدون أنّه ينبغي التضحية بالفرد من أجل المجتمع مهما كان الفرد عظيماً، وحتى لو كان الفرد أعظم من في الأرض، فإذا اقتضت مصلحة المجتمع التضحية بهذا الفرد فعليه أن يضحي. وعلى هذا الأساس نهض سيد الشهداء عليه السلام وضحّى

(١) الإمام الخميني، نهضة عاشوراء: ٧.

بنفسه وأصحابه وأنصاره، فالفرد يُفدى في سبيل المجتمع، فإذا اقتضت مصلحة المجتمع، وتوقف إصلاح المجتمع على تضحيته وجبت التضحية، إنّ العدالة ينبغي أن تحقق بين الناس ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1]»[2].

٢- وعلمنا الحسين عليه السلام أنّ السر من وجود الإنسان هو عبادة الله تعالى والعمل بالحقّ، ورد الباطل والظلم.

وإذا لم يتحقق ذلك في حياة الإنسان، فليطلب الموت في سبيل الله؛ لأنّ الحياة بدون عبادة الله تعالى والعمل بالحق، وإقامة مجتمع العدل والقسط تصبح فارغة المحتوى فاقدة القيمة؛ لهذا يقول سيد الأحرار عليه السلام: «ألا ترون أنَّ الحقَّ لا يُعمل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه؛ ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برما»[3].

وتأسيساً على ذلك ينبغي لنا أن نفهم البعد الحسيني في عبادة الله تعالى، وأنّها نفي لكلّ معالم الباطل، وإثبات لكلّ دعائم التوحيد العملي، وهكذا علمنا الحسين عليه السلام كيف نتعبّد لله في كلّ حركة وسكون، وأعظم العبادة هي الوقوف بوجه الظالمين لإحقاق الحق وإبطال الباطل...

٣- وعلّمنا الحسين عليه السلام أنّ الخضوع للظالم حرامٌ، وأن السكوت عليه حرامٌ يعاقب الإنسان عليه؛ لأنّه شقاء للإنسانية في الدنيا والآخرة، فأوجب بتضحياته وجوب الثورة على الظلم والظالمين، وأن لا يخشى من قلة في عُدة أو عَدد، يقول الإمام الخميني رحمه الله: «لقد علّم عليه السلام الناس أن لا يخشوا قلة العدد،

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) نهضة عاشوراء: ٤٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٠٤/٥.

فالعدد ليس هو الأساس، بل الأصل والمهم هو النوعية، والمهم هو كيفية التصدّي للأعداء والنضال ضدّهم والمقاومة بوجههم، فهذا هو الموصل إلى الهدف»[١].

ويقول رحمه الله: «لقد تعلّمنا من الحسين عليه السلام كيفية النضال والجهاد، وكيفية المواجهة بين قلة من الناس، وكثرة كاثرة، وكيفية الوقوف بوجه حكومة تعسفية جائرة تسيطر على كلّ مكان، كيف نقوم بذلك بعدد قليل»[٢].

ويقول رحمه الله في مكان آخر: «لقد علّم سيد الشهداء عليه السلام الجميع ماذا ينبغي عليهم عمله في مقابل الظلم والحكومات الجائرة»[٣].

٤- وعلّمنا الحسين عليه السلام أنّ الذين يسقطون في طريق الشهادة في سبيل الحق والعدل لم يكونوا خسائر في معركة؛ لأنّهم يبعثون الروح في الأمة الخاملة الغافلة، ويبقون مشاعل تنير الدرب للأجيال، بل هم ذخائر الأمة تتعلّم منهم، وتهتدي بهداهم.

ومن هنا يمكن القول بضرس قاطع: إنّ يزيد حين قتل الحسين عليه السلام إنما قتل نفسه، وكتب على أسلافه وأحفاده الفناء إلى الأبد، والحسين عليه السلام هو الباقي يُسَيِّر ركب الخلود البشري نحو الحرية والسعادة، وحقاً ما قاله الإمام الخميني رحمه الله: «لقد حفر اليزيديون في يوم عاشوراء قبورهم بأيديهم الآثمة، وتسبّبوا هم بهلاك أنفسهم، ومحق نظام حكمهم الظالم المتعسّف»[٤].

---

(١) الإمام الخميني، نهضة عاشوراء: ٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ٦٦.

(٤) المصدر نفسه: ٥٧.

٥- وعلّمنا الحسين عليه السلام كيف يعبد الإنسان ربه، ويصلّي له في أصعب الظروف واشد الحالات.

فقد روى المؤرخون أنّ أبا ثمامة الصائدي رحمه الله قال للحسين عليه السلام: «يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتَل حتى أُقتَل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربّي، وقد صلّيتُ هذه الصلاة التي قد دنا وقتُها»، فرفع الحسين عليه السلام رأسه، ثم قال: «ذكرتَ الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها»، ثم قال: «سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلّي»[1].

وقيل: «إنّه صلّى بمن بقي من أصحابه صلاة الخوف، وتقدّم أمامه زهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفي في نصف من أصحابه، ويقال: إنه صلّى وأصحابه فرادى بالإيماء... ولمّا أثخن سعيد بالجراح سقط إلى الأرض وهو يقول: «اللهم العنهم لعن عاد وثمود، وأبلغ نبيّك مني السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإنّي أردت بذلك ثوابك في نصرة ذرية نبيك صلى الله عليه وآله»، والتفت إلى الحسين عليه السلام قائلاً: «أوفيت يا ابن رسول الله؟» قال: «نعم أنت أمامي في الجنة»، وقضى نحبه، فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً غير الضرب والطعن»[2].

هكذا علّمنا الحسين عليه السلام أنّ للصلاة قيمةً لا تعدلها قيمة الأرواح والنفوس.

٦- وعلّمنا الحسين عليه السلام الإباء والعزة، فلم يعرف التأريخ أبيّاً كالحسين عليه السلام وأصحابه، فهو حقاً سيّد الأباة على طول خطّ التاريخ البشري، منه يؤخذ،

(١) تاريخ الطبري: ٤٣٩/٥، ونفس المهموم للمحدث القمي: ٢٧٠.

(٢) المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٤٥-٢٤٦.

وإليه يرجع... ومن إبائه أنّه عندما هُدِّد بالموت، قال: «ألا وإنّ الدَّعي ابن الدَّعي قد ركَز بين اثنتين: بين السلّة، والذّلة، وهيهات منا الذلّة»[١].

قال ابن أبي الحديد: «سيّد أهل الإباء، الذي علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنيّة، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام؛ عُرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان؛ إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك.

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلويّ البصريّ، يقول: كأنّ أبيات أبي تمام في محمّد بن حُميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام: [من الطويل]

وقد كان فوت الموت سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخلقُ الوعرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيمَ حتى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرَّوع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجلَهُ ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سُنْدُسٍ خُضْرُ»[٢]

٧ - وعلّمنا الحسين عليه السلام كيف ننصر الحق ونحييه؟ وكيف نحارب الباطل ونميته... وهذا هو الهدف الأساسي من نهضة الحسين عليه السلام بل هدف كلّ رسالات السماء، وفي هذا من الخير ما لا يدركه إلا من حبس نفسه على ذات الله تعالى، وعاش للحقّ وللدفاع عن المظلومين، يقول الإمام الخميني رحمه الله: «لقد تعلّمنا من الحسين عليه السلام كيفية النضال والجهاد، وكيفية المواجهة بين قلّة من الناس، وكثرة كاثرة»[٣].

---

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٦، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٤٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٩/٣.

(٣) نهضة عاشوراء: ٢٦.

٨- وعلّمنا الحسين عليه السلام كيف نواجه المصائب والصعاب والكوارث التي تحلّ بنا؟ وكيف نقف موقف الصبر والصمود؟ وكيف نعبرها دون أن تؤثّر علينا، وبهذا أصبح الحسين عليه السلام مثلاً، ومعلماً، وأسوة لكلّ المنكوبين والمثكولين حتى قال الشاعر[1]: [من الكامل]

أنست رزاياكم رزايانا التي سلفت وهوّنت الرزايا الآتية

ولم يكن المسلمون أو الشيعة وحدهم الذين يتأسون بالحسين عليه السلام، ويتعلّمون الصبر منه، بل حتى غير المسلمين تأثّروا بالحسين عليه السلام، وتعلّموا الصبر يقول غاندي الوثني: «لقد تعلمت الصبر من الحسين عليه السلام».

٩- وأخيراً:

(علّمنا الحسين عليه السلام كيف نعتنق المبادئ، وكيف نحرسها؟

وعلّمنا كيف نقدّس العقيدة، وكيف ندافع عنها...

وعلّمنا كيف نموت؟ كما علّمنا كيف نحيا كراماً بها...

ورسم طريق الخلود الأدبي والقومي من طريقها)[2].

تلك دروس تعلّمناها من الحسين عليه السلام، وهي دروس لا تحدّ بزمن، ولا تثمّن بثمن...

---

(١) ديوان الشيخ محمد علي الأعسم: ٣١.

(٢) العلايلي، الإمام الحسين: ٣٤٩.

مَنْ هو الحُسَيْنِيّ؟

معسكر الحسين عليه السلام مدرسةٌ خَرَّجت الرجال الأفذاذ الذين لا نظير لهم على طول خطّ التأريخ، وهذه المدرسة لم تكن محصورة في زمان الحسين عليه السلام، وإنّما هي مستمرة وباقية في حرارتها ونصاعتها وعطائها إلى يوم القيامة، (فالفعل العاشورائي يتقمّص في حضوره كلّ زمان ومكان، ويتلوّن مع كلّ زمان ومكان؛ ليأخذ منه قضاياه وتحدّياته وأسئلته ويجيب عليها)؛ لأنّ مدرسة الحسين عليه السلام مدرسةٌ سيّارةٌ ومتحرِّكة ومُحَرِّكة لعجلة الحياة والتأريخ فاعلة ومؤثرة فيه؛ فهي التي صنعت التأريخ البشري؛ لأنّها مدرسة صناعة الإنسان الكامل بكلّ ما للكمال من معنى في مفهومه الرسالي، فقد تجسّدت في قائدها: (عظمة المبدأ، عظمة الصراحة، عظمة المضاء، عظمة الإباء، عظمة البطولة، عظمة الاستهانة)[1] بالحياة الدنية.

وهذه النهضة المباركة غير نابعة من منظور شخصي، أو عشائري، أو إقليمي أو وطني... ولا تعبّر عن هدف فردي، وإنّما سعت؛ لتحقيق أهداف كليّة ونوعية إنسانية شاملة تمثّل الإسلام شكلاً ومضموناً، قلباً وقالباً، وهي ثورة فريدة ليس لها نظيرٌ من شاكلتها؛ لذلك أصبحت منبع كلّ الثورات، ومنطلق كلّ الثائرين، يستلهمون منها دروس العزّة والإباء، والرفض، والتحدّي، والصمود...

(١) العلايلي، الإمام الحسين عليه السلام: ٩٥.

فهي الأنموذج الذي يُحتذى به على امتداد الزمان، فلو نظرنا إلى التأريخ نظرة دقيقة لا نجد ثائراً إلا واستمدّ روح الثورة من الحسين عليه السلام وصحبه، بل يتشرف أيّ ثائرٍ مهما كان أصيلاً في فكره أن يستنير بها، ويستمدّ معينه منها.

فمن هو الحسيني؟ هل هو من يتفانى في حبّ الحسين عليه السلام وتقديسه؟

أم هو الذي يقيم عزاءه، ويبكي كثيراً، ويلطم صدره، ويبذل ماله، ويسعى بكلّ جهده؛ لنشر أفكاره؟ أم هو الذي يبذل وقته وجهده في إقامة شعائره؟

والحقيقة أنّ لرجال الحسين عليه السلام صفات وخصائص ومميزات لا بد لمن أراد أن يكون حسينيّاً أن يتصف بها، ومن تلك الخصائص:

١- **أن يكون متبصّراً بدينه**، والبصير بدينه هو الذي وعى الإسلام عقيدة راسخةً، ونظاماً شاملاً، وتحَرَّكَ وفق ما تمليه عليه معرفته من مبادئ وأفكار مجسّداً تلك المبادئ: أخلاقاً، وسلوكاً، أهدافاً، ووسائل؛ ولذلك وُصِفَ أصحابُ الحسين عليه السلام بأنّهم أهل البصائر، كما قال أحد قادة جيش ابن سعد: «يا حمقى أتدرون من تقاتلون، تقاتلون فرسان أهل المصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين»[1].

إذن لا يمكن أن نصف من يجهل الإسلام في عقائده وأحكامه وأخلاقه بأنّه حسيني، فالحسيني الحقيقي إذا رأيته ذَكَّرك بالله ورسله وأوليائه، وليس من يبتدع البدع، ويرتكب المخالفات الشرعية، ثم يدعي أنّه حسيني.

٢- **الالتزام**: وهو مرحلة متأخرة عن الوعي، وبعبارة أخرى أنّ الحسيني هو المطبّق لأحكام الله وفرائضه، الساعي لتحكيمها، وليس الحسيني من يؤخّر

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ١٩/٤٥.

صلاته لأجل أن يشارك في الشعائر المتعارفة، فالحسين عليه السلام لم يؤخر صلاته حتى في ميدان القتال - كما تقدّم في حديث أبي ثمامة الصائدي[1] -، وإنّما أقامها في بعض أصحابه بينما وقف بعضهم الآخر يصدّ السهام بصدورهم عن الحسين عليه السلام حتى أثخن سعيد الحنفي بالجراح، وسقط إلى الأرض، مضرّجاً بدماء الشهادة.

إنّها عظمة الحسين عليه السلام وأصحابه في امتثال أوامر الله في أصعب الظروف وأشدّها، وفي ذلك من الدروس والعبر ما لا تعيه إلا قلوب أُترعت بحبّ الله، وذاقت حلاوة مناجاته، وضحّت من أجلها بكلّ شيء...

٣- **أن يكون عارفاً لهدفه** وغايته من كلّ خطوة يخطوها، أو كلمة يقولها، ولا يريد بذلك غير وجه الله باذلاً جهده؛ ليكون رضا الله غايته في كلّ عمل يقوم به، فلا يطلب من عمله الحسيني سمعة، ولا رياء، ولا مالاً، ولا جاهاً، وإنّما يطلب ثواب الله في نصرة دينه.

٤- **أن يكون قدوة حسنة للآخرين**، وأنموذجاً طيّباً للإسلام، بحيث تجده مجسّداً بعض أخلاق الحسين عليه السلام في سلوكه، مؤثراً الأعمال على الأقوال، فرجال الأقوال كثيرون، ورجال الأعمال قليلون.

٥- **والحسينيّ عبد لله**، أي متحرّر من كلّ أشكال العبودية وألوانها، عبودية الهوى، والشيطان، والطاغوت، والمال، والنساء، والأولاد، وأولئك أندر من الكبريت الأحمر، وما أجمل ما قاله الحسين عليه السلام:

«إنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما دَرّت

(١) في بحث «ماذا تعلّمنا من الحسين عليه السلام؟».

معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون»[١].

٦- **يتّسم الحسينيّ بروح الرفض لكلّ أشكال الباطل**، والضلال، والانحراف... وعدم الاستسلام لها مهما بلغت من الطغيان والجبروت، فلا يمكن أن يمدّ يده للظالمين أو يهادنهم، أو يساومهم على حساب دينه، أو يتراجع عن المواقف الرسالية، ويرفض أنصاف الحلول، ويستمدّ ذلك من الحسين عليه السلام بطل التحدي والرفض القائل: «والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»[٢].

٧- **والحسينيّ لا بدّ وأن يكون شاعراً بالمسؤولية أمام الله**، وأمام التأريخ لحفظ رسالة الإسلام، فإذا رأيت إنساناً لا يبالي بما يلاقيه المسلمون من حرب واضطهاد وقتل وتجويع، ولم يهتم بأمور المسلمين فليس من الحسين عليه السلام في شيء، وإن ادّعى ذلك ألف مرة، وبنى ألف حسينية؛ لأنّ الحسينيّ هو المسلم المؤمن الواقعي، ومن لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم؛ ولأنّ الحسيني لا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار دون نصرة الإسلام العزيز.

٨- **والحسينيّ معطاء يتّسم بروح التضحية**، وتفضيل المصلحة الإسلامية الكبرى على جميع مصالحه الخاصّة مهما بلغت.

وهكذا كان أصحاب الحسين عليه السلام، فقد أعطوا كلّ ما يملكون، ولم يتراجعوا قيد أنملة، وبذلوا لأجل رسالة الله كلّ غالٍ ونفيس، وكلّ ذلك استمدّوه من الحسين عليه السلام الذي بذل دمه الزكيّ ودم أهل بيته وأصحابه؛ لأجل بقاء

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٧٤.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٣٥٨/١.

الإسلام حيّاً سليماً من التحريف والتزييف، وعَرَّض عائلته للسبي والأسر؛ ولذلك لما سأله ابن عباس عن معنى حمله للنساء والأطفال أجابه: بـ«أنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[1].

[من البسيط]

فما رأى السبط للدين الحنيف شفا ... إلا إذا دمه في نصره سفكا
وما سمعنا عليلاً لا علاج له ... إلا بنفس مداويه إذا هلكا
بقتله فاح للإسلام طيب هدى ... فكلما ذكرته المسلمون ذكا
وصان ستر الهدى عن كلّ خائنة ... ستر الفواطم يوم الطف إذ هتكا
قد آثر الدين أن يُمْحى فقحمها ... حيث استقام القنا الخطي واشتبكا[2]

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨ .

(٢) السيد جعفر الحلي، سحر بابل وسجع البلابل: ٣٨٣-٣٨٤ .

سِرُّ الخُلودِ
في ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

قالت زينب الحوراء عليها السلام وهي تخاطب الإمام زين العابدين عليه السلام لمّا مرّوا بسبايا أهل البيت عليهم السلام على أجساد الشهداء في ميدان الطف: «ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وأخوتي... فوالله إنَّ ذلك لعهد من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جدّك وأبيك وعمّك، ولقد أخذ الله ميثاق أُناس من هذه الأمّة لا تعرفهم فراعنة هذه الأمّة، وهم معروفون في أهل السماوات، إنَّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة فيوارونها، وهذه الجسوم المضرّجة، وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء، لا يدرس أثره، ولا يعفو رسمه، على كرور الليالي والأيام، وليجتَهِدَنَّ أئمة الكفر، وأشياع الضلالة في محوه، وتطميسه فلا يزداد أثره إلا ظهوراً، وأمره إلا علوّاً»[1].

في واقعة الطف تبرز ظاهرتان؛ حَرِيٌّ بنا أن نتوقف عندهما، ونتأمل جيداً فيهما، هاتان الظاهرتان هما:

١- خلود الثورة الحسينية، وبقاؤها حيّة نابضة في القلوب حتى أصبحت معيناً لا ينضب لكلّ الثورات على طول خط التأريخ، فما هو سرّ هذا الخلود؟

٢- عمق التفاعل الجماهيري معها، فما السرّ في ذلك؟

---

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات: ٤٤٥، وبحار الأنوار: ١٧٩/٤٥-١٨٠.

أما سرّ الخلود فمما لا شكَّ فيه أنَّ المشيئة الإلهية هي التي رسمت هذا المسار حتى تجلّت فيها سنن الله بأجلى صورها في واقعة الطف، وتجلّت إرادة الله تعالى فيها: «قد شاء الله أن يراك قتيلاً... إن الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[1]؛ ليكون الأنموذج الذي يُقتدى به في الكدح إلى الله.

أما سرّ الخلود من الناحية التحليلية؛ فإنّ الأحداث، والأفكار، والأشخاص ثلاثة أنواع:

أ- منها ما يشتمل على الزيف، والباطل، والضلال، ولكنّه مغلفٌ بغلاف من الحقّ؛ ليستر ما فيه من الزيف والباطل، وهذا سرعان ما ينكشف ما فيه من عيوب ونواقص، وحينئذٍ يلفظه الناس، ويرمونه في مزبلة التأريخ، ويمحى من قاموس حياتهم، ومن ذاكرة التاريخ.

ب- ومنها ما يكون محدوداً ضمن مدّة زمانية، أو بقعة جغرافية محدودة، أو أمة معدودة، وبعبارة أخرى: إنّ تلك الحقيقة محدودة بحدود الزمان والمكان الذي ولدت فيه، فحياتها بمقدار حدودها.

ج- ومنها ما يشتمل على الحقيقة كاملة ناصعة مطلقة لا تحدّ بحدود الزمان والمكان، ولها اتصال وثيق بالتكوين العقلي والوجداني للإنسان، فهذه الحقيقة تكون خالدة مع عمر الإنسان ومسيرته حتى تصبح واقعاً رسالياً تتزوّد البشرية منه، وتنبعث من أجله، وتصبح الغذاء اليومي للعقل والقلب والروح لا يستطيع أن يستغني عنها بحال، وثورة الحسين عليه السلام من هذا القبيل؛ لذلك نراها تتجدّد على مرّ الزمان لا يخلقها الدهر، ولا تبليها القرون، ولها سحر جذاب

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨ .

يجذب القلوب، ويستهوي النفوس إلا ما انطمست فطرتها... ولهذا تجذَّرت في أعماق القلوب والعقول رغم كلّ ما بذلت من جهود لطمسها وإمحائها، إلا أنّ إرادة الله هي التي خلّدتها لما منحتها من قوة، وعمق، وشمول، وجاذبية، وأصالة[1].

قوّة في المبادئ، والشعارات، والوسائل، والأهداف، وعمق في ضمير الوجود الكوني؛ ولهذا ملكت العقول والقلوب، واستوطنت فيها؛ فهي لا تزال حيّة في الضمائر تتجدّد على مرّ الزمان، وتضع الإنسان على جادة الصواب، وتدفعه إلى ساحات الجهاد؛ لتحقيق الحرية، والعدل، والحق، كما تبعث الناس إلى فعل الخير والعطاء، وتغذيهم بروح الوفاء، والتضحية، والصبر، والفداء... وتعمل على ترشيد مسيرتهم من خلال تهذيب الضمائر، وتربية العواطف، وتنمية الوعي الرسالي، وتركّز في القلوب أسمى معاني الكرامة الإنسانية، وهكذا أصبحت مناراً يضيء الدرب أمام جميع المصلحين على مختلف أهوائهم ونِحَلهم كلّ يرتشف منها بمقدار سعة ظرفه، وطهارة نفسه؛ ولهذا وجدنا الوثني الهندي غاندي يقول: «تعلمت الصبر من الحسين»، ويقول قسيس مسيحي: «لو كان الحسين لنا لرفعنا له في كل بلد بيرقاً، ولنصبنا له في كل قرية منبراً، ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين»[2].

وشمول لجميع صنوف وصور الحياة السياسية، والفكرية، والروحية والأخلاقية فهي مسرح عرضت فيه أسمى صور النبل، والكمال، والجمال،

(١) هذه النقاط مستفادة من كتاب ثورة الحسين عليه السلام في الوجدان الشعبي للمرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين رحمه الله ذكرتها مختصرة: ٧- ٨.

(٢) د. أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي: ٨٢.

والعظمة في المواقف الأخلاقية... وفي الوقت نفسه أبرزت أحطّ وأخس حالات التوحّش البشري والسقوط الأخلاقي... وبعبارة أدقّ: ثورة الحسين عليه السلام (كانت صراعاً بين خُلقين ومبدأين، وجولة من جولات الصراع بين الخير والشر.. بين أنبل ما في الإنسان، وأوضع ما يمكن أن تنحدر إليه النفس البشرية من مساوئ)[1].

وجاذبية ساحرة فلا نعرف حدثاً اجتذب النفوس، واستقطب القلوب كثورة الحسين عليه السلام[2].

وأصالة كأصالة مفجرها في طهارته، وسموه، وصفائه، ونسبه، ويمكن أن نعرف بدقّة: متانة وعمق خلود ثورة الحسين عليه السلام إذا عرفنا الجهود التي بذلت؛ لطمسها وإمحائها من ذاكرة التأريخ، فقد بذلت جهود جبّارة، فكرية، وإعلامية، وسياسية، واقتصادية؛ لطمس معالمها، ودفنها إلى الأبد، ولم تكن تلك الجهود جهود أشخاص أو مؤسسات محدودة، بل كانت جهود دولة تتمتع بكل القدرات، البشرية، والمالية والفكرية، والسياسية، وكلّ تلك القدرات سُخّرت بمجرد انطلاق الثورة، واستعارها، ثم استشهاد رموزها، والتمثيل بأجسادهم، وسبي ذراريهم... واستمرّت تلك الجهود طيلة الحكم الأموي، والعباسي، والعثماني، ولا تزال إلى اليوم مستمرة مع تفاوت في الاندفاع الشديد، والفتور البسيط، ورغم ذلك كلّه نرى أنّ هذه الحركة كلما واجهت ضغوطاً جديدة ازدادت متانةً، ورسوخاً، وتجدّداً، وتجذّراً في النفوس... ولنذكر بعض تلك الأساليب التي واجهتها حركة الحسين الخالدة:

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي: ٧٤.

(٢) راجع بحث جاذبية الحسين عليه السلام في الفصل التاسع.

١- محاولة تبرئة النظام الأموي، ورأسه المدبّر (يزيد) من جريمة قتل الحسين عليه السلام وسبي العائلة النبوية، وإلقاء التبعة على ابن زياد... وهذه المحاولة هدفت إلى امتصاص النقمة الشعبية، واحتواء التحرك المضاد من خلال إلقاء التبعة على رجل واحد وتبرئة النظام منها، وبذلك تتأطّر الجريمة بإطار شخصي، وتسلم السلطة من تبعاتها الكبرى، ولكنّ ابن زياد كشف الحقيقة من خلال حوار دار بينه، وبين مسافر بن شريح اليشكري عندما (استجار ابنُ زياد بمسعود بن عمرو فأجاره، ثم سار ابن زياد إلى الشام، وأرسل معه مسعود مائة من الأزد حتى قدموا به إلى الشام، فبينما هو يسير ذات ليلة قال: قد ثقل عليَّ ركوب الإبل، فوطّئوا لي على ذي حافر؛ فجعلوا له قطيفةً على حمار، فركبه ثم سار، وسكت طويلاً، قال مسافر بن شريح اليشكري: فقلتُ في نفسي: لئن كان نائماً لأُنَغّصَنَّ عليه نومه، [فدنوتُ منه]، فقلت: أنائم أنت؟ قال: لا، كنتُ أحدّثُ نفسي، قلتُ: أفلا أحدّثك بما كنتَ تحدّث به نفسك؟ قال: هات، قلتُ: كنتَ تقول: ليتني كنتُ لم أقتل حسيناً... قال: أمّا قتلي الحسين؛ فإنّه أشار إليَّ يزيد بقتله أو قتلي؛ فاخترتُ قتله)[1].

٢- تشويه أهداف ثورة الحسين عليه السلام حيث صوّر الأمويون وأتباعهم بأنّ الحسين عليه السلام إنّما ثار لأجل طلب الملك والزعامة، وليس هدفه الدفاع عن الإسلام وإنقاذه من مخالب الأمويين، وهذا الاتجاه ركّز من خلال تحريف الأخبار التأريخية، ووضع أحاديث، واختلاق موافق، ونسبتها إلى الحسين عليه السلام، لم يكن الحسين عليه السلام قالها أو أرادها.

(١) ابن الأثير، الكامل في التأريخ: ١٤٠/٤.

مثال ذلك: أنّهم نسبوا للحسين عليه السلام أنّه قال لعمر بن سعد: اذهب بي إلى يزيد أضع يدي في يده[١].

والواقع يكذّب هذه الرواية، فلو أراد الحسين عليه السلام أن يستسلم، ويذهب إلى يزيد لكان ذلك متيسّراً، ولو أراد أن يضع يده في يد يزيد لوضعها منذ دعاه أمير المدينة للبيعة، ولما قال: «مثلي لا يبايع مثله»[٢]، ولَما عرَّض نفسه وأهله لكلّ تلك المصاعب والمصائب التي ما عرف التأريخ لها مثيلاً، هذا من جانب.

ومن جانب ثانٍ: إنّ الطبري نفسه يروي عن عقبة بن سمعان، وهو رجل صحب الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، وسَلِمَ من القتل، قال: «**صحبتُ حسيناً، فخرجتُ معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة، ولا بمكة، ولا في الطريق، ولا بالعراق، ولا في عسكر إلى يوم مقتله، إلا وقد سمعتُها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون؛ من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمرُ الناس**»[٣]، فلم يفعلوا.

٣- عمل الإعلام الأموي على إعطاء صورة مشوّهة للثورة، وأنصارها على أنّهم من الخوارج والحرورية، وأنّهم خارجون على أحكام الشرع المقدس، وقد شقّوا عصا المسلمين، وفرّقوا صفوفهم؛ ولذلك ما أُجري في حقّهم هو إجراء

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٩/٥.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤١٣/٥-٤١٤.

شرعي، حتى قيل: «إنّ الحسين قتل بسيف جدّه»، وحينئذ سيكون فعل يزيد وجنده في جريمته الكبرى عملاً شرعياً، وقد نحى هذا المنحى بعض الفقهاء المتعصبين للاتجاه الأموي، ومنهم أبو بكر ابن العربي حيث قال:

«وما خرج إليه [يعني الحسين عليه السلام] أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر [عن] الدخول في الفتن وأقواله في ذلك كثيرة، منها: [ما روى مسلم عن زياد بن علاقة عن عرفجة بن شريح] قوله صلى الله عليه وآله: «إنّه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرِّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»، فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله»[1].

وبهذا الأساليب التبريرية أعطى فقهاء السلاطين المبرّر الشرعي الذي ما أنزل الله به من سلطان؛ ليلبسوا الباطل ثوب الحق، ويموّهوا الحقيقة على الناس، ويدفنوا صرخة الحسين عليه السلام، ويمحوا أثرها، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

٤- حاولوا إسقاط القيمة الثوريّة والسياسيّة والأخلاقيّة للثورة ورجالها وأنصارها، حيث أقدموا على الاستهانة بكلّ القيم الدينية والإنسانية من خلال القتل، وقطع الرؤوس، وسحق الأبدان بسنابك الخيل، وحرق الخيام على أهلها، وسبي عائلة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولكن انقلب السحر على الساحر، وبطلت كلّ المخادعات والأفعال، وصارت هذه الأعمال ورقة إدانة للحكم الأموي، وهذا خير دلالة على السقوط الأخلاقي والإنساني الذي تميّز به الحكم الأموي...

(١) أبو بكر ابن العربي، العواصم من القواصم: ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) التوبة: ٣٢.

وهكذا سلبَ الحسينُ عليه السلام الشرعية من العرش الأموي، ومزَّق كلَّ البراقع الدينية المزيّفة التي أخفى وراءها الأمويون جرائمهم؛ ولذلك أصبحت ثورة الحسين عليه السلام بركاناً متفجّراً أتى على العرش الأموي، واجتذّه من جذوره، واقتلع أصوله، «ولم تعمّر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل» كما قال العقاد في كتابه الحسين أبو الشهداء، ثم قال:

«ولإصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنّها تدبير من الحسين عليه السلام، توخّاه منذ اللحظة الأولى، وعلم موعد النصر فيه.. فلم يخامره الشك في مقتله ذلك العام، ولا في عاقبة هذه الفعلة التي ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام»، كما أشار إلى ذلك ماربين الألماني في كتابه (السياسة الإسلامية)[1].

٥- جعلوا يوم العاشر من المحرم يوم عيد، وسرور، وبهجة، وقد وضعوا الأحاديث في فضله كما جاء في حديث عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الإمام الصادق عليه السلام[2].

هذا غيض من فيض مما عملته الحكومة الأموية من أعمال، وروّجته من أفكار لتشويه الثورة الحسينية، ولكن كلّها باءت بالفشل الذريع، لِما أعطى الله هذه الثورة من نصاعة، وقوّة، وعمق، وشمول في الوجدان البشري.

وأما ما سلكه بنو العباس من أساليب لإطفاء أنوار النهضة الحسينية، وإنزال أشدّ العقوبات بالزائرين للقبر الشريف، والمقيمين لمجالس العزاء عليه، من سجن، وغرامة، وقتل، وهدم البيوت، وتقطيع الأيدي؛ لمنع الزوّار من الوصول

(١) ينظر: عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٣٠/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٢) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ٣٠٤/١-٣٠٦، وبحار الأنوار: ٢٧٠/٤٤.

إلى قبر الحسين عليه السلام؛ وذلك لأنّ الزائر مجرّد أن يصل إلى الضريح المقدس، فإنّه يستلهم منه الحماس الثوري، وتتعبأ نفسه بالرفض لكلّ الطواغيت، **فالحسين عليه السلام ثورة في قبره**؛ ولهذا امتدّت الأيدي الأثيمة لهدم قبره عدّة مرّات، وحرثت أرضه، وأُجري عليها الماء كما عمل هارون العباسي، فقد أمر بهدم القبر المطهّر، وكرب موضعه، وقص شجرة السدر التي كانت بجوار القبر من جذورها، ومنع من إقامة المآتم والمناحات سواء على القبر، أو في دور الشيعة؛ ففي رواية يحيى بن المغيرة الرّازي، كما يرويها الشيخ الطوسي في أماليه قال:

«كنت عند جرير بن عبد الحميد إذ جاءه رجل من أهل العراق، فسأله جرير عن خبر الناس، فقال: تركت الرشيد، وقد كرب قبر الحسين عليه السلام، وأمر أن تُقطع السِّدرة التي فيه، فقُطِعتْ».

قال: «فرفع جرير يده، فقال: الله أكبر جاءنا فيه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لعن الله قاطع السدرة» ثلاثاً، فلم نقف على معناه حتى الآن، لأنّ القصد بقطعه تغيير مصرع الحسين عليه السلام حتى لا يقف الناس على قبره»[1].

وفي سنة **٢٣٦**هـ (أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليه السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يُبذر، ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى [عامل صاحب الشرطة] بالناس في تلك الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة، حبسناه في المُطْبِق! فهرب الناس، وتركوا زيارته، وحُرِثَ وزُرِع)[2].

---

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي: ٤٨٤، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٢٦٤/٥-٢٦٥ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٥/٧، في حوادث سنة ٢٣٦.

وقد تمَّ هدمُ قبر الحسين عليه السلام بأمر المتوكل بأيدٍ يهودية حيث (بعث برجل من أصحابه يقال له: الديزج، وكان يهودياً فأسلم، إلى قبر الحسين عليه السلام، وأمره بكرب قبره، ومحوه، وإخراب كلّ ما حوله، فمضى لذلك وخرب ما حوله، وهدم البناء، وكرب ما حوله نحو مائتي جريب، فلما بلغ إلى قبره لم يتقدم إليه أحد، فأحضر قوماً من اليهود (لعنهم الله) فكربوه، وأجرى الماء حوله، ووكل به مسالح بين كلّ مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلا أخذوه ووجهوا به إليه)[1]، ورغم ذلك فقد ارتفعت قبة الحسين عليه السلام عالية بعد مدّة قصيرة من الزمان.

(ثم جاء سعود بن عبد العزيز بإيعاز من أبيه فباغت كربلاء المشرفة، وهاجمها في ذي الحجة صبيحة يوم الغدير سنة ١٢١٦ هـ، فورد عليها على حين غفلة من أهلها ومعه ١٢٠٠٠ألفاً، فأغاروا عليها ونهبوا ما وصلوا إليه، وأزهقوا النفوس، وهتكوا الحرم، ولم يرقبوا للمؤمنين إلاً ولا ذمة، وأباحوا القتل فيها ست ساعات من النهار قتل فيها سبعة آلاف من العلماء والفضلاء والأكابر والأشراف والملوك والسوقة... وقد انتهكوا حرمة رسول الله بتوهين الحرم القدسي وهد أركانه ونهب نفائسه)[2].

وإلى اليوم فهو هدف لهجوم الظالمين كان آخرها رميه بالمدافع الثقيلة من قبل الأوباش البعثيين سنة ١٩٩١م - ١٤١١ هـ... فللّه درك يا أبا عبد الله، تُفَجِّر الثورات، وترعب الظالمين، وأنت راقد في ضريحك المقدس الذي يستلهم منه الثوّار دروس العزّة، والإباء، والتضحية، والفداء... إلى يوم القيامة.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين: ٤٧٨-٤٧٩ .

(٢) الشيخ الأميني، شهداء الفضيلة: ٢٨٨ .

وأما الظاهرة الثانية وهي ظاهرة الانشداد والتفاعل الوجداني مع ذكرى الحسين عليه السلام، وتجدّدها على مرّ العصور وازديادها رغم بذل الجهود المضادّة؛ لإيقاف تيارها الجارف؛ فإنّنا لا نعرف حدثاً استقطب مشاعر الناس، واستحوذ على العقول والقلوب، وسيطر عليها كثورة الطف، (ونلاحظ أنّ ثورة الحسين عليه السلام من بين جميع الثورات في تأريخ الإسلام الحافل بالثورات هي الثورة الوحيدة التي لا تزال ذكراها حيَّة غضَّة في حاضر المسلمين كما كانت كذلك في ماضيهم، وهي الوحيدة من بين الثورات، الثورة التي دخلت في أعماق الوجدان الشعبي، فأغنته واغتنت به: أغنته بشعاراتها، وأفكارها، وأخلاقياتها، وأهدافها النبيلة، واغتنت بتطلّعاته، ومطامحه عبر العصور، وما ذلك إلا لأنّها «أم الثورات» في تأريخ الإسلام)[1].

والسرُّ في هذا الانشداد والتواصل المستمرّ مع مأتم عزاء الحسين عليه السلام في جميع الظروف يرجع إلى سببين:

الأول: مشيئة الله تعالى: فمن الحقائق التي لا يرقى إليها الشكّ: أنّ الله تعالى يجعل للصالحين في قلوب عباده المؤمنين الودّ والحبّ، وقد صرّح القرآن بذلك، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2].

وقد سأل علي عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله عن معنى الآية، فقال صلى الله عليه وآله: «المحبة في قلوب المؤمنين والملائكة المقرّبين، يا علي، إنّ الله أعطى المؤمن ثلاثاً: المقة،

(١) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين عليه السلام في الوجدان الشعبي: ٨-٩.

(٢) مريم: ٩٦.

والمحبة، والحلاوة، والمهابة في صدور الصالحين»[١].

(ونحن نفهم أنَّ انشداد المؤمنين ليوم عاشوراء هو تعبير عن هذا الودّ للحسين عليه السلام؛ فإن القلوب لها جاذبة تجذبها للصالحين، وتشدها إليهم، ولها دافعة تُنَفّرُها من الطالحين؛ ولهذا نرى أنّ قلوب الصالحين تنجذب لأمثالها)[٢].

(والحبُّ الذي جعله الله في قلوب المؤمنين للحسين عليه السلام، والذي وصفه الحديث الشريف بالدوام والاستمرار والحرارة التي لا تبرد لا يمكن تفسيره تفسيراً علمياً تحليلياً، وإنّما هي مشيئة الله التي شدَّت عواطف الناس ووجدانهم بالحسين عليه السلام إلى يوم القيامة، وهذا لا يمكن أن يكون عفوياً ومن دون إعداد الهي مسبق، ومن هنا جاء التأكيد على حبّ الحسين عليه السلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله كما روى ذلك السنة والشيعة، وبألفاظ مختلفة، فهو ثمرة قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء)[٣]، وكان صلى الله عليه وآله يقول فيه: «**من أحب هذا فقد أحبّني**»، ويقول له ولأخيه: «**اللهُمّ، إنّي أحبّهما فأحبّهما**»، وفي حديث آخر: «**اللهُمَّ، إنّي أُحبّهما، فأحبّهما، وأحبّ من يحبهما**»[٤].

وهكذا يتبيّن أنّ حب الحسين عليه السلام أمر الهي ليس في قلوب المؤمنين له فقط، بل حتى في قلوب بعض خصومه، ومناوئيه كما جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص[٥].

والعامل الثاني: إنّ أحداث عاشوراء بما تملك من قوّة، وصمود، وتحدّ

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١١٦/١٤.

(٢) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في ظلال الطف: ٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩.

(٤) ينظر: أبو بكر الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٧٩/٩-١٨٦.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٦/٩.

بطولي لا نظير له في التأريخ اجتذبت القلوب والعقول، وقد وجد الناس فيها المثل الأعلى في السير والسلوك والكدح إلى الله تعالى، وباختصار:

١- إنّ الناس في سيرهم إلى الله تعالى يحتاجون إلى مثال يقتدون به... ونحن غالباً ما نكتفي بالطرح النظري التجريدي، وهذا وحده لا يكفي، ولا يشبع نهم الإنسان، ولا يصلح أن يكون قدوة وأنموذجاً؛ لأنّ الإنسان يحتاج إلى مثال وأسوة، وقدوة يهتدي بهداها؛ تجسّد المفاهيم النظرية إلى واقع عملي متحرك، وقد وجد الناس هذا المثال في الحسين عليه السلام .

٢- إنّ الحسين عليه السلام من خلال تجسيده للإسلام قولاً وفعلاً في تضحيته، وفدائه، وصبره، وشجاعته أصبح مقياساً وميزاناً يقاس به أصحاب الحقّ، والعدل، والتحرّر، ويميّز الصادق من الكاذب، والعادل من الظالم، والمخلص من المرائي؛ والإنسان لكي يُقَيِّم حركته وسلوكه لا بدّ له من مقياس، وقد وجدوا هذا المقياس في الحسين عليه السلام.

٣- إنّ الحياة الدنيا بكلّ مراحلها امتحان وابتلاء لا تستقرّ على حال، والإنسان لأجل تجاوز هذه الامتحانات لا بد له من مثال ومعلم ينير له الطريق عملياً، وليس هناك معلماً يُهَوِّنُ كلّ الرزايا والمصائب، ويسهّل الصعاب والعقبات كمصيبة الحسين عليه السلام، والإنسان عندما يتأمّل في مصائب عاشوراء ينسى كلّ مصائبه.

[من الكامل]

أنست رزاياكم رزايانا التي ... سلفت وهوَّنت الرزايا الآتية[1]

(١) ديوان الشيخ محمد علي الأعسم: ٣١.

والحسين عليه السلام عَلَّم الإنسانية الرحمة حتى بأعدائه الذين شهروا السلاح بوجهه كما تقدم في سقيه لجيش الحرّ.

هذه هي أخلاقية الحسين عليه السلام مع أعدائه الذين جاءوا؛ ليحاصروه، أو يأسروه، وكان بإمكانه أن يمنع عنهم الماء، لينهكهم العطش إلا أنّه أبى إلا أن يكون رحمة الله المتجسّدة في شخصيته في كلّ موقف وقفه؛ ولهذا يخاطبه أحد الشعراء[1]: [من الطويل]

سقيت عداك الماء منك تحنّناً ... بأرض فلاة حيث لا يوجد الماء

فكيف إذا تلقى محبيك في غدٍ ... عطاشى من الأجداث في دهشة جاؤوا

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٨٧.

كَيْفَ نَتَأَسّى بِالحُسَيْنِ عليه السلام ؟

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

التأسّي مبدأ قرآني تربوي واضح وصريح في نصوص الذكر الحكيم ومعناه: الاقتداء والاتّباع، بل والإشراك بالأموال، والتضحية في النفس في الدفاع عن المُتَأسّى به.

و(الأسوة والإسوة كالقِدْوَةِ والقُدْوَةِ، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتّباع غيره إن حسناً، وإن قبيحاً، وإن سارّاً، وإن ضارّاً)[2].

والتأسّي في الإسلام: هو اتّباع خطوات الكاملين من البشر، واتّخاذهم أسوة وقدوة في صحّة المنهج، وجديّة الحركة، ودقّة المسير.

وسبيل ذلك هو تصوّر مواقفهم، ومحاكاتها بوعي وإدراك؛ لصبِّها في قالب يناسب البيئة، والمجتمع المعاش، وجعل تلك المواقف مصابيح تنير الدرب؛ لتجاوز العقبات المعترضة سبيل تحقيق الأهداف المرجوّة؛ ولأجل ذلك جاء النصّ القرآني صريحاً في التأكيد على أهمية التأسّي بالرسل وخلفائهم، واتّباعهم كإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، والذين معهم، يقول تعالى: ﴿ قَدْ

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣١.

كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾[2].

لماذا التّأسّي؟

الإنسان في كدحه إلى الله تعالى يواجه ضغوطاً داخلية، وأخرى خارجية، تعيقه عن مواصلة المسير؛ ولأجل مواصلة السير بدون توقف يحتاج إلى ثلاثة أمور أساسية:

١- إلى معلم مربٍّ، وهادٍ مرشد، يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[4].

٢- قيادة ربانية، وولاية إلهية تهديه إلى الله، وتُسْلِكُه الصراط المستقيم، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الممتحنة: ٦.

(٣) الجمعة: ٢.

(٤) آل عمران: ١٦٤.

﴿رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾[1].

٣- قدوة وأسوة صافية نقيّة مبرّأة من كلّ نقص وعيب ودنس، ليس فيها أي نقطة ضعف، ولا ثغرة نقص، ولا تثير علامة استفهامٍ، بل تمثّل القيم الرسالية والأخلاق الإسلامية تمثيلاً حيّاً متجسّداً في سلوكها، ومن الواضح أنّ وجود هذه القدوة بين الناس تكون مبعث اطمئنان وأمان؛ وذلك لأنّ المتأسي والمقتدي لا يشعر بأنّه وحده في المسير، وإنّما هو حلقة من هذا الركب الرسالي الصاعد في خطّ الرسالة مترسّماً هدى محمد، وعيسى، وموسى، وإبراهيم... وأوصيائهم صلوات الله عليهم وسلامه، وحينئذٍ يشعر بأنّ هذا المسلك الذي اتّخذه عقيدةً ومنهجاً في الحياة سلكه من هو خير منه وأفضل، وتحمّل من أجله ما تحمّل، ثم إنّ التأسي يقرّب العبد إلى الله تعالى، ويحبّبه إليه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله؛ فإنَّ فيه أسوةً لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزّى، وأحبُّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيِّهِ، والمقتَصُّ لأثرِهِ»[2].

وليس كلّ إنسان قادراً على التأسي بل لا بدّ من لوازم وأسس تقوم بها شخصية المتأسّي، وهي أن يكون متلبساً بحقيقة الإيمان، يقول العلامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾[3]: «قوله... بدل من ضمير الخطاب في «لكم» للدلالة على أنَّ التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله خصلة جميلة زاكية لا يتّصف بها كلّ من تسمّى بالإيمان، وإنّما يتّصف بها جمعٌ ممن تلبَّس بحقيقة الإيمان، فكان يرجو الله واليوم الآخر، أي تعلّق قلبه بالله فآمن

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠.

(٣) الأحزاب: ٢١.

به، وتعلّق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحاً، ومع ذلك ذكر الله كثيراً، فكان لا يغفل عن ربه، فتأسّى بالنبي في أفعاله وأعماله»[١].

إذن التأسّي ليس من الأمور السهلة الحصول لكلّ أحد، وإنّما يحصل عند من آمن بالله تعالى إيماناً حقيقياً معمقاً مبنياً على أن لا مؤثّر في الوجود إلا الله، والسير في نهج الأنبياء في طلب رضوان الله تعالى، والتجرّد عمّن سواه، وهذا لا يتأتّى إلا لذي حظ عظيم... وصعوبة الالتزام في منهج التأسي ناشئ من صعوبة تجاوز الإنسان لذاته، والانتقال بها من الخلق إلى الحقّ...

التأسّي بالحُسَيْن عليه السلام:

لقد اتّصف الحسين عليه السلام بكلّ صفات الكمال البشري مطلقاً، ففي كلّ حركة من حركاته، وسكناته يجسّد صفات الكمال، ويعطي دروساً في الإيمان، والعلم، والعمل، وفي سيرته عِبر لا تحدّ بحدود الزمان والمكان؛ لأن الله ادّخره لإصلاح دينه، فلا تجد أحداً بعد جدّه وأبيه وأمه وأخيه يبلغ شأو عظمته، وما أجمل قول الشيخ عبد الله العلايلي:

«ونحن إذا قدّمنا حسيناً بين العظماء، فإنّا لا نقدم فيه عظيماً فحسب، وإنّما نقدم فيه عظيماً دونه كلّ عظيم، وشخصية أسمى من كلّ شخصية، ورجلاً فوق الرجال مجتمعين»[٢].

ثم قال: «والآن سأخوض في بيان نواحي العظمة التي امتاز بها الحسين عليه السلام في كلّ ميدان حتى يبدو أمّة بين العظماء، فقد عرفنا العظيم في ثوب

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القران: ٢٨٩/١٦ .

(٢) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين: ٩٠.

الشجاع، وعرفنا العظيم في ثوب البطل، وعرفنا العظيم في ثوب الضحية الشهيد، وعرفنا العظيم في ثوب الزاهد، وعرفنا العظيم في ثوب العالم، وأمّا العظمة في كلّ ثوب، والعظمة في كلّ مظهر، حتى كأنها تآزَحت من أقطارها فكانت شخصاً ماثلاً للناس يقرؤونه ويعتبرون به، فهذا ما نجده في الحسين عليه السلام وحده، وهذا ما نلمسه فيه فقط، حيث هو من نفسه، وحيث هو من نسيه، فلقد يكون أبوه مثله، ولكن لا يجد له أباً كمثل نفسه.

فرجلٌ كيفما سموتَ به من أيّ جهاته انتهى بك إلى عظيم، فهو ملتقى عظمات، ومجمع أفذاذ. فإنّ من ينبثق من عظمة النبوّة (مُحَمَّد)، وعظمة الرجولة (عليّ)، وعظمة الفضيلة (فاطمة)، يكون أمثولة عظمة الإنسان، وآية الآيات البينات. فلم تكن ذكراه ذكرى رجل بل ذكرى الإنسانية الخالدة، ولم تكن أخباره أخبار بطل بل خبر البطولة الفذَّة.

فالحسين عليه السلام رجلٌ ولكن فيه آية الرجال، وعظيم ولكن فيه حقيقة العظمة. فرعياً لذكراه، ورعياً للعظة فيه»[1].

إذن الحسين عليه السلام أسوة وقدوة في كلّ منحى من مناحي حياته؛ أسوة في التحدّي، وأسوة في التضحية، وأسوة في الإباء، وأسوة في العلم، وأسوة في الزهد بالدنيا، ولم يكن الحسين عليه السلام أسوة بعد شهادته، وإقدامه على التضحية بكل غالٍ ونفيس، وإنما هو أسوة أيضاً لمن سبقه من الأولياء المصلحين؛ لأنّه ذخيرة الله في أرضه منذ أول الخليقة إلى اليوم، وإلى يوم القيامة، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

---

(١) الإمام الحسين للعلايلي: ٩٠-٩١.

«قال علي عليه السلام للحسين: يا أبا عبد الله، أسوة أنت قدماً، فقال عليه السلام: جعلت فداك ما حالي؟ قال عليه السلام: علمت ما جهلوا، وسينتفع عالم بما علم، يا بنيّ، اسمع وابصر من قبل أن يأتيك، فوالذي نفسي بيده ليسفكنَّ بنو أميّة دمك ثم لا يزيلونك عن دينك، ولا ينسونك ذكر ربّك، فقال الحسين عليه السلام: والذي نفسي بيده حسبي، أقررت بما أنزل الله، وأُصدّق قول نبي الله، ولا أكذب قول أبي»[1].

قال العلامة المجلسي: «الأسوة ويضمّ القدوة، وما يأتسي به الحزين أي ثبت قديماً أنَّك أسوة الخلق يقتدون بك، أو يأتسي بذكر مصيبتك كلُّ حزين»[2].

فالحُسَينُ عليه السلام إذن أسوة الخلق جميعاً المتقدم والمتأخر لما له، ولأبيه، ولجدّه من عمقٍ في الوجود الكوني منذ خلقة الله تعالى[3]، تأسّى به الأنبياء، والمرسلون، وعباد الله الصالحون، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾[4]؛ لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله عزَّ وجلّ إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملكٌ فقال: إنّ الله جلّ جلاله بعثني إليك، فمرني بما شئت، فقال: لي أُسوة بما يُصنع بالحسين عليه السلام»[5].

وكان أئمة الهدى عليهم السلام يعمّقون هذه الخصلة في نفوس أصحابهم ويوجّهونهم إلى التأسّي بالحسين عليه السلام، فقد روي عن الإمام الباقر أنّه قيل له: «محمّد بن مسلم وجعٌ، فأرسل إليه بشراب مع الغلام، فقال الغلام: أمرني أن لا

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات: ١٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦٢/٤٤.

(٣) ينظر المصدر السابق: ٢٤٥/٤٤، ففيه رواية نقلها العلامة المجلسي عن الدر الثمين تدلّ على ذلك.

(٤) مريم: ٥٤.

(٥) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ١٣٥/١-١٣٦، بحار الأنوار: ٣٨٨/١٣.

أرجع حتى تشربه، فإذا شربت فأته، ففكّر محمّد فيما قال، وهو لا يقدر على النهوض، فلما شرب واستقرَّ الشراب في جوفه صار كأنّما أنشط من عقال، فأتى بابه فاستؤذن عليه، فصوَّت له: صح الجسم فادخل، فدخل وسلّم عليه، وهو باكٍ، وقبّل يده ورأسه، فقال: ما يبكيك يا محمّد؟ قال: على اغترابي، وبعد الشقة، وقلة المقدرة على المقام عندك، والنظر إليك، فقال: أما قلّة المقدرة فكذلك جعل الله أولياءنا، وأهل مودّتنا، وجعل البلاء إليهم سريعاً، وأما ما ذكرت من الاغتراب فلك بأبي عبد الله أسوة بأرض ناءٍ عنّا بالفرات صلى الله عليه، وأما ما ذكرت من بعد الشقة فإنّ المؤمن في هذه الدار غريب، وفي هذا الخلق منكوس حتى يخرج من هذه الدار إلى رحمة الله، وأما ما ذكرت من حبِّك قُرْبَنا، والنظر إلينا، وأنّك لا تقدر على ذلك، فلك ما في قلبك وجزاؤك عليه»[1].

كَيْفَ نَتَأَسّى بِالحُسَيْنِ عليه السلام ؟

ليس من السهل أن يكون الإنسان حسينيّ العقيدة والشريعة، وحسيني الهدف والوسيلة؛ لأنّ ذلك من الصعب المستصعب، ولكنّ هذا لا يعني أن نترك التأسّي لأنّه صعب، وإنّما على الإنسان أن يتأسّى بمقدار ما يتسع ظرف إيمانه، ومعرفته، وقدرته، ووضوح أهدافه.

ولهذا لا يمكن أن يتأسّى بالحسين عليه السلام إلا الذين عرفوا الإسلام، وآمنوا به عقيدة ونظاماً، وعاشوه منهجاً للحياة في أفكارهم، وعواطفهم، وسلوكهم...

ومن هنا ينبغي لمن أراد أن يتأسّى بالحسين عليه السلام أن يستحضر الحقيقة الحسينية، وما أدراك ما الحقيقة الحسينية؟ هي الإسلام، والفداء لأجله، والتضحية

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ١٩٧/٤، وبحار الأنوار: ٢٥٧/٤٦ ، و٢٤٤/٦٧، و١٢٠/١٠١ .

بكل غالٍ ونفيس في سبيله، فما ثار الحسين عليه السلام، وما أعطى ما أعطى، وضحّى ما ضحّى إلا من أجل الإسلام، وللإسلام فقط وفقط؛ ليوِّحَد الله في الأرض، ويُعَبِّد الناس إليه تعالى دون سواه... فلا يمكن أن يتأسّى بالحسين من يجهل التوحيد، فإنّ لمحبي أهل البيت في السر والعلانية علامات يعرفون بها؛ قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «أنا من محبيكم في السر والعلانية»، فقال عليه السلام: «إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها»، فقال الرجل: «وما تلك العلامات؟»، فقال عليه السلام: «تلك خلال؛ أوّلها أنّهم عرفوا التوحيد حقَّ معرفته، وأحكموا علم توحيده، والإيمان بعد ذلك بما هو، وما صفته، ثم علموا حدود الإيمان، وحقائقه، وشروطه، وتأويله»[1].

ومن لا يعرف أهمية الإسلام، ودوره في حياة الإنسان لا يمكن أن يتأسّى بالحسين عليه السلام؛ فالحسين عليه السلام إسلامٌ تجسَّدَ على الأرض، والإسلام تمثّل به قلباً وقالباً، وكذلك من لا يعي الإسلام عقيدةً ومنهجاً للحياة لا يمكن أن يفهم الحسين عليه السلام ثورة محرّكة لعجلة التأريخ إلى يوم القيامة.

وفرق بين من يتأسّى بالحسين عليه السلام في ما يصاب به جَبْراً عليه، ويصير مستلهماً للدروس والعبر من صبر الحسين عليه السلام، وبين من يواسي الحسين عليه السلام بنفسه وأهله؛ فالمتأسّي هو الذي يستمدّ الدروس من حياة الحسين عليه السلام، ويفتح بها ظلمات الدنيا، ويرفع بها عقبات السير إلى الله تعالى.

والمواسي هو الذي شاركه في مواقفه وشدائده، وأعطى نفسه فداء لأهداف الحسين عليه السلام في حركته، وبذل له كلّ وجوده دفاعاً عنها، وعن أهل بيته الطاهرين حتى بذل مهجته بين يديه.

---

(١) الحراني، تحف العقول: ٢٤١.

الفصل التاسع

مَفاهيم مِنْ وَحْي الحُسَيْنِ عليه السلام

الفَتْحُ الحُسَيْنيّ

كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى بني هاشم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أما بعد؛ فإنّه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف عنّي لم يبلغ الفتح»[1].

بوقفة تأمّل دقيقة عند هذا الكتاب المختصر نعرف أنّ في حركة الحسين عليه السلام أسرار لا يعلمها إلا هو، ومن فهم أهدافه، وأطاع أمره، وسلك مسلكه.

فقوله: «**من لحق بي منكم استشهد**» واضح الدلالة صريح... أما قوله: «**لم يبلغ الفتح**»، فلا يمكن أن نفهم أنّ الفتح المقصود هو الفتح العسكري، لأنّه عليه السلام كان يصرّح في أكثر من موقع خلال مسيرته من المدينة إلى كربلاء بأنّه لا محالة مستشهد هو وأصحابه ورجال أهل بيته... إذن لا بد وأن يكون الفتح المقصود غير المعنى الظاهري للفتح الذي يدرك بالأبصار كفتح القلاع والمدن والدول... وإنّما المقصود من الفتح معنى أبعد غوراً، وأشمل معنى، وأعمق أثراً من الفتح الظاهري المتبادر للذهن...

ولأجل استيفاء البحث لا بد وأن نقف عند مفهوم الفتح في القرآن الكريم.

---

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ٣٩، والملهوف على قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس: ١٢٩.

(والفتح الواقع في القرآن وإن كان المراد به في أكثر موارده هو فتح مكة لكن بعض الموارد لا يقبل الحمل على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]؛ فإنّه تعالى وصف هذا الفتح بأنّه لا ينفع عنده الإيمان لمن كان كافراً قبله، وأنّ الكفار ينتظرونه، وأنت تعلم أنّه لا ينطبق على فتح مكة، ولا على سائر الفتوحات التي نالها المسلمون...

وكيف كان فإن كان المراد بالفتح أحد فتوحات المسلمين كفتح مكة، أو فتح قلاع اليهود، أو فتح بلاد النصارى فهو، إلا أنّ في انطباق ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟﴾ الخ، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾ الخ، عليه خفاء تقدم وجهه.

وإن كان المراد به الفتح بمعنى القضاء للإسلام على الكفر والحكم الفصل بين الرسول وقومه فهو من الملامح القرآنية التي ينبئ تعالى فيها عما سيستقبل هذه الأمّة من الحوادث، وينطبق على ما ذكره الله في سورة يونس من قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ إلى آخر الآيات[2])[3].

إذن للفتح معنيان: «أحدهما: يُدْرَكُ بالبصر كفتح الباب ونحوه وكفتح القفل، والغلق، والمتاع... والثاني: يُدْرَكُ بالبصيرة كفتح الهمّ وهو إزالةُ الغمّ... [وكـ]فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك: فلان فتح من العلم باباً مغلقاً، وقوله

(١) السجدة: ٢٨-٣٠.

(٢) يونس: ٤٧-٥٦.

(٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٧٥/٥-٣٧٦.

تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[١]، قيل: عَنى فتح مكة، وقيل بل عَنى ما فُتِحَ على النبي صلى الله عليه وآله من العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة...»[٢].

كما أطلقت كلمة الفتح على فتح البلدان بالغلبة والنصر على العدو كما هو المتبادر إلى الذهن.

ولأجل إيضاح معنى الفتح الذي يقترن بمفهوم النصر لا بد وأن نحدد معنى النصر.

فالنّصر هو إما غلبة طرف على طرف، وسيطرته عليه بقوّة السلاح، والقضاء عليه أو أسره... وإما أن نفهم النصر هو النصر الحضاري، أي الثبات في المواقف المبدئيّة والحضارية من طرف، والتجاوز عليها وخرق حدودها من الطرف الآخر...

إذا نظرنا إلى النصر بمعنى النصر العسكري؛ فأغلب الأنبياء والمرسلين، وعلى نهجهم الحسين عليه السلام الوارث لهم، فهم خاسرون بلا شك... وإذا فهمنا النصر على أنّه الثبات والاستقامة في المواقف والمواقع المبدئية، والمحافظة على أصالة الرسالة، وتأكيد مبادئها، والتضحية من أجلها، فهذا هو النصر الحقيقي الذي لا يحصر في رقعة من مكان، ولا حيز من زمان، يقول تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]، ونحن نعلم أنّ الرسل منهم من قتل، ومنهم من هاجر من أرضه مكذوباً مطروداً، وأنّ من يؤمن بهم يسام العذاب، ومنهم من

(١) الفتح: ١.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٥١١.

(٣) غافر: ٥١.

ألقي في أخدود، ومنهم من استشهد، ومنهم من عاش في كربٍ وشدةٍ واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ إذا فسّرنا النصر بالنصر العسكري، والغلبة السياسية والتسلط على سدّة الحكم.

ومن هذا المدخل الطافح بالوساوس الشيطانية يلج الشيطان إلى النفوس، ويفعل بها الأفاعيل، والمشكلة أنّ (الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير. إنّ الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأمّا المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها، وأول ما يطلبه الإيمان منهم أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها)[1].

والمعنى المتقدم للنصر أكدّه القرآن الكريم في أكثر من آية كقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾[2].

﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ﴾[3].

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾[4].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ١٨٩/٧.

(٢) محمد: ٧.

(٣) آل عمران: ١٦٠.

(٤) المجادلة: ٢١.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[١].

فالنصر والفتح في القرآن هو الثبات والاستقامة في المواقع المبدئية والحضارية، والتفاني من أجلها، فالمنتصر هنا يفنى، وتبقى عقائده ومبادئه، وهذا هو النصر الحقيقي في منطق الحسين عليه السلام الذي حقّق النصر بدمه، وثبّت قواعد الإيمان، وأعاد للرسالة أصالتها، وفتح الطريق أمامها؛ لتأخذ طريقها إلى القلوب والنفوس نقية خالصة من كلّ ما ألصق بها من الشوائب، وما نسبه إليها بنو أمية من الأكاذيب والافتراءات والتحريفات بما وضعوه على ألسنة الوضّاعين على رسول الله صلى الله عليه وآله، وبذلك نسف كلّ الصروح التي بناها معاوية، وأراد بها دفن رسول الله صلى الله عليه وآله بتحريف دينه، ولكنّ الله أبى إلا أن يظهر دينه، ولو كره الكافرون.

فالحسين عليه السلام كأنّه أعلن لبني هاشم أنّي سأحقّق بالشهادةِ النصرَ على بني أمية بإعادة الرسالة إلى مجراها الطبيعي الذي أراده الله تعالى، ولذلك فإنّ (الفتح الذي تحدّث عنه الحسين عليه السلام مفهوم مقابل مفهوم الصدّ، فالفتح أمام رسالة الله مقابل مفهوم الصدّ عن سبيل الله، فالمفهومان متقابلان، والصدّ معناه حجز الناس وحجبهم عن سبيل الله، وهو من أخطر مهام أئمة الكفر والطاغوت)[٢].

وقد طرح القرآنُ المفهومين في آيات عدة، ففي مفهوم الصدّ جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٣].

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في ظلال الطف: ١٧٩-١٨٠.

(٣) آل عمران: ١٩٩.

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

(إذن الفتح هو إزالة الصادّين عن سبيل الله، وهي مهمة رسل الله وأنبيائه، والدعاة إليه)[3]، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك؛ يقول تعالى:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾[4].

﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[5].

﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾[6].

فالمقصد الحسيني من الفتح إذن هو إزالة العوائق القائمة في طريق الدعوة إلى الله، وعلى مختلف الأصعدة الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية...

والحسين عليه السلام في نهضته المباركة استطاع أن يكشف الحبائل والضلالات التي روّجوها باسم الإسلام، وأعاد للأمة حيويتها، وللرسالة أصالتها... واقتلع شجرة الضلال، ورسّخ دعائم الحقّ والهدى، وعبّد الناس لله تعالى، ولعل هذا ما أشار إليه الإمام زين العابدين عليه السلام حينما سئل عند رجوعه إلى المدينة:

---

(١) الأعراف: ٤٤-٤٥.

(٢) هود: ١٨-١٩.

(٣) في ظلال الطف: ١٨٠.

(٤) الفتح: ١.

(٥) الفتح: ١٨.

(٦) المائدة: ٥٢.

«من غلب؟»، فقال عليه السلام: «إذا أردتَ أن تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة، فأذّنْ ثم أقِم»[١].

وهذا الحديث يشير إلى أنّ بني أمية أرادوا غلق باب التوحيد، وتعبيد الناس لهم، ونشر الشرك والكفر والنفاق، فأبطل الحسينُ عليه السلام مخطَّطَهم، وأعاد للتوحيد أصالته، ولعبادة الله حيويتها وفاعليتها.

فالحسين عليه السلام بشهادته فتح العيون والقلوب على جرائم بني أمية، وفضح المخططات الإجرامية للقضاء على دين الله، وأيقظ الأمّة على أهمية الإسلام، وما يجب أن يبذله المؤمن في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة التوحيد.

إذن لا يمكن أن نفهم الفتح في منطق الحسين عليه السلام إلا بإزالة العوائق التي وضعها بنو أمية في طريق الدعوة إلى الله تعالى، حيث فتح هذا السبيل بدمه ودماء أهل بيته وأصحابه، ونسف كلّ المفاهيم المضلّلة، والأحكام المحرّفة التي نُسِبَتْ لدين الله زوراً وبهتاناً، وهكذا (غدا الحسين عليه السلام قدوة كلّ مسلم ثائر للحقّ وبالحقّ، وغدت كلّ نهضة إسلامية حقّة تجد نفسها امتداداً لنهضة الحسين عليه السلام، حتى نهضة المهدي تجد نفسها امتداداً لنهضة الحسين عليه السلام وتؤكّد هذا الامتداد بشعار: **يا لثارات الحسين**)[٢].

مِنْ نَتائِجِ الفَتْحِ الحُسَيْنِيّ:

١- حرّرت إرادة الأمة من الخضوع إلى الطغيان، وبقيت مناراً ينير الطريق أمام عباد الله كما أنّها كوّنت الحسَّ الاجتماعي الرافض لكلّ أشكال العبودية

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي: ٩٥٠، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٢٣٢/٥.

(٢) علي الشاوي، الإمام الحسين عليه السلام في المدينة المنورة: ١٤٥.

لغير الله تعالى.

٢- أفرزت خطّين؛ خط الإسلام الأصيل، وخط الملوكية التي تتستّر وراء الإسلام، وتحكم باسمه ظلماً وعدواناً، وبهذا أنقذ الإسلام من التحريف... وأعاد له أصالته، وللأمة حيويتها.

٣- علّم الثوار كيف يحافظون على رسالتهم ومبدئيتهم، وكيف يدافعون عنها.

لا يُنالُ ما عِنْدَ اللّٰهِ

إلا بِطاعَتِهِ

قال الإمام الحسين عليه السلام: «...أوصيكم بتقوى الله، فإنّ الله قد ضمن لمن اتّقاه أن يحوّله عما يكره إلى ما يحبّ، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فإيّاك أن تكون ممّن يخاف على العباد من ذنوبهم، ويأمن العقوبة من ذنبه، فإنّ الله تبارك وتعالى لا يخدع عن جنّته، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته إن شاء الله»[1].

في هذا النصّ الشريف تتجلّى لنا على لسان الحسين عليه السلام عدّة حقائقٍ حري بنا أن نقف عندها، ونتأمل فيها، ونعيشها قلباً وروحاً... وهذه الحقائق هي:

١- وصيته بتقوى الله تعالى: وتلك هي وصية الله لعباده، ووصية أنبياء الله لأممهم، بل إنّ التقوى هي دعوة جميع الأنبياء لأممهم، والتقوى التي أوصى بها عليه السلام هي المقاومة الواعية لنوازع النفس الداخلية كالأهواء، والشهوات، وتسويلات الشيطان ووساوسه، والإنسان ما لم يحصل على هذه الملكة الروحية فلا يمكن أن ينال الكرامة الإلهية، فهي (ميزان التفاضل بين البشر)، وهي الحرز الحصين الذين يمنع الإنسان من الوقوع في مهاوي المعاصي.

وإذا تحقَّقت التقوى في النفس أعطت قوّة المقاومة لكلّ أشكال الطاغوت من الظالمين والمضلّين...

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٧٠-١٧١.

والتقوى بعد ذلك «مفتاح سدادٍ، وذخيرة مَعادٍ، وعتق من كلّ ملكةٍ، ونجاة من كلّ هلكةٍ، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتُنال الرغائب»[1] كما قال الإمام علي عليه السلام.

ولا نقصد بالتقوى المقاومة السلبية، وإنّما هي مقاومة إيجابية تثبّت المؤمن في الميدان، وتقاوم العصيان، وتبطّل مكائد الشيطان...

٢- والنقطة الثانية التي أشار إليها عليه السلام: «إنّ الله قد ضمن لمن اتّقاه أن يحوّله عما يكره إلى ما يحبّ»، وهذه نتيجة من نتائج التقوى، فإنّ الله تعالى أوعد عباده المتقين بالكرامة، واليسر، وغفران الذنوب، وتكفير السيئات، وتعظيم الأجر ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[2].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾﴾[3].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾[4].

٣- وأشار الإمام عليه السلام إلى أحد الأمراض الاجتماعية التي يبتلي بها بعض الناس ممن يراقب الآخرين، ويعدّد عليهم ذنوبهم، ومساوئهم، ويتغافل عما هو واقع به من ذنوب، ومعاصٍ، ومساوئ، فحذّر عليه السلام من هذا الداء الوبيل؛ فإنّ الإنسان إذا تغافل عن سيّئات نفسه، وانشغل في ذكر مساوئ غيره -وهذا من أسوأ المساوئ وأعيب المعائب- فهذه الحالة ستوقف عجلة الكمال، وتجعل

(١) نهج البلاغة: ٣٧٨، خطبة: ٢٢٩.

(٢) يوسف: ٩٠.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) الطلاق: ٤-٥.

الإنسان يدور في حلقة مفرغة لا يعرف علة وجوده، وسر إيجاده، يخاف على الناس، وينسى نفسه، ويقع في معصية ربّه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1]، ويكون مصداقاً لقول الشاعر[2]: [من الطويل]

وغيرُ تَقِيّ يأمر الناس بالتُّقى طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريضُ

٤- والنقطة الرابعة: «ولا ينال ما عنده إلا بطاعته»، وهنا أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى بعض الحالات التبريرية التي يتذرّع بها بعض المحبّين لأهل البيت عليهم السلام ممن يتعلّق بحبّهم، ولا يعمل بأوامرهم؛ ويأمل أن يحشره الله معهم، وهو عاصٍ لله، متمرد على أوامره تعالى...

فلو كان حبُّ الحسين عليه السلام وأهل البيت مجرّداً عن العمل يغني عن طاعة الله، وابتغاء رضوانه لما قدم أهل البيت عليهم السلام تلك التضحيات الجسيمة على طول التأريخ، ولما تحمّل أتباعهم كلّ تلك المصائب التي لن تجد لها مثيلاً في تأريخ الصراعات الفكرية والمذهبية، وسلام الله على الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «رحم الله شيعتنا، إنّهم أوذوا فينا، ولم نؤذَ فيهم»[3].

ومصداق هذا ذلك الشيخ الذي رفع حاجبيه بالعصابة، وشدَّ وسطه بالعمامة، وقد بلغ به العمر به ما بلغ، فلما نظر إليه الحسين عليه السلام وهو على تلك الحال بكى، وقال: «شكر الله لك يا شيخ»، فقتل على كبره ثمانية عشر رجلاً، وقُتِلَ[4].

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٧/١.

(٣) المنتخب للطريحي: ٢٦٢.

(٤) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٦٣.

نعم هذا وأمثاله من الفرسان الذين جادوا بأنفسهم عن نفس سيدهم، «والجود بالنفس أقصى غاية الجود»[1]، إنّه الصحابي الجليل أنس بن الحارث الكاهلي.

(١) شطر من بيت للشاعر مسلم بن الوليد، قال فيه:

يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجوادُ بها ... والجودُ بالنَّفس أقصى غايةِ الجودِ

ينظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري: ١٠١/١.

مَفْهومُ الثَّورَةِ

في النَّهْجِ الحُسَيْنِيّ

قبل أن ندخل إلى صميم البحث لا بدّ وأن نشير إلى معنى الثورة لغةً واصطلاحاً.

أما لغةً: فالثورة من الثوران والهياج والوثوب العنيف ضد واقع معيّن، أو حالة يراد تغييرها، أو تحطيمها.

فالثائر هو: «الغضبان، ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائره، وفار فائره إذا غضب وهاج غضبه... [قال] الأصمعي: رأيت فلاناً ثائِرَ الرأس إذا رأيته قد اشْعانَّ شعره، أي انتشر وتفرَّق، وفي الحديث: جاءه رجلٌ من أهل نَجْدٍ ثائرَ الرأس يسأله عن الإيمان، أي منتشر شعر الرأس قائمَهُ»[1].

وأما معنى الثورة اصطلاحاً فقد اختلف في تعريفها حسب الاتجاه السياسي، أو المذهبي؛ فكلٌّ عرَّفها وفق مذهبه واتجاهه السياسي أو الفكري...

وأما في الإسلام فلم يرد تعريف محدّد يصح أن يكون مصطلحاً علمياً، اللهُمَّ إلا ما ورد في كتاب اقتصادنا للسيد الشهيد الصدر رحمه الله الذي عدَّ الدين في مساره التغييري على المستوى الاجتماعي والفردي، روحياً وأخلاقياً وفكرياً وسياسياً «ثورة لقلب الواقع الفاسد، وتحويله إلى واقع سليم»[2].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: ١٠٨/٤.

(٢) الشهيد الصدر، اقتصادنا: ٣٦٢.

وقد عُرّفت الثورة بتعاريف كثيرة نذكر منها: «تغييرات فجائية وجذرية، تتم في الظروف الاجتماعية والسياسية».

وعرَّفها بعض مفكري اليسار: أنّها انتفاضة جماهيرية موجّهة ضد الحكّام المستبدين، وهادفة إلى إقامة حكم حر وديمقراطي.

وأما أصحاب النزعة السيكولوجية كنيتشه وغوستاف لوبون فقد قالوا: «إنّ الثورات هي انفجارات "شبه بربرية" خارجة عن السيطرة، وانفعالات جماهيرية مدمرة»، ويشترك في هذا الاتجاه بعض علماء النفس المعاصرين الذين يرون فيها تعبيراً عن «سيكولوجية الحشد».

وأمّا في التعريف الاجتماعي (السوسيولوجي) أو الوضعي فيذهب أن للاصطلاح معنى وصفياً، ولا يحمل مضمون قيمة، فكلّ تغيير فجائي جذري وعنيف في نظام الحكم والمجتمع يشكّل ثورة حقيقية.

وفي التفسير الشيوعي: أنّ الثورات تحدث نتيجة ضرورات اقتصادية.

ويذهب - لينين بالإضافة إلى ما قاله ماركس - أنّ الثورة «ضرورة خلق تنظيم سري منضبط ومركزي من ثوريين محترفين ذوي خبرة ودراية نظرية؛ للإعداد للانتفاضات المسلّحة، ولتوجيه حركات الجماهير الثورية».

وذهب بعض علماء الاجتماع بأنّها: «تغيير مفاجئ وسريع وعنيف نسبياً، للقانون الرسمي البالي للجماعة، أو المؤسسات، ولنظام القيم التي تمثلها».

وعرّفها سيغموند نيومان بأنّها: «تغيير أساسي كاسح في التنظيم السياسي، والبنيان الاجتماعي، والتحكم في الملكية الاقتصادية. والأسطورة السائدة عن نظام اجتماعي، مما يشير إلى حدوث انكسار رئيسي في استمرار التطور»[1].

(١) ينظر في التعاريف السابقة: موسوعة السياسة للدكتور عبد الوهاب الكيالي: ١/٨٧٠-٨٧٥.

وأما الثورة في الإسلام فلكي نصل إلى تعريف دقيق لمعناها لا بد وأن نقرر أنّ الإسلام إنّما جاء لتغيير الواقع الاجتماعي فكرياً وسياسياً... في أعماق النفس، وفي جميع مرافق الحياة، فله حركتان: حركة في داخل النفس لمقاومة الأهواء والشهوات، وحركة في المجتمع لمقاومة الطاغوت، وما يتفرّع عنه من انحرافات...

وتأسيساً على ذلك: إنّ الثوري هو الذي ينطلق من داخل نفسه فأوّل ما يثور يثور على نفسه؛ ليخضعها لعقله ولمنطقه كي يُعَبّدها لله تعالى بالتهذيب، والتزكية، والتربية، والإعداد، فإذا انتصر على نفسه استطاع أن يثور على الواقع الفاسد، ويقلبه إلى واقع سليم، وما لم ينتصر على نفسه، ويخضعها، ويذللها لحكم الشرع المقدس لا يمكن أن يسمى ثورياً في منطق الإسلام؛ وذلك لأنّه إذا لم يخضع نفسه لله تعالى فإنّ ثورته على الواقع لا تكون لإصلاح الواقع، وإنّما لأجل الاستحواذ عليه واستثماره لأغراضه الشخصية، وأهوائه المادية أو المعنوية...

ومن هنا يكون منطلق الثورة هو تغيير الواقع الفاسد إلى واقع صحيح سليم، ويتحقّق بهذا الهدف أساليب عديدة فكرية وسياسية واجتماعية، فعندما ينطلق الثائر لتغيير هذا الواقع لا بد أن يكون ذا مستوى فكري رفيع، ونضوج انفعالي، ووعي سياسي اجتماعي يؤهلّه لذلك؛ فالنضوج الفكري في العقائد الإسلامية يحدّد وجهة نظره للكون والحياة، والنضوج الانفعالي يفتح أمامه القلوب والنفوس، والوعي السياسي يعرفه كيف يتعامل مع الواقع الاجتماعي والسياسي، وبناء على ذلك يصحّ تعريف الثورة على ما جاء في قلم الرائد

الإسلامي السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله:

«إنّ الثورة تعني التحرّك نحو تحقيق الشروط الموضوعية لتحضير الأرض، وتنقيتها من كل العوامل المضادّة للتغيير، وتهيئة الأوضاع الملائمة في الجوانب السلبية والإيجابية، لحركة الدولة في تنظيم الأوضاع الإنسانية والحياتية على أساس الواقع الرسالي»[١].

ولكنّ هذا التعريف ينطبق على وجود دولة، ولربما يصح في حالة عدم وجودها، ولكنّه لا يعطي صورة دقيقة للثائر في الكفاح السلبي لإيجاد الدولة ومكافحة الظالمين... فكلّ ما في الإسلام من عقيدة ونظام هو ثورة كما يقول الثائر الحسيني الشهيد الصدر رحمه الله: «فالتوحيد هو جوهر العقيدة الإسلامية، وبالتوحيد يحرِّر الإسلامُ الإنسانَ من عبودية غير الله «لا إله إلا الله»، ويرفض كلّ أشكال الألوهية المزيفة على مرّ التأريخ، وهذا هو تحرير الإنسان من داخل، ثم يقرّر - كنتيجة طبيعية لذلك - تحرير الثروة والكون من أي مالك سوى الله تعالى، وهذا هو تحرير الإنسان من خارج... وبذلك حطّم الإسلام كلّ القيود المصطنعة والحواجز التأريخية التي كانت تعوق تقدّم الإنسان وكدحه إلى ربّه وسيره الحثيث نحوه...»[٢].

وهكذا نصل إلى تعريف دقيق أنّ الثورة في الإسلام هي حركة نحو الله، وتحطيم لكل الحواجز الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي تعيق حركة الإنسان نحو بارئه وخالقه؛ وذلك لأنّ الإسلام (ثورة اجتماعية على الظلم والطغيان وعلى ألوان الاستغلال والاستعباد)[٣].

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية هموم وقضايا: ٢١١.

(٢) السيد محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة: ٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣.

أو قل: هي القيام والتحرك المخطّط المدروس ضمن قواعد الشرع المقدس؛ لاجتثاث جذور الظلم والطغيان، وكلّ أنواع الاستعباد.

وبناء على هذا التعريف تكون ثورة الحسين عليه السلام -والتي تمثّلت بها كلّ أبعاد الرسالة الإلهية - هي الثورة الأمّ لكلّ الثورات التي جاءت بعدها، ورسمت الطريق إلى الله بأسلوب المقاومة المسلحة، بعد أن استنفدت كلّ الوسائل والأساليب الأخرى.

فهي ثورة مدروسة ومخطّط لها منذ الأزل، ودليل هذا معاملة الرسول صلى الله عليه وآله مع الحسين عليه السلام وإبداء عواطفه من البكاء والحبّ والتصريح بمقتله، والحسين عليه السلام لم يزل في مهده رضيعاً، وتصريحات أمير المؤمنين عليه السلام وهو يمرّ بأرض الغاضرية، كما أنّ خطط الحسين عليه السلام المدروسة والمتقنة والمقنّنة بدقّة متناهية دليل آخر على ذلك؛ (فأحاديث الإمام الحسين عليه السلام وخطبه - ليس فقط تلك التي أوردها أثناء تحرّكه، بل ومنذ اليوم الذي توفي فيه معاوية - إضافة إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية، والخطب التي ألقاها عليه السلام في المواقع المختلفة، لا سيما تلك الخطبة الشهيرة التي ألقاها في منى، وهو يحدّث جمعاً من صحابة النبي، والتي تروى عنه في «تحف العقول»، وهي خطبة مفصّلة وغراء، كلّ ذلك يدل على أنّ هذه النهضة كانت نهضة واعية تماماً، وهي ثورة بالفعل لكنّها ليست انفجاراً، نعم ثورة إسلامية وليست انفجاراً انفعالياً)[1].

إذن لا بد لنا (أن نعرف بأنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي ثورة واعية، كان يدرك أهدافها جميع من اشترك فيها، هو مع أهل بيته وأنصاره، وليست انفجاراً

(١) الشهيد مطهري، الملحمة الحسينية: ٢٢٩/٢.

عفوياً، والثورة الواعية يمكن لها أن تحمل في طيّاتها ماهيّات مختلفة ومتعددة، وفي الحقيقة فإنَّ العوامل المؤثرة في تكوين النهضة الحسينية متعدّدة، الأمر الذي جعل ثورة الحسين ذات أبعاد مختلفة، وسمات متعدّدة، وليست ثورة البعد الواحد)[١].

وهكذا بقي الحسين عليه السلام ثورةً ملتهبةً في قلوب شيعته، وكلّ دعاة التحرر والإصلاح كما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ لِقَتْلِ الحُسَين حَرارَةً في قُلوبِ الْمؤمِنينَ لا تَبْردُ أبَداً»[٢].

(١) الملحمة الحسينية: ٢٣١/٢.

(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل: ٣١٨/١٠.

مَواقِف ثَلاثَة لِلْحُسَيْنِ عليه السلام

إذا استقرأنا -ولو بنظرة عابرة- المسيرة الحسينية من المدينة إلى كربلاء تبرز لنا ثلاثة مواقف حسينية:

أولاً: **مواقف دفاعيّة**، ونقصد بالموقف الدفاعي له عليه السلام هي الممانعة عن استجابة طلب خصومه، كرفض البيعة ليزيد حين طلب منه ذلك والي المدينة، فقال له عليه السلام: «إنّ مثلي لا يعطي بيعته سرّاً، ولا أراك تجتزئ بها منّي سرّاً دون أن نظهرها على رؤوس النّاس علانية... فإذا خرجت إلى الناس، فدعوتَهم إلى البيعة دعوتَنا مع الناس، فكان أمراً واحداً»[1].

يقول الشهيد مطهري: «فمنطق المدافع يشبه منطق الشخص الذي يتعرض لهجوم قاطع طريق، يريد سلبه جوهرة ثمينة، وهو يحاولّ بكل الوسائل والحيل، الاحتفاظ بتلك الجوهرة، ومنع السارق من الاستيلاء على تلك الجوهرة، وقد يتطوّر الأمر بينهما إلى نزاع، وشجار، ومصارعة، ولكن الهدف بالنسبة للمدافع يبقى هو الاحتفاظ بتلك الجوهرة، ومنع السارق من المساس بها أو نهبها»[2].

ولم يكن الحسين عليه السلام هنا مجرد مدافع؛ ليفلت من قبضة الأمويين، وإنما كان مهاجماً، وفاضحاً لهؤلاء، ومتحدّياً لهم، ومعلناً موقفه بصراحة، والدليل على

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٩/٥-٣٤٠.

(٢) الشهيد المطهري، الملحمة الحسينية: ٢٤٤/٢.

هذا عندما قال مروان للوليد: «والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرتَ منه على مثلها أبداً، حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه»، هنا تحدّى الحسين عليه السلام مروان، وقال: «يا ابن الزرقاء، أنت تقتلني أم هو؟! كذبت والله وأثمت»[1].

وتكرّر مثل هذا الموقف في مكّة مع سعيد بن العاص أميرها، عندما قدّم للإمامِ عليه السلام الأمانَ، فرفضه الإمام عليه السلام؛ لأنّه سائر وفق مخطّط مدروس يعلم أين يلقى ربّه، وكيف يؤدّي رسالته.

ثانياً: **موقف المتعاون**، وهنا موقف إيجابي، وهو استجابته لأهل الكوفة، ولم يكن عليه السلام خافياً عليه أمرهم، وموقفهم مع أبيه وأخيه من قبل، كما لا بد وأن نشير كما ذكرنا سابقاً أنّ دعوة أهل الكوفة لم تكن هي التي حرّكته، وإنّما هو الذي حرّك أهل الكوفة لدعوته؛ لأنّه خرج من المدينة ثائراً ورافضاً بيعة بني أمية في ٢٧ رجب، ووصل المكة المكرمة في ٣ شعبان، ولم تصل كتب أهل الكوفة إلا في ١٥ رمضان حيث لم يتفاعل مع دعوته وخروجه من أهالي الأمصار إلا هم... وعندما دعوه أصبح واجبه عليه السلام تجاه أهل الكوفة (هو التوجه نحو الكوفة، ما دام أهل الكوفة متمسّكين بدعوتهم، وبيعتهم، ولكن منذ اللحظة التي يتخلون فيها عن الدعوة، وينقضون العهد، أو يتراجعون عنه، فإنّ الواجب المحدد تجاهها يسقط عن كاهل الإمام عليه السلام)[2].

ولو أراد الإمام ألا يستجيب لأهل الكوفة لقال الذين اعترضوا على

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٠/٥.

(٢) الملحمة الحسينية: ٢٤١/٢.

استجابته: لماذا لم يستجب لهم مع أنّهم دعوه ونصروه وعاهدوه؟ (ولو لم يذهب الإمام الحسين عليه السلام إليها لتوجّه اللوم من مؤرخي العالم كافة، ولقالوا له: كيف تترك الكوفة ولا تلبي دعوتها، وهي التي بايعت ممثلك من خلال التفاف ثمانية عشر ألف من أهلها، واثني عشر ألف من الرسائل والكتب التي وصلت إليك؟ وهل كان هناك مكان للنهضة أفضل وأرقى من العراق؟)[1].

إلا أنّ أهل الكوفة لم يفهموا المنطق الحسيني الذي خرج؛ ليوسّع الصراع بين الأمة والحكومة، ولا يحصره في دائرة المدينة ومكة؛ ولهذا رأيناه يخطب في مكّة، ويعلن استنكاره، واستنفاره، وثورته، وسلبه للشرعية من الحكومة الأموية حين اعتزل صلاتهم، فلم تكن استجابة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة لمجرد أنّهم دعوه، ولم يكن عامل دعوة أهل الكوفة أساسياً أبداً، بل العكس كان العامل الأقل أهمية في تأثيره على التحرّك الحسيني.

ولم يكن تعاون الحسين عليه السلام مع أهل الكوفة فقط، بل كان يدعو كلّ من يلتقيه للنصرة، سواء كان ناصحاً مشفقاً، أو كان خائفاً من البطش الأموي؛ ولهذا رأيناه يقول لعبد الله بن عمر الذي كان ينصحه بالصبر والبيعة ليزيد: «أبا عبد الرحمن، أنا أبايع يزيد وأدخل في صلحه، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أبيه ما قال؟»، ثم قال له: «ولا تدعنَّ نصرتي»[2]، وهو يعلم بنفسه موقفه منه ومن أبيه عليه السلام إلا أنّه يريد أن يثبت عليه الحجّة أمام الله، وهكذا عمل مع عبيد الله بن الحر الجعفي وغيره، ومع الطرمّاح الذي طلب منه أن يرجع إليه بسرعة إذا أمكن.

---

(١) الملحمة الحسينية: ١٢٨/١.

(٢) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٢٤/٥-٢٥.

ويرسل حبيب بن مظاهر إلى عشيرته في ليلة عاشوراء إلى بني أسد؛ ليأتي بعدد من قبيلة بني أسد، بمثابة إسناد وإمداد للحركة الحسينية، وماذا تجديه المائة والمائتان، وهو يواجه ثلاثين ألفاً، وكيف نستطيع أن نوفق بين تصريحه أنّه مستشهد هو وأصحابه في الوقت الذي استنصر في طريقه من مكّة إلى كربلاء اثني عشر مرة، إنَّ (الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يتحرّك بمنطق الهجوم، ومنطق الشهيد، ومنطق الثورة، كان يريد للرقعة أن تتّسع، وللثورة أن تأخذ مساحة أوسع، وهو نفس المنطق الذي جعله يجلب عياله معه ذلك أنَّ جزءاً من مهمة نشر الرسالي وتبليغها كان مطلوباً من أهل بيته أن يؤدّوه)[1].

ثالثاً: **موقف المهاجم**، وهذا موقف صريح واضح في طيلة المسيرة... فقد بدأ منطق الهجوم من دار الوليد حين دعاه للبيعة قائلاً:

«أيّها الأمير، إنَّا أهلُ بيتِ النُّبُوَّةِ، ومعدنُ الرّسالة، ومختلفُ الملائكة، وبنا فتحَ اللهُ، وبنا ختمَ اللهُ، ويزيد رجلٌ فاسقٌ، شاربٌ الخمرَ، قاتلٌ النفسَ المحرمة، معلنٌ بالفسقِ، ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة».

وحين قال له مروان: «إنّي آمرك ببيعة يزيد أمير المؤمنين، فإنّه خيرٌ لك في دينك ودنياك»، فاسترجع عليه السلام وقال: «إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وعلى الإسلام السّلام، إذ قد بليت الأمّة براعٍ مثل يزيد»[2].

وموقف الهجوم هو عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان

---

(١) الملحمة الحسينية: ٢٤٨/٢.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٨-٩٩.

هو الأساس في حركته، وتمثّل المواقف الهجومية التي شنَّها عليه السلام ضد بني أُميّة في المدينة ومكة وفي الطريق إلى ساعة استشهاده عليه السلام...

يقول الشهيد مطهري: (إنّ هناك عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ينبغي لنا أن لا ننساه، والإمام الحسين عليه السلام هنا ليس مدافعاً، ولا متعاوناً، بل هو مهاجم ثائر، وداعية للثورة، وهذا حساب آخر لا بد من أخذه بعين الاعتبار)[1].

(١) الملحمة الحسينية: ٢٤٢/٢.

النّاسُ عَبيدُ الدُّنْيا

قال الحسين عليه السلام: «إنّي لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً، إنّ الناس عبيد الدّنيا والدّين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون»[1].

في هذا النصّ الشريف الذي أطلقه سيد الأحرار في أشدّ الساعات حرجاً وشدّة، في يوم عاشوراء، وأراد به عليه السلام أن يرفع الإنسان من تراب الأرض إلى نور السماوات، ويحرّره من عبودية الدنيا والخضوع لشهواتها، والالتصاق بزخارفها...

وهنا نشير إلى عدّة حقائق:

الأولى: إنَّ الموت في مجاهدة الظالمين والكافرين سعادة (شهادة) وخلود، بل هي كمال السعادة، لأنّها تنقل الإنسان من عالم الشّقاء إلى عالم السّعادة، ومن عالم المعاناة والآلام إلى عالم الهناء والراحة، وهي الحياة الحقيقية التي يختارها الإنسانُ الحرُّ لنفسه؛ ولذا جاء تعبير الإمام دقيقاً بوصفه الموت بأنّه هو الحياة، وفي رواية أخرى سعادة، وفي رواية ثالثة شهادة، والروايات الثلاث نتيجتها واحدة.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٧٤.

الثانية: إنّ الحياة مع الظالمين والمقصود به العيش معهم ومشاركتهم في أعمالهم أو الرضا بها، أو السكوت عنها.. هي حياة بائسة، شقيّة، ذليلة لا يعيشها الإنسان الشريف أبداً، ولا يقرّ لها قرار؛ فهي تتنافى مع الكرامة الإنسانية، وتعود على الإنسان بالشقاء في الدنيا والآخرة.. والمقصود بالظالم كلّ إنسان خرج عن طاعة الله بتجاوز حدود الشرع المقدس، ولم يقبل نصيحة ناصح، ولم يمتثل لأمر آمر، سواء كان حاكماً، أو محكوماً، صغيراً، أو كبيراً...

فالعيش مع الظالمين لا يرضاه الإسلام، ويأباه لأتباعه وحاملي رسالته؛ لأنه شقاء، وعذاب، وذلّة، وخنوع، وارتكاس في مستنقع الرذيلة.

الثالثة: ثم يقرّر عليه السلام حقيقة أغلب الناس وهي: أنّ الأعم الأغلب من الناس هم عبيد للدنيا، وليسوا عبيداً لله تعالى، ومعنى عبادة الدنيا هي الخضوع لميول النفس وأهوائها وشهواتها، والاستغراق في زخارف الدنيا حتى تنسي الإنسان نفسه، وتبعده عن الله تعالى، حتى يعود لا يرى غيرها، ولا يفكّر بسواها حتى تصبح قطب الرحى في حياته، فيسخّر لها كلّ طاقاته الفكرية، والأخلاقية، بل ويسخّر لها المقدّسات المعنوية، فكلّ ما يحرز به الدنيا ويحوزها إليه يبقى لاهثاً وراءه، ولا يتوقف عند حدّ من الحدود؛ فإنّ ابن آدم يشبّ وتشبّ معه خصلتان الحرص والطمع، ويصبح كل شيء فيها معبوداً له، وهذا هو معنى اللهو الذي نهى الله عنه بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾[1]؛ فكلّ شيء في حياته يصبح دنيا حتى الدين، والإسلام، والصلاة، والصوم، والجهاد... وكلّ ما يوفّر له

(١) المنافقون: ٩.

ملاذ الدنيا فهو حسن جيّد، وكل ما يضيّق دنياه يصبح قبيحاً سيئاً، فالذلّ، والاستعباد، والعيش وسط اليهود والنصارى إذا توفّر معه المال والترف فهو السعادة الكاملة، وأمّا العزّة والإباء إذا كانت تحمله صعوبات وابتلاءات فهي رذيلة لا تراد، والإمام الحسين عليه السلام إنّما أراد من خلال استعمال كلمة العبيد أن يبرز أهمية عزّة النفس من جهة، ويحقّر الاستعباد، وعبيد الدنيا بالذات من جهة أخرى... وقد ورد عنهم عليهم السلام: «أوَلا حر يدع (هذه) اللماظة لأهلها؟ - يعني الدنيا - فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها؛ فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس»[1].

واللُماظة -بالضم-: «ما يبقى في الفم من الطعام، ومنه قول الشاعر يصف الدنيا: [من الطويل]

لُماظةُ أيامٍ كأحلامِ نائمٍ»[2]

وقد ورد هذا اللفظ مراراً على لسان أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا حُرٌّ يَدَعُ هذِهِ اللُّماظَةَ لأهلِها؟ إنّه ليس لأنْفُسِكُم ثَمَنٌ إلا الجنَّةَ، فلا تبيعوها إلا بها»[3].

ولا أظنُّ أنّ الباحث يجد لفظاً يُصَغّر فيه عبيد الدنيا المنشدين إليها أصدق، وأدقّ، وأعمق، وأشمل من هذا الوصف؛ فإنَّ الأكل المتبقي في الفم إذا لم يخرج يتحول إلى عفونة مؤذية، ومرضٍ مردٍ؛ ولذا يحاول الإنسان أن يتخلص منه، وكأنّ الإمام عليه السلام يقول: إذا لم تتخلّصوا من عفونة الدنيا وفضولها لا يمكنكم أن تكونوا أحراراً فيها، وعبادة الدنيا لا تنحصر بفئة دون أخرى، بل

(١) تحف العقول: ٢٩٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٤٦٢/٧.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٤.

كلّ إنسان خلا قلبه من حب الله التاط بحب الدنيا، والعكس صحيح.

وَلِعِبادِ الدُّنْيا صِفاتٌ:

١- عبيد الدنيا ظاهرهم جميل جذّاب، وباطنهم مستنقع آسن، وقد مثلهم عيسى عليه السلام بقوله: «يا عبيد الدنيا، مثلكم كمثل القبور المشيّدة يعجب الناظر ظهرها، وداخلها عظام الموتى مملؤوة خطايا»[١].

وقال عليه السلام: «ماذا يغني عن الجسد إذا كان ظاهرُهُ صحيحاً، وباطنُهُ فاسداً، وما تغني عنكم أجسادُكم إذا أعجبتْكُم وقد فسدت قلوبُكم، وما يغني عنكم أن تنقّوا جلودَكم، وقلوبُكم دنسة»[٢].

٢- وعبيد الدنيا يخافون الناس في طاعة الله، ويعصون الله في طاعتهم، قال عيسى عليه السلام: «ويلكم يا عبيدَ السّوء، كيف ترجون أن يؤمنكم الله من فزع يوم القيامة، وأنتم تخافون الناس في طاعة الله، وتطيعونهم في معصيته، وتفون لهم بالعهود الناقضة لعهده»[٣].

٣- وعبيد الدنيا باعوا كثيراً دائماً بقليل زائل، استبدلوا دار رحمة الله بدار الفناء والشقاء، خضوعاً للشهوات والأهواء، قال عيسى عليه السلام: «ويلكم يا عبيد الدنيا، من أجل نعمة زائلة، وحياة منقطعة تفرّون من الله»[٤].

٤- وعباد الدنيا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون، غافلون عن سرّ وجودهم وعلّة إيجادهم؛ ولهذا تراهم يتمسّكون بظواهر الأمور،

---

(١) تحف العقول: ٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٢.

ويغفلون عن الحقائق الكونية، والأسرار الإلهية ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[1].

٥- وعبيد الدنيا لا يلتذون بالعبادة، ولا يجدوا حلاوتها في قلوبهم؛ لانشغالهم بحب الدنيا، يقول أبو عبد الله عليه السلام: «حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان، حتى تزهد في الدنيا»[2].

وعن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام: «ألا من صبّار كريم، فإنّما هي أيّام قلائل، ألا إنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتّى تزهدوا في الدّنيا»[3].

٦- وعبيد الدنيا يفرحون بالمدح ولو كان كذباً، ويغضبون من النقد ولو كان حقّاً، يقول عيسى عليه السلام: «بحق أقول لكم: إنّ أحدكم ليغضب إذا ذكر له بعض عيوبه، وهي حقّ، ويفرح إذا مدح بما ليس فيه»[4].

ثم أوضح حقيقة عظيمة لعبيد الدنيا، وهي أنّ الدينَ الذي يَدَّعون الالتزام به، ويتظاهرون به لم يغر في أعماقهم، ولم يترسّخ في قلوبهم، وإنّما مرَّ على سطوح أنفسهم، وعلى طرف ألسنتهم.. ولفظة اللعق الواردة في الخطاب أدقّ تعبير لهذه الحقيقة، واللعق هو ما تبقّى على أصابع اليد من الطعام، أو على الإناء الذي توضع فيه الحلوى، فيبقى به بعض الشيء لا يُنال باليد، وإنّما يمكن أن يصيبه الإنسان إذا لعقه بلسانه، وهو تعبير دقيق عن السطحية لتديّن هؤلاء حيث

---

(١) الروم: ٧.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٢٨/٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٠/٢.

(٤) تحف العقول: ٣٨٨.

تزول بمجرد أن يمتحنوا ويمحصوا بأدنى الفتن والمحن؛ ولذا رأينا من هذه الأمة الواسعة، والتي عاشت رسول الله صلى الله عليه وآله فكراً وسلوكاً وعاشت أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه لم يتمخّض منها إلا الثلّة المباركة التي ثبتت مع الحسين عليه السلام.

[من الطويل]

مضوا بالأنوف الشمّ قدماً وبعدهم ... تخال نزاراً تنشق النقع في أنف

خذي يا قلوب الطالبيين قرحة ... تزول الليالي وهي دامية القرف

فإنّ التي لم تبرح الخدر أُبْرِزَتْ ... عشيّة لا كهفٌ فتأوي إلى كهف[1]

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ٩٥/١.

مِنْ مَعالِمِ

شَخْصِيَّةِ الحُسَيْنِ عليه السلام

لا شكَّ أنَّ جميع معالم الكمال قد تجسَّدت في رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ فحينما يتأمل الإنسان في شخصيّته يجدها في ذروة الكمال من جميع أبعادها الفكرية، والروحية، والأخلاقية، والاجتماعية... ولا عجب في ذلك؛ فقد اصطفاهم الله لنفسه، واستخلصهم لدينه، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ولكن مما يؤسف له أنّنا في مجالسنا ومحافلنا نركّز على الجانب المأساوي من حياتهم، لا سيما حياة الإمام الحسين عليه السلام، تلك الشخصية ذات الأبعاد الكثيرة، والصفات الحسنة الغزيرة بالحسن، والجمال، والكمال... والأحرى بنا أن نعي الأبعاد الأخرى كغزارة العلم، وسمو الأخلاق، وقوّة الإرادة، والعزم، والتصميم، وروح التحدّي للظلم، والهدفية السامية في الحياة.

ولنقف قليلاً عند بعض الخصال التي تحلّى بها الحسين عليه السلام، وبرزت في شخصيته، فكان إسلاماً يتحرّك على الأرض ويجسّده.

١- **إيمانه وثقته بالله تعالى:** ومن هذا المَعْلَم تفرَّعت كلّ المعالم في شخصية الحسين عليه السلام، فما ظهر عليه من سموّ خلقي، وصلابة في الحق، وصمود في المواقف الحرجة ما هي إلا إفراز من إفرازات الإيمان بالله تعالى، والحب له،

---

(١) آل عمران: ٣٣-٣٤.

والتفاني في سبيله... وكان يؤكّد هذا المعنى قولاً وفعلاً، فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «خرج الحسين بن علي عليهما السلام على أصحابه، فقال: أيها الناس، إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[١].

وهي دعوة لتعميق المعرفة العقائدية، وترسيخ الإيمان بالله تعالى في النفوس؛ لأنّ الإيمان هو الحياة الحقيقية؛ ولهذا نراه وهو في أشدّ المواقف حراجة وضيقاً حيث حشود العساكر تزحف عليه يرفع طرفه إلى السماء، وهو يقول:

«اللهُمَّ، أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذُلُ فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلتُه بك، وشكوتُه إليك، رغبةً مني إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، وأنت وليّ كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كل رغبة»[٢].

ونحن حيث نتأمّل في هذا الدعاء نجد فيه الذوبان الكامل، والفناء المتناهي في الإيمان بالله وحبّه، وأكثر من ذلك حين يهوي على الأرض مضرّجاً بدمائه، رافعاً طرفه إلى السماء، مناجياً ربَّه:

«صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي رب سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك، يا غياث من لا غياث له»[٣].

---

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ٥٦/١.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢٣٣.

(٣) المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٩٧.

ولم يعرف التأريخ شخصاً يذبح ولده على صدره، ويبقى صامداً لا ينهار، ويبقى متماسكاً، ويملأ كفَّه من دم وليده، ويرميها إلى السماء قائلاً: «هَوَّنَ ما نزل بي أنّه بعين الله تعالى، اللهُمَّ لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح»[١].

وحين يخترق السهم المسموم حلقه الشريف نراه قائلاً: «بسم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا قتيل في رضى الله»[٢].

والمتأمّل في دعائه عليه السلام في يوم عرفة يجد أبعاد الإيمان متجسّدة كلّها في هذا الأثر الشريف، ولا سيما في بعض المقاطع، ننقل بعضها تبرّكاً: «ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك حولاً»[٣].

ولقد ذهب بعض المفكرين بأنّ مفتاح شخصية الحسين عليه السلام تتبلور في حسّ الحماس والحسّ الملحمي في عظمته، وشدّة بأسه، وصموده، وتقديسه، وقد نسي أنّ الحماس هو إفراز من إفرازات الإيمان، فالإيمان بالله والحب لله هو مفتاح شخصية الحسين عليه السلام الذي كان يقول: «عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً».

فكلّ خطوةٍ خطاها، وكلّ نفس تنفسه، وكلّ كلمةٍ نطق بها، وكلّ ضربة سيفٍ وطعنة رمحٍ تلقّاها، وكلّ استغاثةٍ استغاث بها كانت لله خالصة... لذلك كان لحركته هذه البركة، ولكلماته هذه الحرارة، ولثورته هذه الديمومة... وهكذا ما كان لله ينمو...

٢- **قوّة الإرادة:** لقد واجه سيد الأحرار عليه السلام في حركته مقاومة من جميع

---

(١) المصدر نفسه: ٢٨٦.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ١٢٠/٤.

(٣) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢٦/٩٨ .

الناس إلا أصحابه والمشفقين عليه كعبد الله بن عباس، ومحمد بن الحنفية، وأم سلمة وغيرهم من الذين وقفوا ناصحين مشفقين، باكين ونادبين، وبين التهديد من الأعداء، والإنذار بالخطر المحدق به مع قلّة الأنصار، وتراجع كثيرين من الذين التحقوا به... ولكن رغم ذلك كله لم يلتو، ولم يثن من عزمه، ولو قيد أنملة، وكان يجيب كل واحد منهم بمقدار ما يفهم ويعي... وسار متحدّياً يواجه دولة تسيطر على أكثر بقاع الأرض... وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على إرادة جبّارة، وعزيمة صلبة، والإرادة والعزيمة هي سرُّ الإنسان الرائد، والكادح إلى الله تعالى، فالإرادة الحسينية لا نظير لها في عالم الوجود إلا ما عرف من إرادة جدّه صلى الله عليه وآله الذي قال لقريش:

«والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته»[1].

وإرادة أبيه عليه السلام القائل: «والله لو أُعْطيتُ الأقاليمَ السَّبْعَةَ بما تحتَ أفلاكِها، على أن أعصيَ اللهَ في نملةٍ أسلبها جلبَ شعيرةٍ ما فعلتُهُ»[2].

فعلى إرادة الحسين عليه السلام تحطّم جميع ما حيك من مؤامرات؛ لتحريف الإسلام، بل ولدفنه.

٣- العزّة والإباء: لقد حطّم الحسين عليه السلام الرقم القياسي في إبائه وعزّته، فما عرفت البشرية بعد رسل الله رجلاً رفع شعار الكرامة الإنسانية، وأبى الخنوع والذلّ كالحسين عليه السلام، فإذا نظرنا إلى أباة الضيم في التأريخ لا بدّ وأن نضع الحسين عليه السلام في القمة، وما أجمل قول ابن أبي الحديد: «سيّد أهل الإباء، الذي

(١) سيرة ابن هشام: ٢٨٥/١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٧٤، خطبة: ٢٢٣.

علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنيّة، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام؛ عُرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان؛ إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك.

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلويّ البصريّ، يقول: كأنّ أبيات أبي تمام في محمّد بن حُميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام: [من الطويل]

وقد كان فوت الموت سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيمَ حتى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرَّوع أو دونَه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجلَهُ ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سُنْدُسٍ خُضْرُ»[1]

ولهذا وقف متحدّياً الدنيا بأسرها مصرّحاً بأن العزة والإباء فوق كلّ الاعتبارات مهما كان الثمن غالياً، فقد روي عن الإمام السجاد عليه السلام أن الحسين عرض عليه التسليم لابن زياد، فخطب قائلاً: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت، وحجورٌ طهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة: من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[2].

وقد علّق ابن أبي الحديد على قوله: «وهذا نحو قول أبيه عليه السلام: إنّ امرأ أمكن عدوّاً من نفسه، يعرق لحمه، ويفري جلده، ويهشم عظمه، لعظيمٌ عجزه، ضعيف ما ضُمّت عليه جوانح صدره؛ فكن أنت ذاك إن شئت؛ فأما أنا فدون أن

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٩/٣.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٦.

أعطي ذلك ضربٌ بالمشرفيّة تطير منه فَراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام»[١].

وأدقّ عبارة في بيان العزّة والإباء الحسيني ما نطق به صلوات الله عليه وسلامه متحدّياً به جيش ابن زياد قائلاً: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد... يا عبادَ الله، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب»[٢].

والإباء الحسيني إباء لله وفي الله، فهو ليس من جنس الأباة الآخرين الذين يخشون الذلّ على أنفسهم، أما الحسين عليه السلام فيخشى أن يذلّ عباد الله الذي فيه توهين لدين الله، ومضى أبي الضيم لله وفي الله، ورحم الله السيد الحلي إذ يقول[٣]: [من الطويل]

لقد مات لكن ميتة هاشمية ... لهم عرفت تحت القنا المتقصّدِ
كريم أبى شمَّ الدنيَّة أنفُه ... فأشممه شوك الوشيج المسدّدِ
وقال: قفي يا نفسُ وقفةَ وارد ... حياض الردى لا وقفة المتردّدِ
فآثر أن يسعى على جمرة الوغى ... برجل ولا يعطي المقادة عن يد

٤- **الحلم**: والحلم من المعالم البارزة في شخصية الحسين عليه السلام ومن أبرز خصائصه، ومما روي عن عصام بن المصطلق أنّه قال: «دخلت المدينة، فرأيت الحسين بن علي عليه السلام، فأعجبني سمته ورواؤه، وأثار من الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض، فقلت له: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: نعم، فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليَّ نظرة عاطف رؤوف، ثم قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣/٢٥٠.
(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢/٩٨.
(٣) ديوان السيد حيدر الحلي: ١/٧١-٧٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾[1]، ثم قال لي: خفّضْ عليك، استغفر الله لي ولك، إنّك لو استعنتنا لأعنّاك، ولو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لرشدناك».

قال عصام: «فتوسّم مني الندم على ما فرط مني، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]، أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم، فقال: «شِنْشِنَةٌ أعرفُها من أخزم»[3]، حيانا الله وإيّاك، انبسط إلينا في حوائجك، وما يعرض لك تجدني عند أفضل ظنّك إن شاء الله تعالى».

قال عصام: «فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، ووددت لو ساخت بي، ثم سللت منه لواذاً، وما على الأرض أحب إليَّ منه ومن أبيه»[4].

وهنا سرّ العظمة في الخلق الإلهي -الذي تجلّى في الحسين عليه السلام- حيث استطاع أن يقلب العداوة إلى محبة، ويكشف عن معدن الرسالة، ويجسّد له الخلق الإلهي بكلّ أبعاده، فكان بحقّ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[5].

٥- كثرة عبادته، وشدّة تقواه: من أبرز صفات أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد الإيمان هو الجانب العبادي؛ فما من حركةٍ، ولا سكنةٍ في حياتهم إلا بقصد

(١) الأعراف: ١٩٩-٢٠٢.

(٢) يوسف: ٩٢.

(٣) الشنشنة: الخليقة والطبيعة، وهو مثل يضرب للرجل يشبه أباه، ينظر: جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٤٥٩/١.

(٤) المحدث القمي، سفينة البحار: ٧٠٥/٢-٧٠٦.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١١٤/٣.

العبادة والطاعة لله تعالى، بتجردٍ، وإخلاصٍ لا تشوبه شائبة، والدليل على ذلك أنّ أغلب الآيات التي نزلت في أهل البيت عليهم السلام بدأت بأدوات الحصر كـ(إنما)، ودلالتها أنّ أعمالهم كلّها خالصة مجردة لله تعالى.

وقد عرف عن الحسين عليه السلام أنّه كان أعبد أهل زمانه، يقول المؤرخون: إنّه عمل كلّ ما يقربه إلى الله، فكان كثير الصلاة، والصوم، والحجّ، والصدقة، وأفعال الخير جميعها، فكان أكثر أوقاته مشغولاً بالصلاة، وقد قيل لولده علي بن الحسين عليه السلام: «ما أقلّ ولد أبيك!»، فقال عليه السلام: «العجب كيف وُلِدْتُ له، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرغ للنساء؟! وحجَّ خمساً وعشرين حجةً راجلاً»[١].

وأروع صور العبادة ما تجلّى من الحسين عليه السلام وأصحابه في ليلة العاشر من المحرّم، فكان لهم دوي كدوي النحل بين قارئ للقرآن، وبين راكع وساجد، وأروع من ذلك أنّه أقام الصلاة في ميدان المعركة حتى استشهد بعض أصحابه الذين كانوا يصدّون السهام عنه بصدورهم، وكان سلام الله عليه شديد الخوف من الله تعالى، فقد قيل له: «ما أعظم خوفك من ربك؟» فقال عليه السلام: «لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا»[٢].

وقد شهد له بذلك حتى مخالفوه، فقد تحدّث ابن الزبير عن عبادة الإمام عليه السلام قائلاً: «أما والله لقد قتلوه، طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه»[٣].

وكان صلوات الله عليه يؤكد أنّ: «من عبد الله حقَّ عبادته آتاه الله فوق

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٧٦/٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٧٥/٥.

أمانيه وكفايته»[١].

وعبادة الحسين عليه السلام كانت عبادة الأحرار الذين يعبدون الله شكراً، ويطلبون رضاه دون سواه، فقد كتب إليه عليه السلام رجلٌ: «يا سيّدي، أخبرني بخير الدنيا والآخرة»، فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد؛ فإنّه من طلب رضا الله بسخط النّاس كفاه الله أمور النّاس، ومن طلب رضا النّاس بسخط الله وكله الله إلى النّاس، والسّلام»[٢].

٦- **السموّ العلمي**: لقد أجمع المؤرخون، وعلماء السير أنّ أهل البيت عليهم السلام أعلم الناس بعد جدِّهم رسول الله صلى الله عليه وآله، والحسين عليه السلام قد نهل من أصفى منابع العلم من مهبط الوحي على جدّه صلى الله عليه وآله، وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، وتلقّى القرآن غضّاً طرياً؛ ولهذا جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال في الحسين والحسين عليهما السلام: «أنّهما كانا يغرّان العلم غرّاً»[٣]، وقال ابن عباس: «إنّه [الحسين عليه السلام] من أهل بيت النبوة، وهم ورثة العلم»[٤].

ولذلك كان مرجع الناس في حلّ معضلاتهم العلمية، وكان المسلمون يرجعون إليه في مسائل الحلال والحرام، ويأخذون منه أحكام الإسلام، وآداب الشريعة كما كانوا يرجعون إلى أبيه[٥]، وقد اتّخذ من مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله منطلقاً لنشر الإسلام، وكان له فيه مجلس واسع يتلقّى الناس منه فيوضات

(١) الريشهري، ميزان الحكمة: ٢٣٨٢/٦، ح/١١٧١٢.

(٢) الشيخ الصدوق، الأمالي: ١٥١، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٥٦٣/٦.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٦٧/٩.

(٤) الشيخ الصدوق، التوحيد: ٨٠.

(٥) ينظر: القرشي، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ١٣٥/١ وما بعدها.

الوحي، فعن أبي سعيد الكلبي قال: «قال معاوية لرجل من قريش: إذا دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فرأيت حلقة فيها قوم كأنَّ على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزراً على أنصاف ساقيه ليس فيها من الهُزّيلا شيء»[١].

وقال عثمان بن عفان في الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر: «أولئك فطموا العلم فطماً، وحازوا الخير والحكمة»[٢].

وكما وصفه يزيد بن مسعود النهشلي حين كتب إليه الحسين عليه السلام يستنصره: «وهذا الحسين بن علي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضلٌ لا يوصف، وعلمٌ لا ينزف»[٣].

وقد كان يدافع عن الإسلام، ويصون حرماته من كلّ مفترٍ كذاب، ومن ذلك موقفه من نافع بن الأزرق الذي تحدّى ابن عباس أثناء حديثه قائلاً: «يا ابن عباس، صف لي إلهك الذي تعبده»، فأطرق ابن عباس طويلاً مستبطئاً بقوله، فقال له الحسين عليه السلام: «إليَّ يا ابن الأزرق، المتورّط في الضلالة، المرتكن في الجهالة أجيبك عما سألت عنه»، فقال: «ما إيّاك سألت فتجيبني»، فقال له ابن عباس: «مه عن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإنّه من أهل بيت النبوة عليهم السلام ومعه من معدن الحكمة»، فقال له: «صف لي»، فقال عليه السلام له: «أصفه بما وصف به نفسه، وأعرفه بما عرف به نفسه، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتزق، وبعيد غير مقص، يوحد ولا يتبعض، لا إله إلا هو الكبير المتعال»، فبكى ابن الأزرق بكاءً شديداً، فقال له الحسين عليه السلام: «ما يبكيك؟»، قال: «بكيت من

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٤١ /١٧٩، والهزيلي: المزاح والهذيان وعمل اللعابين.

(٢) الشيخ الصدوق، كتاب الخصال: ١٣٦.

(٣) الملهوف على قتلى الطفوف: ١١١.

حُسن وصفك»، قال عليه السلام: «يا ابن الأزرق، إنّي أخبرتُ أنَّكَ تكفّر أبي وأخي وتكفّرني؟» قال له نافع: «لئن قلت ذاك لقد كنتم الحكّام ومعالم الإسلام، فلما بدّلتم استبدلنا بكم»[1].

قال العلايلي: «الأخبار عن الحسين عليه السلام في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولقد كان يجيء بالمدهشات في الفُتْيا، وما إليها من العلم، حتى قال فيه ابن عمر (ض): إنّه يغرُّ العلم غراً»[2].

(١) تفسير العياشي: ٣٦٣/٢-٣٦٤.

(٢) العلايلي، الإمام الحسين: ١٢٦ .

دَمُ الْحُسَيْنِ عليه السلام

صَرْخَةٌ في ضَميرِ الْبَشَرِيَّةِ

قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمالك الأشتر:

«إيّاك والدِّماءَ، وسفكها بغير حلّها؛ فإنّه ليس شيءٌ أدعى لِنقمةٍ، ولا أعظم لتَبِعَةٍ، ولا أحرى بزوال نِعْمَةٍ، وانْقِطاعِ مدّةٍ، من سفكِ الدِّماء بغير حقّها، واللهُ سبحانَه مبتدئٌ بالحُكْم بين العبادِ فيما تسافَكوا من الدّماءِ يومَ القيامةِ، فلا تُقَوِّيَنَّ سلطانَك بسفكِ دمٍ حرامٍ؛ فإنّ ذلك مما يُضعِفُهُ ويوهِنُهُ، بل يُزيلُهُ وينقُلُهُ، ولا عُذْرَ لَكَ عندَ الله ولا عندي في قَتْل الْعَمدِ؛ لأنَّ فيه قَوَدَ البَدَنِ، وإن ابتليتَ بخطأ وأفرط عليك سوطُك، [أو سيفُك] أو يدُك بعُقوبَةٍ؛ فإنّ في الوكزةِ فما فوقها مَقْتَلةً، فلا تطمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلطانِكَ عن أن تُؤدِّي إلى أولياءِ المَقْتولِ حَقَّهُم»[1].

لقد استبشع الإسلام القتل بغير الحق، وعدَّه اعتداء على البشرية دون استثناء، يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[2].

والقتل على ضربين: إمّا لأمور شخصيّة تخصّ الفرد، أو مجموعة من

---

(١) نهج البلاغة: ٤٦٣، كتاب: ٥٣.

(٢) المائدة: ٣٢.

الناس كالعائلة أو العشيرة، وهنا فوَّضَ الإسلامُ لوليّ الدّم أن يقتصّ بنفسه من القاتل على أن لا يتجاوز الحدود الشرعية، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾[1].

هكذا أجاز الإسلام لوليّ الدم، وحبَّب إليه العفو، أو الدّيّة، فإن لم يكن للمقتول ولي فوليّه وليُّ الأمر الحاكم الشرعي يقتصّ من القاتل.

والضرب الآخر من القتل هو من أجل قضيّة رساليّة عادلة كمن يُقتل في سبيل دينه... والقتل هنا اعتداء على البشرية جمعاء، (والدّم الذي يراق من أجل قضية التوحيد دم لا يخصّ ذوي المقتول فقط، وإنّما يعمّ كلّ أعضاء هذه الأسرة، كما أنّ المطالبة بهذا الدم لا تتوقف عند القاتل والمعتدي فقط من أسرة الشرك والجاهلية، وإنّما تعمّ كلّ أطراف العدوان من تلك الأسرة: الآمر، والمنفذ والمعدّ، وحتى المشاهد الراضي بذلك)[2].

واستشهاد الحسين عليه السلام وجميع رجال أهل بيته وأصحابه كان من هذا النوع؛ ولذا فإنّ هذه الجريمة هي اعتداء على الإسلام والمسلمين أجمع، بل على الإنسانية كلّها، ومن هنا أطلق على ثأر الحسين عليه السلام ثار الله، ووليُّ الدم هنا هو الله تعالى، وهو الذي يتولّى الثأر لدم الشّهيد، (أي إنّ الله تعالى هو وليّ الدم والمتصدّي للثأر للشهيد، وأنّ دم الشهيد ثأر الله، فإن الدم هنا لكلّ أسرة التوحيد، ولكلّ الأجيال، والله تعالى هو عميد هذه الأسرة، ووليّها الذي يطالب بالثأر

(١) الإسراء: ٣٣.

(٢) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في رحاب عاشوراء: ٣٣/٢.

لدمها، ومن هذا الباب نخاطب الحسين بن علي عليهما السلام في زيارة (وارث) فنقول: السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره)[١].

وإنّما أصبح قتل الحسين عليه السلام بهذه المثابة، وبهذا الامتداد عبر الزّمن إلى يوم القيامة؛ لأنّ الصراع بين الحسين عليه السلام وبين يزيد لم يكن صراعاً شخصياً ولا عائلياً[٢]، وإنّما هو صراع بين التوحيد والشرك؛ «فيكون الثأر ثاراً للقضية والرّسالة، وانتقاماً من الخطّ الحضاري الذي يريد أن ينال من خطّ الرسالة، فالشهيد يقاتل في سبيل الله، ولتثبيت كلمة الله على وجه الأرض، ولإسقاط الطاغوت، وإحباط دوره وعمله في الأرض، وفي المجتمع، ولإزالة الفتنة التي تعيق الناس عن سبيل الله، والجريمة هنا ليست جريمة على شخص، وإنّما جريمة على الخط والرسالة التي يقاتل من أجلها الشهيد، وهي تحكيم شريعة الله في الحياة»[٣].

فالانتقام لشهداء كربلاء انتقام للرسالة على طول خطّ التوحيد، والانتقام هنا ليس من جنس الانتقامات الأخرى... فهو انتقام من كلّ ظالم على طول تأريخ الرسالة، وأما أساليب الانتقام فتتحقّق:

بالعمل بجدّ على تحقيق الأهداف التي استشهد الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه من أجلها، فما لم يتحقّقْ في عصر الشهادة لا بدّ أن يتحقّقَ فيما بعد، والمحرّك لهذا العمل هو دم الشّهادة الذي أريق على أرض كربلاء، والمكلّف

(١) في رحاب عاشوراء: ٣٤/٢-٣٥.

(٢) يقول عباس محمود العقاد: «إن الكفاح بين علي ومعاوية لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين.. ولكنه كان على الحقيقة بين الإمامة الدينية والدولة الدنيوية». المجموعة الكاملة للعقاد: ١٦٣/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

(٣) في رحاب عاشوراء: ٣٦/٢.

بذلك كلّ من وعى الأهداف التي عاش الحسين عليه السلام واستشهد من أجلها... وشعار ثأر الله شعار بذلك، وتحسيس بالمسؤولية لكلّ مؤمن بالرسالة الإلهية، وكلّ مؤمن استشهد على هذا النهج هو امتداد لتلك الشهادة العظيمة؛ فكلّ الذين قدَّموا حياتهم فداءً للإسلام نحن مطالبون للثأر لدمائهم الزّكية بمواصلة السّير على نهجهم؛ لتحقيق الأهداف التي ضحّوا من أجلها.

وقد ضمن الله لأولئك المضحّين الثائرين من يثأر لهم إن عاجلاً أو آجلاً؛ ولهذا لا بدّ أن يواصل المؤمنون الانبعاث على خطّهم في التضحية والفداء طلباً لرضوان الله في تثبيت دعائم الإسلام، ورفض زخارف الدنيا إيثاراً لطاعة الله تعالى...

ومن هذا المنطلق أصبحت كلّ قطرة من دماء الحسين عليه السلام صاعقة تحرق بيوت الظالمين في كلّ زمان.

(إذن فإنّ الثورة بماهيتها هذه ذات استمرارية خالدة، فكلّ مكان يقف عليه ثائر هنا وهناك.. هو كربلاء، وكلّ طعنة سيف في عاشوراء.. هي طعنة لمفاسد الحكم في أي زمان ومكان، وكلّ نقطة دم أريقت فداء للحق.. استمرّت تعلن فداءها في رغبة الإنسان العامرة في الاستشهاد في سبيل مبادئه)[1].

ولنرجع إلى النصّ الذي افتتحنا به الموضوع؛ فقد حذّر أمير المؤمنين عليه السلام من سفك الدماء بغير حلّها؛ لأنّها جريمة لا تغتفر، ولها آثار وضعية سريعة في الدنيا فضلاً عن الآخرة، ومن آثارها:

١- إنّها تنزل النقمة على القاتل، وإذا نزلت نقمة الله على أحدٍ أهلكتْهُ،

(١) د. أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي: ٨٠.

وليس من خطر أكبر من هذا الخطر.

٢- لها تبعات اجتماعية خطيرة حيث تورث العداوة والبغضاء؛ فإنّ بشاعة القتل لا تنسى، ولا تمحى من ذاكرة الإنسان أبداً.

٣- تعجّل فناء القاتل وهلاكه.

٤- إنّها تضعف الحكومات والدول فضلاً عن الأفراد، ولا تقتصر على التضعيف، وإنّما تزيل الدولة، وتسقط الحاكم، وتنقل الحكومة من أيدي الحاكمين.

ولا أدلّ على ذلك من دولة بني أمية؛ فإنّها رغم سعتها وجبروتها لم تدم بعد قتل الحسين عليه السلام طويلاً، يقول عباس محمود العقاد: «ولم تعمر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين عليه السلام نيف وستون سنة.. وكان مصرع الحسين عليه السلام هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى عليها، وأصبحت ثارات الحسين عليه السلام نداء كل دولة تفتح لها طريقاً إلى الأسماع والقلوب»[1].

والدماء التي سفكت في العراق طيلة ثلاثين سنة على يد فرعون العراق دليل آخر على ضعف الدول وفنائها، فرغم ما بناه صدام لعنه الله من حصون حصينة، وأعدَّ قوات جبّارة تحيط به فقد عاد أهون من بيت العنكبوت، وأذلّه الله بتسلط أسياده الذين صدّوه بالقوّة والعدة والعدد، والذين نصبوه واليوم عادوا يستذلونه حتى يفتشوا غرفة نومه، وسبحان الله كيف ما تدين تدان.

والدماء التي تسيل في فلسطين اليوم نذير خير بزوال دولة إسرائيل

(١) العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٣٠/٢، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

البغيضة، إن شاء الله تعالى...

وهكذا أصبح الدم المراق في سبيل الله ثورة تحطّم عروش الظالمين، وكلّ ذلك امتداد لتلك الثورة العظيمة التي تفجّرت في أرض كربلاء.

[من الكامل]

أأبا العقيدة ما نزلت بساحة ... إلا لتقدح كلّ زندٍ وار

يا ابن البتول نهضتَ أعظم نهضة ... أعطت دروس الحقِّ للثوار[1]

(١) السيد سلمان آل طعمة، ديوان المديح والرثاء: ٨٥-٨٦.

الْمُتَخَلّفونَ عَنْ

ثَوْرَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[1].

في كلّ صراع بين الحقّ والباطل ينقسم الناس على أقسام عدّة:

١- منهم من يقف في جبهة الحق، ويدافع عنها، ويضحّي من أجلها بكلّ غالٍ ونفيس، وهؤلاء هم حملة رسالة الله الذين أوقفوا أنفسهم لها.

٢- ومنهم من يقف إلى جنب الباطل خوفاً، أو طمعاً، أو انخداعاً، أو لحالة عدم الوعي...

٣- ومنهم من يقف موقف المتفرج (لا ينصر الحق، ولا يخذل الباطل)، وهؤلاء هم طلاب العافية والسلامة، ركوناً إلى الدنيا، وما فيها من مال وجاه وسلطان... والآية المتقدمة نزلت في معركة تبوك التي قادها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت ظروف المعركة صعبة عسيرة حتى عبر عنها القرآن بـ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾، يقول تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ

(١) التوبة: ١١٨.

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[١].

وأصناف النّاس المتقدّمة برزت واضحة في هذه المعركة؛ فمنهم من سار مع النبي صلى الله عليه وآله رغم الشدّة والصعوبة، وقلة العدّة والعدد، بحيث (كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، يركب الرجل ساعة، ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم الشعير المسوس، والتمر المدود، والإهالة السنخة[٢]، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه، فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة)[٣].

بهذه الشدّة، وهذه العسرة كانت حركة المسلمين، وهنا برزت الغيرة الإيمانية على أبي خيثمة عبد الله بن خيثمة؛ وكان (تخلَّف إلى أن مضى من مسير رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة أيام، ثم دخل يوماً على امرأتين له في يوم حار في عريشين لهما، قد رتبتاهما، وبردتا الماء، وهيأتا له الطعام.

فقام على العريشين، وقال: سبحان الله! رسول الله قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخّر في الفتح، والريح، والحرّ، والقرّ، يحمل سلاحه على عاتقه، وأبو خيثمة في ظلال باردة، وطعام مهيأ، وامرأتين حسناوين، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أكلّم واحدة منكما كلمة، ولا أدخل عريشاً حتى ألحق بالنبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) التوبة: ١١٧.

(٢) ساس الطعام: وقع فيه السوس وهو دود يأكل الحب، والمدود: الطعام الذي صار فيه الدود وكلّ شيء من الأدهان مما يؤتدم به اهالة، وقيل: الدسم الجامد، والسنخة: المتغيرة الريح.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ١١٩/٥-١٢٠.

فأناخ ناضحة، واشتدَّ عليه، وتزوّد، وارتحل، وامرأتاه تكلمانه، ولا يكلمهما، ثم سار حتى إذا دنا من تبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق. فقال النبي صلى الله عليه وآله: كن أبا خيثمة أولى لك، فلما دنا، قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله، فأناخ راحلته، وسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: أولى لك، فحدّثه الحديث، فقال له خيراً، ودعا له)[1].

هذا صنف من الناس حرّكتهم ضمائرهم، ولم يرضوا بالراحة مقابل معاناة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأبو خيثمة رفض كلّ النعيم واللّذة، والتحق بالمجاهدين؛ ليشاركهم معاناتهم.

والصنف الثاني الذين تخلفوا عن الرسول صلى الله عليه وآله هم الذين نزلت فيهم هذه الآية، يقول المؤرخون: هذه الآية المتقدمة (نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وذلك أنّهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توانٍ، ثم ندموا.

فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة، جاءوا إليه، واعتذروا، فلم يكلمهم النبي صلى الله عليه وآله، وتقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلن له: يا رسول الله، نعتزلهم؟ فقال: لا، ولكن لا يقربوكنَّ، فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام، ولا يكلمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس، ولا يكلمنا أحد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً، فتفرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى الله تعالى،

(١) مجمع البيان: ١٢٠/٥.

ويتوبون إليه، فقبل الله تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية)[١].

وهكذا نجد في كلّ زمان مع الأئمة الأطهار عليهم السلام من يتفانى في الطاعة، والتضحية، والفداء، ومنهم من يتقاعس، ويبرّر تقاعسه مع إيمانه بعدالتهم، وأحقيتهم حبّاً في الدنيا، وما فيها من المال والأولاد... وهكذا تكرّر بأجلى صورة في خروج الحسين عليه السلام على طاغية عصره حيث انقسم الناس على أقسام عدة:

١- منهم المشفقون الذين توجهوا إلى الحسين عليه السلام بالنصح له بترك المسير كمحمد بن الحنفية رضي الله عنه الذي أشار عليه بالتنحّي عن بيعة يزيد، والفرار إلى المناطق البعيدة، ومراسلة الناس وتحريكهم؛ ليتخلص من بطش جيشه، إلا أنّ الحسين عليه السلام قال له بقوّة: «يا أخي، لو لم يكن في الدنيا ملجأ، ولا مأوى لما بايعت والله يزيد بن معاوية أبداً»، ثم قال عليه السلام: «جزاك الله يا أخي عنّي خيراً، ولقد نصحت، وأشرت بالصواب، وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفّقاً ومسدّداً، وإنّي قد عزمت على الخروج إلى مكة، وقد تهيأت لذلك أنا، وأخوتي، وبنو إخوتي، وشيعتي أمرهم أمري، ورأيهم رأيي، وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة، فتكون لي عيناً عليهم، ولا تخفِ عنّي شيئاً من أمورهم»[٢].

ومن المشفقين عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس، والمسور بن مخزمة، وجابر الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، وأم سلمة.

٢- المندّدون بخروج الحسين عليه السلام: وهؤلاء كانوا من الموالين لبني أمية على الأغلب أو من ذوي الهمم الهابطة الذين يطلبون الدنيا بالدين، ومن هؤلاء

(١) مجمع البيان: ١٢٠/٥.

(٢) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٢١/٥.

عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي صرّح قائلاً: «غلبنا حسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، فرأى من الفتنة، وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له أن لا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإنّ الجماعة خير»[١].

ثم راح إلى الحسين عليه السلام ، وأخذ يحذره من القتل والقتال، فكان رد الحسين عليه السلام عليه مفحماً منطلقاً من منطق الرسالة، فقال عليه السلام: «يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله تعالى أنّ رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل...»[٢].

والحسين عليه السلام هنا أراد أن يقول له: إنّه وارث خط الأنبياء، وإنّه سائر على نهجهم، ولا يمكن أن يحيد عنهم بأيّ حال حتى لو ضحّى بكلّ غالٍ ونفيس.

ومن المندّدين سعيد بن المسيب الذي قال: «لو أنَّ حسيناً لم يخرج لكان خيراً له»[٣].

ومنهم أبو سلمة الذي قال: «وقد كان ينبغي لحسين أن يعرف أهل العراق، ولا يخرج إليهم ولكن شجعه على ذلك ابن الزبير»[٤].

ومنهم عمرة بنت عبد الرحمن وكانت من الموالين لبني أمية، فأخذت تذكّر الإمام عليه السلام بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله عن عائشة أنّه قال: «يقتل الحسين بأرض بابل»، وما أن وصلت رسالتها للحسين عليه السلام قال: «فلا بد إذاً من مصرعي»،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٧٥/٨.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٠٢ .

(٣) البداية والنهاية: ١٧٦/٨ .

(٤) المصدر نفسه.

ومضى[١].

وهؤلاء المندّدون بخروج الحسين عليه السلام لم يعوا الواقع الذي وصلت إليه الرسالة الإسلامية وما فيه من الخطر المحدق بها... ولم يتحسسوا المسؤولية الشرعية في إنقاذ الرسالة من مخالب النفاق الأموي، وإنّما نظروا من زاوية المنفعة الدنيوية، وطمعاً في زخارف الدنيا التي سيطر عليها بنو أمية...

والقسم الثالث هم المتخلّفون، وهم كثيرون، وقد كان الإمام عليه السلام يناشد كلّ من يلتقيه، ويدعوه إلى النصرة، ويذكرّه بخطر بني أمية على الإسلام، إلا أنّ كثيراً منهم لم يستجب، ومن هؤلاء عبيد الله بن الحر، وقد تقدّمت قصّته، فراجع.

ولكن نقول: هكذا يفعل حبّ الدنيا بالرجل رغم علمه بأنّ الحسين عليه السلام على الحقّ، وأنّ الناصر له سعيد بالآخرة، ورغم علمه بضلال بني أمية إلا أنّه لم تطاوعه نفسه، فآثر الدنيا على الآخرة بعد أن صار على أعتاب الجنة، وفي ذلك من العبرة ما لا تعيه إلا القلوب الزكية؛ ولذا بعد ذلك ندم ابن الحر، وراح يتحسر على فوات تلك الفرصة إلا أنّ ذلك لم يفده شيئاً.

وهناك صنف آخر من الناس ممن يُوقِف نصرته على شروط، ومن هؤلاء الضحّاك المشرقيّ، فقد وفد هو ومالك بن النضر الأرحبيّ على الحسين عليه السلام بعد وصوله إلى كربلاء، فرحّب بهما، وسألهما عما جاء بهما، فقالا: «جئنا لنسلّم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونحدِثَ بك عهداً، ونخبرك خبر الناس، وإنّا نحدّثك أنهم قد جمعوا على حربك فرَ رأيك».

فقال الحسين عليه السلام: «حسبي الله ونعم الوكيل».

---

(١) البداية والنهاية: ١٧٦/٨ .

قال الضحّاك: «فتذممنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله له»، فقال عليه السلام: «فما يمنعكما من نصرتي؟»، فقال مالك بن النضر: «عليَّ دين، ولي عيال»، ثم قال الضحاك: «إنّ عليَّ ديناً وإنّ لي لعيالاً، ولكنك إن جعلتني في حِلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً، وعنك دافعاً»، فقال عليه السلام: «فأنت في حلّ»[1].

وقاتل مع الحسين عليه السلام، وأبلى بلاءً حسناً في القتال، وكان الحسين عليه السلام يدعو له، ولكنّه لم يستمرّ على النصرة حين رأى أنّ أغلب أصحاب الحسين عليه السلام قد استشهدوا، وأنّ البقية مقتولون لا محال، فلم تطاوعه نفسه بالاستمرار، ورجع إلى الحسين عليه السلام، وقال: «يا ابن رسول الله، قد علمتَ ما كان بيني وبينك، قلتُ لك: أقاتل عنك ما رأيتُ مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً، فأنا في حلّ من الانصراف، فقلتَ لي: نعم»، فقال الحسين عليه السلام: «صدقتَ، وكيف لك بالنّجاء؟ إن قَدَرْتَ على ذلك فأنت في حلّ».

قال: «فأقبلتُ إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيلَ أصحابنا تُعْقَر، أقبلتُ بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً، فقتلت يومئذٍ بين يدي الحسين عليه السلام رجلين، وقطعت يد آخر، وقال لي الحسين عليه السلام يومئذ مراراً: لا تُشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله، فلما أذن لي استخرجتُ الفرس من الفسطاط، ثم استويتُ على متنها، ثم ضربتُها حتى إذا قامت على السنابك رميتُ بها عُرْضَ القوم، فأفرجوا لي، واتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتى انتهيتُ إلى (شُفَيَّة)، قرية قريبة من

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٨-٤١٩.

شاطئ الفرات، فلما لحقوني عطفتُ عليهم، فعرفني كثير بن عبد الله الشّعبيّ، وأيوب بن مِشْرَح الخيوانيّ، وقيس بن عبد الله الصائديّ، فقالوا: هذا الضحاك بن عبد الله المشرقيّ، هذا ابن عمّنا، ننشدكم الله لما كففتم عنه، فقال ثلاثة نفر من بني تميم كانوا معهم: بلى والله لنجيبنّ إخواننا، وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكفّ عن صاحبهم، قال: فلما تابع التميميون أصحابي كفّ الآخرون، قال: فنجّاني الله»[1].

ومن خلال وقفة تأمّل في موقف الضحاك هذا نفهم:

١- إنّه وابن عمه كانا عارفين بموقع الحسين عليه السلام وفضله، ودوره في الإسلام، وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢- إنّ الحسين عليه السلام دعاهما إلى نصرته من خلال قوله: «ما يمنعكما من نصرتي؟» ليثبت الحجة عليهما.

٣- تحجج ابن عمه بوجود العيال والديون، وهو في الوقت نفسه ينظر إلى الحسين عليه السلام قد حمل معه أشرف عائلة على وجه البسيطة معه، ويعلم أنّه ضحّى بهم، بل نفس خروج الحسين عليه السلام بنفسه وعياله دعوة للاستنصار حتى لو لم يدعُهما.

ويبدو أنّ حب المال والأولاد سيطر عليهما، فلم تطاوعهم أنفسهما لنصرة الحسين عليه السلام فهما قدّما الدنيا الزائلة على الآخرة الباقية.

٤- أما موقف الضحاك فرغم قناعته بأحقيّة موقف الحسين عليه السلام إلا أنّه وضع شرطاً لنصرته له، وهو أن يقاتل معه إلى مدّة زمنية محدودة بحيث يبقى

(١) تاريخ الطبري: ٤٤٤/٥-٤٤٥، ومعالم المدرستين للسيد العسكري: ١١٧/٣.

معه مقاتلون، وقتاله ينفعه، أي إنّه يقول له: إذا قاتلت معك إلى حد أن أقتل فما الفائدة في قتالي، وهو موقف من لم ترتفع همّته إلى مستوى التضحية، والفداء؛ ولذا تركه، وانصرف في اللحظات الأخيرة.

وهكذا يبقى أهل الدنيا يوازنون بين مصلحة الدين والدنيا، وغالباً ما تغلب مصلحة الدنيا من خلال التبرير، أو التراجع، أو القعود، والإحباط.

أما حين تنتصر مصلحة الإسلام في النفس على مصلحة الدنيا فإنّ الإنسان يتخلّى عن كلّ شيء، ويذوب في رسالته، ويثور على نفسه، فيحطّم كلّ ما يعيق مسيرته إلى الله.

بَيْنَ الضَّحّاكِ وَزُهَيْرِ بنِ الْقَيْنِ:

وهنا وجه آخر وصورة أخرى تعكس الفرق بين زهير بن القين والضحاك المشرقي.

لقد كان الضحاك من شيعة الحسين عليه السلام قصده بنفسه؛ ليسلم عليه ويودّعه، ولما دعاه الحسين عليه السلام لنصرته لم يعطِ كلّ شيء، إنّما أعطى شيئاً محدوداً، أو مشروطاً، وازن بين دينه ودنياه، وفي آخر أمره رجّح دنياه على دينه، وفرَّ من الزحف مع وجود الحسين عليه السلام، فلم يستطع أن يواصل السير؛ لأنَّ الأمر ثقيل على نفسه، فلم تطاوعه أن يموت بين يدي الحسين عليه السلام، ويفوز بنعيم الأبد؛ والسرُّ في ذلك هو حبُّ الدنيا.

(ولا يطلب الحسين عليه السلام أمثال الضحّاك في حركته هذه، وإنّما يطلب لنصرته أولئك الذين يبذلون كلّ ما عندهم من الأنفس والأموال لله تعالى، من دون حساب وشروط، وحدود وقيود، فقد خطب في الناس لمّا أراد الخروج من

مكّة إلى العراق)[١]، وقال: «من كان باذلاً فينا مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢].

هذا هو موقف الضحاك!

أما موقف زهير بن القين؛ فإنّنا نجد أنّ زهيراً كان في كلّ مراحل حياته مخالفاً للنهج العلوي؛ فقد كان عثمانيّ الهوى... وكان يحاول أن لا يلتقي مع الحسين عليه السلام في طول الطريق بين مكّة والعراق، فلا ينزل في المكان الذي نزل فيه الحسين عليه السلام... إلا أنّه في الساعات الأخيرة حين يدعوه الحسين عليه السلام، ويلتقيه في واقعة معروفة، ولا ندري كم دام اللقاء القصير حيث قلب مجرى حياته، وحوّله من المنهج الأموي إلى المنهج العلوي مع أنّ الظروف المحيطة به والتي كان يعيشها منعّماً مرفّهاً، ووجيهاً معروفاً في بلده، بل كان زعيماً في قومه... وكان له عيال، ومال، ودنيا عريضة، إلا أنّه خلال لحظات ترك كلّ ذلك، وتجرَّدَ من الدنيا، وارتفع إلى مستوى المسؤولية؛ ولذا ما إن رجع من لقائه مع الحسين عليه السلام إلا وصرّح لزوجته قائلاً: «أنت طالق، فإنّي لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خير، وقد عزمت على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بروحي وأقيه بنفسي»، ثم قال لمن معه بقوّة وعزم وبصيرة: «من أحبّ منكم أن يصحبني، وإلا فهو آخر العهد مني به»[٣].

ونحن نلحظ كيف انتفض على نفسه، وتجرّد عن كلّ ما في الدنيا، وأقبل على التضحية والفداء، وواصل تصميمه إلى آخر لحظة من حياته، وكلّه عزيمة

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، في رحاب عاشوراء: ٣٠٨/٢.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦-١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٣.

وصبر، ومضاء على بصيرة من أمره، فقد قال للحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء بعد أن خطب فيهم، وأذن لهم بالانصراف والخلاص بأنفسهم: «لقد سمعنا هدانا الله بك يا ابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنّا فيها مخلدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها»[1].

وحين أكّد لهم الحسين عليه السلام إذنه لهم بالانصراف عنه، وتَرْكه يواجه القوم بنفسه قال زهير: «والله يا ابن رسول الله، لوددتُ أنّي قتلتُ، ثم نشرتُ ألف مرّة، وأنَّ الله يدفع بذلك القتل عنك، وعن هؤلاء الفتية من إخوتك وولدك وأهل بيتك»[2].

هذا موقف وذاك موقف، وشتّان ما بين الموقفين بين الإيمان المتزلزل، والعطاء المشروط، وبين الإيمان الكامل، والبذل غير المحدود بالغالي والنفيس، «والجود بالنفس أقصى غاية الجود»، وهذه الصورة تتجدّد في كلّ زمان... وقد رأينا في عصرنا من حمل رسالة الإسلام، ودعا إليها، وأجهد نفسه لوعيها، وحفظها، والدفاع عنها، فلما اشتدّت المحن انهار وتراجع، كما رأينا العكس على آخرين ممن عاشوا حياة الانحراف والمجون، ولما اشتدّت المحنة على المؤمنين هداهم الله إلى نصرة دينه، فأحسن عواقبهم في آخر أمرهم..

اللهم أحسن عواقبنا، واختم حياتي على ملّتك ونهج رسولك وآل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٣.

كَيْفَ نَتَواصَلُ مَعَ

ثَوْرَةِ الحُسَيْنِ عليه السلام ؟

أقصد بالتواصل مع ثورة الحسين عليه السلام أن نعيشها رسالةً في الحياة، فكراً، وروحاً، وحركةً في كلّ أبعادها الرسالية في أصالتها، وأحقيّتها، وأهدافها، ووسائلها، وتضحياتها، ونتائجها...

ولكي نقف على التواصل الحقيقي لا بدّ أن نستعرض أولاً أنواع التواصل القائم فعلاً في حاضرنا، وما جرت عليه الأمة في إحياء مراسم عاشوراء، وهي على أصناف مختلفة الأساليب:

١- هناك من يتواصل مع ثورة الحسين عليه السلام على مستوى العواطف، وعلى هذا أغلب الناس، فترى هؤلاء يفتعل البكاء، أو التباكي على الأقل، ومستند هذا ما ورد من الثواب في البكاء على الحسين عليه السلام، ولا ضير في ذلك إذا كان عن وعي وصدق بدون تلمّس الأخبار الموضوعة والأقاصيص التي ابتدعها ممتهنو النوح على الحسين عليه السلام استدراراً للدموع، وإرضاءً لعوام الناس، ومع شديد الأسف أنّنا نجد كثيراً من الأخبار غير صحيحة، والتي تجعل الحسين عليه السلام وأهل بيته في موقف الضعيف المتوسل الذي يستعطف الناس في جلب الماء وغيره[1]...

وهذا الصنف من المتواصلين مع الحسين عليه السلام يعيشون مع الحسين عليه السلام

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الملحمة الحسينية للشهيد الشيخ مرتضى مطهري.

بهذا المستوى الساذج في أيام عاشوراء، أو في ظرف إقامة المجالس، ويهتمّ هؤلاء بالشكليات كلبس السواد، ورفع الأعلام، وإقامة المجالس المثيرة كاللطم[1] وغيره، ولا يتعدّى ذلك... ويعدّ هذا كلّ ما في الأمر... فإذا خرج عن إطار المجلس أو أيام عاشوراء تجده يخالف الحسين عليه السلام في أقواله وأفعاله، شكلاً ومضموناً...

٢- وهناك من يعيش الجانب الفكري الجاف الذي يتعامل مع واقعة كربلاء كواقعة تاريخية حَرَّية بالتأمل والدراسة كأيّ حادثة تاريخية أخرى، ويتحدّث بأسلوب استعراضي جاف لا يثير العاطفة، فترى أحاديثه لا تولّد الحماس والثورة في نفوس سامعيه، ولا تترك أثراً إيجابياً فيها.

٣- وهناك من يعيش الحسين عليه السلام فكراً وعاطفاً وسلوكاً؛ يتأسّى بالحسين في توعية الناس، ويطرح ثورة الحسين عليه السلام كمشروع حضاري؛ لتغيير الأمة في إثارة الغيرة الإيمانية من خلال طرح المفاهيم الإسلامية الحقّة التي جسّدها سيد الشهداء في ثورته، ويبكي الحسين عليه السلام بكاء البطل، ويثير في النفوس الحماس الثوري، ويبعث في الأمة روح التضحية والفداء لأجل الإسلام، ويصوّر الحسينَ عليه السلام إسلاماً متجسّداً في الواقع، فيتخلق بأخلاقه بما يستطيع؛ ليحرّك الفكر، ويثير العاطفة، ويلتزم بآداب البحث عن أهداف، ومبادئ وأساليب الثورة في النهج الحسيني.

وبدون شك أنّ الصنف الثالث هو الذي يريده الإسلام، ولعلّ هذا هو المقصود بحديث أبي الصلت الهروي قال: «سمعت أبا الحسن علي بن موسى

(١) أرجو أن لا يفهم من هذا أنّني أستنكر ذلك، وإنّما أقصد أنّنا يجب أن نجعل هذه الأمور وسائل شعارية لا غايات بذاتها.

الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا، فقلت له: وكيف يُحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا، ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[1].

وهذا لا يتحقّق إلا لمن وعى الإسلام رسالة ومنهج حياة لا شعارات فارغة المحتوى، ومراسم وقتية، وطقوس شكلية؛ فمن لا يفهم الإسلام لا يمكن أن يفهم الحسين عليه السلام بحال؛ ولذا فإنّ كثيرين من الذين ندّدوا بحركة الحسين عليه السلام قديماً وحديثاً نظروا نظرة سطحية إلى خروجه المبارك، وعدّوا خروجه مجازفة انتحارية لم تحقّقْ شيئاً سوى أنّه أوقع نفسه بكارثة دموية رهيبة... ولو أنّهم نظروا إلى ثورة الحسين عليه السلام من خلال منطلقها الأساسي وهو إنقاذ الإسلام من مخالب بني أمية، وفصله عن تيّارهم السياسي الحاكم لما أطلقوا كلماتهم الجوفاء: «إنّ الحسين عليه السلام قتل بسيف جدِّه»...

أمّا كيف يتواصل الإنسان مع ثورة الحسين عليه السلام، وما هي الشروط اللازمة في المواصل؛ فيمكن ذكرها بنقاط:

١- وعي رسالة الإسلام عقيدةً، ورسالةً، ومنهجَ حياة، ودستورَ نظام... فمن لا يعي الإسلام حركةً لتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم لا يمكن أن يفهم ثورة الحسين عليه السلام فضلاً عن الإيمان بها...

٢- معرفة موقع الحسين عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ ما ورد في فضائله من الأخبار الكثيرة المتواترة بأنّ الحسن والحسين عليهما السلام إمامان قاما أو قعدا، وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، إضافة إلى بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يزل الحسين عليه السلام طفلاً صغيراً... وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يذكر كلّ ذلك، ويؤكّد عليه مراراً،

(١) الصدوق، معاني الأخبار: ١٨٠، وبحار الأنوار: ٣٠/٢.

وتكراراً لحب عاطفي أو لقربه منه، وإنّما لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بأهمية دوره في مستقبل الإسلام.

٣- دراسة ووعي ثورة الحسين عليه السلام من حيث ظروفها الاجتماعية والسياسية، وأهدافها الرسالية، ووسائلها الصعبة من خلال التضحية الجبارة التي أقدم عليها، ونتائجها العظيمة، والتي أطاحت بدولة بني أمية بعد مدّة لا تتعدّى جيلاً من الناس، وأعادت للأمّة حيويتها، وكشفت لها خط النفاق المغلّف بثوب الإسلام، وبدون شكّ أنَّ الإنسان إذا لم يعِ التخطيط الحسيني على المدى البعيد، ولم يفهم الظروف المحيطة به آنذاك لا يمكن أن يواصل مسيرته مع ثورة الحسين عليه السلام.

٤- من أراد أن يتواصل مع الحسين عليه السلام في ثورته، فعليه أن يتخذه أسوةً، وقدوةً، ومعلماً، وهادياً إلى الله تعالى[١].

٥- ثم لا بد لمن يواصل السير في نهج الحسين عليه السلام أن يعي أنَّ الحسين عليه السلام امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّه وارثه، بل وارث جميع الأنبياء كما ورد في زيارة وارث، وهذا الامتداد هو الذي أعطى كلّ هذه القوة الروحية للحسين عليه السلام، وجعله يقدم على تلك التضحية التي أصبحت محرّكة لعجلة التأريخ البشري حتى تأسّى به المسلمون وغير المسلمين أيضاً؛ لما تمثّل في نهضته من أبعاد إنسانية: أخلاقية، وفكرية، وحركية... جسّدت كلّ المثل الإنسانية في أحرج ساعات مرّت على الحسين عليه السلام وأهله؛ ولهذا أصبح مُعَلّماً للأجيال على طول خط التأريخ...

---

(١) راجع الفصل الثامن، بحث «كيف نتأسى بالحسين عليه السلام».

الخِياراتُ المَطْروحَةُ

أمامَ الحُسَيْنِ عليه السلام

لقد كان التخطيط الأموي يُنَفّذ بدقّة متناهية لدفن الإسلام ونبي الإسلام، بأسلوب محكم سُخّرَتْ له كلّ أجهزة الدولة بكلّ ما تملك من قدرات اقتصادية، وإعلامية، وسياسية، وكانت عرى الإسلام تنقض واحدة بعد أخرى على مرأى ومسمع من جميع الناس.

فعلى مستوى حكم الولايات كانت رؤوس النفاق هي التي تمارس الحكم والتحكّم في رقاب المسلمين، ومن هؤلاء الأمراء: مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي سرح، وسمرة بن جندب، وزياد بن أبيه، ووَلده عبيد الله بن زياد... وجميع هؤلاء اعتمدوا الإرهاب والبطش والتصفية لكلّ عنصر يحمل الإسلام بصورته الصحيحة.

وعلى المستوى الاقتصادي فقد استأثر الحكّام الأمويون وولاتهم بأموال المسلمين يحرمون من يشاؤون، ويعطون من يشاؤون... ويسلبون أموال من يشاؤون، ويجمعون الأموال ويحوزونها لأنفسهم حتى خلف عمرو بن العاص ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف دينار من الذهب، ومن الفضة ألف درهم، وغلّة بمائتي ألف دينار بمصر، وضيعة تعرف بـ(الوهط) قيمتها ألف ألف درهم.

وكانوا يسلبون كلّ هذه الأموال تحت عنوان: «**السّواد بستان لقريش**»، وضمن قاعدة معاوية المبتدعة: «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله

فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي»[١].

وأما سياسة البطش والإرهاب؛ فقد أمر معاوية بقتل كلّ موالٍ لأهل البيت عليهم السلام، وقتل كثيرين من حملة رسالة الله تعالى كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق... وأما زياد فقد تتبّع الشيعة في كلّ مكان، فكانوا بين مقتول ومشرّد ومسجون.

وسار ولاة معاوية ويزيد على سياستهما، فهذا عتبة بن أبي سفيان يخاطب المصريين في آخر خطاب له: «يا أهل مصر، إيّاكم أن تكونوا للسيف حصيداً، فإن لله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يوليَني نسكه... فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق بإحياء الفتنة، وإماتة السّنن، فأطأكم لله وطأة لا رمق معها حتى تنكروا ما كنتم تعرفون، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون»[٢].

ويقول خالد القسري في مكة: «... فإنّي والله ما أوتَى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبتُه في الحرم»[٣].

ويقول الوليد بن يزيد[٤]: [من الوافر]

فدع عنك ادِّكارَك آل سُعدى ... فنحن الأكثرون حصًى ومالا
ونحن المالكون الناسَ قسراً ... نسومهم المذلّة والنّكالا
ونوردهم حياض الخسف ذُلاً ... وما نألوهُمُ إلا خَبالا

وخطب عبد الملك بن مروان في المدينة، فقال: «ألا وإنّي لا أداوي هذه

(١) المسعودي، مروج الذهب: ٥٣/٣ ، وحياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي: ١٣٤/٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١٩٢/٤ ، وحياة الإمام الحسين عليه السلام: ١٣٩/٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٦٤/٦ .

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال: ٣٤٨.

الأمّة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتُكم، وإنّكم تحفظّوننا أعمال المهاجرين الأوّلين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنّكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربتُ عنقه»[١].

وكان معاوية يستعمل شتى أساليب الغدر ويقول: «**لله جنود من عسل**»، بل كان يخادع الناس، ومن أمثال ذلك لما دسَّ السم إلى مالك الأشتر رحمه الله مبعوث الإمام علي عليه السلام إلى مصر كان يقول لأهل الشام: «إنّ علياً وجّه الأشتر إلى مصر، فادعوا اللهَ أن يكفيكموه»، وكان أهل الشام يدعون عليه في كلّ صلاة، ولما أخبر نبأ موته أخبر أهل الشام بأنّ موته نتيجة دعائهم؛ لأنهم حزب الله، ثم همس في أذن ابن العاص: «إنّ لله جنوداً من عسل»[٢].

ومن أساليب الأمويين إشاعة الخلاعة والمجون في البلاد الإسلامية، ونشر المفاسد الأخلاقية كي يبتعد الناس عن الإسلام، يقول ابن أبي الحديد في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام في معاوية «ظاهر غيّه»: «فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيه، وكلُّ باغٍ غاوٍ، أمّا مهتوك ستره، فإنّه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جلساء وسمّار، ومعاوية لم يتوقّر، ولم يلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين، واحتاج إلى الناموس والسكينة، وإلا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتّك، موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيّام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنّه كان يلبس الحرير والدّيباج، ويشرب في آنية الذهب والفضّة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها، وعليها جِلال الديباج والوَشْي، وكان حينئذٍ شاباً، وعنده نزق الصّبا، وأثر الشبيبة، وسكر السلطان والإمرة، ونقل الناس عنه في

(١) ابن الأثير، الكامل في التأريخ: ٣٩١/٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٩٦/٥، وحياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي: ١٤١/٢.

كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام»[١].

وكان ولده يزيد خليعاً مستهتراً، يقول الجاحظ: «وكان من ملوك الإسلام، من يُدْمِنُ على شُربه، يزيد بن معاوية، وكان لا يُمْسي إلا سكران، ولا يُصبح إلا مخموراً. وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كلّ شهر مرة حتى لا يَعْقِل في السماء هو أو في الماء»، وعلى هذا كان هشام، وسليمان، ويزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد، قال الجاحظ: «وكان يزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشرب، فأمّا يزيد بن الوليد، فكان دهرَه بين حالين، بين سُكرٍ وخمار، ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين»[٢].

حتى وصل الاستهتار والاستهانة بأقدس المقدّسات، يقول الطبري: «ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الشراب، حمله على ذلك - فيما حدثني أحمد بن زهير، عن علي بن محمد، عن جويرية بن أسماء، وإسحاق بن أيوب، وعامر بن الأسود وغيرهم: - عبد الصمد بن عبد الأعلى الشباني أخو عبد الله بن عبد الأعلى - وكان مؤدّب الوليد- واتّخذ الوليد ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحجَّ سنة تسع وعشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط منها صندوق - فيما ذكر علي بن محمد عمن سمّيتُ من شيوخه - عن البعير، وفيه كلب، فأجالوا على الكريّ السّياط، فأوجعوه ضرباً، وحمل معه قبّة عملها على قدر الكعبة؛ ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبّة على الكعبة، ويجلس فيها، فخوّفه أصحابه، وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا معك،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/١٦٠-١٦١ .

(٢) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك: ١٤٩-١٥٠.

فلم يحركها، وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف»[١].

ومن أخطر الأساليب: إشاعة المجون في الحرمين للقضاء على قدسيّتهما؛ فاستأجروا طوائف من الشعراء والمخنّثين من بينهم عمر بن ربيعة وغيره، يقول الأصمعي: «دخلت المدينة فما وجدت إلا المخنثين، ورجلاً يضع الأخبار والطِرف»[٢]، (وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها، ويشارك فيها، وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الإسلام)[٣].

وهكذا أشاعوا الفساد والتحلّل الأخلاقي بعد أن استخفّوا بكلّ القيم الدينيّة؛ فقد قيل لمعاوية بعد تسلّطه على رقاب المسلمين: «لو سكنت المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر رسول الله صلى الله عليه وآله»، فقال: «قد ظللت إذاً وما أنا من المهتدين»[٤]، وهكذا سار على نهجه ولاة بني أميّة.

روى المدائني عن ابن جُعْدُبة، قال: «جرى بين يحيى بن الحكم بن أبي العاص، وبين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كلامٌ، فقال له يحيى: كيف تركت الخبيثة؟ - يعنى المدينة!!!- قال عبد الله: سمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله طيبة وتسميها خبيثة؟! قد اختلفتما في الدنيا، وستختلفان في الآخرة. فقال: والله لئن أموت وأدفن بالشام الأرض المقدسة، أحب إليَّ من أن أدفن بها!! فقال عبد الله: اخترت مجاورة اليهود، والنصارى على مجاورة رسول الله صلى الله عليه وآله والمهاجرين

(١) تاريخ الطبري: ٢٠٩/٧.

(٢) ينظر: الإمام الحسين عليه السلام للعلايلي: ٢٦-٢٧.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ١٤٧/٢.

(٤) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ١٦٥/٢.

والأنصار»[1].

والأسلوب الأخطر هو تحريف الحقائق والمفاهيم والأحكام الإسلامية من خلال وضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد سخّروا لذلك عدداً كبيراً كأبي هريرة، وسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ووضعوا آلاف الأحاديث بدّلوا فيها العقائد والمفاهيم.

كلّ ذلك كان يجري بإحكام، وكان له تأثير بالغ الخطورة حيث خدّر الأمة، وقتل فيها الشعور بالمسؤولية، وأصبحت جثّة هامدة لا تنكر ظلماً، ولا تردع ظالماً، ولا تأمر بمعروف، ولا تنهى عن منكر، حتى صار أمر تحريكها شبه المستحيل، بل لا تستيقظ إذا لم تصبْها صعقةٌ قويّةٌ تهزّ مشاعرها، وتنفض عنها غبار الغفلة، وهكذا لم يعد نصحٌ ينفع ولا وعظ... وسادت نظرية طاعة ولي الأمر حتى لو كان أفسق خلق الله تعالى...

ماذا يفعل الحسين عليه السلام أمام هذا الواقع الخطير الذي أصبح يهدّد باجتثاث جذور الإسلام... لقد كان أمام الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة خيارات وهي:

١- أن يبايع يزيد، ويطيعه ويمشي بركابه، وبذلك يمضي القضاء على الإسلام، أو على أقلّ تقدير يقرّر الانحراف والتحريف الذي وقع، وبذلك يَسلم بدمه ونفسه، وهذا أمر مستحيل أن يقبله الحسين عليه السلام لنفسه، وهو الذي اختاره الله وصيّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأميناً على رسالته.

٢- أن يفرّ إلى أحد البلدان النائية، ويبتعد عن حكومة بني أمية كما أشار عليه بعض المشفقين بأن يلحق بالرمال، وشعب الجبال، أو يخرج من بلده إلى بلدٍ آخر، وينظر إلى ما يصير عليه أمر الناس... إلا أنّ الحسين عليه السلام ردّ هذا

(١) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف: ٣٠٥/٢-٣٠٦.

الرأي؛ لأنّه كان يعلم بأنّه حتى لو اعتزل الناس، ولم يبايع، وقعد في بيته لما تركه بنو أمية وشأنه، وإنّما سيحتالون لقتله بمختلف الأساليب، وقد صرّح في بعض كلماته: «وأيم الله لو كنت في جحر هامّة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله لَيَعْتَدُنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت»[١].

وقد تواترت الأخبار على أنَّ حكومة يزيد أصدرت أمراً لقتل الحسين عليه السلام غيلة أو صراحة، وقد كشف ذلك لأخيه ابن الحنفية حين اقترح عليه الإقامة في مكّة، فقال: «يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت»، فقال له ابن الحنفية: «فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن، أو بعض نواحي البرّ؛ فإنّك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد»، فقال عليه السلام: «أنظر فيما قلت»[٢].

وهذا المعنى نفسه قاله لعبد الله بن عمر حين قال له: «فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك»، فقال الحسين عليه السلام: «هيهات يا ابن عمر، إنّ القوم لا يتركوني وإن أصابوني، وإن لم يصيبوني فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره، أو يقتلوني، أما تعلم يا عبد الله، أنّ من هوان هذه الدنيا على الله تعالى أنّه أتي برأس يحيى بن زكريا عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل، والرأس ينطق بالحجة عليهم؟!)[٣].

كما وردت للحسين عليه السلام أخبار: «أنّ يزيد دسَّ مع الحاج في تلك السنة ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية، وأمرهم بقتل الحسين عليه السلام على أيّ حال

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٥.

(٢) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨ .

(٣) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٢٥/٥ .

اتفق»[١]، والحسين عليه السلام لا يريد أن تنتهك حرمة بيت الله الحرام بقتله فيه كما صرح لعبد الله بن الزبير وغيره.

٣- أن يخرج على حكومة بني أمية، ويستشهد هو وأصحابه وأهل بيته، وهذا هو الخيار الوحيد الذي ينقذ به الإسلام من التحريف والانقراض، والأمة من الانحراف، ويبدو من بعض النصوص التي صرّح بها أنّه عليه السلام توقّع ذلك كما في خطابه عليه السلام في مكّة: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى اشتياق أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها ذئاب الفلوات...»[٢].

فلم يكن هناك خيار أنجح من هذا الخيار الصعب الذي سيعيد للأمّة حيويتها، ويحرّك الضمائر، وينفض غبار الغفلة عن بصيرة الأمة، ويكشف الزيف الديني الذي تلبّس به بنو أمية، ويوقف الانحدار الديني للمجتمع الذي خطَّط له معاوية لدفن الإسلام، ويؤسس للبشرية نظرية الثورة على الظلم والظالمين إلى يوم القيامة بعد أن حاول التخطيط الأموي محوها من القاموس الإسلامي، وبهذا (لم يكن يهمّه أن يكون هو الضحية، ما دام سيحفظ بذلك الأسس التي تجعل من هذه الخلافة مشروعاً قائماً ومستمراً) إلى يوم القيامة يتحدّى الظالمين على طول خط التأريخ الرسالي... وبهذا الاستشهاد العظيم نسف كلّ الأسس التي بناها خطَّ النفاق، وأوجد خطّين متصارعين على طول خط التأريخ: خط التوحيد الخالص الذي ثبّت دعائمه، وأعاد الحقّ إلى نصابه، وخطّ الشرك المغلّف بالإيمان الذي تبّناه خصومه.

---

(١) السيد الأمين، لواعج الأشجان: ٦٩.

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٦.

أَخْلاقِيَّةُ المُعَسْكَرِينَ

لقد برزت في ميدان الطفّ، وتجلّت كالشّمس في رائعة النهار، أخلاقيّتان؛ أخلاقية الإسلام، وأخلاقية الجاهلية المتلبّسة بثوب الإسلام، والمتستّرة تحت عنوانه، ومن دون شك أنّ الحسين عليه السلام أراد أن يكشف تلك الأخلاقيّتين؛ ولأجل بيان تلك الحقيقة لا بد أن ننظر في أخلاقيّة المعسكرين من حيث الحركة، والأهداف، والأساليب، والنتائج؛ وهذا يلزمنا أن نرجع إلى بداية تشكيل الجيشين:

ففي الخروج وتشكيل القوى المقاتلة: لما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من المدينة إلى مكّة، ثم إلى الكوفة، لم يجبر أحداً على الخروج معه، ولم يلح في ذلك على أحدٍ، ولم يُرَغّب أحداً في الدنيا، بل كل ما كان يفعله أنّه يدعو من يلتقيه إلى نصرته في منتهى الهدوء، والأدب، والصراحة؛ ليثبت الحجّة عليهم، فيقول مثلاً لعبد الله بن عمر بعد حوار طويل دار بينهما حين دعاه ابن عمر إلى بيعة يزيد أو القعود في منزله: «اتقِّ الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعن نصرتي»[1].

وحين خطب في مكّة كشف جرائم بني أمية، وحرمة طاعتهم، وحين دعا الناس إلى نصرته قال: «ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه،

---

(١) ابن نما، مثير الأحزان: ٤١.

فليرحل معنا، فإنّي راحلٌ مصبحا إن شاء الله»[١].

لقد كان الحسينُ عليه السلام يحشّد الناس ضدّ بني أميّة بهذا الأسلوب الواضح الصريح لم يوعد بدنيا، ولا مال، ولا جاه، ولا سلطان، وإنما ذكّر الناس بما أراد الله تعالى في نصرة الحق وإقامة دولته، وهذا ما لم نعرفه عند غيره، وغير جدّه وأبيه؛ فهو في هذا يسلك مسلك جدّه صلى الله عليه وآله حين سأله الأنصار عند العقبة: «فما لنا إذا فعلنا ذلك؟» قال: «الجنَّة»[٢]، وكان هذا نهجه عند كلّ من يلتقيه، وفي كلّ مراحل حركته المباركة من المدينة إلى كربلاء.

هذه هي أخلاقية الثورة عند الحسين وأبيه وجدِّه صلوات الله عليهما.

أمّا أخلاقية بني أمية في تجييش الناس لمواجهة الحسين عليه السلام؛ فقد اشتملت على الوعد، والوعيد، والخداع، والغدر، والمكر... كما تجلّى ذلك في استشارة يزيد لسرجون النصراني واقتراحه أن يرسل عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة إضافة إلى البصرة؛ لعلمه بقسوته، ووحشيّته، وبطشه، وأخذه الناس على الظنّة والتهمة؛ ولأنّه لا يتورّع عن أيّ جريمة مهما كانت؛ فلذلك استجاب له فوراً، وأمّر ابنَ زياد على الكوفة، وما أن تسلَّمَ ابنُ زياد أمرَ يزيد حتى خطب في أهل البصرة قائلاً: «أمّا بعد، فوالله ما تُقْرَن بي الصّعبة، ولا يُقعقَع لي بالشنآن، وإني لَنِكْلٌ لمن عاداني، وسمٌّ لمن حاربني، أنصف القارة من راماها. يا أهل البصرة، إنّ أمير المؤمنين ولاني الكوفة، وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفتُ عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتلنّه وعريفه ووليّه، ولآخذنّ الأدنى

(١) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ١٤٦/٣.

(٢) الطبري، ذخائر العقبى: ٣١٨.

بالأقصى حتى تستمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق...»[١].

وأقبل إلى الكوفة، وهنا برزت روح الخداع الخبيثة، وهو يخشى أن يسبقه الحسين عليه السلام إلى الكوفة فتنكَّرَ؛ ليوهم الناس أنّه الحسين عليه السلام، فلبس ثياباً يمانية، وعمامة سوداء، وتلثَّم؛ ليخدع الناس، فانطلت الخدعة عليهم بحيث كان (لا يمرّ على جماعة من الناس إلا سلّموا عليه، وقالوا: مرحباً بك يا ابن رسول الله، قَدِمْتَ خيرَ مَقْدَم، فرأى من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه، فقال مسلم بن عمرو لما أكثروا: تأخّروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد)[٢].

وما أن وصل الكوفة، وسيطر على قصر الإمارة صعد المنبر، وراح يرغب ويرهب قائلاً: «أما بعد، فإن أمير المؤمنين أصلحه الله، ولاني مصركم وثغركم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبّع فيكم أمرَه، ومنفّذ فيكم عهدَه، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالولد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليُبْقِ امرؤٌ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد»[٣]، وأخذ في اليوم الثاني يشدّد بعنف ويقول: «أما بعد، فإنّه لا يصلح هذا الأمر إلا في شدّة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأن آخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، والولي بالولي»[٤].

ولم يكتفِ بهذا، بل بثَّ العيون والجواسيس، وفتح بيت المال؛ ليبذله في

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٨/٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٨/٥-٣٥٩.

(٤) ابن أعثم، كتاب الفتوح: ٣٩/٥-٤٠.

شراء الضمائر لا سيّما أشراف الكوفة كما وصف هذه الحالة أحدهم للحسين عليه السلام قائلاً: «أمّا أشراف النّاس فقد أُعْظِمَتْ رِشْوَتُهم، ومُلئت غرائرُهم، يُستمال ودُّهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألبٌ واحدٌ عليك»[1]، وحشد أهل الكوفة بالرّشوة، والغدر، والخداع كما غدر بالقائد الفذّ هاني بن عروة رحمه الله بتلك السياسة الماكرة، والأخلاقية المنحدرة إلى الحضيض التي تمثَّلَتْ بها كلّ أنواع وحشيّة تعامل ابن زياد مع الحدث.

وإذا انتقلنا إلى الميدان الحسيني نجد أنّ الحسين عليه السلام جسَّد كلَّ الخلق الإلهي في تعامله مع الحدث؛ فتراه يعظ القوم، ويذكّرهم بالله، ويخوّفهم من عقابه، ويطمعهم بثوابه، ولم يكتفِ بذلك، بل تعامل مع جيش الحر -الذي جاء ليلقي القبض عليه -بأخلاقيّة لا نعرف لها مثيلاً في التأريخ؛ حيث وصل جيش الحر إليه والعطش يعصف به، وما أن رآهم الحسين عليه السلام حتى أمر أصحابه أن يسقوهم، ويرشّفوا الخيل ترشيفاً كما تقدم ذلك.

أرأيت قائداً يسقي جيش عدوّه الذي جاء ليوثقه، ويسوقه لجلاده، أو يقتله! وبمقابل هذا يمنع ابن زياد الماء على الأطفال والنساء حتى الرضيع تلك أخلاقية، وهذه أخلاقية، وشتّان ما بين الخلقين؛ فأخلاقيّة الجيش الأموي تمثَّلَتْ فيه أحطّ وأبشع أشكال الوحشية، ولا عجب من ذلك إذا عرفنا أنّ رجال الحسين عليه السلام ليس فيهم إلا القرّاء والعلماء والفقهاء من الذين تربّوا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام كحبيب بن مظاهر، وبرير بن خضير، ومسلم بن عوسجة، وعابس الشاكري، وأما في الجانب الآخر نجد الذين عاشوا في المستنقع الأموي

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٥/٥.

كالشمر، وشبث بن ربعي، وحرملة بن كاهل، يقول العقاد: «وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير.. وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطغمة من الناس، ونعني به مثال المسخاء المشوهين.. أولئك الذين تمتلئ صدورهم على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق، وحسن الأحدوثة، فإذا هم يفرغون حقدهم في عدائه، وإن لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة، فإذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف له حدود.. وشر هؤلاء جميعاً هم شمر بن ذي الجوشن، ومسلم بن عقبة، وعبيد الله بن زياد، ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد[1]»[2].

وقد أقدم هؤلاء على جرائم فظيعة، لا يمكن للإنسان أن يتصوّر أنّ الفاعلَ إنسانٌ يحمل ولو ذرّة من الإنسانية كمنع الماء عن الأطفال والنساء، وقتلهم، وسبيهم، ولم يسلم حتى الرضيع، وحرق الخيام، وقتل القرّاء، ومنع إقامة الصلاة، وقطع رؤوس الشهداء، ورفعها أمام عيون أهليهم من الأزواج والبنات والأخوات، وسحق أجساد الشهداء بمنظر من أهلها، تلك بعض أخلاقية جيش يزيد، وقد تجلّى فيها المحتوى الداخلي لهؤلاء، ومدى ما يحملونه من الحقد على القيم الإسلامية والإنسانية.

وأما أخلاقيّة جيش الحسين عليه السلام؛ فالرحمة لكلّ الناس حتى أعدائهم، وعدم التفريق بين شهداء معركته؛ فكان على حدّ سواء يقف عند كلّ شهيد، ويضع خدَّه على خدِّه، ويترحم عليه سواء كان كبيراً أو صغيراً، عبداً أو حراً؛

(١) ولكنّ الحقيقة أنّ عمرو بن سعد لم يكن كما وصف العقاد قريباً من مثالهم، وإنّما هو أسوأ منهم؛ لأنّه هو قائدهم الذي كان يصدر الأوامر لهم، وهم أدوات تنفيذ .

(٢) العقاد، المجموعة الكاملة: ٢٠٤/٢ ، من كتاب «الحسين أبو الشهداء».

تجلّى لنا ذلك عندما وقف على جسد غلام تركي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيضع خدَّه على خدِّه، ويحسُّ الغلام بالحسين عليه السلام إلى جانبه فيبتسم، وترتفع روحه إلى بارئها، ويتسامى الحسين عليه السلام فيعفو عمن حبسه وجعجع به ومنعه من الانصراف؛ الحر الرياحي رحمه الله حين يرجع إليه طالباً العفو والتوبة، فيقول له: «نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك»، ومنحه وساماً عظيماً حينما قال له: «أنت الحرُّ كما سمّتك أمّك. أنت الحرُّ في الدنيا والآخرة...»[1].

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام : ١٣/٢ .

جاذِبِيَّةُ الحُسَيْنِ عليه السلام

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾[1].

من العناصر الأساسيّة في شخصيّة القائدِ المؤمن الجاذبيّةُ، وهي سرٌّ من أسرار النفوس الكبيرة التي تتّسم بأبعاد روحيّة خاصّة، وفكريّة واسعة، وأفق اجتماعي بعيد، وهدفيّة بيّنة واضحة، وأخلاقيّة سامية تمنح المتحلّي بها هيبة تأخذ بمجامع القلوب، وبتعبيرٍ أدقّ: الجاذبية هي مغناطيسية القلوب، وسحر النفوس تنجذب إليها، وتتعلّق بها، وتنشدّ إليها انشداداً تلقائياً دون أن تكتنفها منفعة أو مصلحة.

وكانت هذه السمة بارزة في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث كانت هيبته تهيمن على الداخل عليه فيرتعد، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله له: «هَوِّنْ عليك، فإنّي لستُ بملك، إنّما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[2].

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام، يقول صعصعة بن صوحان وغيره من شيعته وأصحابه: «كان فينا كأحدنا، لين جانب، وشدّة تواضع، وسهولة قياد، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسّياف الواقف على رأسه»[3].

---

(١) مريم: ٩٦.

(٢) سنن ابن ماجة: ١١٠١/٢، ح/٣٣١٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

والحسين عليه السلام تجلّت هذه الظاهرة في حياته وبعد شهادته، فحين وصل إلى مكة أقبل الناس عليه، يقول ابن كثير: «فعكف الناس على الحسين، يفدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه...»[١].

ويقول العلايلي: «ومما لا اختلاف فيه بين الرواة أنّ الحسين عليه السلام كان محبّباً إلى كلّ نفس، مصطفى بين كلّ قبيل، وزادت به جاذبيته إلى الناس أنّهم غدوا يقدّسونه تقديساً، وينظرون إليه بالنظر الذي هو فوق اعتبارات الناس»[٢].

وسحر جاذبية الحسين عليه السلام كانت تشدّ الناس إليه، وتسيطر عليهم، ولا عجب من ذلك؛ فإنّه ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو خير خلق الله بعد جدّه وأبيه، وخليفة رسول الله، جسّد الإسلام في قوله وفعله، وتخلّق بأخلاق الله تعالى، حتى أصبح مظهراً من مظاهر رحمة الله في الأرض.

وهذه الجاذبيّة هي التي جذبت إليه زهير بن القين الذي قضى حياته عثماني الهوى، وخرج من الكوفة؛ لئلا يبتلي بحربه، ولكن ما أن يلتقيه الحسين عليه السلام حتى يبعث فيه الحياة الرساليّة، وتثور في نفسه روح التضحية والفداء، ويعود مستبشراً قد أشرق وجهه، وقد صمّم على المضيّ معه، والاستشهاد تحت رايته.

وتستمرُّ هيبة الحسين عليه السلام مسيطرة على النفوس حتى وهو صريع يعاني من جراح السيوف، وطعن الرماح، وقد وَصَفَ عظيمَ هيبتِهِ بعضُ الجلادين من شرطة ابن زياد فقال: «... وإنه ليجود بنفسه، فوالله ما رأيت أحسن منه، ولقد

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٦٢/٨.

(٢) العلايلي، الإمام الحسين: ١١٨.

شغلني نور وجهه، وجمال هيبته عن الفكرة في قتله»[١]، وكما يصف الكعبي[٢]:

[من الكامل]

ومجـرّح مـا غيـرت منـه القنـا حسـناً ولا أخلقـن منـه جديـدا
قد كان بدراً فاغتدى شمس الضحى مـذ ألبسـته يـد الـدماء لبـودا

بل وأكثر من هذا حتى المجرم ابن زياد لما جيء إليه برأس الحسين، قال: «ما رأيت مثل حسن هذا الوجه قطّ»، فقال له أنس بن مالك منكراً: «إنّه كان يشبه النبي صلى الله عليه وآله»[٣].

وعندما عرض رأس الحسين عليه السلام على يزيد، قال: «ما رأيت وجها قطّ أحسن منه»، فقيل له: «إنّه كان يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤].

ولما تشرّف عبيد الله بن الحر الجعفي بلقاء الإمام عليه السلام قال: «وما رأيت أحداً قطّ أحسن، ولا أملأ للعين من الحسين»[٥].

ولم تتوقّف جاذبية الحسين عليه السلام حتى بعد أن اختفى جسداً، تألّق روحاً، وفكراً، ورمزاً لكلّ ثوّار الحقّ في العالم، وألقى الله في قلوب الناس- أعداء ومحبين- حبَّه، وإحياء ذكره حتى في بيوت أعدائه وقاتليه، يقول الطبري: «ثم أمر [يزيد] بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة، معهنّ ما يصلحهنّ، وأخوهنّ معهنّ علي بن الحسين عليه السلام، في الدار التي هنّ فيها، قال: فخرجن حتى دخلن

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان: ٧٥.
(٢) ديوان الكعبي: ٦٤.
(٣) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف: ٤٢١/٣.
(٤) المصدر نفسه: ٤١٧/٣.
(٥) البغدادي، خزانة الأدب: ١٥٨/٢، وحياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي: ٣٧/١.

دار يزيد، فلم تبقَ من آل معاوية امرأةٌ إلا استقبلتهنّ تبكي وتنوح على الحسين عليه السلام، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً»[١].

«ثم أدخل نساء الحسين على يزيد، فصاح نساء آل يزيد، وبنات معاوية، وأهله ووَلْوَلْنَ، ثم إنّهن أدخلن على يزيد، فقالت فاطمة بنت الحسين - وكانت أكبر من سكينة -: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد! فقال يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره، قالت: والله ما ترك لنا خُرْص[٢]»[٣].

وأظنّ أنّ هذا المقطع الأخير غير صحيح؛ فليس من المعقول أن تطالب بحلية سلبت، ولا تُقرّع يزيد وتوبّخه، وما قيمة الحليّ الذي سلبه جلاوزة يزيد حتى تطالب به، مع أنّهن لما رأيْنَ اللّطف من الرجل الذي أرسله يزيد، لإيصالهن إلى المدينة جمعن حليّهن، وأرسلنه إليه، يقول الحارث بن كعب: «قالت لي فاطمة بنت علي عليه السلام: قلت لأختي زينب: قد وجب علينا حقٌّ هذا؛ لحسن صحبته لنا، فهل لك أن نصله؟ فقالت: والله ما لنا ما نصله به إلا أن نعطيه حليّنا، فأخذت سواري ودملجي أو سوار أختي ودملجها، فبعثنا بها إليه واعتذرنا من قلّتها، وقلنا: هذا بعض جزائك؛ لحسن صحبتك إيّانا، فقال: لو كان الذي صنعته للدّنيا كان في دون هذا رضاي، ولكن والله ما فعلته إلا لله، وقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤].

فكيف يعقل أنّ بنات الرسالة تطالب بحليّها مع أنّها تتبرّع به لمن أحسن

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٢.

(٢) الخرص: حلقة القرط.

(٣) المصدر السابق: ٥/٤٦٤.

(٤) المحدث المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ١٤٦.

لها... ثم يقول الطبري: «ثم أخرجن فأدخلنَ دار يزيد بن معاوية، فلم تبقَ امرأةٌ من آل يزيد إلا أتتهنّ، وأقمْنَ المأتم»[1].

هكذا أراد الله أن يجعل من قتل الحسين عليه السلام حركةً في التأريخ الإنساني، ويفرض وجوده، ويغرس حبَّه حتى في قلوب أعدائه... وبهذه الإرادة الإلهية استمرَّت حركة الحسين عليه السلام رغم ضغط الطغاة، ومحاولتهم إطفاء نور الله بمختلف الأساليب حتى هدموا قبر الحسين عليه السلام عدّة مرات، إلا أنّه استمرّ إلى اليوم ناراً محرقة للظالمين، وصاعقة تتحدّى الطغاة، تحرّك الضمائر، والعقول، والنفوس... فقد سلك بنو أمية أساليب مختلفة لتشويه نهضته المباركة، منها أنّهم جعلوا يوم عاشوراء يوم بركة يحتفلون به كما تقدم ذكره.

(١) تاريخ الطبري: ٤٦٤/٥.

لِماذا حَمَلَ الحُسَيْنُ عليه السلام

النّساءَ وَالأطْفالَ مَعَهُ؟

لم يكن تخطيط الحسين عليه السلام في ثورته منحصراً في محيطه الاجتماعي الذي يعيشه، بل ولا لزمانه فقط، وإنّما وضع خطّة تمتدّ عبر الزمن إلى يوم القيامة، ولا يمكن أن تتوقَّف في يوم ما، ولعلَّ هذا مدلول الحديث المأثور: «إنّ لِقَتْلِ الحُسَين حَرارَةً في قُلوبِ الْمؤمِنينَ لا تَبْردُ أبَداً»...

إنّ التخطيط الإلهي في هذه الحركة المباركة التي أنعشت الإسلام، وأعادت للأمّة حيويتها، وبعثت فيها روح الرفض والثورة على الظالمين في كلّ زمان ومكان... هذا التخطيط يشتمل على بعد غيبي واضح من خلال إخبار الرسول صلى الله عليه وآله عن مقتل الحسين عليه السلام، وبكائه والحسين لم يزل طفلاً رضيعاً، وإخبار أمير المؤمنين عليه السلام عند مروره بأرض كربلاء بمقتل العترة الطاهرة وبكائه، كلّ ذلك يؤكّد استمراريّة هذه الثورة بتخطيط خارج عن التصوّرات المحدودة في محيطها...

لقد أراد الحسين عليه السلام إحداث تغييرات جوهريّة في محيطه ومجتمعه، والنظام السياسي القائم آنذاك، بل في العالم أجمع، وعلى طول حركة التأريخ إلى يوم الدين، هذه الحقيقة خفيت على كثيرين؛ سواء كانوا من المشفقين الذين بذلوا قصارى جهدهم؛ ليثنوا الحسين عليه السلام عن الخروج، وسواء من قبل المداهنين للسلطة، وحتى الأعداء الذين راحوا يلومون الحسين عليه السلام على

خروجه، ومجازفته بحمل العيال نساء وأطفالاً، وتصوّروا أنّه لم يفكّر بمصيره، ومصير أهل بيته، وما سوف يتحمّلونه من مشاق ومعاناة ومرارات لا نظير لها في التأريخ، بل خفيت تلك الحقيقة على كثيرين من الكتّاب المعاصرين الذين أرادوا أن يفسّروا ثورة الحسين عليه السلام تفسيراً سياسياً مجرّداً عن بعده الغيبي، وجهلوا أنّ الحسين عليه السلام ذخيرة الله في الأرض، ادّخره الله لرسالته؛ ليعيد للإسلام أصالته، وينسف كلّ ما بناه الظالمون من عروش خاوية، وما ابتدعوه من نظريات تخالف الإسلام رغم تلبّسها في ثوبه؛ وليبطل كلّ ما سنَّه حكّامُ الجور من بدع، وألحقوها بالإسلام كذباً وزوراً؛ ليبرّروا مواقفهم، وقد كان يعلم أنّ هذا لا يتحقّق إلا بالتضحية الجبّارة التي تكلّفه نفسه، ونفوس أبنائه، وأصحابه المخلصين، الذين هم الثلّة الباقية التي تحمل أصالة الإسلام، ونقاءه، وشموله.

كلّ ذلك كان الحسين عليه السلام يخطّط له على المدى الطويل، وليبقى حركة ثوريّة واعية تحطّم عروش الظالمين في كلّ زمان، ولتضلّ صرخة مدوّية في ضمائر الأحرار... لتعود للإسلام حيويته، وحركته، وفاعليته في النفوس.

وكان عليه السلام على وضوح تام بالمخطّط الأموي الذي كان يهدف دفن الإسلام إلى الأبد بدفن الحسين، وإخفاء ذكره؛ لتخلو لهم الساحة في تنفيذ المخطّط بصورة كاملة...

ولذا جعل حركته المباركة في فصول ممرحلة؛ يبدأ الفصل الأول في المدينة، وينتهي في كربلاء يوم عاشوراء، وقد تمَّ ذلك بدقّة متناهية حيث حذّر الأمة، ونبَّهها على الخطر المحدق بالإسلام من خلال خطاباته في مكّة، وفي الطريق، وفي كربلاء... فأوقد الشرارة الأولى في العرش الأموي.

وبقي الفصل الثاني من الثورة، وهو فصل يتضمّن إظهار الجريمة الكبرى

التي ارتكبها الحزب الأموي، وبيان أبعادها الفظيعة، وأهدافها الخطيرة، وتوضيح مكانة الحسين عليه السلام وأهداف ثورته؛ لتؤدّي دورها بعد ذلك، وتفعل فعلها من خلال شاهد حيّ عاش الواقعة بكلّ تفاصيلها، وهذا الدور لا يمكن لأحدٍ أن يقوم به لما تكتنفه من مخاطر تضحويّة جمّة، وما يتطلّب من روح ملتهبة بالحماس، والثورة، والرفض لتتحدّى الظالمين في قلاعهم رغم قسوتهم.

ولهذا لا بدّ أن ينطلق خطابه من حناجر متفانية في سبيل الله، وصادقة بكلّ ما تقول وتفعل، ومتحمّسة في خطابها وبيانها بدون خوف، ولا تردّد، وشاهدة على فظاعة الجريمة، وما تنطوي عليه من أبعاد خطيرة على مستقبل الإسلام... وليس لذلك أهلٌ إلا الحناجر المحمّدية العلوية المعدّة مسبقاً لهذه المهمة... وإلا هل من أحد يستطيع أن يتحدّى ابن زياد وطغيانه الذي يأخذ الناس بالظّنّة والشبهة، والبريء بالمتّهم ليحكم سيطرته... لا يمكن أن يقوم بذلك أحدٌ إلا آل محمد عليهم السلام، ولم يحدّثنا التأريخ عن أحد استطاع أن يتحدّى ابن زياد بعد قتل الحسين عليه السلام إلا عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ردَّ عليه حينما صعد المنبر بعد جريمته النكراء وقال: «الحمد لله الذي أظهر الحقَّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين، وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته».

فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، وكانت إحدى عينيه ذهبت يوم الجمل والأخرى يوم صفين مع علي عليه السلام، وقال: «يا ابن مرجانة، إنّ الكذاب أنت وأبوك، والذي ولاك، أتقتلون أولاد النبيين، وتتكلّمون بكلام الصديقين؟!»[1].

لم يقل أكثر من هذا فكان مصيره القتل والتمثيل رغم وقوف عشيرته إلى

(١) ابن نما، مثير الأحزان: ٩٢.

جانبيه، فمن يجرأ أن يفوه بكلمة بعد هذا؟!

كلّ ذلك كان واضحاً للحسين عليه السلام إذ استقدم بني أميّة على أشنع جريمة، ثم تُسخر كلّ إعلامها لدفنها، وبذلك تذهب دماء آل الرسول هدراً، ولا تحدث في الأمة هزّة ضمير؛ لذا خطّط الحسين عليه السلام لذلك، فأعدّ أهل بيته لتلك المهمة الثقيلة، وليس لذلك إلا بنات الرسالة اللواتي أُعددن إعداداً خاصّاً، ولا سيما زينب الحوراء عليها السلام قائدة المسيرة بعد الحسين عليه السلام، ممثلة للإمام السجاد عليه السلام، وقد أدّت دورها بأفضل ما يمكن في بيان وقائع المعركة، وأهداف الحزب الأموي في هذه الجريمة النكراء بصورة مفصّلة، وفي كلّ مكان حلّت فيه، بخطابات نارية أشعلت نار الثورة في قلوب المسلمين بينما هي أسيرة تقاد من بلد إلى بلد تحيط بها جلاوزة ابن زياد من كلّ حدبٍ وصوب، إلا أنّها كانت تحمل قلب أبيها بين جنبيها، فانطلقت كالبركان يحرق ما حوله، استمع لها وهي تخاطب أهل الكوفة مقرّعة ومندّدة:

«ويلكم، يا أهل الكوفة، أتدرون أيّ كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله فريتم، وأيّ دم له سفكتم، وأيّ كريمة له أبرزتم، وأيّ حريم له أصبتم، وأيّ حرمة له انتهكتم؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[1]، إنَّ ما جئتم بها لصلعاء، عنقاء، سوداء، فقماء، خرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، وملاء السماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً؟ ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى، وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنّكم المهل فإنَّه عز وجل لا يحفزه البدار،

(١) مريم: ٨٩-٩٠.

ولا يخاف فوت الثار، كلا إنَّ ربكم لبالمرصاد، فترقبوا أوّل النحل[١] وآخر صاد[٢]»[٣].

وقد كان لهذا الخطاب وقعٌ كوقع الصاعقة على نفوس الناس، يقول الراوي: «فوالله، لقد رأيتُ الناس يومئذٍ حيارى، كأنَّهم كانوا سكارى، يبكون ويحزنون، ويتفجّعون ويتأسّفون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم»، قال: «ونظرت إلى شيخ من أهل الكوفة، كان واقفاً إلى جنبي، قد بكى حتى اخضلّت لحيته بدموعه، وهو يقول: صدقتِ، بأبي وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبّانكم خير الشبان، ونساؤكم خيرُ النسوان، ونسلكم خير نسل، لا يخزى ولا يبزى[٤]»[٥].

وما أن انتهت الحوراء من خطابها حتى قامت فاطمة بنت الحسين عليه السلام فقالت: «الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش إلى الثرى، أحمده وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا اله إلا الله، وأنَّ محمدا عبده ورسوله، وأنَّ [ولده] ذبحوا بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات»...

إلى أن تقول: «إنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم، وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً، وجعل علمه عندنا، وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، أكرمنا بكرامته، وفضّلنا بمحمد نبيه صلى الله عليه وآله على كثير ممن خلق تفضيلاً، فكذّبتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً وأموالنا نهباً، كأنّا أولاد ترك أو كابل، فلا تدعونّكم أنفسكم إلى الجذل بما

---

(١) أي: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

(٢) أي ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينٖ﴾.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٤٥/٢-٤٧.

(٤) يبزى: أي لا يقهر، من بزاه يبزوه قهره.

(٥) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٤٧/٢، ومثير الأحزان لابن نما: ٨٦، مع اختلاف بالعبارات.

أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فكأنَّ العذاب قد حلَّ بكم، وأتت نقمات، ألا لعنة الله على الظالمين.

تباً لكم يا أهل الكوفة، أي ترات لرسول الله صلى الله عليه وآله قبلكم، وذحول له لديكم بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب.

وافتخر مفتخر فقال:

نحن قتلنا علياً وبني علي بسيوف هندية ورماح
وسبينا نساءه سبى ترك ونطحناهم فأي نطاح

بفيك الكثكث والأثلب[1] افتخرت بقتل قوم زكّاهم الله في كتابه، وطهّرهم وأذهب عنهم الرجس، فاقع كما أقعى أبوك، وإنّما لكل امرئ ما اكتسب، أحسدتمونا على ما فضل الله به؟»[2].

وقد أوضحتا في هذا الخطاب البليغ عِظم الجريمة التي تستّر عليها النظام، وكشفتها العائلة النبوية التي اتّضح دورها، وتبيّن من خلالها سرّ حمل الحسين عليه السلام لهذه العائلة المباركة.

ثم خطب الإمام السجاد عليه السلام في تلك الحشود، وكشف هوية السبايا التي أشاع الإعلام الأموي بأنّهم من الخوارج، فقال: «أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل، ولا ترات، أنا ابن من انتهك حريمه، وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن من قتل صبراً، وكفى

(١) الكثكث والأثلب: كلمتان مترادفتان، ومعناهما: دقائق الحصى والتراب.

(٢) مثير الأحزان: ٨٧-٨٨.

بذلك فخراً»[١].

ونحن نلاحظ أنّ هذه الخطابات الملتهبة كانت تركّز على كشف هوية المستشهدين والمسبّبين؛ لأنّ النظام حاول أن يتستّر على جريمته، وأشاع أنّ هؤلاء خارجون عن الشريعة والقانون، كما ركّزت على كشف فظاعة الجريمة حتى تحوَّلت بمثابة صاعقة حرَّكت ذلك الجسم المخدّر في الأمة، وبعثت فيها الروح من جديد، ونفضت عنها غبار الغفلة.

وخير مثال على ذلك موقف الإمام السجاد عليه السلام مع شيخ من أهالي الشام دنا من نساء الحسين عليه السلام وعياله، وهم أقيموا على درج باب المسجد، (وقال: الحمد لله الذي قتلكم، وأهلككم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم.

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يا شيخ، هل قرأت القرآن؟ قال: نعم!

قال عليه السلام: فهل عرفت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٢].

قال الشيخ: قد قرأتُ ذلك!

فقال له عليٌّ عليه السلام: نحن القربى يا شيخ، فهل قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[٣].

فقال الشيخ: قد قرأت ذلك.

فقال عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت هذه الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم

(١) السيد ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٩ .

(٢) الشورى: ٢٣ .

(٣) الإسراء: ٢٦ .

﴿مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾[1]. قال: نعم.

فقال عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ، وهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]. قال الشيخ قد قرأت ذلك.

قال عليه السلام: نحن أهل البيت الذي خصّنا الله بآية الطهارة يا شيخ.

قال الراوي: بقي الشيخ ساكتاً نادماً على ما تكلَّم به، وقال: تالله إنّكم هم؟!

فقال علي بن الحسين عليه السلام: تالله إنّا لنحن هم من غير شكّ، وحقّ جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّا لنحن هم.

قال: فبكى الشيخ ورمى عمامته، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهُمَّ، إنّي إنّي أبرأ إليك من عدوّ آل محمّد من الجنّ والأنس.

ثم قال: هل لي من توبة؟ فقال عليه السلام له: نعم، إن تبتَ تاب الله عليك، وأنت معنا، فقال: أنا تائب.

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ، فأمر به فقتل)[3].

وهكذا استمرّوا على هذا المنوال من أوّل المسيرة إلى رجوعهم إلى المدينة وكان أشدّها حرارة خطاب الإمام السجاد عليه السلام في عسكر يزيد (لع) قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه: «أيها الناس، أعطينا ستّاً، وفضّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا بأنّ منا النبيّ المختار محمداً صلى الله عليه وآله، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنا أسد الله وأسد الرسول، ومنّا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنا سبطا هذه الأمة،

---

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١١-٢١٣.

وسيّدا شباب أهل الجنة، فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي: أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الزّكاة بأطراف الرّداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبى، أنا ابن من حُمل على البراق في الهوا، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السما، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن عليّ المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا اله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين.

أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين، ورسول رب العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرائيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله، سمح سخي، بهلول زكي، أبطحي رضي مرضي، مقدام همام، صابر صوام، مهذب

قوام، شجاع قمقام، قاطع الأصلاب، ومفرق الأحزاب، أربطهم جناناً، وأطبقهم عناناً، وأجرأهم لساناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدّهم شكيمة، أسدٌ باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب - إذا ازدلفت الأسنة، وقربت الأعنّة - طحن الرّحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وصاحب الإعجاز، وكبش العراق، الإمام بالنّص والاستحقاق، مكّي مدني، أبطحي تهامي، خيفي عقبي، بدريّ أحديّ، شجريّ مهاجريّ، من العرب سيّدُها، ومن الوغى ليثُها، وارث المشعرين، وأبو السبطين، الحسن والحسين، مظهر العجائب، ومفرّق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب، أسد الله الغالب، مطلوب كلّ طالب، غالب كلّ غالب، ذاك جدي علي بن أبي طالب.

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النّساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول...».

قال الراوي: «ولم يزل يقول أنا، أنا، حتّى ضجَّ الناس بالبكاء والنحيب».

واستمرّ عليه السلام في خطابه في كشف هوية السبايا على رؤوس الملأ حتى اضطرّ يزيد (لع) أن يقطع خطابه، فأوعز إلى المؤذن أن يؤذن ليوقف الإمام عليه السلام عن خطابه؛ إلاّ أنّ الإمام عليه السلام استغلّ فرصة الأذان لبيان حقائق العقيدة الإسلامية، ونسف ما روّجه الأمويّون من عقائد فاسدة كالتجسيم والتشبيه فلما قال المؤذن: «الله أكبر»، قال عليه السلام: «كبّرت كبيراً لا يقاس، ولا يدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله»، ولما قال: «أشهد أن لا إله إلاّ الله»، قال الإمام عليه السلام: «شهد بها شعري، وبشري، ولحمي، ودمي، ومخّي، وعظمي»، ولما قال: «أشهد أن محمّداً رسول الله»، التفت الإمام عليه السلام إلى يزيد (لع)، فقال: «يا يزيد محمّداً هذا جدي أم جدك؟ فإن زعمتَ أنه جدّك فقد كذبتَ، وإن قلتَ أنّه جدي فلِمَ قتلتَ

عترته؟»[١].

وهكذا أوضح الإمام عليه السلام حقيقة الأمر، وأثَّر تأثيراً بالغاً كشف به حقيقة السبايا، وأكاذيب وتمويهات بني أميّة، فهزَّ النفوس، وأيقظ الضمائر، وأحدث تغييراً في الوسط الشامي.

والموقف الآخر هو الذي انبرت فيه زينب الحوراء عليها السلام في عسكر يزيد (لع) حيث قالت:

«الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمد وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾[٢].

أظننتَ يا يزيد - حيث أخذتَ علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء - أنَّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامةً!! وأنَّ ذلك لعظيم خطرك عنده!! فشمختَ بأنفك، ونظرتَ في عطفك، جذلاً مسروراً، حين رأيت الدّنيا لك مُسْتوسِقَةً، والأمور مُتَّسِقَةً، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجلّ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾[٣].

أمِنَ العدل يا ابن الطّلقاء، تخديرك إماءك، ونساءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا؟! قد هتكت ستورهنَّ، وأبديت وجوههنَّ، تحدو بهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنَّ أهل المنازل والمناهل، ويتصفّح وجوههنَّ القريب والبعيد،

---

(١) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢/٧٦-٧٨.

(٢) الروم: ١٠.

(٣) آل عمران: ١٧٨.

والدنيّ والشريف، ليس معهنَّ من رجالهنَّ وليّ، ولا من حماتهنَّ حميّ.

وكيف تُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟!

وكيف يستظلّ في ظلّنا أهل البيت من نظر إلينا بالشّنف، والشّنآن، والإحن، والأضغان؟!

ثم تقول غير متأثّم ولا مستعظم:

فأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تُشلْ

منتحياً على ثنايا أبي عبد الله عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك.

وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريّة محمّد صلى الله عليه وآله، ونجوم الأرض من آل عبد المطّلب؟! وتهتف بأشياخك، زعمت أنّك تناديهم!

فلتردنَّ وشيكاً موردهم، ولتودَّنَّ أنّكَ شُللتَ وبُكمتَ، ولم تكن قلتَ ما قلتَ، وفعلتَ ما فعلتَ.

اللهُمّ، خذ بحقّنا، وانتقم ممن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله ما فريتَ إلا جلدك، ولا حززتَ إلا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحمّلت من سفك دماء ذرّيته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، وحيث يجمع الله شملهم، ويلمُّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1].

وحسبك بالله حاكماً، وبمحمّد صلى الله عليه وآله خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك، ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلاً، وأيّكم شر مكاناً، وأضعف جنداً.

ولئن جرت عليَّ الدَّواهي مخاطبتكَ، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصّدور حرّى .

ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشّيطان الطّلقاء! فهذه الأيدي تنضح من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزّواكي تتناهبها العواسل، وتعفوها أمّهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنماً؛ لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدَّمَتْ يداك، وما ربّك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى، وعليه المعوّل.

فكِدْ كيدَكَ، واسعَ سعيَك، وناصِبْ جهدَك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها.

وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المناد: ألا لعنة الله على الظالمين.

فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة.

ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنَّه رحيمٌ ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[2].

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٥-٢١٨.

ولمّا أحسّ يزيد (لع) بردّ الفعل الشعبي ندم على فعلته، وتمنّى لو لم تقع تلك الواقعة، فراح يلقي اللوم على ابن زياد، ويقول: «قبَّح الله ابن مرجانة، لو كان بينكم وبينه قرابة رحم ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم على هذه الصورة»[١].

كما اتّضح من خطاب الحوراء زينب عليها السلام أنّ المشروع الأموي كان يهدف إلى محو الإسلام من جذوره، إلاّ أنّها أكدت على رؤوس الملأ بأنَّ هذا الدين لا يمكن أن يمحى ولا يموت مهما بذلت الحكومات الطاغية من جهود، فقالت: «فكِدْ كيدَكَ، واسعَ سعيَك، وناصِبْ جهدَك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا».

وهذا ما خفي على المنكرين على الحسين عليه السلام من حمل النساء والأطفال، الذين لم يدركوا الحقيقة الحسينية، ولم يدركوا البعد الرسالي فيها، والعجب أن يخفى ذلك على أمثال محمّد بن الحنفية، وابن عباس... الخ؛ ولذا حين سألوا الحسين عليه السلام عن السرّ في حمل النساء والأطفال أجابهم جواباً مختصراً بقوله: «إنّ الله قد شاء أن يراهُنّ سبايا»[٢].

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ١٢٠/٢ .

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨ .

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم، كتاب الله تعالى.

٢- إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد بن طاهر السماوي، تحقيق: الشيخ محمد جعفر الطبسي، مركز الدراسات الإسلامية لحرس الثورة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣- الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي، الدكتور علي محمد النقوي، المترجم: عبد الكريم محمود، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٤- الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٥- الأخبار الطوال، أحمد بن داود الدينوري (٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٢هـ.

٦- اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي، تصحيح وتعليق: المعلم الثالث: مير داماد الأسترابادي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤هـ.

٧- الآداب المعنوية للصلاة، الإمام الخميني، ترجمة: العلامة أحمد الفهري، دار طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٨- أدب الطف أو شعراء الحسين، السيد جواد شبر، دار المرتضى، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٩- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٠- الاستذكار، ابن عبد البر (٤٦٣هـ)، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، دار الوغى، حلب-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (٦٣٠هـ)، تحقيق وتعليق: محمد ابراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.

١٣- الإسلام يقود الحياة، الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، الناشر، دار الصدر، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٤- أسمى الفرائض وأشرفها، علي الكوراني، مطبعة نمونة، قم المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٥- الأصول من الكافي، ثقة الإسلام الكليني (٣٢٩هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، دار صعب، ودار التعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ.

١٦- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، حققه وأخرجه: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، د. ت.

١٧- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، شرحه وكتب هوامشه: الأستاذ عبد علي مهنا، والأستاذ سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

١٨- اقتصادنا، الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، الناشر، دار الصدر، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٩- أمالي الصدوق، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق (٣٨١هـ)، قدم له: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٢٠- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: الأستاذ علي شيري، منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢١- الإمام الحسين بن علي عليه السلام، الدكتور محمد بيومي مهران، نشر بيام العترة، ايران، ١٤٢٠هـ.

٢٢- الإمام الحسين عليه السلام في المدينة المنورة، علي الشاوي، مركز الدراسات الإسلامية، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

٢٣- الإمام الحسين عليه السلام في مكة المكرمة، الشيخ نجم الدين الطبسي، مركز الدراسات الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٤- الإمام الحسين عليه السلام، عبد الله العلايلي، دار مكتبة التربية، بيروت،

١٩٧٢م.

٢٥- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٢٦- أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢٧- بحار الأنوار، المحدث محمد باقر المجلسي (١١١١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٢هـ. ش.

٢٨- البدائع، الشيخ محمد تقي التستري، مكتبة الصدوق، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٦٣هـ. ش.

٢٩- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٠- بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٨٠هـ)، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدسة.

٣١- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

٣٢- التاج في أخلاق الملوك، الجاحظ، تحقيق: أحمد زكي باشا.

٣٣- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .

٣٤- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، حققه وقدم له وخرج آياته: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٥- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

٣٦- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت، د.ت.

٣٧- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٨- التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة الطوسي (٤٦٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٣٩- تجارب الأمم، مسكويه الرازي، (٤٢١هـ)، حققه وقدم له: الدكتور أبو القاسم إمامي، دار سروش للطباعة والنشر، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٤٠- تحرير الوسيلة، الإمام الخميني، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ.

٤١- تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، منشورات المكتبة والمطبعة الحيدرية في النجف، الطبعة الخامسة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

٤٢- تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ)، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

٤٣- ترتيب الأمالي، محمد جواد المحمودي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ.

٤٤- تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي، المحقق:

مصطفى الدرايتي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدسة، الطبعة الأولى.

٤٥- تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٤٦- تفسير العياشي، المحدث محمد بن مسعود ابن عياش، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٤٧- التفسير الكبير، الفخر الرازي، الطبعة الثالثة، د.ت.

٤٨- تفسير من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤٩- تقويم الشعائر الحسينية، من وحي الثورة وفتاوى الإمام السيستاني، شعبة النشر في قسم الإعلام في العتبة الحسينية المقدسة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٥٠- التوحيد، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: المحقق البارع: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٣٩٨هـ.

٥١- ثقافة الدعوة الإسلامية، منشورات «الدعوة الإسلامية»، المركز الإسلامي للدراسات السياسية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٥٢- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٤هـ. ش.

٥٣- ثورة الحسين عليه السلام ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، الشيخ

محمد مهدي شمس الدين، دار المثقف المسلم، قم، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٥٤- ثورة الحسين عليه السلام في الوجدان الشعبي، محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٥٥- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٥٦- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطايش، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٥٧- جمل من أنساب الأشراف، يحيى بن جابر البلاذري (٢٧٩هـ)، حققه وقدم له: الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض الزركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٥٨- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، الشيخ محمد حسن النجفي (١٢٦٦هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٥٩- جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، ابن الدمشقي (٨٧١هـ)، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٦٠- الحرب النفسية، صلاح نصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

٦١- الحركة الإسلامية هموم وقضايا، السيد محمد حسين فضل الله، منتدى جبل عامل، قم المقدسة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

٦٢- الحسين أبو الشهداء، عباس محمود العقاد، من ضمن «المجموعة الكاملة» له، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

٦٣- الحسين في الفكر المسيحي، د. أنطون بارا، دار العلوم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٦٤- الحسين وبطلة كربلاء، محمد جواد مغنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٣م.

٦٥- الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه)، الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني رحمه الله، طهران، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

٦٦- حياة الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي، انتشارات مدرسة الإيرواني، قم، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٦٧- الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (٥٧٣هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٦٨- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي (١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٦٩- الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسي، دار الإمام الحسن عليه السلام، قم، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٧٠- ديوان ذي الرمة (١١٧هـ)، شرح أحمد بن حاتم الباهلي، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٧١- ديوان السيد الحميري، شرحه وضبطه وقدم له: ضياء حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٧٢- ديوان السيد حيدر الحلي، حققه: علي الخاقاني، منشورات: مؤسسة

الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٧٣- ديوان السيد رضا الهندي وأبنائه، إعداد: السيد هادي حسين الموسوي، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ

٧٤- ديوان العلامة الشيخ محمد علي الأعسم (١٢٣٣هـ)، تقديم وتعليق: عبد الرزاق الأعسم، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف.

٧٥- ديوان الكعبي (قسم المراثي الحسينية)، الحاج هاشم الكعبي، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

٧٦- ديوان المديح والرثاء في محمد وآل بيته النجباء، السيد سلمان آل طعمة، مؤسسة الفكر الإسلامي.

٧٧- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٧٨- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين الطبري (٦٩٤هـ)، حققه وعلق عليه: أكرم البوشي، الطبعة الأولى.

٧٩- روضة الواعظين، الفتال النيسابوري (٥٠٨هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، د.ت.

٨٠- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري (٤٥٣هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٨١- زينب الكبرى، جعفر النقدي، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه:

علي الخاقاني، مطبعة الزهراء في النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٧م.

٨٢- سحر بابل وسجع البلابل، السيد جعفر الحلي، تحقيق: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٨٣- سفير الحسين مسلم بن عقيل، عبد الواحد المظفر، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٨٤- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، المحدث الشيخ عباس القمي، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ.

٨٥- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (٢٥٧هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.

٨٦- السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام، الشيخ باقر شريف القرشي، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٨٧- السيدة زينب عقيلة بني هاشم عليها السلام، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، منشورات الشريف الرضي، قم.

٨٨- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٨٩- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت، د.ت.

٩٠- الشّاب بين العقل والعاطفة، الشيخ محمد تقي الفلسفي، تعريب السيد نور الدين ميرزاده، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة

الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٩١- شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (١٠٨٩هـ)، مع تعاليق الميرزا أبو الحسن الشعراني، المكتبة الإسلامية، طهران.

٩٢- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان المغربي (٣١٣هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٩٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

٩٤- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني (٦٧٩هـ)، مركز التبليغات الإسلامية، قم، ١٣٦٢هـ.

٩٥- الشعائر والشعارات الحسينية، الشيخ محمد مهدي الآصفي، مجمع أهل البيت عليهم السلام، النجف، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

٩٦- شهادة الإمام الحسين عليه السلام، الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، جمع وترتيب: السيد حسين نجيب محمد، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٩٧- الشهادة تأصيل لا استئصال، مكّي قاسم البغدادي، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٩٨- الشهيد مسلم بن عقيل، السيد عبد الرزاق المقرم، دون ذكر دار النشر وتاريخه.

٩٩- شهداء الفضيلة، الشيخ عبد الحسين الأميني، دار الشهاب، قم، د.ت.

١٠٠- الشيعة والحاكمون، محمّد جواد مغنية، دار ومكتبة الهلال، دار

الجواد، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

١٠١- الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٠٢- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٠٣- صحيح سنن الترمذي، للحافظ محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٠٤- صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، مسلم بن الحجاج النيسابوري، طبعة مصححة ومحققة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د. ت.

١٠٥- صحيفة لواء الصدر.

١٠٦- صفحات لوفت الفراغ، محمد جواد مغنية، دار الجواد، دار التيار الجديد، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م .

١٠٧- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، احمد بن حجر الهيثمي (٩٧٤هـ)، دار الطباعة المحمدية، حققه: عبد الوهاب عبد اللطيف، درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة.

١٠٨- العباس بن علي عليه السلام رائد الكرامة والفداء في الإسلام، الشيخ باقر شريف القرشي، دار الكتاب الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٠٩- العباس ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عبد الرزاق الموسوي المقرم، مكتبة الألفين، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ،

١٩٨٦م.

١١٠- العقد الفريد، ابن عبد ربه (٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١١- علل الشرائع، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، انتشارات كلمة الحق، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١٢- العواصم من القواصم، أبو بكر ابن العربي (٥٤٣هـ)، تحقيق وتخريج: محمود مهدي الاستانبولي، والشيخ محب الدين الخطيب، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ.

١١٣- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، عني بتصحيحه وتذييله: الأستاذ الفاضل السيد مهدي الحسيني اللاجوردي، قم الطبعة الثانية، ١٣٦٣هـ. ش.

١١٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، راجعه: محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

١١٥- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ (٨٥٥هـ)، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

١١٦- فلاح السائل، السيد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، طهران، ١٣٨٢هـ.

١١٧- في رحاب السيدة زينب، محمد بحر العلوم، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١١٨- في رحاب عاشوراء، آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي، مجمع

أهل البيت عليهم السلام في العراق، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١١٩- في ظلال الطف، محاضرات الشيخ محمد مهدي الآصفي، بقلم الشيخ حسين الربيعي، دار الكرام، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٢٠- في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

١٢١- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، تحقيق ونشر: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٢٢- كامل الزيارات، ابن قولويه القمي (٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، مؤسسة: نشر الفقاهة.

١٢٣- الكامل في التأريخ، ابن الأثير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

١٢٤- كتاب الأمالي، شيخ الطائفة الطوسي (٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: بهراد الجعفري، وعلي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.ش .

١٢٥- كتاب الخصال، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ١٤٠٣هـ.

١٢٦- كتاب سليم بن قيس الهلالي (٧٦هـ)، تحقيق: الشيخ محمد باقر الأنصاري الزنجاني، منشورات دليل ما، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

١٢٧- كتاب الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي (٣١٤هـ)، تحقيق: علي

شيري، دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٢٨- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، رتبه وضبطه وصححه: مصطفى حسين أحمد دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٢٩- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن الأربلي (٦٩٢هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٣٠- كنز العمال في سنين الأقوال والأفعال، المتقي الهندي (٩٧٥هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٣١- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.

١٣٢- لواعج الأشجان في مقتل الحسين عليه السلام، السيد محسن الأمين، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ.

١٣٣- مباحث الأصول، تقريراً لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، السيد كاظم الحسيني الحائري، مطبعة مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٣٤- مبعوث الحسين عليه السلام، محمد علي عابدين، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرف، ١٤٠٨هـ.

١٣٥- مثير الأحزان، ابن نما الحلي (٦٤٥هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.

١٣٦- مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي (١٠٦٥هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٦٢هـ. ش.

١٣٧- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٣٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

١٣٩- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ابن منظور (٧١١هـ)، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، روحية النحاس، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٤٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن المسعودي (٣٤٦هـ)، حققه: أمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٤١- مدينة المعاجز، معاجز آل البيت عليهم السلام، السيد هاشم البحراني، مؤسسة النعمان، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٤٢- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري (١٣٢٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٤٣- مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد، الشهيد الثاني الشيخ زين الدين العاملي (٩٦٥هـ)، مكتبة العرفان، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

١٤٤- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، الشيخ علي الطبرسي، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٤٥- معالم الفتن، سعيد أيوب، دار الكرام، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

١٤٦- معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤٠٥هـ.

١٤٧- معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين عليهما السلام، الشيخ محمد مهدي الحائري، منشورات صبح الصادق، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٤٨- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، عني بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ١٣٧٩هـ.

١٤٩- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

١٥٠- معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم الخوئي، منشورات مدينة العلم، قم، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٥١- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٥٢- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٥٣- مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي (٥٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ محمد السماوي، انتشارات أنوار الهدى، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

١٥٤- مقتل الحسين عليه السلام، السيد عبد الرزاق المقرّم، مكتبة آل علي عليه السلام، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٥٥- مقدمة في الإصلاح والتجديد للشعائر الحسينية، حسين بركة الشامي، دار الإسلام، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٥٦- المكاسب، الشيخ الأعظم الأنصاري (١٢٨١هـ)، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، مؤسسة دار الكتاب، قم، د. ت .

١٥٧- الملحمة الحسينية، الشهيد الأستاذ مرتضى مطهري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، مطبعة القدس، قم، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م.

١٥٨- الملهوف على قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، تحقيق وتقديم: الشيخ فارس تبريزيان الحسون، دار الأسوة للطباعة والنشر، طهران، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ.

١٥٩- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، تحقيق وفهرسة: الدكتور يوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

١٦٠- المنتخب في جمع المراثي والخطب، الشيخ فخر الدين الطريحي (١٠٨٥هـ)، انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

١٦١- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري، مؤسسة المنار، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

١٦٢- موسوعة الثورة الحسينية، محمد نعمة السماوي، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

١٦٣- موسوعة السياسة، الدكتور عبد الوهاب الكيالي، ومجموعة من الباحثين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.

١٦٤- موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني، تحقيق: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٥م.

١٦٥- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٦٦- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

١٦٧- نبذة من السياسة الحسينيّة، رسالة للإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء منشورة في مجلة تراثنا، العدد المزدوج ٧٩-٨٠.

١٦٨- نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم عليه السلام، المحدث الشيخ عباس القمي، تحقيق: الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ١٤٠٥هـ.

١٦٩- نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعه الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، تحقيق: السيد هاشم الميلاني، العتبة العباسية المقدسة، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٧٠- نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد تقي التستري، منشورات مكتبة الصدر، طهران، د.ت.

١٧١- نهضة الحسين عليه السلام، السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

١٧٢- نهضة عاشوراء في كلام الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٧٣- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (٧٣٣هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

١٧٤- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الحر العاملي (١١٠٤هـ)،

تحقيق: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٧٥- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

الفهرست:

التقديم ٧
المقدمة ٩

الفصل الأول

مواقف ومواقع في ثورة الحسين عليه السلام ١٥
ماذا فعل الحسين عليه السلام في مواجهة مخططات معاوية؟ ٢٢
موقف الوليد ٢٧
موقف الحسين عليه السلام ٢٧
في الطريق إلى مكة ٣٢
مع عبد الله بن مطيع ٣٣
نشاطات الحسين عليه السلام من مكة ٣٥
لماذا لم يبقَ الحسين عليه السلام في مكة ٣٧
المناطق التي مرَّ بها الحسين عليه السلام ٤٣
نبأ استشهاد مسلم بن عقيل ٤٩

الفصل الثاني

دوافع ثورة الحسين عليه السلام ٥٥
موقف الحسين عليه السلام ٦٨
الموقف من الحاكم الظالم ٧٥

كيف راجت نظرية الركون إلى الظالم ٨١
ثورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٩
معنى المعروف والمنكر ٩٤
أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩٤
لماذا كل هذا؟ ٩٥
آثار ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩٨
خصال الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ١٠٢
مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١١٠

الفصل الثالث

رسول الحسين عليه السلام ١١٥
المعالم القيادية في شخصية مسلم رحمه الله ١٢٠
لماذا فشلت مهمة مسلم رحمه الله؟ ١٢٦
التنوع القبلي والتعدد القومي ١٣١
خلفيات الحكّام في الكوفة ١٣٥
كيف هلك زياد بن سمية؟ ١٤٧
قصص من جرائمه ١٤٨
السياسة العلوية والسياسة الأموية ١٥٥

الفصل الرابع

من المنتصر الحسين عليه السلام أم يزيد؟ ١٧٣
ماذا حققت ثورة الحسين عليه السلام؟ ١٨٤

الفصل الخامس

معالم شخصية أبي الفضل العباس عليه السلام.....١٨٩
مع أنصار الحسين عليه السلام.....١٩٩

الفصل السادس

دور الشباب في ثورة الحسين عليه السلام.....٢١٣
أهمية الشباب في الإسلام.....٢١٧
اهتمام الأمم والشعوب بمرحلة الشباب.....٢٢٤
دور قوى الاستكبار في إفساد الشباب.....٢٢٥
مسؤوليات المؤسسات الدينية.....٢٣٣
مسؤولية الشباب.....٢٣٤
مخاطر تداهم الشباب.....٢٣٤
الشباب في الطف.....٢٣٦
مثال الفتوة.....٢٤١
معنى الفتوة.....٢٤٣
دور المرأة في ثورة الحسين عليه السلام.....٢٥٣
الحوراء زينب عليها السلام.....٢٥٦
عالمة غير معلمة.....٢٦٠
مواقف مذهلة.....٢٦٤
اللهم تقبل منا هذا القربان.....٢٦٩
نساء أخريات شاركن في واقعة الطف.....٢٩٤

الفصل السابع

الأبعاد الرسالية في ثورة الحسين عليه السلام.....٣٠٥
عامل التبليغ في ثورة الحسين عليه السلام.....٣١٩
التحدي في ثورة الحسين عليه السلام امتداد للتحدي في حياة الرسول صلى الله عليه وآله.....٣٣٧

الفصل الثامن

فلسفة إحياء ذكرى ثورة الحسين عليه السلام.....٣٤٩
مدارس الحسين عليه السلام.....٣٦١
لماذا هذا التأكيد.....٣٦٩
بركة استشهاد الحسين عليه السلام.....٣٧٨
الشعائر الحسينية مدارس تغيير وإصلاح وبناء.....٣٨٥
أهمية الشعائر الحسينية.....٣٩٠
الوسائل الشرعية لإقامة المجالس الحسينية.....٣٩٢
الشروط اللازمة لإقامة الشعائر الحسينية.....٣٩٥
لِمَ نبكي الحسين؟.....٣٩٧
فلسفة البكاء على الحسين عليه السلام.....٤٠٧
أنواع البكاء.....٤٠٨
أبعاد البكاء الحسيني عند الإمام الخميني رحمه الله.....٤١١
ماذا تعلمنا من الحسين عليه السلام؟.....٤١٩
من هو الحسيني؟.....٤٢٩
سر الخلود في ثورة الحسين عليه السلام.....٤٣٧
كيف نتأسى بالحسين عليه السلام؟.....٤٥٣
لماذا التأسي؟.....٤٥٦

التأسي بالحسين عليه السلام..... ٤٥٨
كيف نتأسى بالحسين عليه السلام؟..... ٤٦١

الفصل التاسع

مفاهيم من وحي الحسين عليه السلام

الفتح الحسيني..... ٤٦٣
من نتائج الفتح الحسيني..... ٤٧١
لا ينال ما عند الله إلا بطاعته..... ٤٧٣
مفهوم الثورة في النهج الحسيني..... ٤٧٩
مواقف ثلاثة للحسين عليه السلام..... ٤٨٧
الناس عبيد الدنيا..... ٤٩٥
ولعباد الدنيا صفات..... ٥٠٠
من معالم شخصية الحسين عليه السلام..... ٥٠٣
دم الحسين عليه السلام صرخة في ضمير البشرية..... ٥١٧
المتخلفون عن ثورة الحسين عليه السلام..... ٥٢٥
بين الضحاك وزهير بن القين..... ٥٣٥
كيف نتواصل مع ثورة الحسين عليه السلام..... ٥٣٩
الخيارات المطروحة أمام الحسين عليه السلام..... ٥٤٥
أخلاقية المعسكرين..... ٥٥٥
جاذبية الحسين عليه السلام..... ٥٦٣
لماذا حمل الحسين عليه السلام النساء والأطفال معه؟..... ٥٧١

المصادر والمراجع ٥٨٧
الفهرست ٦٠٧